التَّلِيدُ والطَّارِفُ

شرح منظومة فقه التحولات وسُنَّة المَواقف

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾



بِقلمِ خادِمِ السَّلف

السَّيِّد أبي بكر العدني ابن علي المشهور

اسم الكتاب: التليد والطارف شرح منظومة فقه التحولات وسنة المواقف
اسم المؤلف: أبوبكر العدني ابن علي المشهور
الطبعة الثانية ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م (تحت التعديل)

بريد المؤلف : alhabibabobakr@gmail.com

الناشر
مركز الإبداع الثقافي للدراسات وخدمة التراث
الجمهورية اليمنية - عدن ٢٥١٠٨٩ ٩٦٧٢+ ص.ب . ٧٠٠١٤
www.goraba.com





بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١
وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢
وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣
وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤
حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلۡعَظِيمُ

الآيات ١–٥ من سورة القمر

الإهداء

للقدسِ..

للوادِيْ المقدسِ..

للقيودْ..

لحجارة الشعب الصَّمُودْ..

وإليكِ يا بغدادُ..

يا رمزاً عَنودْ..

وإلى الجنودْ..

جيشِ التَّوجُّهِ نحو أبوابِ المدائنِ..

والحدودْ..

وإلى الإمامِ المنتَظَرْ..

داعي الحشودْ..

والقادمينَ.. لأنهم أمَلُ الخلاصْ..

والوعدُ جاء.. ولا مَنَاصْ..

لا مَنَاصْ..

تبّاً لعَصْري ! تعلمونْ ؟!

المتخَمُونَ..

تَضَافَروا وبَنُوا القِلاعْ..

لحماية الكنـز الإلهْ..

بَاعُوا العُهودْ..

وشعوبُهُم صَارَت سُدُود..

خلف البنودْ..

صرنا غثاءً كالقرودْ..

والدِّينُ ملحمةُ الطغاةْ..

الله أكبرُ يا يهودْ..

يكفي قُعُود.. تكفي اجتماعاتُ الوفودْ..

سَئِمَتْ شُعُوبُ الوَحيِ مَهْزَلَةَ الوعودْ..

ورُغاءَ جَمْهَرَةِ الرُّوَاةْ..

لَكُمُ الحياةْ.. لكمُ الحياةْ..

لكمُ الترابُ مع المياه..

ولنا اللُّحُودْ..

الموتُ خيرٌ مِنْ مُعَانَقَةِ الغُزَاةْ..

وَغَدَاً لناظِرِهِ قريبْ..

حَقّاً قريبْ..

وَعْدُ الإلهْ..

شاهد الحال

* عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما في المساء طير يطير بجناحيه إ ذكر لنا منه علما)

رواه الطبراني، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح

* قال رسول الله ﷺ: «إذا ظَهرتْ الفِتن -أو قال: البِدع- وسُبّ أَصْحَابي فليُظهرِ العَالمُ عِلْمَه، فمن لم يفعلْ ذلك فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والنَّاس أجمعين، لا يَقبل اللهُ لَهُ صرفاً ولا عدلاً».

أخرجه الخطيب في «الجامع» عن معاذ

* قال رسول الله ﷺ: «إذا لَعنَ آخرُ هذه الأمَّة أوّلَهَا فمَن كان عنده عِلمٌ فليظهرْهُ، فإنّ كَاتم العِلم يومئذٍ ككَاتمِ ما أُنـزلَ على مُحمَّد».

رواه ابن ماجه في «سننه»

* عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة فتناً كقِطَعِ الليلِ المُظلم، يُصبح الرَّجل مُؤمناً ويُمْسي كَافراً، و يُمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيعُ قومٌ فيها خَلاقَهم بعَرَضٍ من الدُّنيا يَسيرٍ، أو بعَرَضٍ من الدُّنيا»، قال الحسن: فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيتُم صُوَرَاً ولا عقولَ، وأجساماً ولا أحلامَ، فَرَاشَ نارٍ، وذُبّانَ طَمَعٍ، يغدون بدرهمين، ويروحون بدرهمين، يَبيعُ أحدُهم دِينَه بثَمَنِ عنـزةٍ».

«الفتن» لنُعَيم بن حمّاد (١ : ٤٧)

التَّمهيد

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ
وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾
وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟
بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾
صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

والصَّلاة والسَّلام على سيّدنا مُحمّد بن عبد الله القائل عن الدَّجال: «**إِنَّ مَعَهُ جَنَّةً وَنَارًا فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ، فَمَنْ ابْتُلِيَ بِنَارِهِ فَلْيَسْتَغِثْ بِاللَّهِ وَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ الْكَهْفِ فَتَكُونَ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا كَما كَانَتْ النَّارُ عَلى إِبْرَاهِيمَ**»[1].

وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار، ما تعاقب الليل والنهار، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم القرار والاستقرار.

وبعدُ فإنّ فقهَ علاماتِ الساعة منتشرٌ خبرُه اليوم، ومؤلفات العصر قد أشبعتْ منه فصولاً كثيرةً ما بين كتابٍ وكتيّبٍ ورسالة، ونشرةٍ وشرحٍ ومحاضرةٍ وشريط، وخِطابةِ منبر، واستقراءِ

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة الباهلي برقم ٤٠٦٧، و «فتح الباري» لابن حجر (٢٠: ١٤١)، و «فيض القدير» للمناوي (٣: ٧٩١).

حالةٍ ومظهر، وكان الأجدرُ أن نكتفيَ بما كُتِبَ وصنِّفَ في هذا المضمار ؛ ولكنا رأينا أنّ كافّةَ ما كتِب عن الساعة وعلاماتها يُنشر كمعلوماتٍ متفرقةٍ عن هذه الظواهر الخطيرة، ومع هذا فقد اعتقد البعض أنّ التناولَ لها مجردُ مَشغلةٍ وصرْفٍ عن الواجبِ والمتحتِّمِ واللازمِ والمندوب ؛ إلى ما لا حاجة له من علم الغيوب.

وكنا في هذا السبـيل قد رضِينا ما رضيَه الناس، مع أن إرضاءَ الناس غايةٌ لا تدرك، وفجأةً.. بَرَزَ لنا شاهدٌ نبويٌّ عظيمٌ من خلال استقرائنا لحديثِ جبريلَ عليه السلام بصرفِ النظر عمّا كنا قد عزمنا عليه من السكوت، والاكتفاء بما هو موجود ومعلوم عن عالم الملك والملكوت، تحت شاهدٍ مُلِحٍّ «**إذا لَعَنَ آخِرُ هَذه الأُمَّة أَوَّلَها فمن كان عنده عِلْمٌ فليظهرْه، فإن كَاتم العِلْمِ يَومئذٍ ككَاتِمِ مَا أُنْـزِلَ على مُحمَّد**»[1].

وفهِمْنا من هذا النداءِ النبويِّ أنّ مكتومَ العلم واجبٌ إظهارُه، فاستجبنا للدعوة ولَبّينا الإشارة، وبدأنا نضع السؤالَ من محور الحديث النبوي العظيم، حديثِ جبريل –عليه السلام– الحديثِ الحاوي على أصول الدِّين وقواعدِه، والحاملِ أساسَ الديانة وثوابت الدِّين وشواهده، فوجدنا أنّ ما قرره علماء الملَّة الأثبات ثلاثةُ أصولٍ وأركان وما نطقت به الذات النبوية أربعة، فوقفنا عند هذا الملحَظ وبدأنا نجمع الأشتاتَ وندرُس أركان الدِّين الأربعة مجتمعةً لا متفرقة، ونتحدث عن علامات الساعة كركنٍ من أركان الدِّين وأصل من أصول بناءِ وعيِ المسلمين وفهمهم عن أمر دينهم، كما قال ﷺ في آخر الحديث: «**ذَاكَ جبريلُ أَتَاكُم يُعلِّمُكُم دِينَـكُم**»[2].

وبما أن أمور الدين التي شملها الحديث أربعة فالواجب أن يُدْرسَ كلُّ ركنٍ منها بالتفصيل.

---

(١) انظر «كنز العمال» (١٠ : ٢١٦) عن جابر.

(٢) مسلم وأصحاب السنن عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث جبريل عليه السلام.

والركن الرابع منها بالخصوص يحتاج إلى هذا التفصيل والتبـيين من جوانبَ عِدّة:

أهمها: أن يتعرف المسلم الفرق بـينه وبـين الثلاثة الأركان الأولى التي اعتمدها العلماء حيث إنّ الثلاثةَ الأركان أركانٌ ثابتة يجب تعلمها منذ الصِّبا، لأنها تُعنى بالعلم الفرضي الواجب الذي لا يصح التعبد إلّا به، وهو علم العقيدة والشريعة ومراتب السُّلوك.

أما الركن الرابع فمتغيرٌ، أي: ليس له ارتباطٌ بالتعبد الذاتي، وإنّما علاقته بمقاييس التحول ومواقع الخير والشر في الناس والزمان، ويرتبط بعلم التعبد من حيثُ الميل القلبـي والولاء.

فالذين يوالون الصالحين -مثلاً- تُعرَفُ معنى علاقتهم بهم من حيثيات العلامة والسمة، والذين يوالون الكفر والطواغيت وأهل الدنيا تعرف حقيقة ولاءاتهم بالعلامة والسمة.

فالعلامة والسمة في هذا الجانب علمٌ ينبني على معرفة «فِقه التَّحوُّلات والعِلم بعلامات الساعة»، وإذا ما اعتمدناها في حياتنا العلمية ركناً من أركان الديانة والتدين يمكن -بمتابعة الوارد فيها- معرفة علم التحولات الخاص بفقه التَّغيرات وأحوال الدجاجلة والدَّجْل وما تَؤول إليه الأمة من فشلٍ وإحباطٍ، وكذلك ما ينتظرها من بشارات وخير، كما يتثبت المتفقه لهذا العلم حول مسألة بعض الصحابة الذين يتكلم البعض في شأن عدالتهم وتوثيق مواقفهم، حيث إن اتخاذَ موقفٍ ما ضد أحد من الصحابة لا يقف على فهم المجتهد أو المستنبط؛ بل ربما جَرتْ فتنةٌ على صحابـي لكنها لا تقدح في مرتبته ولا صحبته، ولا تخرجه بنصٍّ آخر من الصحبة ورتبة النَّجاة في الدارين.

وقد زَلّتْ في هذا الباب جماعاتٌ وجماعاتٌ فَهِمُوا بعض الوقائع والحوادث والنصوص مجردة عن هذا الفقه وعدُّوها حجةً في القدح في بعض الصحابة، مع أن فقه التحولات وأشراط الساعة تنفي عنهم الضلالة والفتنة المفضية إلى سَبِّهم أو إخراجهم عن الملّة والدِّين، وتجعلُهم في مصَفِّ الخلفاء الراشدين المهديّن بالنصِّ الواضح.

إذ ولا يصح لأحد أن يصدر حكماً بالمروق أو الخروج على من عاصر رسول الله ﷺ وكان لرسول الله معه شأنٌ وصحبةٌ وخصوصية، فالصحبة والخصوصيات حَصانةٌ لا تُنقَض إلَّا بناقضٍ نصّيٍّ من رسول الله ﷺ ذاتِه، وهذا ما يحدِّده العلم بفقه التَّحول كما أشرنا لذلك.

وفِقْهُ التَّحوُّلات وعِلمُ السَّاعة تعرضا خلال مرحلة التدوين وما قبلها إلى إقصاء متعمَّدٍ ومقصودٍ، وخاصة أن هذا الركن قد تناول الفسادَ المعنيَّ بالقرارِ ومواقعِ الحكم والسياسة، ورَغْمَ ما قد بَذَله العلماء المخلصون لهذا الدِّين من حفظٍ للصحيح كالإمام البخاري ومسلم وغيرِه فإنهم على عظمة الجهود المبذولة وخاصة في فقه الشريعة والعقيدة ومراتبِ السُّلوك قد ذكروا في بعض مقدّماتهم ما قاموا به من تجاوزٍ وإقصاء في شأن فقه التحولات، فهذا الإمام البخاري يقول في مقدمة الجامع الصحيح: ما أدخلتُ في كتاب الجامع إلَّا ما صَحَّ، وتركتُ من الصِّحاح لحالٍ أو لأجل الطول، وفي رواية: وتركتُ من الصِّحاح حتى لا يَطول[1].

وهذا ما تركه البخاري من الصحاح العام المتناول لكثير من الأحاديث المتنوعة، أما أحاديثُ الفِتَن وعلامات الساعة فلا شكَّ أن الكثير قد تُرِك منها، ويقول الإمام مسلم رحمه الله: ليس كل شيء عندي صحيح وَصَفْتُهُ هاهنا، إنما وضعتُ ما أجمعوا عليه، وقال السخاوي في «فتح المغيث»: إن الشيخين لم يستوعبا كلَّ الصحيح في كتابَيهما، وقد صرح كلٌّ منهما بعدم الاستيعاب[2]. اهـ

قال مؤلف كتاب «أسرار الجفر»: «إن المشكلة بدأت من هناك من رأسِ الستين التي حَذَّرَ منها سيدنا محمد ﷺ، لأن طمساً كبيراً سيحدث في حقائقَ ومعالمَ وإشاراتٍ على الطريق تُرشِد الأمة، أو بمعنى أدق تزيد الأمة في إرشادها لتحديد حروفٍ تبيّن بها المسالك والممرات وسط التِّيهِ العظيم الذي لا محالة ستصل إليه الأمة؛ لفساد الساسةِ والقادَة الذين لو أُبِيحَ بأسمائهم صراحة ووصلتنا

(١) «أسرار الهاء في الجفر» ص ١٣٤.

(٢) المصدر السابق.

الصراحة موثقة لكانت الدنيا والأمة الإسلامية في وجه آخر»[1].

وبهذا الإفصاح المهم عن (فقه التحولات وأشراط الساعة) نستفيد حاجتَنا الملحة إلى إعادة فَهم المسلم إلى (مدلولِ الرُّكْنيّة) التي غَفِلَ عن الإشارة إليها كثيرٌ من الباحثين، وشُغِل البعضُ منهم بمحاكمةِ العلم والعلماء، وحاول آخرون أن يَنْدَسُّوا من خلال هذه الثغرات للنيل من شرف الإسلام كله، ويهندِسوا لأجيالنا المعاصرة صِيغَ الصراع المدمِّر باسم آلِ البيت النبوي المظلومين كما يقولون.

والشأنُ كل الشأن في الاعتدال، فالبنيان الإسلامي خير كله، وإذا ما فَات على الأمة فقه التَّحوُّلات وأشراط الساعة فلا مجال لنسف بنيان الأمة في أركانها الباقية، والخيرُ كل الخير في حسن التناول للقضايا العلمية، ومعالجة الأمور من خلال حاجتنا لإصلاح ما يمكن إصلاحُهُ في شمول الطُّوفان القادم، وأما ما قد سَلف، فقد قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وإذا كانت الآية قد نـزلت في شأن الأمم السابقة فإن معاني القرآن تتجدد في شواهد الاستدلال، وعلينا أن نفهم المعنى من إعادةِ مدلول الرُّكنيةِ الرباعيةِ إلى موقعها بما تهيأ لنا من الشواهد لخدمة الأمة، لا أن نعيش على حساب هَتْكِ التاريخِ ورجالِه، فحُرمَة الإسلام في المسلمين عظيمة، وغاية ما نحتاج إليه في تقريرنا لهذه الركنية أن نوجِّهَ الأجيال إلى المرحلة المعاصرة ودراسةِ علامات الساعة دراسةً متأنيةً لإخراج من استطعنا من براثِنِ التّبعية المطلقة للكفر والكافر في الحاضر والمستقبل.

---

(١) المصدر السابق باختصار، وأعتقد أن فهمنا لمراد المؤلف لا يتجاوز مفهوم ساسة وقادة الدولتين ذاتي الملك العضوض، أما ما سبق ذلك فالطعن والنبز لا تسعفه ولا تؤيده النصوص لحصانة الصحبة لرسول الله ﷺ لو أراد أحد أن يعمم المقصود من عبارة المؤلف.

(٢) البقرة: ١٣٤.

ففي عصرنا نرى عشرات المفكرين والعلماء يصلُّون ويصومون ويتعبدون لله ويتقربون إليه، ولكنْ مشكلةُ الأمر لا في العبادة وإنما في نماذج الولاء، فمنهم من يُوالي الكفار ويجتهد في خدمتهم ويحقق لهم من هذه الخدمة مكاسبَ ماديةً وفكريةً واجتماعيةً واقتصاديةً وسياسية، فالعلة كامنةٌ في ولائه وخدماته لا في صلاته وصيامه، وهذا ما يُعرف بـ«مُضِلّاتِ الفِتَن»، وقد شملت هذه العلةُ غالبَ طوائفِ الإسلام المذهبيةِ المُعاصرة، كما شملت بوضوح مَن شَذَّ عن المذاهب الإسلامية العالمية، واتخذ لنفسه وجماعته منهجاً يُنقَض به العُرى ويُقبَض به ومن خلاله مفاهيم خير الورى بعلم حيناً وحيناً بغير علم ولا وعي.

وقد برز هذا الانفصام[1] جلياً في مرحلتنا المعاصرة نتيجةَ احتواء المدرسة الحديثة ذات العلاقة المباشرة ببرنامج الغثاء المسيَّسِ كافّةَ مناهجِ التعليم والتربية في البلاد العربية والإسلامية، بُعَيْدَ الحربينِ الأولى والثانية، وبها تحقق للكافر تطبيعُ العقل الإسلامي مرافقاً لتطويع المنطقة وتطبيعها لمصالح الاستعمار، ومن هنا اتّسع الخرق مع انعدام الرَّاقع، وطَما سيلُ العصرنة السلبيةِ على كثير من مواقع التربية والتعليم حتى اندرجت غالبُ عقول المسلمين ومؤسساتهم العلمية ضمن عجلة التّغيير، وتَوالى التغيير مرحلةً بعد مرحلةٍ حتى عصرنا الراهن، ولهذا فإننا عندما نعيد مفهوم العلم على أساس الكتاب والسُّنَّة نجد أن غالب المنطلقين في هذا المضمار المعاصِر هم ضحايا مرحلة الغثاء والتَّسْيِيسِ شاءوا أم أبَوا، وربما عالجوا كثيراً من قضايانا المعاصرة بأسلوب مريب وغريب معتمِدين على فَهمهم المسيَّس للكتاب والسنة. وهذا مقتلٌ خطير جداً، قد تكلم عنه من لا ينطق عن

(١) الانفصام: معناه اختلاف الفعل الصادر من شخصية واحدة على شكل متناقض، بمعنى تعامل الإنسان مع عدوّه من خلال مصالح يستفيدها وعرض مادي، مع التزامه بمفهوم الدين والعبادة والمحبة لله ولرسوله من جانب آخر، أو هو اعتزاز المسلم بدينه من حيث الولاء العام والالتزام بالعبادة والانتماء من جهة ثم تنفيذ برامج الوجه الآخر بعلم أو بغير علم في الاقتصاد والسياسة والإعلام بما يحقق المكاسب والفوائد المخالفة لدين المنفذ ذاته.

الهوى ﷺ وهو ينقل للعالم خطورةَ مستقبلِ المرحلة الغثائية في النظرية والتطبيق الشرعي، فضلاً عن الأمور الأخرى، ومن ذلك قولُه للأعرابيِّ السائلِ عن الساعة: «**إذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظر الساعة،** قال: وكيف إضاعَتُها؟ **قال: إذا وُسِّد الأمرُ إلى غيرِ أهله**»[1] والتضييع والتوسيد المشار إليه في الحديث مبني للمجهول، وفيه رمز لتدخلاتٍ أجنبيةٍ لا يظهر فيها إلَّا نائبُ الفاعل.

ونحن هنا قد عَهِدْنا إلى أنفسنا -ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً- أن نكشف الحقيقة ونتحمل مسؤولياتِ كشفِها سواءً من المعترضين علينا داخل دائرة المدرسة الأبوية ذاتِها أم من المعترضين علينا خارجَها[2]، فكلا الجهتين يعانُون في مرحلتنا المعاصرة من شمول الحيرة في جانِبَـي الإفراطِ والتفريط الذي يعالجون به قضايا التعبد وقضايا الحياة، وكلا النقيضين أيضاً يعيشون أَزمة خطيرة، صارت وبلا شكَّ هي المسؤولة (بعد تدخلات العدو) عن كل التداعياتِ التي نشهدها اليوم، وشهدتها المدرسةُ الأبويةُ المسندة بعد سقوط القرار الإسلامي العالمي في القرن التاسع عشر الميلادي، وإعلان المدرسة العلمانية في تركيا على أنقاض المدرسة العالمية الإسلامية.

وهذا النقض وثمراته جزء من علم التحولات وفقه علامات الساعة، وقد جهله الكثير ممن يعنيهم الأمر فضلاً عن عامّة الأمة ودهمائهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، وأحمد في مسنده، والبيهقي في السنن الكبرى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ومن هذا القبيل ما لاحظناه بعد إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب حيث أخذ بعض المنتمين لمدارس القبض والنقض يتتبع بعض العبارات والجمل في الكتاب وفي غيره من كتبنا؛ ليُخرج من هذا الأمر المركب كذباً وزوراً وبهتاناً بحكم معيّـن على المؤلف ويدرجه حسب تسييسه للعبارات والجمل من مجموعة كذا وكذا... ويضيف فوق هذا التركيب المصنع عبارات النصح والرغبة في التوجيه المشروع.. ولو كان منصفاً حقاً وناصحاً صدقاً لوجد الإجابة على ما في عقله وذهنه من المتناقضات في ثنايا نصوص الكتب التي بتر عباراتها وجملها واستخلص منها تصوراً وحكماً لا علاقة للكاتب به ولا للمؤلف؛ ولكن سامح الله هؤلاء المتَّقولين، وهدانا وإياهم إلى سواء السبيل.

ولهذا السبب نجد أن إعادة مفهوم القراءة الشرعية لأركان الدِّين على أساس المعالجة الرُّباعية هي واجب المرحلة وإحدى ضروراتها، وواجبُ المرحلة أسهم معنا في استقراء مكنوناتِ العلامات كلِّها، بِدءاً من عصرِ صاحبِ الرسالة ﷺ ونهايةً بعصرنا الذي طَغَى فيه دخانُ التحوّل والتغير، فاستنفذنا جهدنا المحدود لاستفراغ المعرفة في هذا المصبِّ الإيماني، ووضعنا هذا الكتاب الحامل لاسم «التليد والطارف» ، و «التَّليد» البَعيد، و «الطَّارِف» القريب، و «فقه التَّحوُّلات» المَقْصُود به: فَهْمُ ما يَجْرِي من سُنن التَّغَيُّراتِ والتَّبدلات في المراحل المتقلبة، وما أشارتْ إليه الآيات والسنَّة النبوية في شأن ذلك.

وأمّا «سنّةُ المواقِفِ» فهي إضافة محمودة في تأصيل فقه الدعوة إلى الله بخصوصه على ما تقرر لدى العلماء من تقسيم سنة المصطفى في علم الأصول إلى قولية وفعلية وتقريرية، حيث لُوحِظ أن هناك سنةُ دَلالة وسنةُ مَواقف.

وسنتناول هنا بادئ ذي بدء ما يتعلق بسنة المواقف، وهي ما اتخذه الرسول من موقف ذاتي يليق بأخلاقه -عليه الصَّلاة والسَّلام- مع أعدائه وأضداده منذ بدء الدعوة الإسلامية في مرحلتي مكة والمدينة حتى وفاته، وحتى مع من نـزل في شأنهم نصٌّ قرآني دامغ ، ونستخلص من هذه المعاملة قاعدة التأصيل لمنهج الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة السنة في كافة مراحل الحياة، أما سنة الدلالة فسنتناولها خلال حديثنا عن التحولات، وما يترتب على فقه المناسبات الشرعية، وكلا السنّتينِ: الدلالةِ والمواقفِ لا علاقة لها بعلم الأصول التي قررها العلماء وفرغوا منها، وإنما علاقتها بفقه التحولات المقتبس من رباعية الأركان باعتبار ما يخص الربط بين التاريخ والديانة في مسيرة الدعوة إلى الله بَسْطاً للعَفْو واستجلاباً للنُّفوس ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾[1].

---

(١) الأعراف: ١٩٩.

وقولنا هنا: «إنما علاقتها بفقه التحولات المقتبس من رباعية الأركان» إشارة إلى أن هذا الركن الرابع لم ينطو تحت أي مدلول فقهي خاص من قبل، ولهذا فليس التناول له على صفة خدمة الدعوة إلى الله ينازع الفقه الأصولي في الأحكام والتشريعات الأخرى وليس أيضا بديلا عنه، وإنما هو إحياء لمعاني هامة في منهج السلامة، ومعالجة شرعية لسلبيات التراكمات النفسية المؤدية إلى الحيرة وشمول الصراع بين المصلين من جهة، وامتداد نفوذ الشيطان وعملائه في الإنسانية عموما والأمة الإسلامية خصوصا من جهة أخرى، وخاصة فيما يتعلق بالحوادث والتحولات التاريخية.

وأسأل الله أن يغفر لي كل جرأة وخطأ غير مقصود، وأن يوفقني للصواب فيما توجهت إليه، وألا يجعل في قلب أحد من أمة الإسلام علي وجدا أو ضغينة بما كتبتُ وعلّقتُ، وأسأل الجميع الدعاء.. كما أرجو مولاي التوفيق في كل حال..

وهو حسبي ونعم الوكيل.. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم..

المؤلف

المَدْخَلُ إلى شَرْحِ المَنْظُومَةِ

الحَمْدُ للـهِ علـى مـا يُلهِـمُ   مِـن فَضْلـهِ والفَضْـلُ مِنْـه دائِـمُ

«الحمد» هو الثناء على الله بالجميل الاختياري، والناظم يحمَد الله تعالى على ما ألهمه من الفضل الذي هو المعرفة والبـيان المؤدي إلى استنباط المعاني من النصوص، «والفَضْلُ» يعود إلى الله في كل الأحوال، فمنه كل شيء لأنه الكريم الجواد المتفضل سبحانه.

ثـم الصَّـلاةُ والسَّـلامُ المُتَّصِلْ   على النَّبـيِّ كاشِفِ الفِقْهِ المُدِلْ

«**الصَّلاة**» من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين تضرع ودعاء، والصلاة بمعنى الدعاء، وهو استجابة لأمر الله تعالى للعباد في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾(١)، فالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ حقٌ واجبٌ على كلِّ مسلم، «**والسَّلام**» هو الأمان المُفضي إلى الاطمئنان، وهو اسم من أسماء الله، أنـزله إلى الأرض ليتجسدَ معناه في العباد ويبرزَ على ألسنتهم وأقوالهم وأفعالهم وعلاقاتهم.

وقوله: «**المتّصِل**» أي: الدائم غير المنقطع، «**على النبـيّ**» مأخوذ من النبوة، وهي الإخبار بالمغيَّب، ونبـينا عليه الصلاة والسلام نبـي ورسول، فقد خاطبه الله بكل الصفتين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

«**كاشفِ الفقهِ المُدِل**» الكاشف: المُظهر والمُبـيِّن لما خَفِي واستتر، ورسول الله ﷺ أبرز في صحيح أقواله ما استتر وخفي في الماضي والحاضر والمستقبل، وسمِّيَ هذا الكشفُ «**فِقْهًا**» لأنه يختص بعِلْم عَلامات السَّاعة، وقوله: «**المُدِل**» أي المرشد إلى حقيقة ما يجهله الإنسان، أو ما

(١) الأحزاب: ٥٦.

يرتبك في شأن الإفصاح عنه من سلوك الناس وأحوالهم.

مَـنْ حَـدَّدَ العَلائِـمَ المَرْسُـومَةْ وأَوْضَـحَ المَعالِـمَ المَشْـؤُومَةْ

«**العلائم**»[1]: جمع للعلامات، و «**المرسومة**» أي: الجارية في قضاء الله وقدَره في مستقبل الزمان، فهو ﷺ قد حدَّدها كـمَّـاً ونوعاً وصفةً وحالاً ومكاناً وزماناً.

«**وأوضح**» أي: بـيَّـن وأَجْلى «**المعالم**» جمع مَعلَم وهو الموقع والمكان، ويقال أيضاً: الإشارات والملامح «المشؤومة» أي: مظاهر الانحراف والفساد وشُؤْم المسلك والمقصد والتصرف، كما عبَّر عن ذلك من لا ينطق عن الهوى ﷺ.

والآلِ والأصحـابِ ثُـمَّ التَّابِـعِ ومَن مَشَى على الطريقِ الوَاسِعِ

«**الآل**» هم بنو هاشم وبنو عبدالمطلب «**والأصحاب**» جمع صحابـي، وهو من اجتمع بالنبـي مؤمناً ومات على الإيمان في المعنى العام[2] «**والتابع**» هم من اجتمع بالصحابة أو بأحدهم مِن لاحِقِيْ الأزمنة المتعاقِبةِ ومات على الإيمان، «**ومن مَشَى**» أي: مَن اتَّبَعَهم بإحسانٍ على طريق السلامة الواسع، وحسن الظن بالله وبعباده.

مُسْـتَلهِماً سِـرَّ الوُجُودِ الأَبَدِي مِنْ سِـرِّ آياتِ الكَرِيـمِ المُوجِدِ

أي: مستغرقاً في معاني أسرار آيات الله لِيستلهِمَ منها سرَّ الحياةِ وما بعدها، حيث أودع الله في

(١) العلائم جمع علامة وهي الشارة التي تدل على الشيء، ومنها علامات الساعة، والمعالم جمع معلم وهو المآثر أو المكان الذي يكون فيه مجريات التحول.

(٢) قوله في المعنى العام: أي فيما تعارف عليه علماء الملّة في تعريف الصحابي بعمومه، وأما في المعنى الخاص فالصحبة مقيدة أيضاً بشروط أخرى حتى لا يندرج المنافقون ومن وردت فيهم نصوص صريحة في المفهوم ذاته.. وأشرنا إلى هذا التفصيل بعد ورود ملاحظات بعض قرَّاء الكتاب ممن أصيبوا بطرفي الإفراط والتفريط في تناول المواضيع وتحليلها ولم يلتزموا أدب التوسط والاعتدال مع أصحاب رسول الله ﷺ ولم يتفهموا أيضاً آراء الراغبين في هذا المنهج الشرعي المعتدل بعيداً عن الغلو والتسييس.

آياته من العلوم والفُهوم من يكشِفُ أسرار الأعالي والتُّخُوم، فهي آيات الله البـيِّنات لمن تأمَّل واستشَفَّ معنى الكرَم من الكريم وسرَّ الإيجاد من الموجِد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾.

وقَارئـاً سُـنَّـةَ طَـهَ المُصطفَـى　　　بهِمَّـةٍ وأَدَبٍ مَـعَ اقْتِفـا

القراءة منهج هذه الأمة منذ فجر الرِّسالة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[1] والقارئ لـ«**سُنّة طه المصطفى**» هو الناظر إليها والمطلع عليها مستغرقاً في معانيها مع كمال **الهمة** في الحصول على المرادِ ومع **الأدبِ** المفضي إلى تعظيم ذات المعلِّم ومقامِه، على اتِّبَاعٍ للمأموراتِ واجتنابٍ للمنهيات وفق منهج الاقتداء المنصوص عليه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[2].

عَنْ كُلِّ عِلمٍ مُحْدَثٍ في العَالَـمِ　　　إِذْ في الأُصُـول جُمْلَةُ المَعَالِـمِ

حدّد القراءة في السنة النبوية «بالعِلم المحدث» أي: المتجدِّد المتغير المتحول، وبمعنى آخر: كل علم يأتي في هذا العالم على مقتضى تطور الحياة وتجدُّد المفاهيم فيها من غير مساس بالقواعد والثوابت، لأن أصولَ هذا الدِّين جامعةٌ لكل شيء من مظاهر التجديد والتحوُّل، فالمولى يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[3]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[4] «والمعالم» مظاهر التجديد وعلائم التغيُّر والتبدُّل.

سُبْحانَ مَنْ أَوْدَعَ عِلمَ العَالَمِينْ　　　في صَدْرِ طَهَ خَيرِ كُل المُرْسَلينْ

(١) الفلق: ١ .

(٢) الأحزاب : ٢١.

(٣) الأنعام: ٣٨.

(٤) الرعد: ٨.

تنـزيهٌ لله تَعالى عن كل مثل وشبه، فهو سبحانه أودع في **صدر المصطفى** ﷺ كافَّةَ العلوم الأوَّلية والأخيرة والماضية والحاضرة والمستقبلية، إذ هو ﷺ أهلٌ لهذِه المعارف، وإمامٌ من تعلُّمها وعِلْمِها سواءً كانت شرعيةً أم ماديةً، فلا يُقتَبَسُ علمٌ نَظرَي ولا مَادِّيٍّ على صفحة الوجود إلَّا بعد إمضائه على لسانِ نبـيِّ ذلك الزَّمان أو مَن قبلَه أو مَن بعده، حيث بـيَّـن الله مدلولَ ذلك بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[1].

والمقصود الظاهر هو القرآن، والمعنى الإشاري هو كافَّةُ العلوم التي تبرز في الوجود تحت مدلول ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[3].

فَصَّـل فِقْـهَ العَالَــمِ الإنسـانيْ وَمَـا أَرَادَ اللـهُ لـلأكْــوانِ

أي: أنه ﷺ قد بـيَّـن وأبرز في أحاديثه «**فقه العالم**» بأدق معاني الفقه والفَهم والتبـيان، كما أوضح ﷺ من هذا الفقه أيضاً مرادَ الله في مسيرة الأكوان وسُنَنَ التّطور في الحياة.

مِن سِـرِّ ما يَجْرِي مِـنَ التَّحَوُّلِ وما قَضَـى مِـن آخِرٍ وأوَّلِ

إشارةٌ إلى الخَفَاء والكِتْمان، حيث لا يعلم أغلبُ الناس شأنَ سرِّ ما يجري، وإنما يشتغلون بظاهر ما يجري، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[4].

«**والتَّحول**» هو تغير الزمن وأحواله في العباد، وما يطرأ في الجوانب العلمية والعملية والسلوكية من تبدل وتحول، وما يجري به قضاء الله من أول وآخر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ

(١) مريم: ٩٧.

(٢) العلق: ١.

(٣) النساء: ١١٣.

(٤) الروم: ٧.

يُعِيدُهُۥ﴾[1]، ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[2].

فكُلُّ شَيْءٍ وَاضِحٌ بالعِلمِ   يُدْرِكُهُ في النَّاسِ أَهْلُ الفَهْمِ

أي: إن كُلَّ متغيرات الأحوال واضحةٌ لدى أهل العلم الذين منحهم الله سرَّ الفَهم في قراءةِ الأصول وفقه التحول، حيث إن العلمَ بكافَّةِ صوَرِه يحمل ظاهر المعرفة وسرّها الباطن، فالظاهر ما لا يحتاج إلى إعمال الفَهم الوهبـي، حيث تبرز مواهب العلم الكسبـي بعوامل العقل والجوارح، فتبرز المعرفة الطافِيَةُ على سطح العلم المتداوَل. وأمَّا علمُ التَّحوُّل وفقه التّغير فلا يبرز إلَّا لقلةٍ من الناس ممن وهبهم الله معنى خاصاً من معاني سر العلم «**العلم اللدني**»[3].

ومَن أَرادَ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ   يَشْرَحْ لهُ الصَّدْرَ كذا يُعْطِيَهُ

«**والهداية**» هنا ليست بمفهومها العام، وإنما الهداية بهذا العلم الخاص ضمن الهداية العامة، فلرُبَّ عبدٍ هَدَاهُ الله للخير والعمل الصالح؛ ولكن لم يمنحْه اللهُ سرَّ هذا العلم، فلا غمط في شأنِه ولا استنقاصَ، فقد قال الله في حق سليمان وداود: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾[4] «**وشرح الصَّدر**» هنا المقصود به تهيئةُ علم الصُّدُور المعنيِّ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ

---

(١) الروم: ٢٧.

(٢) آل عمران: ٢٦.

(٣) العلم اللدني ثمرة من ثمرات التقوى، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾، فالذين يلمزون ويهمزون ويغتابون ويكذبون لا علاقة لهم بهذا العلم ولو كانوا حُفَّاظاً للكتاب والسنّة؛ لأنهم خَالفُوا مفهوم التَّقوى لأن التقوى اتّباع الأوامر واجتناب النواهي، ومن الأوامر حفظ اللسان والجنان والأركان عن الحرمات والأعراض ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾، وقال ﷺ: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده» والعلم اللدني جزء من معاني علم الإحسان، ومن لم يعلمه يلزمه التصديق به ومن كذب به أو حرّف معانيه إلى معاني أهل التفريط والإفراط فقد بَاءَ بالخسران في الدنيا والآخرة، ونعوذ بالله من مُضِلاّت الفِتن.

(٤) الأنبياء: ٧٩.

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾[1].

سَـأَلْتُ رَبــي أَنْ يَمُـنَّ لـي بِذا … وكُلِّ مَـنْ في اللـهِ والى واحتَذَا

يسأل الناظمُ من مولاه أن يهَبَهُ هذا العلمَ الوَهبـيَّ لَهُ ولمن والاه في الله واحتذا الطريقَ السديدَ الذي جاء به النبـي المقتدى ﷺ.

ويَفْتَحَ الأبوابَ في العلمِ المُفيدْ … مِن قَبْل أَنْ تَأْتي مَغاليقُ الوَصِيدْ

سؤال من الناظم لربه أن يفتح أبواب العلم بفقه التحولات وسنة المواقف؛ لينتشر الخبر والأثر لدى الخاصِّ والعامِّ، فيدركُ الأمرَ العاقلُ ويتذكَّرُ الغافلُ ويتعلمُ الجاهلُ من قبل أن يأتي يومٌ لا مرد له (ﮋ ﯼ ﯽ [illegible]) [العنكبوت: ٤٩] ([illegible] ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ [illegible] ﭬ ﭭ ﭮ [illegible]) [الأنعام: ١٥٨].

وَغَلْقُ الوصيدِ المُراد به حصول العلامة التي أَخْبَـر عنها من لا ينطق عن الهوى ﷺ، كالدَّجال والدَّابةِ وطُلوعِ الشمسِ من مغربها وغيرها من الآيات.

وكُلُّ شَـيْءٍ بقَضـاءٍ وقَـدَرْ … والعِلمُ بالآياتِ مِن سِـرِّ السُّوَرْ

أي: أن ما يجري في كون الله هو قضاء وقدره سواءٌ ظهر هذا العلم أم لم يظهر ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا

---

(١) العنكبوت: ٤٩.

خِزۡيٌۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1].

وإنما يجب العلم بهذا الفقه على من سبقت له من الله العناية وخاصة أن هذا العلم يبرز من سر القرآن وتدبره، وتدبُّرُ القرآن مطلبٌ إلهي يبرز في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[2].

فاسـمَعْ أُخَـيَّ مَا أَقُـولُ وافْهَما　　　تَرَى أَعَاجِيبَ التُّخُومِ والسَّـما

مطلبُ الناظم من المسلم أن يصغيَ إلى ما يقوله في شأن هذا العلم، وأن يُعِدَّ ذِهنَه لفَهمه واستيعابه، فإن من وراء ذلك «**أعاجيبَ**» تأخُذ باللُّبِّ وتُبهر العَقل، حيث لم يتدبرْها اللُّبُّ ولم يَتَتَبَّعْها العقل في شأن المعرفة المعهودةِ في التعليم والتعلُّم المعاصر.

لذلك فإن القارئ سيبرز له من خلال تتبع هذا العلم «**أعاجيبَ التُّخُوم**» أي أعماق الأرض، كناية عن سرِّ سلوك الإنسان البشري وما حوله من مكان وزمان، و «**السما**» كناية على علوِّ المعرفة وعظمةِ التَّنـزيل وشرف ما تنـزَّل من عند الله لتفهيم العباد وتنويرهم وإجلاء غموض العالمين.

(١) المائدة: ٤١.

(٢) محمد: ٢٤.

فِقْهُ التَّحَوُّلات

الفِقْهُ أَنْواعٌ ولَيْسَ مُنْحَصِرْ ... فِيمَا يَرَى البَعْضُ بعِلمٍ مُشْتَهِرْ
كالفِقْهِ في الصَّلاةِ والزَّكاةِ ... وفي الصِّيامِ وكذا الطَّاعاتِ

يوسِّعُ الناظمُ معنى الفقه ليشمل أنواعاً عديدة ليست منحصرةً فيما يفهمه البعض من أنّ علم الفقه المشتمل على فرع العبادات والمعاملات والجنايات والإرث والأنكحة والحدود وغيرها.

بَل يَنْتَهِي الفِقْهُ بِكُل ما وَرَدْ ... عَنِ النَّبي في الحَدِيثِ المُعْتَمَدْ

أي يشمل مدلولُ الفقه اللغوي كلَّ ما ورد من مفهوم حديث «**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين**»[(١)].

فَالفِقْهُ في الدِّينِ عَظِيمٌ واسِعُ ... فافْهَمْ مَدَى المَعْنى تَراهُ الجَامِعُ
لِكُل عِلمٍ مِنْ عُلُومِ الدِّينِ ... وَمَا أَتَى عَنْ صَاحِبِ التَّعْيينِ

أي: إن مدلولَ الحديث الآنف يشير إلى المعنى الواسع في الفقه، حيث إن الفقه في معناه العامُّ هو الفَهم، وقوله: «**يفقهه في الدِّين**» دلالةٌ واسعةٌ على كافة علوم الديانة والتدين المنطوية تحت مدلول الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة وما تفرع عنها.

وفي الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[(٢)] وبهذا يتسع معنى الفقه ويصح أن يطلق على التَّحوُّلات فِقْهاً ودِيناً، لأنها من معنى الدَّلالة على أركان الدِّين والتّديُّن كما

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن معاوية رضي الله عنه.

(٢) آل عمران: ١٩.

ورد في الحديث عن النبي ﷺ.

نَبـيِّنا الـذي أَحَـاطَ بالعُلُـومْ دِينـاً ودُنْيـا مُبْعِـداً كُلَّ الوُهُـومْ

في البـيت إشارة إلى الاستناد على النصّ النبوي ذاتِه حيث إن صاحب الرسالة قد أَحَاط بالعلوم كلِّها، فلا مُسوِّغَ لنفيِ ركن من أركان الدِّين عن موقعه من الأحاديث؛ لأن العلماء لـم يذكروه ركناً رابعاً كما سيأتي.

وقد أشار بضعهم إلى أن تجاوز العلماء لهذا الركن المشار إليه بفقه التحولات سببه أنه لا علاقة له بالسؤال في القبر والحساب يوم القيامة، وإنما هو حوادث وفتن وأشراط، ويبدو أن هذا القول كان من باب الاعتراض على ما أشرنا إليه لا من باب تحقيق المسألة على الوجه الشرعي في قراءة النصّ، ولإجلاء هذا الغموض وبيانه لاحظنا أن مسألة علامات السَّاعة وفقه التَّحولات ليست كما يشير المعترض، وإنما هي جزءٌ من الديانة الشرعية .

ويدل على ذلك حديث الأعرابي عن الساعة، ونصّه كما في الصحيح : عن أبي هريرة قال بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكرِه ما قال، وقال: بعضهم بل لم يسمع حتى إذا قَضَى حديثه، قال: «**أَيْنَ أُراهُ السائلُ عن السَّاعةِ؟**»، قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «**فإذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فَانْتَظِرِ السّاعَةَ**» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غَيرِ أهلِه فانتظرِ الساعةَ**»[1].

وفي هذا الحديث إشارةٌ واضحةٌ إلى ما يجب على المسلم أن يتنبه له في واقع الأحداث والتحولات ، ليس من خلال النظر السطحي للأمور وإنما من خلال التعمق للمدلول اللغوي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، وأحمد في مسنده، والبيهقي في «السنن الكبرى» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في نص الحديث:

١.إذا ضيعت الأمانة .

٢. إذا وسد الأمر إلى غير أهله.

في هاتين العبارتين توضيحات وتفصيلات تجمع بين تآمر مشترك داخل في واقع القرار من الأمة، وتدخل خارجي من خارج دائرة الأمة في تضييع الأمانة ، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، وهذا الحديث وحده كافٍ للدلالة على ضرورة معرفة أسباب تضييع الأمانة وتوسيد الأمر إلى غير أهله فيما يتعلق بفقه التحولات وأشراط الساعة وربطها بأركان الديانة العليا، وما هذه التداعيات والمحن والإحباطات وما شابهها في حياة الأمة حتى ساعتنا هذه إلا ثمرة من ثمرات الإضاعة، والتوسيد المبطن، عَلِمَ هذا مَن عَلِمَهُ وجَهِلَ هذا مَن جَهِلَه.. والأمر كله لله من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فِقه التَّحوُّلاتِ وعَلاقتُه بأرْكانِ الدِّين

يُقْصَدُ «**بفقه التحولات**» فَهم ما يجري من سُنَنِ التَّغيُّرات والحوادث في المراحل المتقلبة وما ترتب عليها من نقضٍ وقبضٍ وصلاحٍ أو فساد، وما تطابق من هذه التحولات مع نصوصِ الكتاب أو السنة في شأن الإفصاح عن بعض الظواهر ومجرياتها.

والمعلوم أن مفهومَ الفقه لدى الكثير من العلماء منحصرٌ عند موضوعٍ معيَّنٍ من أصول معرفة علوم الفقه الشرعي وفروعه، والأصل أن مدلولَ الحديثِ النبوي المستدل به في هذا المنْحَى إنما يحمِلُ معنىً أوسعَ لمدلولِ الفقه، قال ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفقِّهْهُ في الدِّين**»[1].

فالفقه في اللغة: هو الفَهم، وفي الاصطلاح العام: إدراكُ المقصود المترتِّب على نوع العلم المقرَّر فِقهَاً أو نَحـوَاً أو حديثاً أو تفسيراً أو غير ذلك.

والحديث الآنِفُ يشير إلى المعنى الواسعِ في الدَّلالة على مقصود الفقه؛ بل ويتعدى العلوم كلَّها إلى فَهم السَّامع المقصود من الكلام أو الأمر المخاطب به وإلى هذا يشير معنى الحديث عن رجل جاء إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يقرأ عليه القرآن فقرأ عليه سورة الزَّلْزَلة حتى فرغ منها وأراد أن يستأنف القراءة، فقال الأعرابي: «**حَسْبُكَ لقد قرأتَ عليَّ آيةً كَفتْنِي**»، **قال: ما هي؟**، قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] فقال ﷺ: «**فَقُهَ الرّجل**»، فيفهم من قوله ﷺ: «**فقه الرجل**»[2] إدراكه المقصود من الآية.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «فيض القدير» للمناوي (٥: ٥٨١).

وكلمة «**الدِّين**» في الحديث: «**يفقهُ في الدِّين**» تدل على سعة المعنى ليشمل كافة علوم الديانة والتدين المنطوية تحت (أركان الدِّين) وإلى ذلك يشير الحق سبحانه في كتابه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1] فالإسلام هنا أوسعُ من مفهومِ ركنية الإسلام في أركان الدين ذاتها، وإنما يقصد به كل ما جاءت به الرسالة المحمدية، وبهذا يتسع معنى الفقه، ويصّح أن يُطلق على (التَّحوُّلات) فقهاً وديناً؛ لأن المعنى العام يشملها كغيرها من نماذج الفقه.

وعندما نعود إلى حديث جبريل عليه السلام المروي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وهو أحد الأحاديث المعتمدة في ثوابت الديانة والتدين- نجد أن نصّ الحديث الشريف شمل أربعة أركان متتابعة، وهي:

* الإسلام.
* الإيمان.
* الإحسان.
* العلم بعلامات الساعة.

بينما نجد تقريرات العلماء لا تتجاوز الأركان الثلاثة من هذا الحديث فقط، وصَنَّفُوا فيها مجتمعةً الرسائلَ والمؤلفات، ومنهم من سمَّاها الأصولَ الثلاثةَ أو الأركانَ الثلاثةَ أو الثوابتَ الثلاثة أو غير ذلك وأوسعوا التناوُلَ في شرح هذه الثوابت الثلاثة الهامة، وأشبعوها بحثاً وتحليلاً وتعليلاً من كافَّةِ الأوجهِ العِلمية، ما عدا الركن الرابع (علامات الساعة) فلم يذكروه في موقِعِه من الثوابتِ ولم يتناولوا بحثَه كجزء من أركان الدين، وإنما تناوله بعض العلماء كمجرد معلوماتٍ مستقلةٍ تحت مسمى (علاماتِ الساعة) أو (أشراطِ الساعة)، وأوسعوا البحثَ فيه مجرَّدَاً عن الرُّكنِيَّةِ، وقد فَطِن الإمامُ البخاريُّ في صحيحِه إلى هذا الأمر فأشار إليه في

(١) آل عمران: ١٩.

تبويبه حديثَ جبريل بقوله: «**والسَّاعةُ من الدِّين**»[1].

وعند تأملنا للحديث الشريف ذاتِه وجدنا أن نصّ الحديث النبويّ مخالفٌ لما قرره أهلُ العلم عن فصل الركن الرابع عن أركان الدِّين. حيث إن مدلول الركنية للثلاثة الثوابت غيرُ واردةٍ في مطلَع الحديثِ ولا بعد إيرادِها كأركانٍ ثلاثةٍ، وإنما ورد التأكيد على ركنيةِ الثوابتِ بعد ختامِ الحديثِ كُلِّه بعد ذهابِ جبريلَ -عليه السلام- كما ورد أنه ﷺ قال لعمر: «**يا عُمْر أتدري من السائل؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذَاكَ جبريل أَتاكم يعلمكم أُمورَ دينكم**»، **وفي رواية: «يعلمكم دينكم»**[2] فاللفظ النبويّ الدال على ركنية الأركان وردتْ بعد ذكر الأربعة كلها، وبهذا يتأكد أن أركان الدين نصّاً نبوياً أربعة وليست ثلاثة.

وبعد إثباتنا لرباعية الأركان -كما هي في سياق الحديث النبويّ الشريف- نُقَسِّمُ هذه الأركانَ بعد ذلك إلى ثوابت ومتغيِّر.

فالأصول الثلاثة، هي: أصولٌ ثابتةُ المدلول والمعنى واضحةُ البيان والقصد يتدرج بها المكلَّف في شؤون العقيدةِ والشريعةِ ومراتبِ السُّلوك، وعليها ينشأ الأجيال وتَفْهَم الأمة علمها الفرضيَ الواجِبْ.

أَمّا الأصلُ الرابِعُ أو الركنُ الرابعُ فمتغيِّر، أي أنه غيرُ مرتبطٍ بمتعلقات التربية وبناء

---

(١) انظر صحيح الإمام البخاري حديث رقم (٥٠) من الجزء الأول الباب (٣٧) سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي ﷺ له، ثم قال: «جاءكم جبريل يعلمكم دينكم» فجعل كل ذلك ديناً.

(٢) وقد ورد هذا المعنى في الحديث بعدة روايات أخرى، منها: «**هذا جبريل عليه السلام جاء ليعلم الناس دينهم**» **وفي رواية «هذا جبريل أراد أن تعلموا إذا لم تسألوا»** للشيخين ولأبي داود والنسائي، وفي رواية لأحمد عن طريق آخر: «**هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم، والذي نفس محمد بيده ما جاءني قط إلاّ وأنا أعرفه إلاّ أن يكون هذه المرة**» ، وعن ابن عمر رضي الله عنه: «**ما جاءني في صورة قط إلاّ عرفته إلاّ في هذه الصورة**» «مجمع الزوائد» (١: ١٨).

المكلفين في شؤون العقيدة والشريعة ومراتب السُّلوك، وإنما يختص بالحوادثِ وأسبابِها وما يترتب عليها من شؤون الإشاراتِ النبويةِ والعلامات الرَّحمانية، وأحوالِ المنافقين والمرجِفِين والمفسِدين في الدِّين وأحوالِ الكفارِ وأشباهِهِم، وأَثَرهم وتأثيرهم في مُجرَياتِ التّحَوُّلِ البشري والإنساني، وما يطرأ على الأمة من نقضٍ في الحُكْمِ والعِلْمِ والعَلاقات والأخلاق والعُرى من ينعكس بالضرورة على الديانة والتدين ذاته سلباً وإيجاباً.

وقد كان الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على عِلمٍ واسعٍ بهذا الركن الخطير ويكتمون سرّه وخَبَره عن العامَّة والدَّهماء، لما يترتب على نشره في ذلك العصر من فتنة واسعة ودمار محقَّقٍ، وفي هذا يقول سيدُنا أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيما يرويه الصحيح: «**أعطاني خَليلي جِرابَينِ من العِلم، أمَّا أحدهُما فقد بَثَثْتُه بينكم، وأمّا الآخر فلو بثثته لقُطِعَ منّي هذا الحُلقوم**»[1].

لقد أخفى أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الحديثَ عن هذا العلم المترتب على كشف الفتن وأصحابها والدّجل والدجاجلة، ومن يكون على أيديهم تهيئةُ المجتمعاتِ الإسلاميةِ والعربيةِ لفتنةِ المسيخِ الدّجالِ، لما كان يخشاه من الفتنةِ المؤديةِ إلى هلاكِه على أيدي أهلِ الفتنة، وربَّما يكون علماءُ الملّة رضي الله عنهم وأرضاهم قد اعتبروا مثل هذا الموقف سبباً في تجاوز الركن الرابع من أساسِه؛ ولكنَّ هذا العزلَ والإقصاءَ بالنسبة لحقيقة العلم بالأمر جعلَ الأجيالَ ترتكِسُ في الخطأ وتقع في المحذور مما خلَط الحابِلَ بالنابلِ، وأظهَرَ الأحداثَ السفهاءَ بمظهرِ العلماءِ الأثبات، وخاصة في آخِر الزمان ومع انقطاع العلم وأهله وشمول القبض للعلماء، فكان الاتّباعُ والاقتداء بمن لا خلاق له، وكان الولاء والاستفادة من علماء الفتنة الذين حَذَّرَ منهم سيَّد الملّة -عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، انظر «فتح الباري» (١: ٢٨٨) حدثنا إسماعيل، قال: حدثني أخي عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم.

والسلام-، فانقلب بهم المِجَنّ على أهله حتى اتُّهِمَ آلُ البيت النبوي وعلماءُ المذهبية الشرعيةِ والعُبَّادُ والزُّهَادُ والصالحون بما ليس فيهم، واعترتِ الحيرةُ غالبَ الدَّهماءِ والبُسَطاءِ وشملت الفتنةُ الأسرَةَ والعائلةَ، ومجتمعَ الإسلام كلَّه، والواقع شاهد بين على ما نقول.

ولستُ أذهب بعيداً إذا قلتُ: إنّ رسول الله ﷺ كان في مرحلتنا أكثر حضوراً بعلمه ونصوصه من حضورنا وإدراكنا فهو ﷺ يشير في الحديث الذي رواه ابنُ ماجة في سننه بقوله: **«إذا لَعن آخِرُ هذه الأمَّة أوَّلَهَا فمنْ كَان عِنده عِلمٌ فليظهِرْهُ فإنّ كَاتمَ العِلم يومئذٍ كَكاتمِ ما أُنزل على مُحمَّد ﷺ»**[1].

والمرجَّحُ أنَّ العلمَ المرادَ هنا في أحَد معانيه «العِلمُ بعلامات السَّاعة وعلاقتُها بأركان الدِّين» لأن ما يترتب على الكتم للعلم بهذا يعادل كَتْمَ الوحي ويترتب على فَهم هذا المعنى أن إظهار هذا العلمِ وإشهارَه في الأمة واجبٌ عَينيٌّ كإظهار شرف الوحي ذاته.

وعند وقوفنا أمام هذا الحديث الشريف بتأمل واعٍ نجد أن الرسول ﷺ ربط من خلال هذا الحديث بين التحوُّلاتِ والمواقف وأعطى السنَّة مدلولاً جديداً لا علاقة له بسنَّةِ الأحكام والحلال والحرام المقررة سلفاً.

ففي قوله ﷺ: «**عليكم بسُنّتِي وسُنّةِ الخُلفاءِ الرَّاشدين المهدِيِّين مِنْ بعدي**»[2] إشارةٌ واضحةٌ إلى المواقفِ الأخلاقيةِ تجاهَ التحوّلات، (وعليها يقتصر مفهومُ السُّنَّـة هنا).

فالمعلومُ أنَّ السُّنَّةَ التي تحتَكِمُ إليها الأمَّة هي سنَّـتُـه ﷺ وليس للخُلفاء سنةٌ أخرى غير سنَّته، فالخلفاءُ سواءً كانوا حَسَبَ فَهْمِ البَعض أنهم الخلفاءُ الأربعةُ أو كان الفَهم العامّ المناسب

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١: ٤٣٦) عن جابر رضي الله عنه، وأخرجه ابن ماجه في سننه وأبو داود عن جابر برواية: «**إذا لَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّة أَوَّلَهَا فَمَنْ كَتَمَ حَدِيثًا فقد كَتَمَ مَا أَنْزَلَ الله**».

(٢) رواه الترمذي في سننه وابن ماجه في سننه وأحمد في مسنده والبيهقي في سننه عن العرباض بن سارية.

لمعنى الحديث أنهم «**الراشدون**» من الرشد «**والمهديون**» من الهداية إلى يوم الدين ليس لهم سنة متفردة متميزة غير سنة المواقف، وليست السنة في اصطلاح الفقهاء أو المحدثين.

ولهذا يؤكد رسول الله ﷺ أن سنَّـتَهُ في هذا المعنى (مواقفُه أمام الفِتن والتَّحوُّلات) وسنةَ الخلفاءِ (مواقفهُم أمامَ الفِتن والتَّحوُّلات).. «**عَضّوا عليها بالنواجِذ**».. إشارةٌ إلى اتخاذ موقفِ الثّبات والالتزام بهذه السنّةِ.. ويؤكد هذا المعنى قولُه: «**فإنّ من يَعشْ منكم فسَيَـرى اختلافاً كثيراً**».

فالاختلاف هنا لا ينحصر بالسنن القولية والفعلية والتقريرية أو ما اختَلَف عليه المذهبيون فحسب، وإنما الحديث يشمل قضية القَرَارِ والحكم، والمتتَبِّعُ بروّية لوقائع المقولةِ النَّبَوية وتاريخها يستفيد ما يلي:

١- أنّ هذا الحديثَ يشمل مسألةَ القَرارِ والاختلافِ حولَه.

٢- أنّ هذا الحديثَ يضع سنَّـةً جديدةً تقعد مسألة المواقف.

٣- أنّ سنة المواقف تكتسب من النظر في سُلوك رسول الله ﷺ وخلفائه في العلم أهل الهداية والرشد عند انقطاع خلافة الحكم.

٤- إن هذا الحديث مؤكِّدٌ حصولَ اختلافٍ في قرار الحكم، وعلاجه ما أكده ﷺ من قوله: «**اسمعوا وأطيعوا ولو تأمّر عليكم...**»[(١)].

٥- إنّ موقفَ الصحابة بعد رسول الله ﷺ كان قائماً على فَهم هذا الحديث، ولم يشُذ منهم أحدٌ على قرار الخلافة في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن بعده، والشذوذُ في هذا الأمرِ -لدى المتقوّلين- لا يدخل تحت معنى (الخلفاء المقتدَى بهم عند الاختلاف).

---

(١) وقوله: «**تأمر عليكم**» إشارة واضحة إلى ما لو أن صاحب القرار أخذه بالقوة ومن غير شورى ولا انتخاب، وهذا مدلول هام جداً في مسألة السمع والطاعة، وفيه ردّ بيّن على أصحاب الأقوال الأخرى.

ويصبح هذا الحديثُ الشريفُ (منهجاً خاصّاً) لفقه التَّحوُّلات وسُنّة المواقف وما ترتب على هذا الفقه من فرعِيّاتٍ وإضافات.

وقد كان كبارُ الصحابةِ رضي الله عنهم وأرضاهم في هذا الفقهِ يعودون إلى من عُرِف تخصصه فيه، وربما كان لهم بعد السؤال موقفٌ نحو بعض الأفراد غير الموقف الذي أرادوه من قبل لِما ينكشف لهم من حقيقة حال المرء أو المرحلة، وقد ورد أن سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يستشير حذيفة بن اليمان (أمينَ سرّ رسول الله ﷺ) في شؤون بعض الولاة الذي يوليهم فيجيبه ابنُ اليمان بما يناسب فقهَ التحول الذي سمعه من رسول الله ﷺ، حتى ورد أنّ الجنازة التي لا يحضرها حذيفة بن اليمان كان ابنُ الخطاب لا يحضرها اقتداءً به، وقد أشرنا إلى حديث حذيفة رضي الله عنه الذي يؤكد سلامة المرحلة الراشدة في بداية فصل مرحلة أبي بكر الصديق، وفيه يقول حذيفة: «إنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فدعا الناسَ من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فحَيِيَ بالحق من كان ميتاً ومات بالباطل من كان حيا، ثم ذهبت النبوةُ فكانت الخلافة على منهج النبوة» .

ولّما مرض الإمامُ علي رضي الله عنه، وكان في (ينبع النخل) قال له الصحابة لّما عَادُوه في مرضه، ارجع إلى المدينة تجد من يقوم بأمرك، ولرُبّما جاءتك المنيةُ فتكون في جوار رسول الله ﷺ، فقال: «**إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ أَنْ لا أَمُوتَ حَتَّى أُؤَمَّرَ ثُمَّ تُخْضَبَ هَذِهِ -يَعْنِي لِحْيَتَهُ- مِنْ دَمِ هَذِهِ** -يَعْنِي هَامَتَهُ أو رَأْسَه-» روى هذا الحديث أحمد في مسنده، وقال فيه : كان أبو فضالة من أهل بدر، قال:خَرَجْتُ مَعَ أَبِي عَائِدًا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ مَرَضٍ أَصَابَهُ ثَقُلَ مِنْهُ، قال: فقال لَهُ أَبِي: مَا يُقِيمُكَ فِي منزلك هذا لو أَصَابَكَ أَجَلُكَ لَمْ يَلِكَ إِلَّا أَعْرَابُ جُهَيْنَةَ تحمل إلى المدينة فإن أَصَابَكَ أَجَلُكَ وَلِيَكَ أَصْحَابُكَ وَصَلَّوْا عَلَيْكَ... فذكر الحديث[1].

(١) إسناده صحيح، قال الهيثمي: رجاله موثقون، وذكره البخاري في الكنى مستطرداً، نقلناه بتصريف من

وبإعادة النظر لخدمة هذه المواقف الراشدة للخلفاء ولسيِّد الملّة -عليه الصَّلاة والسلام- ينفتح باب العلم بهذا الركن المشار إليه بالركن الرابع من أركان الدين تحت شاهدٍ نبويٍ قال فيه ﷺ: «**بَدَأَ الدِّينُ غَرِيباً وسَيعودُ غَريباً كما بَدَأ، فطُوبى للغُرباءِ الذين يُحيُونَ مَا أماتَ النَّاس من سُنَّتِي**»[1].

ولو تأملنا بالاستقراء والمتابعة ما يحمله هذا الحديث من معنى لوجدناه يقرر في بعض معانيه ما أشرنا إليه والله أعلم.

فالدِّين بأركانه الأربعة بَدَأ غريباً في أول الأمر لصعوبة الإفصاح عن ركنيته، وهو اليوم في المرحلة المعاصرة غريبٌ أيضاً لنقصِ الركنِ الرابعِ منه في التوثيق والدراسة والإيمان، وفي قوله ﷺ: «**فطُوبى للغرباء الذين يحيون**» أي: يعيدون شرف رباعية الأركان التي أماتها الناس من سنته ﷺ.

ومعنى الحديث الشريف لا يقف عند هذا المعنى ولا ينحصر فيه وحدَه وإنما يُستَدلُّ به هنا

كتاب «بيعة الإمام علي بن أبي طالب» لحسن فرحان المالكي ص٧٠.

(١) «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء» رواه مسلم عن أبي هريرة رفعّه ورواه أيضاً عن طريق عاصم بن محمد العمري عن أبيه عن ابن عمر رفعه بلفظ : «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريبا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها» وعزاه في «الدرر» لمسلم عن ابن عمر بلفظ : «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ**» ، وللبيهقي في «الشعب» عن شريح بن عبيد مرسلاً: «**إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء، ألا إنه لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في أرض غربة غابت عنه فيها بواكيه إلَّا بكت عليه السماء والأرض**» ، ورواه ابن جرير وابن أبي الدنيا كما في «الفتاوى الحديثية» لابن حجر المكي لكن من غير ذكر صحابيه بلفظ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلَّا بكت عليه السماوات والأرض، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ -ثم قال:- إنهما لا يبكيان على كافر».

من أحد معانيه التي يحملها.

ومثلُه أيضاً حديث: «**من أحيا سُنَّتي عند فساد أُمَّتي فَلَهُ أَجْرُ مئةِ شهيدٍ**»، وفي رواية: «**أَجْرُ شَهيد**»[١] فمِن معانيه إحياءُ سنة مواقفه ﷺ عند فساد أمته ﷺ وسنة خلفائه الراشدين المهديين[٢].

فالتحوُّلات الجارية في الأمة تُشير إلى تحوُّلٍ في السّلوك وضعْفٍ أمام قرار الدِّين والخُلق، وتحولٍ في مفهوم العِزة والشَّرف والإباء حتى ضَعُف صَوتُ الأمة أمام أندادها من الدول والأنظمة العالمية، إضافةً إلى ما حَلَّ بها أي هذه الأمة من فتن التَّحرِيشِ والخِلاف والصراع والنـزاع في أمر الدين، وشرِّ الاستتباع للأعداء في شؤون الحياة، وكل ذلك بأسباب أهمها سقوطُ قرارِ الحُكم وقرارِ العلم، المعبَّـر عنها في الحديث: «**لتنقضنَّ عُرى الإسلام عُروةً عُرْوة كلَّما نقضت عُرْوةٌ تمسَّك النَّاس بالتي تَلِيها، أَوَّلهنّ نقضاً الحُكم، وآخِرهنَّ الصَّلاة.. ورُبَّ مُصلٍّ لا أمانةَ له**»[٣].

---

(١) الرواية جاءت بلفظ «**من تَمسك بسنُّتي عند فساد أمتي فلهُ أجرُ مئةِ شهيد**» أخرجه بن عدي في «الكامل» (٢: ٣٢٧)، كما رواه في «الترغيب والترهيب» (١: ٤١) من طريق الحسن بن قتيبة، عن عبدالخالق بن المنذر، عن ابن نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً، قال الدارقطني في رواية البرقاني: متروك الحديث، وقال أبو حاتم: ضعيف، وقال الأزدي: واهي الحديث، وقال العقيلي: كثير الوهم، كذا في «لسان الميزان» (٢: ٣٠٥)، ورواه الطبراني من حديث أبي هريرة بإسناد لا بأس به إلا أنه قال: «فله أجر شهيد».

(٢) وعلى هذا المفهوم فالمعنى في بعض أوجهه أن كل من عمل على إحياء سنة المواقف بإصلاح ما فسد من جراء التحولات المؤدية إلى سفك الدماء وتقطيع الأرحام، وعمل على جمع قلوب الأمة وتوحيد كلمتها ولم شعثها، ودرء أسباب الفتن والصراعات نال من الله أجر مئة شهيد، لأن الثواب الجزيل والمنح الكبير يتلاءم مع مثل هذه المواقف المفضية إلى حقن الدماء وسلامة الشعوب، والله أعلم.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٥: ٢٥١) ومن طريقه الحاكم في «المستدرك» (٤: ٩٢) من حديث أبي أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**لتنقضنَّ عُرى الإسلام عُروةً عُروة فكلما نقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضاً الحكم وآخرهنّ الصَّلاة**» والحديث صححه الحاكم.

وتحت هذين الأمرين أبوابٌ كثيرة سيأتي شرحها في موقعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

مَدْخلٌ إلى رُبَاعية الأرْكَان (أرْكَانُ الدِّينِ الأرْبَعَة)

مِـنْ أَوَّل الفِقْـهِ الجَدِيـرِ فَهْمُـهُ ... ما جاءَ في نَصِّ الحَدِيثِ حُكْمُهُ

أوَّلُ ما يجب معرفته في فِقْه التحولات أنّ نصَّ الحديث النبوي الصحيح مقدمٌ على تقرير أهل العلم، وإن كان إجماعاً لهم.

عَمّا رَوَى الفَارُوقُ في الصَّحِيحِ ... حَدِيثِ جِبْرِيلِ السَّوِي الفَصِيحِ

إشارةٌ إلى حديث جبريل المروي عن سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو الحديث الذي اعتنى بشأنه عشراتُ العلماء وشَرَحُوه بشروحٍ عديدة، وأَطَالوا النَّفَسَ في ذلك وخاصة فيما يتعلق بأركان الإحسان حتى صَار مذهباً يُسمى التَّصوف عند أهله والزهد لدى غيرهم.

فـأَوَّلُ الأَرْكانِ إِسْـلامُ الـوَرَى ... وبَعْدَهُ الإيمانُ مِن أَقْوَى العُرَى

وبَعْدَهُ الإحسـانُ وهْوَ المُنْتَهَى ... مِن ثَابتِ الأَرْكَانِ في أَهْلِ النُّهَى

يشير الناظم إلى أن هذه الثلاثة الأركان هي المعتبرة من هذا الحديث والمشروحة فيما يسمى بأركان الدين الثلاثة أو الأصول الثلاثة عند البعض، وعند تأمُّلِنا لحقيقة الوارد في الحديث النبوي نجد أنّ مدلولَ الرُّكنيَّة للثلاثة غير وارد في مطلع الحديث وإنما في خاتمته بعد إيراد علامات الساعة مما يدل على أنّ الأركان أربعةٌ وليست ثلاثة.

والعِلـمُ بالسّـاعَةِ فَـرْضٌ قَاطِعُ ... مُكَمِّـلٌ للنَّـصِّ رُكْـنٌ رَابِـعُ

ضَابِطُـهُ الحـاوِي لِرُكْنِيَّتِـهِ ... سِـيَاقُهُ المُبْـدِي لِماهِيَّتِـهِ

يشير الناظم إلى أن علامات الساعة في سياق الحديث ركنٌ رابعٌ وجزءٌ لا يتجزّأُ من حديث

جبريل، وضابط هذه الركنية سياق الحديث ذاته.

أَتَاكُـمُ جِبرِيـلُ بالعِلـمِ الـذِي يُفَصِّلُ الدِّيـنَ فمَن ذا يَحْتَذِي؟

فالرسول ﷺ لم يخبر بأركان الدِّين إلّا بعد انتهاء الحديث وبعد ذهاب جبريل، عندما قال لسيدنا عمر: «**أتدري من السائل؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»، فقوله: «**يعلمكم دينكم**» أو على رواية أخرى «**أمور دينكم**»[1] وردت بعد ذكر علامات الساعة.

فيستدل بهذا على أن أركان الدين أربعةٌ نصّاً، وليس ثلاثة.

والأَخْذُ بالثَّـلاثِ مَظْهَرُ الثَّباتْ أَمّـا الأَخِيـرُ مَظْهَـرُ التَّحَوُّلاتْ

يشير الناظم إلى عُذرِ العلماء الذين تجاهلوا علاماتِ الساعة ولم يدرجوها ضمن أركان الدين، حيث إن الأركانَ الثلاثة ثابتةُ المدلول والمعنى واضحةُ البيان والقصد، بها يتدرج المكلَّفُ في شؤون العقيدة والشريعة ومراتب السلوك، وينشَأ الأجيالُ وتُوجّه الأمة عليها في العلم الفرضي الواجب الذي يسأل عنه المسلم في البرزخ يوم الحساب.

أما الركن الرابع فمتغيِّرٌ غيرُ مرتبطٍ بزمانٍ ولا مكانٍ ولا بناءِ ذواتٍ ولا مسؤوليةٍ ذاتِ علاقةٍ بالمكلَّفين من البنين والبنات، وإنما هو يعتني بالحوادث وشؤون التحولات وأحوال المنافقين وما يطرأ على المسلمين من نقص في العلم ونقض في الحكم واستتباع للأمم.

عَلامَـةٌ مِـنْ شَـأْنِها التَّغَيُّـرُ وذِكْرُهـا فـي النّاسِ سِـرٌّ خَطِرُ

أي: الركنُ الرابعُ علاماتٌ وليست أعمالاً، وهي متغيرة الحد والزمن وليست ثابتةً بوظائف الأوقات والأعمار، وذكرها ونشر أخبارها يكشف بعض أحوال الناس وانحرافاتهم، فهي سرٌّ من أسرار النبوة، سَكَتَ عنها الكثير حتى كان أبو هريرة يقول في شأنها: «**أَعْطَاني خَليلي جِرابَيـنِ**

---

(١) سبق تخريجه.

من العِلْم، أَمَّا أَحدُهُما فقد بَثَثْتُهُ بـينكم، وأَمَّا الآخَرُ فواللهِ لو بثثتُه لقُطِعَ مني هذا الحُلْقُوم»[١]، وكأنّه يشير إلى ما يعلمه من الفِتن والتَّحول مما سمعه من رسول الله ﷺ.

مِـنْ فِتْنَـةٍ أو مِحْنَـةٍ تُهَـدِّدُ أَوْ مَـنْ تَرَاهُـمْ للمَسِـيخِ مَهَّدُوا

أي: إن هذا الركن مخصوص بعلم الفتن والمحن التي «تهدد» حصون الأمة من داخلها، وتبرز مسألة الدَّجل والدَّجاجلة الذين يكون على أيديهم تمهيد الطريق لمنهجية المسيخ الدجال.

أو مَن سَيَأْتُوا يَنْصُرُوا دينَ الإلَهْ من كل حَبْرٍ صادقٍ في الِاتِّجاهْ

كما أن من وظائف الركن الرابع الإخبارُ عما سيظهر في آخر الزمان من نصرة الدين والشريعة في أفجاج العالم ممن يحفظ الله بهم الدين وينصر بهم سنة سيد المرسلين.

لـذا اسْـتَفاضَ ذِكْرُهـا مُنْفَـرِدَهْ وصَنَّفُـوا فِيهـا رُقُومـاً مُفْـرَدَهْ

أي: إن عذر العلماء في مسألة فصل الركن الرابع عن موقعه من الأركان راجع إلى ما فيها من سرِّ التحول والتَّبدُّل، فعزلوها عن مكانها وصَنَّـفُوا فيها كتباً مستقلة ومؤلفاتٍ خاصة.

وإلى هذا العلمِ وإظهارِه يشير الحديث الذي رواه ابنُ ماجه «**إذا لعَنَ آخِرُ هذه الأمة أوَّلَها فمن كان عنده علم فليظهرْه، فإنّ كاتمَ العلمِ يومئذٍ ككاتمِ ما أُنـزل على محمّد**»[٢].

والمعتَقَد أن العلم المراد هنا في أحد معانيه –والله أعلم– «**العلم بعلامات الساعة وركنيته**» لأن ما يترتب على الكتم يعادل كتم الوحي، وإظهار هذا العلم –إذا فهم الحديث بهذا المعنى– يكون واجباً عينياً.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

مَدْلُولُ إِحْياء سُنَّة المَواقف في فِقْه التَّحوُّلات

كانت التحولاتُ أهمَّ شاغلٍ يُشغِل ذهن رسول الله ﷺ من بعده؛ ولأن في التحولات ومجرياتها أخطرَ الفتن ومنافذَ الدَّمار، فقد كان لابدّ له -عليه الصلاة والسلام- أن يضعَ أصحابه أمام الأمر الواقع، ويرسُمَ لهم مخرج السلامة عند اشتباك الأمور، ويأتي حديث: العِرباضِ بن سارية المروي في الصحيح حاملاً رسالة الفصلِ ومجسِّداً موقفَ الإسلام من مجريات التحول، ويكاد هذا الحديث أن يكون قاعدة (الفقه الخاص بالتحولات) بكل رواياته، وخاصة أن رَاوِيهِ يؤكد أن هذا الحديث كان من آخر ما تكلم به ﷺ في حياته، فيكون بذلك على غاية من الأهمية في شأن هذا الفقه الخاص.

ولهذا فإن الذين لم يُولُوا هذا الفِقْهَ موقِعَاً ولا مكاناً في شُروحهم عدَلُوا عن معاني الحديث لتَتَّخِذ المعاني مفهوماً آخر ربما لا يعالج مسألة التَّحوُّل، وما يجب أن يُتَّخذَ معَها من مواقفَ شرعية، وإنما عالج قضايا الأحكام، ومفهوم الالتزام لثوابت الإسلام والإيمان والإحسان ذاتها، وبهذا انحصرت وظيفةُ الحديث الأساسية في ثلاثة أركان، وأُهمِلَ الرابعُ لسببٍ وآخَر، وظلّ الاضطرابُ والقلق أحَدَ أسباب الفتنة في سائر الأزمنة اللاحقة.

قَال النَّبـيُّ في الحديثِ الوارِدِ: عَليكُـمُ بسُـنَّتي شَـواهِدِي
وسُـنَّةِ الآتيـنَ بَعْـدِي خُلَفَـا عَضُّـوا عليهـا لا تَكُونُوا ضُعَفا

إشارة إلى الحديث «**عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عَضُّوا عليها**

بالنواجذ»[1]، وفي الحديث إشارةٌ واضحةٌ إلى المواقف التي أقامها ﷺ مع غيره، وأقامها من بعده خلفاؤه من أهل الحكم والعلم الذين اجتمعت فيهم شروط الخلافة، وهم «**المهديون**» من الهداية و «**الراشدون**» من الرشد.

وقد أشار الناظم إلى تأكيد ربط المواقف بالسنَّةِ، وأنّ السُّنَّـةَ في هذا الحديثِ لا تنصرف إلى القوليةِ والفعليةِ والتقريريةِ فتلك موقعها ومكانها غيرُ هذا، وإنما تقف عند سنَّةِ المواقف لرسول الله ولخلفائه، فانظر.

وليـس للأصحابِ مِن بعدِ النّبـي ... مِـن سُـنّةٍ مَكْتُوبَـةٍ فـي الكُتُـبِ
غَيـرَ الـذي قـد كان مِـنْ مَواقِفِ ... بَدَتْ سُلوكاً في الزمانِ المُجْحِفِ

يشير الناظم إلى أن الخلفاء سواء كانوا الأربعة أو غيرهم في مطلق المعنى ليس لهم هناك سنة مستقلة تُقرأ أو تُتَّبع تختلف عن سنة النبـي ﷺ، حيث يلزم من ذلك مدلولُ العِصمة لهم بعد رسول الله ﷺ، فيُفهَمُ من مدلولِ الحديثِ أنّ السنّةَ المقصودَ بها هنا هي الهُدى والسّلوك والمواقف. وفي الحديث إشارةٌ إلى تَعلُّمِها والعَمَلِ بها والوقوفِ عندها «**عَضُّوا عليها بالنواجذ**»، إذَنْ فما هي هذه السنَّةُ وما هوِيَّتُها وما موقِعُهَا مِن مسيرةِ الحياة؟

والقَصـدُ منهـا سُـنَّةُ التَّحَـوُّلِ ... ومـا يكـونُ مِن صِـراعِ الـدُّوَلِ

إذَنْ فالمقصود من قوله: «**عليكم بسنُتي وسنّة الخلفاء... الخ**» هو سنّة المواقف عند التحوُّلاتِ السياسيةِ والاجتماعيةِ وصراعِ الدول والجماعات والأحزاب والقبائل والفئات، وهذا التعريفُ للسنَّةِ يخرجُهَا عن المألوفِ في التأصيل الفقهي والأصولي أو اصطلاح المحدثين[2] أو مفهومٍ

(١) سبق تخريجه.

(٢) عرف المحدثون السنة: ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقِية أو خُلُقية أو سيرة سواء كانت قبل البعثة أو بعدها، وعرف الأصوليون السنة بأنها ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو

آخَرَ يرتبط ارتباطاً وثيقاً لفقه التحولات لا بغيره.

كمثـلِ مـا قد جـاءَ فـي الرِّوايةِ عَمَّـنْ سَـيُحْيِي سُـنَّةَ النُّبُـوَّةِ

يَنـالُ أجـراً وافيـاً لِمِئَـةِ مِـن شـهداءِ الشـرعِ والديانـةِ

يشير الناظم إلى تأكيدٍ آخَرَ حول مفهومِ سنة المواقف بحديث «**مَنْ أَحيا سُنّتي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتي فَلَهُ أجرُ مئةِ شَهيد**»[1]، وإلى أنّ إحياء السنة عند فساد الأمة إنما هو «**سنة المواقف**»، وليست رسومُ السنة المعلومة عند العلماء فقط.

عِنْـدَ فَسـادِ الأُمَّـةِ المَرْحُومَـةِ وضَعْفِها بـينَ القُوى المَشْؤُومَةِ

لحَقْنِـهِ الدمـاءَ بالتوحيـدِ وجَمْعِـهِ القلـوبَ بالتَّشْـدِيدِ

يشير إلى أن فساد الأمة تحولٌ في السُّلوك وضعفٌ عامٌّ في قرارها ودينها، وتحولٌ في العزة والشرف والإباء، بحيث يضعف صوتها أمام الدول أنداداً وأضداداً، فكل من أحيا سنة المواقف بإصلاح ما فسد منها وجمع قلوب الأمة وتوحيد كلمتها ولَـمِّ شَعْثها ودرء أسباب الفتن والصراعات المؤدية لسفك الدماء وتقطيع الأرحام والوشائج نال من الله أجر مائة شهيد، فالثواب الجزيل والمنح الكبـير يتلاءم مع المواقف المفضية إلى حقن الدماء، فيكتب الله له ثواب المائة الشهيد، ومثّل الناظم على هذا المفهوم، بقوله:

كَمَوْقِـفِ الإمامِ مِـن أَصْحابِ في شَـأْنِ حُكْمِ النّاسِ بانْتِخابِ

إِذْ بايَـعَ الصِّدِّيـقَ وهْـوَ مُقْتَنِـعْ ولـمْ يَشُـذَّ أو يُخَالِـفْ مـا اتُّبعْ

تقرير، وأما اصطلاح الفقهاء فهو ما ثبت عن النبي ﷺ من غير افتراض ولا وجوب، ويقابل الوجوب وغيره الأحكام الخمسة.

(١) سبق تخريجه.

يشير الناظم إلى أن سنة المواقف عند الخلفاء تشير إلى دلالة الاتباع بديلاً عما يشيعه البعض عن الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتأييد مفاهيمهم، فالإمام علي عند ملاحظة مواقفه من الخلافة نجده قد بايع الصديق مقتنعاً بذلك، سواء على ما ذكره الرواة من المبايعة لأبي بكر من اليوم الثاني أو الثالث من موت رسول الله أو بعد وفاة السيدة فاطمة رضي الله عنها على القول الآخر، وصار مستشاراً له طيلة فترة حكمه، وفعله هذا يعد موقفاً وسنة تتبع ويحتذى بها بعيدا عما اتخذه المحبون المفرطون، حيث لا يعقل أن يكون موقفه العام في الموافقة لأبـي بكر وعمر ثم يعمل في جانب آخر ضدهما، فهذه أخلاق المنافقين وليس أخلاق المؤمنين، ويؤكد الناظم هذا الموقف السامي من الإمام، بقوله:

ولـمْ يُجَيِّشْ أَحَداً ضِـدَّ القَرارْ   بَل رَضِيَ الأَمْرَ وكان مُسْتَشـارْ

يشير الناظم إلى سكون الإمام علي مع أصحاب الشأن، «ولم يجيّش أحداً ضد قرار» الحكم على عهد أبـي بكر ولا من بعده، ولو فعل ذلك لكان موقفاً يحتذى مع النص الذي يتَّخذه الآخَرون حجة معلومة لديه، ولا يليق به أن يسكت عنه أو أن يرضى بغيره، إذن فهو حجة في سكوته وحجة في انطوائه مع الخلفاء الراشدين، ويتوقف الاحتجاج بالنصوص الملزمة لغيره بتوقفه عن العمل بها، فموقفه حجة وكفى[1].[2]

---

(١) فهم بعض المغرضين من قولنا (حجة) أننا نشير إلى ما يفهمه آخرون عن مفهوم الحجة اصطلاحاً لدى بعض المذاهب وهذا تقوّل وبُهت.. فمقصودنا في لفظة الحجة معناها اللغوي، وهي: اجتماع شروط الإقناع أمام الخصم.. وليس لدينا أكثر من هذا فليُعلم.. اهـ

(٢) لفظة (البغاة) مأخوذ من لفظة الحديث: «**ويح عمار تقتله الفئة الباغية.. يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**» رواه البخاري، ولفظه لمسلم: «**بَئِسَ ابنُ سُمَيَّة تقتله الفئة الباغية**»، قال الحافظ ابن حجر: وفي قوله: «**تقتل عمار الفئة الباغية**» دلالةٌ واضحة على أن علياً ومن معه كانوا على الحق وأن من قاتلهم كانوا مخطئين في تأويلهم. «فتح الباري» (٦: ٦١٩). قال ابن تيمية : وهذا يدل على صحة إمامة علي ووجوب طاعته

وَمِثْلُـهُ صُلـحُ الإمـامِ الحَسَـنِ   مَـعَ البُغـاةِ مُـدْرِءاً للفِتَـنِ

أي: ويستشهد على مفهومِ سُنةِ المواقِفِ ما فعله الإمام الحسن مع محاربيه من أجل الحكم، فالبيعة الشرعية تُلزِمُه بمحاربة البغاة وعدم التخلي عن موقع القرار مهما كلَّف الثمن، ولكنّا نرى موقفه غير ذلك حيث اتخذ موقفاً لا يتوقعه أحد ولا يقفه إلَّا خليفة من خلفاء الدين أيّده ﷺ بقوله: «**إنّ ابني هذا سيّدٌ وسيُصلح الله به بين فئتينِ من المسلمين**»[1].

قال الناظم:

وقَد أَشَـارَ المُصْطَفَـى لمَوْقِفِهْ   وقـال هـذا سَـيِّدٌ كسَـلفِهِ

سـيُصْلِحُ اللهُ بِـهِ بـيـنَ الفِئاتْ   رَغْمَ الذي يَحِلُّ مِن سُوءِ افتِئَاتْ

يشير الناظم إلى تأييد الرسول ﷺ لسنة المواقف التي يتخذها الخلفاء في الفِتن.

ومـا جَـرَى مِـن فِتْنَـةِ التَّآمُـرِ   على الحُسَينِ في الصّراعِ الدّائِرِ

ضَحّـى لأجلِ الحَـقِّ واعتِدالِهِ   فصَـارَ دَرْسـاً مُقْنِعـاً لآلِـهِ

يشير الناظم إلى موقِفٍ آخَرَ من مواقِفِ السنة المشار إليها بسنة المواقف، وهي ما جرى للإمام الحسين الذي دَفَعَ به الدافعون من المحبِّين والمتعلِّقين ليتخذ موقفاً في سبيل إعادة الحقِّ إلى نِصابه معتمداً على الله ومستنداً إلى وعود الأنصار الذين خذلوه وتركوه فكان هذا الموقف درساً له ولآل بيته وسنةً يتعلمها آلُ البيت في التحوُّلات، وأنّ بعض المحبين النفعيين لا

وأن الداعي إلى طاعته داعٍ إلى الجنة والداعي إلى مقاتلته داعٍ إلى النار وإن كان متأولاً أو باغيا بلا تأويل. «بيعة الإمام علي بن أبي طالب» ص٧٥، ٧٦ حسن فرحان المالكي .

(١) رواه أصحاب السنن، ولفظ البخاري: «**إن ابني سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين**» .

يملكون عند اشتداد المِحَن غير التصلية والبكاء والنحيب والمدائح، ومن ثَمّ يعيشون على حساب آل البـيت، ويبلغون إلى مآربهم من خلال المواقف العكسية التي يتخذونها بتطويعِ النصوصِ وتحريفِ المنصوص.

ومَوْقِـفِ الإمامِ زَيـنِ العابدينْ بالزُّهْدِ في الدُّنيا معَ إِعلاءِ دِينْ

ومن سُنن المواقف موقفُ الإمام علي زين العابدين السجاد الذي ترك شأن الحياة الدنيا ومظاهرها، واتّجه إلى العلم والعمل لربه سبحانه وتعالى، وخاصَّة أنه قد رأى ما حَلَّ بوالده الحسين في كَربلاء وأهل بـيته من البلاء، فاتخذ موقفاً عملياً من الفتنة وأربابها إلى ساعة وفاته رحمه الله تعالى.

القُرْآنُ العظيمُ والسّنّةُ الشّريفةُ المصدرانِ الأساسيّانِ لفقهِ التَّحَوُّلات

كتـابُ رَبّـي مَصْـدَرُ الإسـنادِ ... وسَـنَّةُ المختـارِ خيـرِ هـادي

كلاهمـا الحـاوي علـى التَّحَوُّلِ ... ومـا تَـلا مِـن مَوْقِـفٍ فـي الأُوَلِ

ومـا أتـى مـن سـيرةٍ أو خبـرِ ... مُوَثَّـقِ النقـلِ بأهـلِ الأثـرِ

ومـا عَنَانـا فـي الزمـان الحاضـرِ ... ومـا سـيأتي فـي الجديدِ السـائرِ

مِـن عالَـمِ الدنيـا كـذاك الآخـرةْ ... في المسلمينَ والشعوبِ الكافرةْ

يشير الناظم إلى موقع القرآن العظيم والسنة الشريفة من فقه التحولات، فهما –أي: الكتاب والسنة– يعتبران المصدر الأول والثاني لثوابت فقه التحولات، ويأتي بعد ذلك ما وثقه العلماء من السير والآثار والأخبار، فهذه كلها تعد في (فقه التحولات) مصدر النقل والإثبات من جهة، ومصدر اتخاذ المواقف المتنوعة سلبا وإيجابا في كل مرحلة وعصر أمام كل ظاهرة فكرية أو عذاب أو آية أو معجزة من جهة أخرى.

كما أن من مادة (فقه التحولات) مجريات الزمان الحاضر وما ورد في المصادر المشار إليها من العلامات والأشراط، ومقابلة ذلك مع ما ورد في الأصلين، ليبرز مفهوم التحول وموقعه من السلامة ، أو الفساد، كما يعتني فقه التحول بما سيأتي من جديد الحوادث والوقائع ويضع لها العلائم المبينة حال الحدث وأربابه وموقفهم أيضا من السلامة أو الجنوح.

حتى ينتقل الأمر من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، فالانتقال للأفراد والشعوب والأمم بل

وهلاك العالم كله جزء من التحولات التي اندرجت في الفقه الإسلامي الخاص بعلامات الساعة وما تلاها، باعتبار انقسام الأمر إلى برزخين: شعوب مسلمة ولها شروطها في الدنيا وجزاؤها في الآخرة، وشعوب كافرة لها جنوحها وقواعدها المنحرفة في الدنيا وجزاؤها الموعود في الآخرة.

فالكافـرونَ حَرَّفُـوا التَّنزيـلا ... تَحَـوُّلاً عـن الهـدى مَهُـولا

وخالفـوا نَهْـجَ الرِّسـالاتِ التـي ... جـاءتْ لهـم بالعلـمِ والدِّيَانَـةِ

وأَكَّـدَ القـرآنُ مـا قـد حَرَّفُـوهْ ... كذا الحديثُ قد حَوَى ما صَحَّفُوهْ

يَـرْوِي لنـا تَسَلْسُـلَ الإيمـانِ ... ومـا جـرى مـن فِتْنَـةِ الشـيطانِ

يشير الناظم إلى عوامل الفساد المؤدية إلى التحول السلبي في مواقف الكافرين، وما نتج عن هذه المواقف من تحريف للكتب السماوية وتحول سافر عن الهداية والطاعة، ومخالفة صريحة لنهج الرسالات الشرعية، وأن هذا الانحراف الخطير لا يمكن تحجيمه ومعرفته وإدانته إلا بالنظر الواعي في القرآن والسنة، فهما دون غيرهما قد حفظا لنا تسلسل الإسناد الإيماني الشرعي في الشعوب كما حفظا لنا خطورة الانحراف الإنساني وما ترتب عليه من استتباع للشيطان وفتنته في الحياة.

فصارَ دِيـنُ المصطفى محمدِ ... مُعْتَمَـدَ التَّوْثِيـقِ طُـولَ الأَمَـدِ

وضَبَـطَ المُخْتَـارُ كُلَّ مُنْطَلَـقْ ... بما أتى عن الحديثِ في الفِرَقْ

يشير الناظم إلى الضابط الشرعي في فقه التحولات العالمية بين الأمم والشعوب وهو أن دين المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومصادره الموثقة هما الضابط الشرعي لقراءة التاريخ مربوطا بالديانات، ولا عبرة في هذه المعرفة بالمصادر التاريخية الوضعية ذات العلاقة

بالمنهج الشيطاني والاستتباع الإنساني، فهي مجرد معلومات استقرائية للظواهر المادية ودراسة عقلانية قائمة على الظن الذهني، لا على الحقيقة الربانية، قال تعالى في سورة النجم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾-أي: القرآن والسنة- ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾-أي: التفسير العقلاني المجرد- ﴿﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾-أي: أقصى ما عرفوا من العلم- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، ومن هذا المنحى نجد عند تأملنا لكتاب الله تعالى أن معظم الآيات وبعض السور إنما كانت مادتها المعروضة تعنى بفقه التحولات وتاريخ الدول والأمم والشعوب، ولأجل تثبيت هذا النموذج من العلم ندب الإسلام تكرار سورة الكهف كل جمعة للمسلمين، إذ تحتوي هذه السورة على العديد من فصول فقه التحولات في حياة الشعوب، وفيها ملامح شديدة الأثر حول مسالة التحولات والمواقف وارتباطها بالساعة، قال تعالى عن أهل الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

رسالةُ النبيِّ ﷺ تَحَوُّلٌ عَالَمِيٌّ في سَيْرِ الرِّسَالاتِ السَّمَاوِيَّةِ

قـد أُخِـذَ الميثـاقُ بالتصديـقِ　　　كمـا أتـى فـي النَّـصِّ للتَّوْثِيـقِ
علـى جميـعِ الأنبيـا والرُّسْـلِ　　　أَنْ يُؤمِنُـوا بدَعْـوَةِ المُفَضَّـلِ
وقَـالَ طَـهَ إِنَّـهُ المَرْسُـولُ　　　إلـى الـوَرَى كذلك المسـؤولُ
إِنْسـاً وجِنّـاً أَسْـوداً وأحمـرا　　　رسـالةً خاتمـةً إلـى الـورى
وكلُّ مَـن يَكْفُـرْ بهـا فـي النـارِ　　　كمـا أَتَـى فـي أَوْثَـقِ الأَخْبَـارِ

يشير الناظم إلى اختلاف مرحلة الرسالة الخاتمة النبوية عن بقية الرسالات السابقة في تاريخ الأمم، وأن هذا الاختلاف في المشروع جزء من فقه لتحولات المبينة عظمة وظيفة الرسالة الخاتمة.

فمن أهم ما يبين ذلك: أخذ الحق سبحانه وتعالى الميثاق على جميع الأنبياء والرسل أن من أدرك منهم النبي الخاتم ودعوته الشرعية أن يؤمن به وينصره.

ويؤكد هذا الأمر ما ذكره ابن سيد الناس في «عيون الأثر» : قال ابن إسحاق المطلبي : وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي يعيشه من قبله بالإيمان به والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه، يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في سورة آل عمران: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ -أي: ثقل ما حملتم من عهدي- قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فأخذ الله ميثاق النبيين جميعا بالتصديق له والنصر له ممن خالفه، وأدَّوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين.اهـ.

وقد أثبت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عالمية دعوته الخاتمة وموقفه صلى الله عليه وآله وسلم المتميز في مجموع الرسالات، فعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**» متفق عليه، وروى البخاري بسنده إلى أبي الدرداء قال فذكر الحديث، وفيه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**»، وروى جابر بن عبدالله الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود**» رواه أحمد في مسنده.

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**والذي نفسُ محمدٍ بيده.. لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرْسِلْتُ به إلا كان من أصحابِ النار**» أخرجه أحمد في مسنده والحاكم في «المستدرك» .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فذكر الحديث، وقال لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ فأرسله إلى الجن والإنس، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» .

وعن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**من أدركتُ حيّاً ولم يولدْ بعدي**» .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أرسلتُ إلى الجن والإنس وإلى كل أحمر وأسود**» أخرجه البيهقي في «الدلائل» .

فقه التَّحول من عَصْرِ ما قَبْلَ الإسْلام

قَدْ جَاءَ فـي التَّـوراةِ والإنجيلِ | وفـي الزَّبُـور عَهـدُ خيـرِ جيلِ
عَهْـدُ النبيِّ المُصْطَفَـى اليَمَانِي | وصَاحـبُ القُـرْآنِ والمَثَانِـي
فَـكَانَ هـذا أَوّلَ التَحـوّلِ | ومَلْحَـظَ التغييـرِ والتبَـدُّلِ
إذْ قَـدِمَ الأحبـارُ والرُّهبـانُ | جزيـرةً يحيـا بهـا الإيمـانُ
لأنّهـم قَـدْ عَرفُـوا العَلائمَـا | فـكانَ هَـذا مَوقِفـاً مُلائمـا

يشير الناظم إلى أن فقهَ التحولات يبرز من خلال ما قد ذكرته كتب السماء الأولى حول مسألة ظهور خير البرية ﷺ، وأنّ هذه المعلومات الواردة في الكتب السماوية كانت سبباً في قرارات ومواقف اتخذها البعض آنذاك بهذا الشأن، ومن ذلك كثرة نزوحهم إلى جزيرة العرب تَحسُّباً لظهور مرحلة نَبيٍّ آخِرِ الزّمان، وأصلُ هذا التحول ما جاء في الكتب السماوية السابقة كالتَّوراة والإنجيل والزّبور، ومن هذه الإشارات والبشارات جاءت سُنن المواقف لدى الأحبار والرهبان وغيرهم من علماء اليهود والنصارى الملتزمين بالكتب السماوية وإشاراتها.

فِقْهُ التَّحَولات بِميلادِ الرَسول ﷺ

بُـروزُهُ قَـدْ كَان رَمْـزَاً وعَلَـمْ وآيـةً قَـدْ أُنزلـتْ عَلـى الأُمـمْ

فَقَـدْ بَـدَا نُـورٌ مَـعَ الـوِلادةْ فـي كَـونِ ربـي حَيثُمـا أرادَهْ

وانْشـقَ إيوانٌ لكِسْـرَى وانهَدَمْ وأُخْمِدَتْ للفُـرسِ نَارٌ تَضْطَرِمْ

ورُمِـيَ الجِـنُّ لَـدى اسْـتِراقِ بشُـهبٍ تَنْقَـضُّ باحتـراقِ

يُبـرِزُ أَنّ الفِقْـهَ فـي التَحـوّلِ علـمٌ جَديـرٌ قيِّـمُ التّأَمُّـلِ

وفِيـه إحيـاءٌ لِفقْـهِ المُصْطَفَـى ونظـرٌ للـذاتِ ذاتِ الاقتفـاءَ

إذ كان مَـا كَان مِـن الأخبـارِ وما جَـرَى من مَوْقِـفِ الأحبارِ

يشير الناظم إلى التحولات التي عرفها الكون مرافقة لميلاد الرسول ﷺ وأثبتتها كتب التفسير والحديث، وخاصة ما ثبت وصح في هذا المضمار كبروز النور مع ولادته، وما شُوهد من قصور الشام والعراق، وانشقاق إيوان كسرى كعلامةٍ لزوال ملكه وتحول حاله، وإنخمادِ نار الفرس الموقدة من ألف عام، ورميِ الجن بالشُّهب من السماء كما ورد في سورة الجن، وهي سورة هامة في مدلولات فقه التحولات وتأكيد قرآني على أهمية هذا العلم الشرعي، وغير ذلك مما يفيد اهتمام الوحي بما يحصل من تحول كوني وتغير في مجرى بعض الظواهر، ومنها علامة بروز النبي الخاتم ﷺ.

فقهُ التّحوّلاتِ قُبيل مَرْحلة الوَحي

مِنْ حُجَّـةِ اللهِ ابتعـاثُ الطَّاهِرِ　　مـن بعـدِ كفـرٍ وضـلالٍ ظَاهِرِ

مِـنْ أَجْـلِ أنْ يَمِيزَ بيـن الخَلقِ　　مِـنْ كَافـرٍ ومُؤمـنٍ بالحـقِّ

وكـم جَـرتْ مواقـفٌ عَديـدةْ　　قـد أكَّـدتْ حكمتَـهُ السـديدةْ

كمَوقِـفِ التَحْكِيـم فِـي رَفْـعِ الحَجَـرْ　　إِذْ حَسَمَ المَوْقِفَ وانْزَاحَ الخَطَرْ

يشير الناظم إلى ما برز من تحولات خاصة سبقت مرحلة الوحي كان بها تعميقُ عرى الناس بمراد الله في نبيه ﷺ، وكيف كان عليه الصلاة والسلام يتمتع بحبِّ الناس وثقتهم فيه وحديثهم عنه وخوفهم عليه، وما أجرى الله من سر الحفظ والعَون حتى برز في المحيط عَلَماً ومثالاً لدى أشباهه وأمثاله من شبابِ مَكَّةَ وقدوةً حتى سمَّوْهُ الأمينَ الصادق، وهو لدى عقلاء القوم ووجهائهم حَكَمٌ وعَدلٌ يُرجَع إلى رأيه ويؤخذ بكلامه، كما هو في موقف التحكيم، وقد ذكرت بعض كتب السير أن في ذلك اليوم الذي أجمع فيه القوم على تحكيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برز لهم الشيطان في صورة شيخ نجدي ينهاهم عن اتباعهم لحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويعيرهم أن يكون عقلاؤهم وحكماؤهم ينزلون لرأي شاب صغير السن فيهم، وفي هذا الموقف إشارة إلى أن إبليس كان أيضا يرقب أمر ظهور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويخذل الناس عن الأخذ برأيه واتباعه.

تَحوُّلاتُ الغَارِ ونُزولُ الوَحي

قَـدْ رَغِـبَ المُختـارُ أنْ يَعْتَزِلاَ — في الغَارِ لا يَرْجُو اتِّصالاً بالمَلاَ
كمَوقِـفٍ يَـرَاهُ أَسْـمَى أَثَـرَا — مُسـتَغْرِقاً فِيمَا يَرَى دُونَ الوَرَى
حَتَى نُزولِ الوَحِي في الغَارِ جِهارْ — تَحـوُّلاً قَدْ جَاءَ مِـنْ غَيرِ انتظارْ
فَعَـادَ طَـه أَهْلَـه مُستعجلاَ — مخاطبـاً خديجـةً مُنْفَعِـلاَ
مطالِبـاً لهـا بـأن تزمِّلَـه — ممّـا اعتـراهُ مِـن أمـورٍ مُثقِلَـه
فَزَمَّلَتْـهُ ثُـمَّ قالـتْ نَذهـبُ — إلى الَّـذي في عِلْمـه لا يكذِبُ
وُرَيقَـةُ ابـنُ نَوفَـلٍ قَـد عَرفَـا — مِنْ كُتُبِ التَّنـزيلِ ما يُبْدِي الخَفَا
فكانـتِ البَشـارَةُ المباركَـةْ — بأَنَّـهُ النَّامُـوسُ حَقَّـاً باركَـهْ

يشير الناظم أن فقه التحولات في هذه المرحلة ما أجراه الله على قلب المصطفى ﷺ من الرغبة في الخلوة والابتعاد عن محيط الحركة العامة واستمراره على هذا الموقف حتى أفاض الله عليه بركات الوحي المنـزل، وكان الوحي (تحولاً) جديداً أخرجه ﷺ من موقفه الأول، فذهب إلى خديجة حاملاً معه ثقل الوحي ومفاجأة العطاء الرباني، وقد استوعبت السير وكتب التاريخ وقائع التحولات في هذه المرحلة وما قابله رسول الله ﷺ من المواقف، وما كان من خديجة رضي الله تعالى عنها مع رسول الله ﷺ من مواقف هامة شَدت من عزمه، وقوّت من موقفه مع بروز هذه التحولات.

تَتابعُ الوَحيِ واستمرارُه

وبَعـدُ جَـاءَ المَوقِـفُ القُرآنـي ... يَشُـدُّ أَزْرَ المُصْطَفـى العَدْنَانِي
بِوصْفِـهِ بيـن المَـلا مُدَّثِّـرَا ... يَقُـولُ: قُـمْ بَأمْرِنَـا فَأَنْـذِرَا
حَتَّـى اَسْـتَقامَ الشَّـأنُ عِنـدَ المُصْطَفَـى ... وصَـارَ يَأْبَى بَعـدَ هَـذا الإخْتِفَا
يَشْـتَاقُ جِبرائيـلَ كَيْ يَسْـتَمِعَهْ ... مُسْـتَتْبِعاً قُرْآنَـهُ لِيَجْمَعَـهْ

يشير الناظم إلى أن المرحلة الثانية في فقه التحول بنـزول الوحي وبعد أن أدرك رسول الله ﷺ عظمة ما أُوتي وبرز موقعه جلياً بمؤازرَة زوجته خديجة رضي الله عنها وبما سمعه من ورقة بن نوفل، بدأ القرآن يحدُوْهُ إلى اتخاذ مواقف البروز والظهور والانطلاق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[2]، حتى استقام الأمر لدى رسول الله ﷺ وتعزز موقفه وصار يتلهّفُ لنـزولِ جبريل وسماع الوحي الشريف ويحزَنُ لتأخُّره وبطئه عليه.

(١) المزمل:١.
(٢) المدثر:١.

تَحوُّلاتُ مَا بَعد نُزولِ الوَحي

وأَوّلُ التَحوّلِ الّذي طَرَا
في مَكّةٍ ضِدَّ الرّسولِ مُذْ قَرَا

رفضُ قريشٍ ما أَتَى بالعَلَنِ
وأَوْغَلُوا في شَبِّ نارِ الفِتَنِ

فاتّخذَ المُخْتَارُ مِنهم مَّوقِفا
بِأَدَبٍ مُصْطَبِراً عَلَى الجَفَا

يَدْعُوهُمُ بِرَأفَةٍ ورَحمةِ
ويَجْتَبِيهمْ بِصُنوفِ الحِكْمةِ

في مكةٍ وفي بِلادِ الطائفِ
مُتَّخِذاً لأشرفِ المواقِفِ

وفَوقَ هذا رَجَمُوهُ بالحِجارْ
حَتَى أَسَالُوا دَمَهُ مِنْ حَيثُ سَارْ

فعَادَ يَشْكُو مَا بِهِ لرَبِّهِ
وجَاءَ جِبرائيلُ نَحوَ دَرْبِهِ

يَقولُ هَذا مَلَكُ الجِبالِ
مُستَطلعاً طبيعةَ الأَحْوالِ

مُسْتَأذِناً أَنْ يُطْبِقَ الجِبَالاَ
ويَسْحَقَ النِّساءَ والرّجَالاَ

فقال: طَه ليس هذا مَطْلَبِي
إِنِي لأرجُو مِنْهُمُ جِيْلاً أبِيْ

يُقِيمُ هَذا الدّينَ حَقاً ويُشِيدْ
مَعاقلَ الإسلامِ بالوحْيِ السّدِيدْ

يشير الناظم إلى حصول تحولات جديدة في الواقع المعاش مع بروز الرسول ﷺ بدعوته الخيرة، حيث رأى المشركون تحولاً جديداً في حياة المصطفى فاتخذوا موقفاً سلبياً يتلاءم مع الكفر والكفار، فحاربوا دعوته علناً وأثاروا ضده وضدّ ما جاء به كل شيء في واقع مكة، وما حولها، ومع هذا الموقف السلبي فقد شعَر رسول الله ﷺ بثقل الأمر الذي جاء به وخطورة موقف الكفار منه ومن الدعوة، فألزم عليه الصلاة والسلام نفسه موقفاً يتلاءم مع خُلُقِه ودِينِه

بالصبر والحلم والأناة والتحمل للأذى خلال سنوات العهد المكي، بل زاد صبره وتحمله بعد موت السيدة خديجة بنت خويلد وموت عمه أبي طالب، إذ كان موتهما تحولا اقتضى الزيادة منه صلى الله عليه وآله وسلم في التحمل والصبر، وحتى عندما ذهب إلى الطائف مستنصراً القوم فكان منهم ما كان، وجاء ملك الجبال مستأذناً أن يطبق عليهم الأخشبَين فأَبى رسول الله ﷺ ونظر إلى المستقبل وما يجريه الله من تحوُّلٍ فيه، وقال ما قال من أمله في المستقبل القادم، والنظر إلى الأجيال الذين في أصلاب آبائهم: «**إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يتولى هذا الدين**» أو ما في معناه، وكان الأمرُ كذلك.

تَحوُّلاتُ ما قَبل الهِجْرة

لّمـا رَأَى طَـهَ الأذَى يَسْـتَفْحِلُ
في المُسْتَضعفِينَ والعِدَالِمْ يُمْهِلُوا

أَشَـارَ للأتبـاعِ أَنْ يُهَاجِـرُوا
لأرضِ أَحَبْـاشٍ عَسـى يُنَاصَـرُوا

وعَقَـدَ العُهـودَ فـي أيّـامِ حَـجْ
مـع الذيـن وَفَـدُوا مـن خيـرِ فَجْ

مِـنْ فتيـةِ الأوسِ كَـذا والخزرجِ
مـن عَاهـدوا طَـه ببـذلِ المُهَـجِ

وبَعـدَ مَـوتِ عَمِّـهِ وزَوجتِـهْ
زَادَ الأَذَى والصَـدُّ ضِـدَّ دَعْوتِـهْ

فَجَـاءَتِ الدّعـوةُ مِنْ رَبِّ السَّـمَا
لِيصْعَـدَ المُخْتَـارُ مِعْـرَاجَ السَّـما

وعَـادَ مَسْـرُوراً بِمَـا قَـدْ مُنِحَـا
وصَـدْرُهُ مُبْتَهِجَـاً مُنْشَـرِحَا

وأَخْبَـرَ القَـومَ بِمَـا قَـدْ شَـاهَدَهْ
فكَذَّبُـوهُ واسَـتْخَفُّوا شَـاهِدَه

وصَـدّقَ الصِّديـقُ مَـا قَدْ جَـاءَ بِهْ
فَنَـالَ بالتَّصْديـقِ مَـا قَدْ خُـصّ بِهْ

يشير الناظم إلى تحوُّلاتِ ما قبل الهجرة واشتداد أذى المشركين، وما كان من مواقف وقفها رسول الله ﷺ في سبيل حماية أتباعه من المستضعفين فأمرهم بالهجرة الأولى إلى الحبشة، وما اتخذه ﷺ من موقف يشير إلى حسن التدبير في لقائه الأول والثاني مع وفود الحج من الأوس والخزرج، وما تمَّ عليه الاتفاق عند هجرة الرسول ﷺ من حمايته ونصرته.

ثم أشار الناظم إلى ما أراد الله لهذا النبي ﷺ من الكرامة والرِّفعةِ بمنحةِ «الإسراءِ والمعراجِ» وما هيَّأَهُ الله له بهذا العطاء العظيم من تحوُّلٍ في سِرِّه وجَهرِه أكسبه مواقفَ جديدة وعزماتٍ

أكيدة[1]، وهذه كلُّها نماذجُ مختصرةٌ من تحولات المرحلة وما كان أمامها من مواقفَ سديدة، يمكن التعرف على تفصيلاتها في أمهات السيرة ، أما هنا فنكتفي بسرد الأحداث وذكر المواقف حِيالَها.

---

(١) بل يعد الإسراء والمعرج تحولا هاما في تاريخ الرسالة المحمدية كلها، فوقائع الرحلة على ظاهر الأرض بين مكة وبيت المقدس تكشف سر تحدي الحق للعقلاء من مشركي قريش والعرب، كما يكشف سر الرحلة من بيت المقدس إلى عالم السماوات العلى وما فوقها مدى استيعاب المسلمين عطاء الله الأبدي لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما يتجاوز حدود الزمان والمكان والإمكان، ولهذا نجد الصديق رضي الله عنه ساعة سؤاله عن الإسراء والتصديق بما قاله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن قال ذلك فقد صدق، واستدل بما قد أجراه الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم من ارتباط بعالم السماء ونزول جبريل عليه فقال: وكيف لا نصدقه وهو الذي يأتيه جبريل بخبر السماء في اليوم والليلة؟

لقد كانت قصة الإسراء والمعراج تحولا كبيرا في مستوى ثقافات الشعوب كلها، وتحديا خطيرا لمجريات المألوف واستعدادات العقل الإنساني المجرد، ولهذا فإن قراءة وقائعها بتأن وتمعن بدءا بالآيات القرآنية المعبرة عن هذا الحدث ومرورا بالأحاديث الشريفة الحاملة سر الوقائع التي شهدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رحلته الكبرى في العالمين الدنيوي والأخروي، وما تيسر له من خرق العادة في صور شتى بدءا بالبراق وحركته ومرورا بالتقائه مع الأنبياء والرسل والملائكة في بيت المقدس، ونهاية بعروجه من سماء إلى سماء والالتقاء في كل سماء ببعض الأنبياء والرسل ورؤية الجنة والنار وسدرة المنتهى واختراق الحجب حتى المقام الأعلى، الذي عبر عنه سبحانه بقوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ٨-١١].

كل هذا ينقل المفهوم العقلي النظري إلى حالة من الذهول والاستغراب عند التفكر، ولا مخرج ولا مناص من هذا الذهول إلا بالتسليم وإسقاط كافة التصورات الذهنية العقلانية ليندرج العقل والقلب في بحر من الاطمئنان والتسليم، وينتقل الوعي إلى قبول ما لا يقبل وتصديق ما لا يصدق ومعرفة ما لا يعرف، كحالة إيمانية ترفع مستوى العقل ذاته إلى تجريد الأسباب المدركة، والغوص في عمق الحقيقة التي أوجدت الإنسان من العدم، وأبرزت فيه سر العلم والقلم، فسبحانه جل وعلا.. علم الإنسان ما لم يعلم .

الهِجْرَةُ.. تَحوُّلاتٌ ومَواقِفُ..

وجَـاءَ أَمْـرُ اللـهِ بالمُغَـادَرةْ مِـنْ مَكّـةٍ لطِيبـةِ المُنَاصِـرَةْ
فَهَاجَـرُوا فِـي خِفْيـةٍ وحَـذَرِ حَتَّى فَشَـا أَمْرُ الخُـرُوجِ الأَكْبَرِ
وأَقْلَـقَ الكُّفـارَ إِخْـلاءُ البَلَـدْ مـا بَيْـنَ أُمٍّ وأَبٍ كَـذا وَلَـدْ
فاجْتَمَعُـوا فِي الـدَّارِ دَارِ النَّدْوةِ وجَاءهُـمْ إبليـسُ رأسُ الفتنـةِ
كَأنّـهُ مِنْ أَهلِ نَجْـدٍ في اللِّباسْ لأنّهُـم فِي رَأيِـهِ مِنْ خَيـرِ نَاسْ
واتَّفَقُـوا عَلـى اتّخـاذِ المَوْقِفِ بقَتْلِ طـهَ وَهْـوَ فِي البَيْتِ خَفِيْ
فجَـاءَ جِبْرائيـلُ للمُخْتَـارِ وقَـالَ: جَـاءَ القـومُ للحصـارِ
فَاخْرُجْ فَمكْرُ اللهِ فَوقَ مَكْرِهِمْ ومَـا عَليكَ مِن صُنُوفِ شَـرِّهِمْ
فَـكَانَ مَـا كَانَ مِـنَ التّدْبِيـرِ وحِكْمَـةِ الـربِّ العَلِـيْ القَدِيرِ
تَحـوُّلٌ يَجْـري بَأمـرِ اللـهِ ومَوقـفٌ يحميـه مِـن أَشْـباهِ
تَمـازَجَ التَّدبيـرُ بالقَضـاءِ فـي لَوحـةٍ عَجِيبـةِ الأشـياءِ

أشار الناظم إلى صدور الأمر الإلهي بالهجرة إلى المدينة، وكان قرارُها في حياة المسلمين تحوُّلاً خطيراً في المرحلة بعمومها، أدَّى إلى استنفارٍ شديدٍ بين الطرفين، فالكفارُ أحسُّوا بأنّ الإخلاءَ الخفي لمكة يُهدِّد البلادَ وأمنها، ولذلك اتَّخذوا موقفَ الاجتماع في دار الندوة، وكيف وجد الشيطانُ في هذا الموقف العنيد بغيتَه فجاءَ بذاتِهِ مشاركاً في قرار القتل والإمضاء عليه.

وكيف جعل اللهُ موقِفَ التَّحدِّي مع الكفارِ ساعةَ شعورهم بالقوة، وحسنِ المكر والتدبير

فأَمر نبيه صلى الله عليه وسلم ﷺ بالخروج من المنزل في تلك الساعة الحرجة وأجرى الله أسباب الحفظ والكلأة والنصر لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى وصوله إلى غار ثور، وكيف أجرى الله انفعال الظواهر خارج دائرة المألوف ليصبح كل شيء في أعين الكفار من جنس المألوف فتطمئن عقولهم وقلوبهم لما في مدركاتهم من الفهم والتصور، فلا يصلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جهة ولا يتجاوز حدود عقولهم الضيقة من جهة أخرى، مما يشيرُ إلى أنّ في فقه التحوُّلات والمواقفِ وما ترتب عليها من المواقف والنتائج: درسٌ عظيمٌ للمسلمين وإعادة واعية لمدرسة النبوة مدرسة الاقتداء والاهتداء، سواء عند ترجيح مقومات العقل والتدبير أو عند تعطيل مستوى العقل للانطواء في إعجاز الآيات وانفعالات الظواهر بأمر الله، وكم في وقائع القصة من دروس.

فعلى سبيل المثال: نجد أنّ الابتلاء الذي تعرّض له ﷺ في سبيل الهجرة حتى وصل إلى المدينة مجهداً مكدوداً، إنما يحمِلُ تعليماً خاصّاً لأمته، تتعلم من خلاله معنى المكابدة أوالمجاهدة أو الصبر على المكاره في سبيل تحقيق الأهداف والغايات، وإلَّا فإن الله قادرٌ على أن يجريَ له في الهجرة ما أجراه له في الإسراء والمعراج فيحمله البُراق إلى المدينةِ دونَ الحاجة لأصناف المواجهة والمراقبة والحذر وطول المرحلة، ولكنّ الهجرة وغيرَها من حياة رسول الله إنما هي مدرسة المواقف لأمته، وهي الوجه الإيجابي المعادل لما أجراه الله من سرعة الرحلة السابقة ليلة الإسراء والمعراج، وكم في هذه الوقائع من فقه مكنون، لا زالت أمة القرآن تحتاج إلى إبرازه وإخراجه من حيز الصدور إلى مساحة السطور، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أسوة وقدوة سواء في حال استخدامه الواعي للعقل المحاط بالعناية أو في حالة تسليمه الكلي لأمر الله تعالى في توجيهه وما يجري له من انفعالات وإعجاز.

وبهذا وذاك يعلِّم النبيُّ ﷺ أمّتَه مفهومَ التوكل من خلال الأخذ بالأسباب حينا، وحينا

يضع الرسول أتباعَه في محكِّ الاختبار والابتلاء ليربطوا توكلهم بما يجريه الله، وكيف يعطي الرسولُ للعقل وحسن التدبير الإنساني موقعَه في أشد حالاتِ الحرج والخطر مقروناً بأمر الله، وكيف تتوقف مسألة التدبير والعقل في مواقع أخرى بأمر الله أيضا.

ولنا في مرحلة ما قبل الهجرة -لو تفكرنا في تفاصِيلها- مدرسةٌ واسعةُ المعاني والمباني تحمِل من فقهِ التَّحَوُّلات والمواقف ما يُبرِز أهمية السيرة المباركة ويوسِّع مشاهدها المعرفية، علماً وعملاً وسلوكاً ومواقف.

مَوْقِعُ المرحلةِ المكِّيَّةِ من الاقتداءِ والاهتداءِ

مرحلـةُ البَعْثَـةِ فـي أمِّ القـرى ... مدرسـةٌ شـرعيةٌ تَهْدِي الورى
إلى الذي فيه الخلاصُ والهدى ... بين الشـعوبِ إنْ فَهِمْنا الإقتِدا
فـكلُّ ما قد مـر فيهـا أو حَصَلْ ... أَصْلُ اهتداءٍ واقتداءٍ في العملْ
وكلُّ مـا قـد كان مـن مواقـفِ ... مـعَ المُحِـبِّ أو مـع المخالفِ
هو الطريقُ والأسـاسُ العَمَلِيْ ... في لاحقِ الأزمانِ نحوَ الأفضلِ
فـلا مجـالَ بعـدَ أخـلاقِ النبي ... للاجتهـادِ في نصـوصِ الكتبِ
لأنّ منصـوصَ الأصـولِ هَدْيُهُ ... ومـا جـرى منه ومـا أقَـرَّهُ
فالمخرجُ السـليم فيما أَشْـكَلا ... عَوْدُ الجميعِ نحوَ طه المرسـلا
والغـوصُ في مرحلـة التأصيلِ ... مـن غيـر تزييـفٍ ولا تضليـلِ
فالحـقُّ فيمـا كان مـن أفعالِـهِ ... وكلِّ مـا قـد صَـحَّ مـن أقوالِـهِ

يشير الناظم في هذه الخلاصة إلى أهمية دراسة المرحلة المكية وما تفردت به من المواقف والعظات والعبر إذا تأملنا سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مع أبتاعه ومع معارضيه، وما تميز به صلى الله عليه وآله وسلم من الأخلاق العالية التي ألهمه الله إياها أمام طغيان قريش والأعراب وهم يملكون قرار الحكم والاستقرار في مكة وما حولها، وكيف عاملهم صلى الله عليه وآله وسلم بالحكمة والموعظة الحسنة وطويل الصبر والتحمل حتى استجلب العديد من الكفار إلى الإسلام، وإلى أن في هذه المواقف والأخلاق مدرسة مستمرة النفع ولإفادة المسلمين

أجمعين في كل عصر ومرحلة، حيث كانت هذه المرحلة في عمق تاريخ البعثة محاطة بهيمنة الكافر وجبروته، وهي ما تسمى بمرحلة الجاهلية الأولى.

ولا شك أن معالم المرحلة القادمة تشير إلى شمول آثار الجاهلية الثانية في العالم، وهي سيادة قرار الكفر والكافر على الشعوب، وقد برزت معالمها في أطروحات العولمة المعاصرة، والله غالب على أمره، ولكن عمق دراستنا للمرحلة المكية خصوصا ربما فتح لنا كأمة ذات منهج شرعي واع طريقا للسلامة ومنهجا للتعامل المشروع في المرحلة المضطربة، وبما يتفتح للدارس المتعمق أساليب الصبر والأخلاق والتوازن مع الغير دون إفراطٍ ولا تفريطٍ أو تنازلٍ مُخِلٍّ أو تعاونٍ مذِلٍّ، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

تَحوَّلاتُ ومَواقِفُ مَرْحَلةِ ما بَعد الهِجْرة

مُنْـذُ وُصـولِ المُصْطفَى لطيبةِ
والبِشْـرُ يَغْشَـاهَا كَمثـلِ الهَيبةِ

وَوَقَـفَ النَّـاسُ وقُوفَـاً مُلْتَـزِمْ
لمّـا رَأَوا طَــهَ إليهـم قَـدْ قَدِمَ

وصَمَتَ الأَعْـدَاءُ صَمْتَاً مُطْبِقَا
وكُلّهـم مِمّـا رَأى قَـد اَشْـفَقَا

واَنْتَقلَـتْ مَظَاهِـرُ المَدْينـةِ
مِنْ حَالَةِ المَاضِي إلى السَّكِيْنةِ

واَتَّخـذَ المُخْتَـارُ مِـن وَحِـي الصَّمَـدْ
مَواقِفَـاً جَديـدةً تُحيِـي البَلَـدْ

مِنْهـا بِنـاءُ المَسْـجدِ الحَـرامِ
ليجمـعَ النَّـاس عَلى الإسـلامِ

وجَمَعَ الخَزْرجَ والأَوس سَـوا
فِي وَحْدَةِ الأَنْصارِ صِدْقَاً وانْطِوا

كَذاكَ آخَى بَيْنَ مَنْ قَدْ هَاجَرُوا
وعُصْبةِ الأَنْصَارِ مِّمنْ نَاصَرُوا

وعَاهَـدُوهُ عَهـدَ صِـدقٍ وَوَفَـا
أَنْ يَنْصُروا الإسلامَ جَهْرَاً وخَفَا

كان وصولُ رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة تحولاً هاماً وفاصلاً زمنياً بين مرحلتين حسَّاسَتين. أولهما ما أشارت إليه كتبُ السُّنَةِ مِن حسن استقبال المدينة لنبيها الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام،وما أسعد الله به قلب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وهو يشهد تحول الحال ما بين موقف أهل مكة الذين اضطروه للخروج متخفيا متواريا وبين أهل المدينة الذين فتحوا صدورهم للنبي الخاتم والدين الحاكم، وصاروا يتسابقون إلى السلام عليه واستضافته في بيوتهم بعد أن أحسنوا ضيافته في قلوبهم.

لقد بقيت أبيات الولدان وهزيجهم في الاستقبال أعظم شاهد على شرف التحول، وسلامة المواقف المدنيّة :

طَلَعَ البدرُ علينا　　　مِن ثَنِيّاتِ الوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ علينا　　　ما دَعَا للهِ داعْ

وما تلا هذا الموقف الرائع من قراراتٍ ومواقفَ جديدةٍ أَسَّسَ بها ﷺ بناء الجبهة الداخلية لدولة الإسلام الجديدة، فكانت تِلْكُم المواقفُ التي أشار إليها الناظم كبناء المسجد الحرام وما رافق هذا البناء من أعاجيب المواقف التي تستحق التوقف والإشارة للراغب المتفهم، كـ«**جمع الأوس والخزرج**» في وحدة جديدة تحمل مسمى (**الأنصار**) وما في هذا الموقف الجديد من تحوُّل هام في شأن العلاقات الاجتماعية وخروج الفريقين من قاموس الألفاظ القديم الذي كان سبباً في إثارة الصراع والنـزاع ومن خلفه اليهود إلى قاموس تعبيري جديد يحمل تفاؤلاً جديداً بمسمى الأنصار.

ثم موقفُ المؤاخاة الذي سَبَق به رسول الله ﷺ الزمن واختزل مساحة المعالجاتِ كلِّها عبر التاريخ، فقد كان لهذا الموقف أعظمُ التأثير في وحدة الشعب بعمومه، وتمييز جماعة الإسلام عن غيرهم وبموقف سياسي وعسكري واجتماعي متميز تجاوز الحاجة للتخطيط والدراسة والميزانيات وجدولة التنفيذ.

فالقرار الحاسم في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار القائم على معاني الحب والرحمة والسلام والأخوة في الله مَكَّنَ الدولة الفَتِيَّةَ من ضمان الاستقرار والاستمرار بأقلِّ التكاليف وأفضل الوسائل، وآتَتِ المؤاخاةُ أُكُلَها في حينها، كنموذج عمَلي للإصلاحات الضرورية في علاقات المسلمين قبل الإصلاحات المادية.

قِراءَةٌ جَدِيدَةٌ للمُجْتَمَعِ المَدَنيِّ على حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن خِلالِ ثَوَابِتِ فِقْهِ التَّحَوُّلاتِ

يقصد بالقراءة الجديدة عمق النظر في المرحلة المدنية التي طرأ فيها تحول كبير وهام من حيثيات عدة، أبرزت لَفّاً من مواقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجديد علمه وعظيم رسالته ومسؤوليته، ما يؤكد حقيقة ما قد قيل: إنها مرحلة ترسيخ ثوابت الأمة إلى يوم الدين، فلن يأتي أحد بعده بجديد، ولن يبلغ عقل مهما أوتي من الملكات مبلغ صاحب الوعي السديد والوحي الأكيد.

فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم غرس البذرة ورعاها وحدد أسباب نجاحها وعوامل فسادها من داخل المدينة المباركة، فالذين كتب الله لهم السلامة والأمان في الدارين جرت لهم أسباب التوفيق منذ باكورة هذه المرحلة، والذين كتب الله عليهم الشقوة والتحريش والإرجاف وتحمل مسؤولية الانحراف ومدراسه عبر التاريخ اللاحق برزوا على صفة النفاق والفسوق والتردد والفساد منذ تلك المرحلة.

فكانت تلك المرحلة هي البوصلة التاريخية المحددة وجهة المجتمعات والجماعات بدءا من رجال النصرة: الأنصار والمهاجرين، ونهاية بيأجوج ومأجوج وعساكر الدجل والدجاجلة، إلى ساعة النفخ في الصور.

ومن أجل إيضاح هذه الصورة المتحركة عبر الأمكنة والأزمنة فقد رفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستوى الاستعداد لفقه التحولات بين أصحابه منذ بسطه مادة هذا العلم

الهام والخطير، لينظروا بأعينهم وقلوبهم مساحة الزمن وتحولاته وما سيجري فيه من خير أو شر أو إشارة أو نذارة أو استقامة أو انحراف، سواء في مستوى الحكم والقرار، أو العلم والاستقرار، أو غيرهما من أسباب الحياة العامة والخاصة، بل اعتنى صلى الله عليه وآله وسلم بمن حوله من الأقارب والنساء والأصحاب وكشف لكثير منهم ما ينتظره في المستقبل القريب وما ينتظره غيره في المستقبل البعيد، بل ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى بالناس صلاة الفجر ثم قام خطيبا حتى صلاة الظهر فنزل ثم صلى بهم الظهر، ثم قام خطيبا حتى صلاة العصر فنزل وصلى ثم صعد المنبر خطيبا حتى صلاة المغرب ثم انصرف. وكأنه صلى الله عليه وآله وسلم قد جمع دفتي الزمان والمكان من عصره إلى قيام الساعة في هذا اليوم المتميز بدء فجره، وهوِ إشارة إلى بداية مرحلة البلاغ ونهاية بغروب شمسه وهي إشارة إلى نهاية العالم والكون، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم سرد في هذا اليوم كل ما سيقع من فتن وتحولات وأشراط وملاحم وبشارات وهرج ومرج وغير ذلك، حتى قال الراوي: حفظ ذلك من حفظ ونسي ذلك من نسي.

إذن فهذه مرحلة خطيرة وهامة وفقه جدير بالقراءة والنظر، لأنه ليس فقه الإسلام والإيمان والإحسان، وإنما هو فقه علامات الساعة، وقد وضعنا في هذه الوريقات ما أدركناه وفهمناه من قليل المعرفة حول هذا العلم الواسع باعتباره أحد أركان هذا الدين، فنسأل الله العون والتوفيق.

البَعْثَةُ والسَّاعةُ.. تَداخلُ مَكانيٌّ وزَمانيٌّ

يَقُولُ خَيرُ الخَلقِ في فِقْهِ الهُدَى: بُعِثْتُ والسَّـاعةُ شـيئاً واحِـدا
يُشِـيرُ بالإِصْبَعِ رَسـماً واضحَا رَأْساً وعَرْضاً فافْهَمَنَّ واشْرَحَا

يبدأ الناظم في تحديد فقه التحولات مع سنة المواقف بحديث المصطفى ﷺ: «**بُعِثْتُ والسَّاعَـةُ كَهَاتَين**»[١] فالإشارة إلى ذاته بقوله: «**أَنَـا**» والإشارة إلى المواقف بالبعثة والإشارة إلى التحولات بالسَّاعة.

وإشارته ﷺ بأصبعه في قوله: «**كهاتينِ**» مدلولٌ هامٌ إلى بـيان الملاحقة والمعاصرة بالأحداث زماناً ومكاناً.

فالـرَّأْسُ فِيـهِ مـا بَقِي مِـن زَمَنِ لهـذِهِ الدُّنيـا ووَقْـعِ الفِتَـنِ

يشير الناظم إلى أننا إذا رفعنا السبابة والوسطى إلى الشكل الرأسي فسيتَبَـيَّنُ مَن المَعنِيُّ في قوله: «**كهاتين**» رَسْماً بـيانياً لما بقي من عُمُر الدنيا الذي لا يتجاوز الأنملة الوسطى أمام السبابة، وأما «**وقع الفتن**» أي: إن رأس الأصبع أعلاه، فالفتن في عَلوّ مع نهاية الزمان.

والأُفُقِـيُّ فِيـهِ تَحْدِيـدُ المَـكانْ حَيثُ أَتَى جِبْرِيلُ بالوحيِ المُصانْ

وإذا ما وضعنا السبابةَ والوسطى في وضعٍ أُفُقيٍ فإننا نفهم من قوله: كهاتين المجاورةَ في المكان والملاحقةَ في الزمان.

والمقصود «**بالمكان**» أنّ علامات الساعة تظهر وتشتد ويعلو خطرها في المكان الذي نَـزَلَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه، والطبراني عن أنس، وأحمد في مسنده.

فيه القرآن وليس بعيداً عنها، كما أنّ ملاحقة العلامات وإبرازَ شرِّها وخِداعها يبرز ملاحقاً للمكان في كل زمان وعصر ومرحلة، من مدلول «**أنـا**» أي من حيث أقامه الله وأقام المدافعين عن ذاته وصفاته وأخلاقه ومواقفه بالانطواء فيه، وليس في النصوص وحدها، فالموقع المبارك الذي وُلِدَ فيه ﷺ والموطن الذي هاجر إليه أن يشهد من هذا المعنى مواقفَ وتحولاتٍ خطيرةٍ في العلاقة بالذات النبويّة والعلاقة بالعلامات والعلاقة بالنصوص[1].

يَكُونُ فِيـهِ أَخْطَـرُ التَّحَـوُّلِ ... مِـن كلّ أمـرٍ مُبـرَمٍ مُنَـزَّلِ
ويُخْـدَعُ الأجيالُ مِن حيثُ أتى ... دِيـنُ الإلـه فاعلَمـنَّ واصمُتـا

يشير الناظم إلى خطورة التحولات المكانية والزمانية في ذات الموقع المبارك، وأنها طوعاً أو كرهاً ستكون موقعاً ومسرحاً للخداع في الدِّين والدنيا، فإذا علمت ذلك فافهم واصمت وتابع مدلول التحول منذ بدايته، حيث قال:

فمنذُ عَصْرِ المصطفى والخَطرُ ... يَسـيرُ فـي خَـطٍّ مُـوازٍ يُذْكَـرُ
خِـلالَ عَشْـرٍ وثَلاثِ سَـنواتْ ... خَيْـرٌ وشَـرٌّ سَـائرٌ فـي قَنـواتْ
فالخيـرُ فـي مسـيره مُطَّـرِدُ ... والشـرُّ فـي أتباعِـهِ مُنْعَقِـدُ
وكلُّهـم يَسْـعَى لأمـرٍ قَـدْ قُدِرْ ... لكـنّ طَـه بالإلـهِ مُنْتَصِـرْ

---

(١) كمثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم عن مكة : «**بئس الشعب جياد**» ، قالها مرتين أو ثلاثا، قالوا: يارسول الله! قال: «**تخرج منه الدابة فتصرخ صرختين أو ثلاث صرخات فيسمعها مَن بين الخافقين**» . رواه في «الأوسط» بضعف. اهـ عن «جمع الفوائد على مجمع الزوائد» ص٧٣١.

ومثل قوله عن المدينة في حديث الساعة قال: أشرف النبي على أطم من آطام المدينة فقال: «**هل ترون ما أرى؟**» قالوا: لا، قال: «**فإني أرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر**» المرجع السابق ص٧١١.

يشير الناظم إلى مدلول «**بعثتُ أنا والساعة كهاتين**»[1] وأنّ من معانيه: المرافقة الزمنية والمكانية للتحولات والمواقف «**كهاتين**» تَلازُمٌ وتَلاحُقٌ كتَلاحُقِ الأصبعين وتلازمها، ولذلك سنجد في قراءتنا لهذا العلم كيف بدأ التلازم والترافق مع خطوط التحول داخل الخيمة الإسلامية ذاتها.

فَمْبَـدأُ الأمـرِ سـلوكُ ذو نِفـاقْ وما جَرَى مِن فِتنةٍ أو مِن شِقاقْ

يشير الناظم إلى أن مبتدأ الأمر في هذا العلم من حيث ظهور التحول بالانحراف الفكري في المدينة داخل الخيمة الإسلامية يتحدد بمرحلة ظهور الإسلام في المدينة المنورة، وقد أتم الله للنبي ﷺ الأمر بالهجرة والاستقرار بطيبة وبناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ووضع القواعد الأولى لدولة الإسلام، وفي هذا الزَّخَم المبارك برزت نواةُ المنافقين كأوَّل بؤرة فساد داخل الخيمة الإسلامية، حيث أظهر العديد منهم الإسلام واطمأنوا على أنفسهم وأموالهم وأبنائهم، ثم بدؤوا من داخل هذا الاطمئنان على إبراز مكنون صدورهم، حتى إن القرآن جعل حيزاً كبيراً للكلام عنهم وفَضَحَ مؤامراتهم وأفعالهم.

وسُـورَةٌ قـد سُـمِّيَتْ بإسْـمِهِمْ وجاءَ في الآياتِ شَرْحُ مَكْرِهِمْ

إشارةٌ إلى اهتمام القرآن بشأن مواقفهم الخطيرة فقد أورد سورةً كاملةً تحمل مبادئهم وأفكارهم وهي سورة المنافقون، وأورد الحق من هذه المواقف في هذه السورة ما يجدُرُ الوقوف عنده كشاهد أبدي على سلوك المنافقين ومواقفهم الرديئة.

﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾.

﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾.

فتكاد هذه المفاهيم هي أغلب ما ينتهجه أهل هذه الرؤية إلى اليوم.

فهُـم رُموزُ الإفكِ صُنّاعُ الحِيَلْ   وهُم أُوْلُو الإرجافِ في كُلِّ مَحَلْ

يشير الناظم إلى ما كان عليه المنافقون منذ ظهور الإسلام في المدينة وهم «**رموز الإفك**» أي: الكذب على الله ورسوله، ولا شغل لهم غير الحيل والمخادعة، كما أنهم «**أولو الإرجاف**»، وهي الإشاعات الكاذبة حيثما نـزلوا وحلوا.

يَسْـتَحُوا مـن طَلعَـةِ المختـارِ   بل سَـاهَـمُوا في خدمةِ الكُفّارِ

يشير الناظم إلى الجرأة المركبة عند هؤلاء الذين لم يتأثروا بطلعة المختار بـينهم ولم يستحوا من الله، حتى بلغ بهم الأمر مبلغه أن يتآمروا مع الكفار ويتحالفوا معهم ويُبرموا الاتفاقيات المبطنة على أذى الإسلام والنيل من رسول الله ﷺ.

نَماذِجُ لمدارِسِ الجُنُوحِ المُتَنَوِّعَةِ مِن عَهْدِ صَدْرِ الرِّسَالَةِ[1]

يشير الناظم أن فقه التحولات يكشف مواقع (الجُنُوحِ) من جذوره وبدء تكوّنه التاريخي فأول هذه المدارس المحاربة للإسلام والعاملة على تقويض قواعده في المرحلتين المكية والمدنية لخصت فيما يلي:

(١) مدرسة الأوثان العربية

وهي مدارس الجاهلية التي أزالها الإسلام وحطّم رموزها

مَدْرسةُ الشِّـركِ التِي تَسلْسَلَتْ   عَبْـرَالقُرُونِ فِي الشُّعُوبِ أُصِّلَتْ
شِـعَارُهَا   عِبـادَةُ   الأَوْثَـانِ   ورَفْضُهَـا شَـريعَةَ الرَّحمَــنِ

مدرسة الشرك التاريخية التي عَرَفَها الإنسان ووضع لها الأصول الوضعية كعبادة الأوثان والاستقسام بالأزلام وما شاكلها، وقد كان لها في العصر الجاهلي مقام ومظهر، وهي المدرسة التي أبت الشريعةَ الحقَّ التي جاء بها سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، ولم تلتزم لهذه الثوابت بدءاً بمفهوم التوحيد وسلامة العقيدة، ونهايةً بالتشريعات والقوانين.

قال في تاريخ الخميس ص١٥: أولُّ ما كانت عبادة الأصنام (الأحجار) في بني إسماعيل

---

(١) المدارس جمع مدرسة.. والمقصود بها (الرؤية) أو (الفكرة) التي تجمع أكثر من عنصر وذات، تتفق آراؤهم ووجهات نظرهم، ويكون لها أتباع يتحالفون على أمرٍ ما ومصالح مشتركة سلباً أو إيجاباً، وتكون لهم مواقف من المرحلة وظواهرها.. وقد لمـح النبي ﷺ في أحاديثه إلى مفهوم الكتلة التي تعنيها مدارس الجُنوح، واجتناب النبي ﷺ التصادم مع مجموعتهم في قوله: «إِنَّ مِنْ وَرَائِهِ أَصْحَابًا» ، وفي العبارة دلالة على أن ولاءهم مخالف للولاء الذي عليه أصحاب رسول الله ﷺ.

لأنه كان لا يظعن في مكة ظاعنٌ منهم حتى ضاقت عليهم والتمسوا الفتح في البلاد إلَّا حملوا معه حجراً من حجرات الحرم تعظيماً للحرم، فحينما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى اشتهر ذلك فيهم إلى أن صاروا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان، ومنهم من بقى على بقايا من عهد إبراهيم مع إدخالهم فيه ما ليس منه، وكان الذين اتخذوا الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم وفارقوا دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

فهذيلُ بن مدركةَ بن إلياس بن مضر اتخذوا (سواعا) فكان لهم بأرض (رهاط).

وكلب بن مره من قضاعة اتخذوا (ودّا) بدُومةِ الجَندل.

وأنعم من طي وأهل جرش من مذحج اتخذوا (يغوث) بجرش.

وجويان بطن من همدان اتخذوا (يعوق) بأرض همدان من اليمن.

وذو الكلاع من حمير اتخذوا (نسرا) بأرض حمير.

وقريش اتخذت صنماً على بئر جوف الكعبة يقال له (هُبَل).

واتخذوا (أسافا) و (نائله) في موضع زمزم ينحرون عندهما.

وكان أساف ونائله رجلاً وامرأة من جُرهم فوقع أساف على نائله في الكعبة فمسخهما الله حجرين.

وكانت (اللات) لثقيف بالطائف هدمها المغيرة بن شعبة بأمر رسول الله ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة.

وكانت (مناة) للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على البحر (بقديد) بعث لها النبي ﷺ سعد بن زيد الأشهلي فكسرها.

وكانت (العزَّى) صنماً لقريش وجميع بني كنانة وكانت أعظم أصنامهم، بعث النبي ﷺ لها

خالد بن الوليد فقلعها ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: قد يئست أن تُعبد ببلادكم أبدا.

ولهذيل صنم (سواع) على ثلاثة أميال في مكة، وقد هدمها سيدنا عمرو بن العاص بأمر رسول الله ﷺ.

وكان (ذو الخلصة)[1] بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة وفيه نصب تعبد، وكان يقال له ذو الخلصة (والكعبة اليمانية) (والكعبة الشامية) فبعث إليهم رسول الله جرير بن عبدالله البجلي سنة عشر من الهجرة في مئة وخمسين فارسا من (أحمس) فكسرها وأحرقها فدعا لهم النبي ﷺ.

وأخبر النبي ﷺ في فقه التحولات أنها ستعبد في آخر الزمان مرة أخرى في حديثه «**لا تَقوم السَّاعة حَتَّى تضطرب أليات دَوس على ذِي الخلصة**»[2].

وقد كان من طلائع مدرسة الأوثان العربية في مكة كبار رجال قريش كأبي جهل بن هشام والعاص بن وائل السهمي والوليد بن المغيرة وعقبة بن أبي معيطٍ وعبدالعزى بن عبدالمطلب (أبي لهب) وهؤلاء وأشباههم اعتصبوا ضد الديانة الإسلامية، وعملوا على أذى رسول الله ﷺ ومن معه، وعذَّبوا المستضعفين وفتنوهم في دينهم، ولم يستسلِموا أو يرتدِعُوا عن غيِّهم برَغم ما أظهر اللهُ لهم من الآيات والمعجزاتِ، وتحالَفوا مع مدارسِ أهل الكتاب والمنافقين والأعرابِ لتشكيلِ حِلفٍ واحدٍ ضد الإسلامِ والمسلمينَ كما سيأتي بيانُه، كما برز في ثنايا التعصُّبِ ضِدَّ الإسلام موقفُ إبليس عَياناً إلى جانب مدرسة الأوثان، ففي بيعة العقبة صَرَخَ إبليس بأعلى صوته محذِّراً أهل مكة ومن حولها من تحالف الأوس والخزرج مع رسول الله ﷺ، كما تبدى إبليس في حال اجتماعهم في دار الندوة على صورة شيخ نجدي، وتبدى أيضاً في استعدادهم لبدر مرتين أو ثلاثاً، ففي الأولى جاءهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني وكان من

---

(١) ذو الخلصة صنم لدوس بلد أبي هريرة الدوسي، وهي الآن تسمى أبها بالمملكة العربية السعودية.

(٢) رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أشراف بني كنانة، قال: أنا جار لكم مِن أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونَهُ، كما تبدى مرة أخرى والمشركون في طريقهم إلى بدر يعدهم أن بني كنانة وراءه قد أقبلوا لنصرهم وأنْ ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، والثالثة لما انهزمت قريش ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾[1] . اهـ[2] .

وظهر أيضاً في غزوة أحد لما انكشف المسلمون في صورة أحد الصحابة قائلاً: إنَّ محمداً قد قُتل، ممّا فَتَّ في عضد المسلمين وزادهم قلقاً وخوفاً.

ولم تنتهِ آثار مدرسة الأوثان انتهاءً تاما إلَّا بعد الفتح لمكة وتحطيم الأصنام التي كانت في الكعبة، ونزول قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[3] وحينها سقطت رايات الأوثان واستسلم غالب أتباعها وصمت آخرون وانتكست حظوظهم وصاروا بعد ذلك يعملون في حذر وصمت وخوف.

(٢) مدرسة أهل الكتاب

كَـذَا اليَهُـودُ والنَّصَـارَى حَرّفُوا … دِينَهُـمُ وفِـي الضَـلالِ أَسْـرَفُوا

قَدْ رجَّحُـوا العَقْلَ عَلى الإيمانِ … وشَـرَعُوا الإفكَ مَـدَى الأزْمانِ

وحَارَبُوا الإسلامَ من بَعدَاعترافْ … بَأَنّـهُ الدِّينُ الّـذي يَنْفِي الِخلافْ

المدرسة الثانية: مدرسةُ الكفر والانحراف مدرسةُ اليهود والنصارى التي حرَّفُوها بديلاً عن رسالة التَّوراة والإنجيل الشرعية وجعلوا من ثوابتها ترجيحَ رأيِ العقل فيها لا ينبغي فيه ترجيحُ

---

(١) الأنفال: ٤٨.

(٢) «سبل الهدى والرشاد» (٤: ٢٢).

(٣) الإسراء: ٨١ .

العقلِ كما هو في خلق عيسى وحمل مريم، وحياةِ عُزير بعد موته، واستمرار هذا الانحراف حتى بلغ إلى الذين طَالَ بهم العهد وعاصروا رسالةَ المصطفى وأنكروها وهم على علم بصدق صاحبها وببشارة كتبهم بمرحلته، وقد تناول القرآن دَحْضَ مفاهيم هاتين المدرستين وفنَّد الجُنُوحاتِ التي ارتكسوا فيها وحَذَّر منها، وأشار ﷺ في أحاديثه الكريمة إلى أثر هذه المدارس في آخر الزمان، كمثل قوله ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدَانه أو ينصِّرَانه أو يُمجِّسانِه**»[1]، وحديث: «**لتتبعنَّ سَنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراعٍ حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه**، قالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله، قال: **ومن!**»[2].

وقد تحالف أهل الكتاب مع المشركين ضد رسول الله ﷺ ودعوته ، ومن ذلك لما وقعت بدر كتبت قريش إلى اليهود: «إنكم أهل الحلقة والحصون فلنقاتلن صاحبنا أو ليكونن بيننا وبينكم أمر» فلما بلغ الكتاب إليهم اجتمعت النضير على الغدر فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك ويخرج منا ثلاثون حَبْـراً فنلتقي بمكان منصف فيسمعون منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا أجمعين، فأعلمه جبريل عليه السلام بكيدهم فغدا عليهم بالكتائب فحصرهم ثم حصر بني النضير بالكتائب حتى نزلوا على الجَلاء.

(٣) مدرسة الأعراب

مَدْرَسـةُ الأعْرابِ شَـرُّ مَدْرَسـةْ ... ممَّـنْ لهُـم خِيانـةٌ مُؤسَّسـةْ

أَشَـدُّ كُفْـراً ونِفَاقَـاً وجُنُـوحْ ... كَمَا أَتَى فِي النَصِّ عَنْهُم بِوضُوحْ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه وأبو داود في سننه وأحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري ، انظر «الفتح» (٦: ٦١٣) ومسلم (٢: ٤٦٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مدرسة الأعراب الذين وصفهم في القرآن ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾[1]، وهي مدرسة بقيت آثارُها ومظاهرها الجاهلية في حياة الأمة عبر التاريخ إلى اليوم، **ومن أخطر مظاهرها التي حاربها الإسلام:**

١- الثأر والغارات الحربية.

٢- التعصُّب العرقي.

٣- عدم توريث النساء.

٤- الاعتقاد في الظواهر (الكهانة / التنجيم / السحر) وغيرها.

٥- القتل من أجل المال.

٦- الحميّة الجاهليّة.

٧- وأدُ البنات.

٨- مبادلة الزوجات.

٩- عدم الاستئذان عند الدخول.

١٠- الطواف بالبيت مع العري.

١١- معاملات الرِّبا.

وتتداخل بعض هذه المظاهر مع مدرسة الأوثان العربية لاتحاد الرؤية بينهما في شأن العقيدة في الأوثان ومتعلقاتها، ومن أعمال هذه المدرسة البدوية ما قامت به ذَكْوان ورعل الذين أخذوا إبل الصدقة وقتلوا الراعي فأرسل إليهم الرسول ﷺ من يعقُبهم وجِيءَ بهم فأمر النبي ﷺ بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خِلاف ورُمُوا في الحَرَّةِ يَسْتَسْقُون فلا يُسْقَوْن حتى ماتوا وأنزل الله فيهم ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ

(١) التوبة: ٩٧.

تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

ومن سوء أعمال مدرسة الأعراب طلبُهم القُرَّاءَ من رسول الله ﷺ بعد أن أسلموا ومكثوا في المدينة أياماً فأرسل الرسول عدداً من الصحابة معهم منهم عاصم بن ثابت وزيد بن الدثنة فلما كانوا ببعض الطريق قاتلهم المشركون فقتلُوا من قتَلُوا وأسَروا منهم من أسروا ومنهم زيد بن الدثنة، وحمت الذبر[2] جثَّةَ عاصم لأنه أقسم على الله ألا يمس جلده مشرك، فلم يقدر المشركون أن يصلوا إليه حتى حل الليل، فبعث الله السيول فحملته ولم تمس جلدَه يدُ مشرِك.

---

(١) المائدة: ٣٣.

(٢) الذبر حشرة صغيرة صفراء اللون شديدة اللسع.

مَدارسُ النِّفَاق

برزتْ مَدارسُ النِّفاق مُنذ استقرار الرسول ﷺ بالمدينة المنورة كظاهرة من ظواهر المنافسة والمعارضة الخَـفيّة مع إعلانهم شأن الإسلام بألسنتهم والعمل على عكس ذلك في بواطنهم، وهم نماذج متعددة، قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾[1]، فلابد أن نُتابع ونُلاحق هذه المظاهر لنرى سُنَّة المواقف التي كان رسول الله ﷺ يتخذُها معهم.

تَـمَيَّـزَتْ مَواقِـفُ النِّفَـاقِ ... فـي يَثْـرِبِ الإسـلامِ باخْـتِـراقِ
تُفِيـدُ أَنّ القَـوْمَ كانـوا حُقَّـدا ... وفي النُّفُـوسِ الهَالـكاتِ حُرَّدَا
يَسْـعَونَ في إجهاضِ نُـوْرِ الملَّةِ ... مِـن داخـلِ الدِّيـنِ بـكُلِّ حِيلَـةِ

أشار الناظم إلى الدور المتميز الذي يقوم به المنافقون في المدينة وهو الاختراق للواقع النبوي، والتعرف على دقائِقِ سُلوكِه ومواقفه، مما يؤكد حقدَهم الطَّبعي وحردهم النفعي، وسعيهم الدؤوب في «**إجهاض نور**» الإسلام بالإرجاف والدعايات والأكاذيب، **وهم نماذج** وأنواع ومنهم:

(١) المدرسة السلولية

ورأسُ هذا الأمرِ كَانَ ابنَ سَلُولْ ... مُعارِضَـاً لِـكُلِّ آمَـالِ الرَّسُـوْلْ

---

(١) التوبة: ١٠١.

يشير الناظم إلى «**رأس**» النفاق ومصدره ومحرِّك أتباعِه وهو «عبدالله بن أبـي بن سلول[1]» وقد أسلم عبدالله بن أبي مع دخول النبي ﷺ المدينة، وكان أهل المدينة قد اتفقوا على تتويجِه مِلكاً عليهم ومرجعاً قبل هجرة النبـي ﷺ، فلما قَدِم النبـي ﷺ إلى المدينة انقطع أمله، وظهر رسول الله بالإسلام ظهوراً بيِّناً، فحَقَدَ ابنُ أُبَيٍّ على رسول الله ﷺ، وأخذ يعمل على الإرجاف والأذى في مواقف عديدة استفاض ذكرها في القرآن والسنة، ويبدو أن إسلامه كان لتأمين نفسه وماله، ولهذا رصد المسلمون كثيراً من ملابسات سلوكه النفاقية.

فـإنْ رَأَى المُختـارَ آتٍ يَمْـدَحُ   أَهـلاً وسَـهلاً مَـن أَتَانَـا يُصْلِحُ
ثُـمَّ إِذَا وَلَّى اسْـتباحَ المُصْطَفَى   بـكُلِّ قَـولٍ سَـيِّءٍ فيـهِ الجَفَـا

كان عبدالله بن أُبَـي يؤسس سُلوك المدرسة النفاقية بالخداع والكذب، فكان على الملأ من الناس إذا رأى النبـي ﷺ قادماً خرج يستقبله بالبشاشة والفرح المصطَنع: أهلاً برسول الله أهلاً بكذا وكذا، ثم إذا وَلَـى رسول الله ﷺ ضحك مع أصحابه واستهزأ.

يَـرَى بـأَنَّ العِـزَّ للمُوَاطَنَـةْ   والـذُّلَّ فيمَن جـاءَ يَرْجُـو مَأْمَنَهْ

كان عبدالله بن أُبَـي يرسخ مبدأ «**المواطنة**» وهو من مبادئ النفاق، وإلى هذا المبدأ أشار القرآن في سورة المنافقين ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[2].

كَمـا دَعَـا لِشِـحَّةِ الإنفـاقِ   وضِيـقِ ذاتِ اليَـدِ فـي الأرزاقِ

كما أن من مبادئه النِّفاقية فرض الحصار الاقتصادي على المسلمين المهاجرين، ومنع التغذية

(١) هو عبدالله بن أبي بن الحارث بن عبيد المشهور بابن سلول ، وهي امرأة من خزاعة، وهو ابن خالة أبي عامر الفاسق الخزرجي، وقد أسلم من الخزرج عند وفاة عبدالله بن أبي وتأثرهم بما رأوا من فعل النبي من إلباسه قميصه وصلاته عليه ألف رجل. ذكره «تاريخ الخميس» ص١٤١.

(٢) المنافقون: ٨.

عنهم، ظناً منه بأن هذا سيساعد على انفكاكهم عن رسول الله ﷺ، وقد وصف الله هذا المبدأ في سورة المنافقون في قوله تعالى: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾[1].

وقال -فيما قال-: سَمِّنْ كَلبَكَا ... فبَعْدَ ذا لا بُدّ أَنْ يَعْقِرَكَا

وهذه مقولة تروى عن عبدالله بن أُبَـي لما بلغه أن أحد المهاجرين تكلم في شأن بعض الأنصار، فقال: سَمِّن كلبْك يَعْقِرْكَ.

وفي هذا دلالة على حقد المذكور على أصحاب رسول الله ﷺ وحنَقِه على إنفاق الأنصار عليهم وإعطائهم ما لا يستحقون كما يعتقد.

ورَفْضُهُمْ مِنْ سَيِّدِ الخلقِ الدُّعا ... لمّا رَجَا استغفارَ رَبِّي ودَعا

لوَّوْا رُؤُوسَ الكِبْرِ قالوا: لا نُريدْ ... وَسَائطاً تَدْعُو لنا عِنْدَ المَجِيدْ

يشير الناظم إلى ما وصف الله به المنافقين في السورة المسماة باسمهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[2] وهذه إحدى مفاهيمهم المنكرة حيث لا يريدون -كما يقولون- واسطة بينهم وبين الله.

في الغَزْوِ كانوا يُرْجِفُونَ في المَلا ... ويَضْحَكُونَ قَائِلينَ: (لنْ) و(لا)[1]

فلَنْ يَرَى مُحَمَّداً نَصْراً ولا ... يَعُودُ إِلَّا في الحِبَالِ مُثْقَلا

فنَزَلَ القرآنُ يُبْدِي كُفْرَهُمْ ... وشَرَّ ما قَالُوا وأَجْلى سِرَّهُمْ

(٣)يشير الناظم إلى نموذج آخر من نماذج سلوكهم وهو الإرجاف والإشاعة والاستهزاء

---

(١) المنافقون: ٧.

(٢) المنافقون: ٥.

(٣) من إرجافهم وخذلانهم لرسول الله ما فعله عبدالله بن أبي في غزوة أحد لما عاد بثلث الجيش إلى المدينة

والسخرية ، وقد أشارت كتب السير والتفسير عند قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ بأنّ المنافقين خرجوا مع رسول الله ﷺ في غزوة، وكانوا يسيرون خلف جيش رسول الله ويضحكون ويستهزئون، ويقول قائلهم: إن محمداً سيُهزَم وسيكبِّلُه بنو الأصفر بالحِبال هو وأصحابه، فنزل جبريل على رسول الله وأخبره بشأن سخريتهم، فطوَّقهم رسول الله بالجيش، وقال لكل منهم: «**أنتَ قلتَ كذا وأنتَ قلتَ كذا؟**»، فقالوا: إنَّما كُنَّا نَخوضُ ونَلعبُ، فأنزل الله الآيات على نبيِّه مقرِّراً حَالَ كفرهم ومروقهم.

وَوَاطَئُوْا اليَهُودَ ضِدَّ المسلمينْ ... في غَزْوَةِ الأحزابِ كانوا مُرْجِفِينْ

يشير الناظم إلى موقف المنافقين في غزوة الأحزاب ومشابهة أحوالهم حيث تواطئوا مع اليهود والمشركين على تتبع أخبار النبي ﷺ وأصحابه والإرجاف داخل المدينة.

قَالُوا البيوتُ عَوْرَةٌ فاسْمَحْ لنا ... عَوْداً إليها فَبِهَا أَهْلٌ لَنَا

يشير الناظم إلى ما ورد في سورة الأحزاب من قولهم: ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾.

وقَصْدُهُمْ كما تَلا القُرْآنُ ... فِرارُهُمْ وحَالُهُمْ شَنْآنُ

يشير الناظم إلى ثمرات العمل وهي النيات، فقد كانت نياتهم حال اعتذارهم الفشل والرجوع والفرار، وقوله: «**وحالهم شنآن**» أي: حال باطنهم العداوة.

وتركوا رسول الله ﷺ ومعه سبع مئة مقاتل.

وفـي حديثِ الإفـكِ أَلغَوْا كَذِبا وزَيَّفُـوا كُلَّ حَدِيـثٍ ونَبَـا

إشارةٌ إلى ما في صدورهم من الغيظ والتَّشَفِّي، ومحاولتهم استغلال حادثة الإفك الشهيرة والإرجاف بها والكذب فيها، وترويجهم لما تصورته نفوسهم المريضة في شأن عائشة رضي الله عنها، وكيف صار هذا الإفك مدرسة متسلسلة يروّجها البعض إلى اليوم لولا أن القرآن نزل ببراءتها من فوق سبع سموات.

لِيُضْعِفُـوا دَوْرَ النبـيِّ الهَاشِـمِيْ فِـي أَهْلِـهِ بِتُهْمَـةِ المَآثِـمِ

لَـولا نــزولُ الآيِ بالبـراءةِ تُـرَدِّدُ الأخبـارَ بالقِـراءَةِ

الطَّيِّبُـونَ دائمـاً للطَّيِّبـاتْ والخُبَثاءُ حَظُّهُمْ في المُومِساتْ

وكُلُّ مَـا قَـدْ جَـاءَ فـي القُـرآنِ عـن خُبْثِهِـمْ مُميَّـزُ البيـانِ

يشير الناظم إلى تعدد آيِ القرآن في تناول مكرهم وخداعهم وخزيهم على عهد رسول الله ﷺ، وأنه طَبعٌ يُتَوَارَثُ وينتقل منهم إلى أشباههم وأمثالهم ممن يحلو لهم الولوغ في المقام النبوي وآل بيته.

وأن حقيقة النفاق في الأفراد قد لا تُعرف؛ ولكن مظاهر السُّلوك وثمرات الأعمال والمواقف تظل مؤشراً خطيراً لمفهوم العلاقة بين أسس مدرسة النفاق الأولى وبين آثارها في الحياة.

يَصِيـرُ فـي مُسْـتَقبَلِ الأيّـامِ قاعـدَةَ الحيـاةِ والأحـكامِ

لِذا يقـولُ المصطفى عَن مِثلِهِمْ عندَ اختلالِ الأمرِ ضِمنَ أَمْرِهِمْ

إذا رَأيـتَ ورَأيـتَ فاعلَمَـنْ وَسَوفَ يأتي في الزَّمَانِ فاحْذَرَنْ

إشارةٌ إلى تنبؤات الرسول ﷺ منذ عهده عمَّا يكون في مستقبل الزمان على أيدي مدارس النفاق المتفرعة من مدرسة المدينة، فيشير عليه الصلاة والسلام بما مثاله: «**إذا رأيتَ**...

ورأيتَ...» وهذه إشارةٌ مبثوثة في علامات الساعة وأبواب الفتن من كتب الحديث، مثل قوله ﷺ: «**إذا لعن آخِرُ هذه الأمة أوَّلَها فَمَنْ كان عنده علم فليظهِرْهُ، فإنَّ كاتمَ العلم يومئذ ككاتم ما أنـزل على محمد**»[1].

«**إذا رأيتَ شُحّاً مُطاعاً، وهَوىً مُتَّبَعاً، ودُنيا مُؤْثَرة، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه.. فعليك بخويصة نفسك ودَعْكَ من أمر العوام... الخ**»[2]. فهذه مقولات نبوية تحدد موقع السلوك النفاقي في المجتمع وتضافر قوى الشر على ذلك.

إِنْ وُسِّـدَ الأَمْـرُ إِلى الغَيـرِ تَرَى عَلائَقَـاً تَنْسِـفُ ميثـاقَ العُـرَى

إشارةٌ إلى الحديث الذي يُؤْثَرُ عن الأعرابـي السائل عن الساعة فرد عليه ﷺ: «**إذا ضُيِّعتِ الأمانة فانتظر الساعة**»، قال: وكيف إضاعتها يا رسول الله؟، قال: «**إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله**»[3].

وفي الحديث إشارةٌ إلى بروز التضافر السلبـي بـين المنافقين والكفار؛ لإجهاض الدِّين والتآمر عليه، وهو ما يُسمى بضياع الأمانة، وتكون إضاعتها بتوسيد الأمر –أي وضع القرارات– في الحكم والعلم وغيرها بـيد غير أهله عبر الزمان.

مطبوعـةً قلوبُهـم بكفرهـمْ لا يَفْقَهُونَ جَهْلَهُـمْ مِن مَكْرِهِمْ

إشارةٌ إلى ما وصفه الله تعالى في كتابه عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه وحسنه الترمذي.

(٣) سبق تخريجه.

﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾[1]، ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2].

اِتَّخَذُوا أيمانَهم وسيلَةْ صَدُّوا عن الإسلامِ والفضيلَةْ

إشارةٌ إلى ما جاء في سورة المنافقون: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3].

مِثالُهُمْ كخُشُبٍ مُسَنَّدَةْ هُمُ العَدُوُّ يُظْهِرونَ المَفْسَدَةْ

إشارةٌ إلى قوله تعالى في سورة المنافقون: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾[4].

(٢)

---

(١) المنافقون: ٣ .

(٢) التوبة: ٨٧.

(٣) المنافقون: ٢.

(٤) التوبة: ٨٧.

(٣) مدرسة الضِّرارِ لأبي عامر الفاسق

وَمِـن رُمـوزِ مَظْهَـرِ النِّفَـاقِ ... مَدْرَسَـةٌ لِرَاهِـبٍ آفاقـيْ

قَـدْ كَانَ فـي طَيبـةَ يَقْـرَا الكتُبَـا ... ويَمْـدحُ المُختـار مَدْحَـاً طَيِّبَـا

حَتَّـى أَتَـى طَـهَ فعَـابَ دَعْوتَـهْ ... وحـرف القول فأبـدى شِـقْوتَهْ

وسَـاعَدَ الكُفَّارَ ضِدَّ المسلمينْ ... ثُمَّ انتهى للشَّـامِ يَرْجُو الكافرينْ

وأَرْسَـلَ الأَمـوَالَ للمُنَافِقيـنْ ... لِيَشْرَعُوا في خِدمةِ البَغْيِ المَشِينْ

وهي مدرسة أبي عامر الخزرجي المشتهر بالفاسق، كان مهيباً في قومه وتنصّر في الجاهلية وأظهر الورع، وزعم أنه ينتظر النبي المبعوث، وصار يذَكِّر الناس بكثير من صفات النبي ﷺ التي عرفها من التوراة والإنجيل، ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وصار فيها للإسلام كلمة عالمية انتكس أبو عامر وانسلخ من آيات الله وأظهر الحقد على النبي ﷺ وبارزه بالعداوة والبغضاء واتخذ سبيله إلى المشركين بمكة لاستشارتهم إلى حرب رسول الله ﷺ وظل معهم حتى تم له ما أراد بغزوة أحد التي أصاب المسلمين فيها ما أصابهم، ثم انقلب على وجهه هائماً في قبائل العرب يُغْرِيهم بقتال النبي ﷺ وأصحابه وأقسم أن لا يساكنَ النبي في المدينة ولا في غيرها، فلما فتح النبي ﷺ مكة خرج إلى الطائف، ولما أسلم أهلُها فرَّ إلى الشام يستنصر ملك الروم على النبي ﷺ فوعده ومناه، ومن الشام كتب إلى المنافقين من أنصاره أن يستعدوا ويبنوا له مسجداً؛ لأنه سيأتيهم بجنود قيصر لحرب رسول الله وأصحابه وَنَفَّذَ المنافقون مُخطَّطَ أبي عامر وبنوا المسجد تحت شعار التجمع لعبادة الله (١) ولليلة المطيرة ولابن السبيل والمنقطع، قال

---

(١) من كتاب «إسلام الصوفية هو الحل» ص ٣٨ ، ونعتقد أن قوله: (إسلام الصوفية هو الحل) كعنوان للكتاب يعبر عن وجهة نظره فيما يتحدث عنه مع أننا نجزم بأن الصوفية جزء من معالجة شؤون الأمة وليست خلالها.

الشيخ عز الدين ماضي[1]:

وبالفعل بنوا هذا المسجد وأحكموا بناءه وأنفقوا عليه المبالغ وبعد إتمامه ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: إن بيوتنا قاصية عن مسجدك ويصعب علينا الحضور فيه ونكره الصلاة من غير جماعةوقد بنينا مسجدا لهذه الغاية وللضعفاء وأهل الحاجة فإن رأيت أن تصلي فيه لنتيمن ونتبرك بالصلاة في موضع صلاتك.

قال في كتاب تاريخ الخميس: لمّا اتخذ بنو عمر بن عوف مسجد قباء فبعثوا للنبي ﷺ أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدهم إخوتهم بنو غنم بن عوف ابن غنم وكانوا من منافقي الأنصار، فقالوا: نبني مسجداً ونرسل لرسول الله ﷺ فيصلي فيه كما صلى في مسجد إخواننا وليصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام[2].

ومسـجدُ الضِّـرارِ شَـاهدٌ عَلَـى   تخطيطِهِم في السِّـرِ إذْ كانوا بَلا

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[3].

وظَـلَّ دَوْرُ المَنْهَـجِ النِّفَاقِـي   يَسْـعَى لِطَمْسِ الدِّينِ في الآفاقِ
بمـا يُثـار مـن صُنُـوفِ الفِتَـنِ   في الحُكْـمِ والعِلمِ وبَثِّ الإِحَنِ

إشارةٌ إلى أن سياسةَ النفاق والمنافقين القائمة على الغش والخداع والتربص والفتنة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) من كتاب «تاريخ الخميس» (٢ : ١٣١).

(٣) التوبة: ١٠٧-١٠٨.

والإرجاف.. إلخ مستمرةٌ في الحركة داخل الخيمة الإسلامية، منذ عهد الرسالة وما بعدها، تعمل على ضرب الدين والديانة بأساليبَ شتى وتحَالُفٍ مَقِيتٍ مع الكفار والمستعمرين تمهيداً لفتنة المسيخ الدجال.

وأَخْبَـرَ الرَّسُـولُ عَـنْ مَرْحَلَتِـهْ مِـن قَتْـلِ عُثمـانَ اشـتهارُ فِتْنَتِـهْ

إشارةٌ إلى أن دور المنافقين وتحالفهم مع الكفار يهيئ الأسباب والعقول لقبول فتنة المسيخ الدجال، وأن هذا التحالف المقيت قد برز جليا في المؤامرة على خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وصرح النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن هذا التحالف هو من فعل مدرسة النفاق العربية، يؤيده حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عثمانُ إنك تلي الخلافةَ من بعدي، وسيريدك المنافقون على خَلْعِها، فلا تخلعها، وصُمْ في ذلك اليوم تُفطِرْ عندي**»[1].

كما حدد النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطورة مقتل سيدنا عثمان وأنه بداية لمشروع سياسي خطر داخل الخيمة الإسلامية، إنه مشروع الدجل والدجاجلة، فعن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أَوَّلُ الفتن قَتْلُ عُثمان وآخِرُها خُروجُ الدَّجّال**»[2]، زاد ابن عساكر في روايته: «**والذي نفسي بيده ما من رجل في قلبه مثقال ذرة من قتل عثمان إلا تبع الدجال إن أدركه، وإن لم يدركه آمن به في قبره**» ، وسيأتي تفصيل ذلك في تناولنا لمرحلة عثمان رضي الله عنه.

وَتَحـتَ سَـقفِ مَنْهَـجِ النِّفَـاقِ تَسَلْسَـلَتْ مَـدارِسُ الشِّـقاقِ
جِيـلاً بجيلٍ في الزَّمَـانِ اللاَّحِقِ دِينـاً ودُنيـا فـي اطِّـرادٍ سَـاحِقِ

يشير الناظم إلى أن النفاق اتَّسع على عهد صاحب الرسالة حتى صار منهجاً له سقفه

---

(١) رواه ابن أبي شيبة وابن عساكر عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، انظر «الإشاعة في أشراط الساعة» للبرزنجي ص٣٩.

(٢) رواه ابن أبي شيبة عن حذيفة بن اليمان، المصدر السابق ص٣٨.

الفكري وتجمعه الفئوي مضارِعاً لوجود دعوة رسول الله ﷺ على شكل معارضة داخلية تترصد المواقف وتتحسب الفرص وتهيئ نفسها للانقضاض؛ ولكن دون ضوضاء ولا جَلَبة ولا تصادم أو صراع مباشر خاصة وَأَنَّ رسول الله ﷺ قد امتلك القرار، وليس من مصلحتهم إظهار مبادئهم وأفكارهم والوحي ينـزل والكل في المجتمع المدني مؤيد لمواقف سيِّد الخلق عليه الصلاة والسلام؛ ولكنهم في الأزمنة اللاحقة لرسول الله برزت بعض مواقفهم ضد الإسلام وقراره على صور ونماذج شتى، ولعل من أبرزها ما جرى لعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الحصار والقتل، وما جرى أيضاً للإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الأذى والمخالفة المؤدية إلى القتل أيضاً.

(٤) المدرسة النبتلية لعبدالله بن نبتل

وَمِنْهُـمْ مُنَافِـقٌ قَـدِ ابْتُلِـي ... يُدْعَـى بِعَبْـدِ اللّـهِ نَجْـلِ نَبْتَـلِ
يَنْقُـلُ أَسْـرَارَ النَّبِـيِّ لِلْيَهُـودْ ... وَأَزْرَقُ العَيْنَيْـنِ كَـذَّابٌ حَقُـودْ
بِعَيْـنِ شَـيْطَانٍ يَـرَى الإِسْـلَامَا ... وَقَلْـبِ جَبَّـارٍ مَتَـى اسْـتَقَامَا

قال السّرِي: كان (عبدالله بن نبتل) المنافق يُجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حجراته، إذ قال: «**يَدْخلُ عليكمُ الآنَ رَجُلٌ قَلْبُه قَلبُ جَبَّارٌ ويَنْظُرُ بعَيْنَيْ شَيطان**»[1] فدخل عبدالله بن نبتل، وكان أزرق العينين، فقال النبي ﷺ: «**تَشْتِمُني أَنْتَ وأَصْحَابُكَ؟**» فحلَفَ بالله ما فعل ذلك، فقال له النبي ﷺ: «**بل فعلت**» فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ

(١) رواه أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما والبزار ورجال الجميع رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٧: ١٢٢).

﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[1].

(٥) مدرسة الإرجاف ومرضى القلوب

ومِثْلُهَا مَدْرَسةُ الإرْجَافِ ... مِمَّنْ غَلَوْا فِي الفِكْرِ بالإسفَافِ
كَذاكَ مَرْضى القَلْبِ مِمَّنْ فَسَقُوا ... وخَالَفُوا المَنْهَجَ حتَى احْتَرَقُوا
أَصابُهم دَاءُ الفَسَادِ فِي الأُمَمْ ... فَأهلَكُوا الدِّينَ وبَاعُوا للذِّمَمْ
فَهَذهِ مَدارِسٌ مَذْمُومَةْ ... كَانتْ ولا زَالتْ هِي المشؤُومَةْ
ولَمْ يَزلْ أَتْبَاعُها فِي العَالَمِ ... يُحَارِبُونَ الحَقَّ فِي العَوالِمِ
والحَقُّ مَحْفُوظٌ بِحفْظِ اللهِ ... والنَّصْرُ يَأتِي دُونَمَا اشْتِبَاهِ

مدرسة الإرجاف هم العناصر المشكِّكَة والمتَشَكِّكَة داخل الجسد الإسلامي والموصوفون في سورة الأحزاب بقوله: ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾[2]. ومنها أيضاً **مدرسة مرضى القلوب** ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[3].

وهذه المدرسة لها ذكرٌ في مواقع كثيرة من القرآن، فقد جاء ذكرها في أول سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾[4]، وورد ذكر هذه المدرسة في سورة الأحزاب عند قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ

---

(١) المجادلة: ١٤.

(٢) الأحزاب: ٦٠.

(٣) الأنفال: ٤٩.

(٤) البقرة: ٩-١٠.

﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[1].

وقد ظلت آثار هذه المدرسة في الأمة وسارت سيراً مطرداً في سلوك الكثير ممن لا يعتني بالأخلاق وحقائق الاستقامة في عموم المسلمين ممن تضعف قلوبهم وقابلهم عن الالتزام بالآداب الشرعية لسبب أو لآخر، وفي مثل ذلك يُلَمِّحُ النبيُّ صلى ﷺ لمثل هذه الظواهر تحذيراً، فيقول: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»[2]، وفي رواية: «**وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»[3] نسأل الله السلامة.

(٦) المدرسة الحُرْقُوْصِيَّةُ

المدرسة الحرقوصية، المنسوبة لحُرْقُوص بن زُهَيْر الذي اعترض على النبي في قسمة المال بهوازن. وهي أصل مدارس الخوارج.

مِن فِقْهِ عَصرِ المُصْطَفَى مَا حَصَلا ... فـي غَـزْوَةِ الطَّائِـفِ لمّـا نَـزَلا
نَبِيُّنَا يُقَسِّمُ الغَنَائِمَا ... فَجَاءَ حُرْقُوْصٌ يُمَارِيْ قَائِمَا
وقال: إِعدلْ قِسمةَ الغَنَائِمِ ... وَمَا أَرَدْتَ اللهَ فِي المَقَاسِمِ
فاحْمَرَّ وَجْهُ المُصْطَفَى وَقالَ: مَهْ ... وَيحَكَ مَنْ يَعْدِلْ وَمَنْ يُقَسِّمَهْ؟
إِنْ لَم يَكُنْ عَدْلِيْ جَدِيْراً بِالثِّقَةْ ... فَمَنْ عَسَاهُ يَقْسِمَنَّ الصَّدَقَةْ
وحَدَّقَ النَّبِيُّ في ظهرِ الرَّجُلْ ... وقال: مِن ضِئْضِئِهِ شَرٌّ يَصِلْ

---

(١) الأحزاب: ٣٢ .

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

يَظْهَـرُ قـومٌ منـه فـي الأزمـانِ ... مِيزَتُهُـمْ قِـرَاءَةُ القُـرْآنِ

يُحَسِّـنُونَ الصَّـوْتَ بِالآيَـاتِ ... فِـي وَاقِـعٍ مُحَطَّـمِ الغَايَـاتِ

يشير الناظم في الأبـيات السالفة إلى معنى الحديث الوارد في صحيح مسلم عن أبـي سعيد الخُدْري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: بـينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسّم قَسْماً أتاه ذو الخويصرة –وهو رجل من تميم– فقال: يا رسول الله.. اعدِل، فقال رسول الله ﷺ: «**وَيْلَكَ! ومن يَعدلُ إنْ لم أعدلْ؟ قد خِبْتُ وخِسرتُ إن لم أعدلْ**»، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله.. ائذنْ لي أَضْرِبْ عُنُقَه، فقال رسول الله ﷺ: «**دَعْهُ، فإن له أصحاباً يَحْقِرُ أحدُكُم صَلاتَهُ مع صلاتهم وصيامَه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقِيْهِم، يَمْرُقُوْنَ من الإسلام كما يمرُقُ السَّهْمُ من الرميِّةِ**»[1]، وفي رواية: «... **إنَّ مِنْ ضِئْضِيءِ هذا قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حَناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يَمرق السهم من الرمية، لئن أدركتُهُم لأَقْتَلَنَّهم قَتْلَ عَادٍ**»[2]. اهـ.

فَاسْـتَأْذَنَ الفَـارُوْقُ أَنْ يَقْتُلَـهُ ... وقـال: دَعْنـي عِبْـرَةً أجعلُـهُ

فقـال: دَعْـهُ إنّ مِـن ورائِـهِ ... أَرَى رجـالاً شـأنُهُمْ كشـأنِهِ

ولا يقـولُ النـاسُ: إنّ أحمـدا ... يقتـلُ مِـن أصحابِهِ مَن يسْـجُدَا

أورد الناظم في هذه الأبـيات والتي سبقتها تحت مسمى «ملحظ فتنة المستقبل من غزوة هوازن»، والمقصود من هذا المسمى إبراز القراءة المستقبلية لدى صاحب الرسالة ﷺ من واقع عصره، وكشف سرّ تطور الفتنة من مصدرها الأول مقارنة لبروز الشريعة من مصدرها الأول،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد، «كنز العمال» (١٢: ٢٠٢).

(٢) رواه عبدالرزاق في مسنده وابن جرير عن أبي سعيد الخدري، «كنز العمال» (١١: ٣٠٨).

وأن الحق سبحانه وتعالى جعل للخير أصولاً وثوابتَ وللشرّ مثل ذلك.

والحديث الشريف يبرز ملحظ الجرأة لدى أهل الفتنة وما تُزَيِّنُهُ لهم عقولهم في شأن نُصْرَةِ الحق من منظور النفس والهوى والدنيا ووساوس الشيطان، فيفهمون الأثر القائل: **«قُل الحقَّ ولو كَان مُرّاً»**(١)، **«ولا تَأْخُذْكَ في اللهِ لومَةَ لائِم»** على غيرِ معناه ولا مَبْنَاه.

فهذا حُرْقُوْصُ بنُ زُهَيْر أَوْ ذُوْ الخُوَيْصِرة فَرْدٌ يحمل منهج مراحل وأسلوب جحافل، ظل ينسج حول نفسه مفاهيم الشرع بصورة الأنانيةِ حَتّى بَرَزَتْ حقيقته في غزوة هوازن متجرئاً على رسول الله بما قال على مختلف الروايات.

فقد قال: (اِعْدِلْ) وفي رواية قال: (هذه قسمةٌ ما أُريد بها وجه الله)، وكل تلك المقولات دلالة على تحوُّلٍ في الذات، وطرحٍ خطير في أفضل المجتمعات، فلابد أن يظهر مقابل هذا التحوُّل موقف وبرز هذا الموقف في قراءة رسول الله ﷺ لذات الرجل وما يخرج من أمثاله في مدرسة الإسلام من أقوام -وليس أفراد- مِيْزَتُهُمُ الاعتناءُ التَّامُّ بالقرآن -وفي بعض الروايات- بصحيح السنّة، ولكنهم مع هذا الاعتناء بالنصوص يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لتشابه عنصر الجرأة منهم على الذوات المؤمنة، كما تجرَّأَ ذو الخويصرة على ذات رسول الله يقول: **اِعْدِلْ،** مع أنه يعتقد في نفسه معرفة حق الله والإسلام لما ورد فيه الرواية الأخرى **«إن هذه قسمة ما أُريدَ بها وجه الله»**.

فالمنطق المطروح إنما هو غِيرة على مُراد الله، والحقيقة المنشودة في صدر الرجل هو نقد موقف رسول الله ﷺ، وكانت إرادة الله متجليةً خلف هذا الحدث الخطير لتبرز أحكام المستقبل ممن لا ينطق عن الهوى ﷺ، فيتقرر بذلك أن تاريخ التَّحَوُّلات المستقبلية ليس له ضابط ولا قيد إلَّا

(١) قال الحافظ فى «بلوغ المرام» (١: ١٨٢): صححه ابن حبان من حديث طويل. انظر «روضة المحدثين» (٩: ٢٨٦).

النظر في هذا الفقه الخاص.

فقراءة الواقع الإسلامي على مدلولات هذا الفقه تبرز معنى البيت:

يُحَسِّنُونَ الصَّوْتَ بالآياتِ   في واقِعٍ مُحَطَّمِ الغَايَاتِ

والمشاهد في عالمنا المعاصر اهتمام الجيل الأوسع من المسلمين بالقرآن طباعةً وتجويداً وتلاوةً وتحسيناً للأصوات وتنافُسَاً عليه مع واقعٍ إسلامي مُحطَّمٍ وضعيفٍ ومنهوكٍ، تكتنفه الأمراض والأغراض والوَهَن والغزو الفكري الكافر والبرامج التعليمية والتربوية الماجنة بكل صورها ونماذجها.

وفي قوله ﷺ: «**لئن أدركتُهُمْ لأَقتلنّهم قتلَ عاد**» إشارةٌ إلى خطورة مكانتهم في المجتمع وصعوبة المعالجة السلمية لما يأتون به مع كثرتهم وقوة انتشارهم وعلو مظهرهم في آخر الزمان.

وهنا ملحظٌ هامٌ في هذه العبارة، فقوله ﷺ: «**لئن أدركتُهُم**» وهو عليه الصلاة والسلام قد أَدْرَكَ حُرْقُوْصَ بذاته؛ ولكنه لم يقتله، فكيف لو قتله؟ أليس في ذلك قطعاً للشر من أسَاسِهِ ؟ والمعتقد والله أعلم أنه ﷺ لا يمضي حكماً في مثل هذا الشأن إلَّا بأمر الله وهو لم يخبر في شأن الرجل. وأما قوله: «**يخرج من ضئضئ هذا**» فهو على معنيين:

الأول: من ذريته ونسله، وهذا يعني أن الرجل محفوظ بقدر الله وقضائه، فلن يسلط عليه أحد، كما هو في شأن ابن صياد وذاك الرجل السابق ذكره، ولقوله ﷺ مشيراً إلى خطر الإشاعة التي لا يرجوها رسول الله في مبتدأ التَّحوُّلات «**دَعْهُ حتى لا يقول الناس: إن محمّداً يقتلُ أصحابه**»، وفي رواية أخرى: «**دعه فإن مِن ورائه رجالاً..**» «**دعه فإن له أصحاباً**».

الثاني: أن معنى قوله: «**يخرج من ضئضئ هذا**» أي: من مثاله وعلى رؤيته ومنهجه قومٌ أو أقوامٌ، وله في المدينة أمثلةٌ، أي: رجالٌ وأصحابٌ هم على ذات طِينته ورؤيته، فيعتبر القتل له في

هذه الحالة غَيْرَ مُجْدٍ وَلا مُفِيدٍ، بل ربما صار الأَمرُ أشدَّ خطراً وأثراً.

وتُبرِزُ هذه التحوُّلاتُ القائمةُ في عهد صاحب الرِّسالة سعةَ مشهدِهِ وبُعْدَ مقصده ورسوخ دعوته بأخلاقه ومواقفه، وهذا ما يؤكد بقاء هذا المعنى إذا عرفنا سِرَّ أخلاقِ نُبُوّتِهُ، وأنها الحافظُ المناسبُ والأسلوبُ النَّاجح في استمرارية هذا الميراث إلى جانب الأصلين «الكتاب والسنة» أمام مجريات الفتن وأصحابها.

فالآخذ لهما -أي الكتاب والسنة- مجرَّدَيْنِ عن أخلاق النبوة يُضْرَبُ لهما مضرب المثل في حرقوص ومثله ممن لهم اعتزاز بالإثم، ومن أخذَهما بحقِّهما ومعادلهما الثالث عرف سِرِّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾(1)، وأنَّ هذا التوكيلَ أمرٌ رباني يهيئ به (المخلصين) في كل زمان ومكان، وهو سبحانه يرعاهم ويحفظهم للقيام بأمره، كما حفظ وكلاء غيرهم ممن له فيهم حكمة وامتداد الشر وسيره.. ولله في خلقه شؤون.

---

(1) الأنعام: ٨٩.

مَدْرَسَةُ الفِتَنِ المُعَـمّاة

في هذا العنوان إظهار نموذج آخر من نماذج الفتن المؤثرة في مسار حياة الأمة أشار إليها ﷺ في أحاديثه، وعبَّـر عنها فقه التحولات بمدرسة «الفتنة المعمّاة» وكأنها بؤرة العديد من الفِتن التي تُصيب الأمَّة في شأن التلبُّس بالدِّين واتخاذه قميصَ عثمان -كما يقولون- لتنفيذ أغراض وأهداف أخرى، وربَّما ينطوي تحت سقفها عدد من نماذج الانحرافات المتنوعة التي أصابت العالم الإسلامي في مراحله المتقلبة كالفِرَقِ الضَّالَّةِ المنحرفة التي لا سقف لها من مسميات الفتن المشار إليها بالمدارس في هذا التقسيم، وقد تناول بعض العلماء الكثير منها في كتب مستقلة، قال عنها الناظم:

ومثلُهـنَّ الفِتنَـةُ العَميَـاءُ — مَدْرَسـةٌ ضَاعـتْ بها الأسـماءُ
مَجهولـةُ الأفـرادِ والأتبـاعِ — تَسوسُـها مَجموعَـةُ الأَقْمـاعِ
وقَدْ أَتى في النَّصِّ أنَّ المُصْطَفَى — قَـدْ كَانَ فـي أصحابِـهِ مُعتكِفـا
إذْ ذَكَّرُوا شَـخْصَاً جَديـراً بالثَّنا — مُصَـلِّيـاً وقـانِتـاً مُـؤْتَـمَـنـا

يشير الناظم إلى مقتضى قضاء الله وقدره في سير الخير والشر في خطَّينِ متوازيينِ، وأن مرحلة الرسالة القائمة على الهداية والإيمان كان داخل خيمتها مظاهر أخرى تخدم سيرة الشيطان والدَّجال، ومن ذلك ما أشارت إليه الأحاديث الصحيحة، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان في عهد رسول الله ﷺ رجل يعجبنا تعبُّدُه واجتِهاده، فذكرناه لرسول الله ﷺ ووصفناه بصفته، ففيما نحن نذكره إذ طلع الرجل، فقلنا: هو هذا يا رسول الله، قال: «**إنكم تخبروني عن رجلٍ على وجهه لسَفْعَةٌ من الشَّيطان**»، قال: فأقبل على المجلس، فقال رسول الله: «**أَنْشُدُكَ اللهَ.. هل قلتَ**

حين وقفتَ على المجلس: ما في المجلس أحدٌ أفضلُ مني أو خيرٌ مني ؟»، قال: اللَّهمّ نعم، ثم دخل ليصلي، فقال رسول الله ﷺ: «**مَن يقتلُ الرجلَ؟**» قال أبوبكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنا، فدخل فوجده يصلي، فقال: سُبْحَان الله.. أقتلُ رجلاً يصلي! وقد نهانا رسول الله ﷺ عن ضرب المصلِّين! فخرج، فقال له رسول الله ﷺ: «**مَه؟**»، قال: وجدتُه بأبـي أنت وأمي يصلي، وقد نهيتنا عن ضرب المصلين، فقال ﷺ: «**من يقتل الرجل ؟**»، فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنا، فوجده ساجداً، فقال: أقتل رجلاً واضعاً جبهته لله تعالى! وقد رجع أبوبكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو أفضل مني! فخرج، فقال رسول الله ﷺ: «**مَه؟**»، فقال: بأبـي أنت وأمي يا رسول الله وجدته ساجداً فكرهت أن أقتله واضعاً جبهته لله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «**من يقتل الرجل؟**»، فقال علي: أنا، قال: «**أنت إن أدركتَه قتلتَه**» فوجده علي قد خرج فجاء، فقال: وجدته بأبـي أنت وأمي قد خرج، قال: «**لو قتلتَه ما اختلف من أمتي رجلان كان أولهم وآخرهم واحداً**». أي: كان أولهم وآخرهم على قلب واحد[1].

وعن أَنَسٍ أَنَّ رجلاً كان يغزو مع رسول الله ﷺ فإذا رجع وحَطَّ عن رحله عَمِدَ إلى المسجد فجعل يصلي فيه فيطيل الصلاة حتى جعل أصحاب النبي ﷺ يرون له فضلاً عليهم فمرَّ يوماً والنبي ﷺ قاعد في أصحابه، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله هو ذاك الرجل، فإما أرسل إليه وإما جاء من قبل نفسه، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: «**والذي نفسي بيده إنَّ بين عينيه سفعة من الشيطان**» فلما وقف على المجلس قال له رسول الله ﷺ: «**أَقُلتَ في نفسكَ حِين وَقفتَ على المجلسِ ليس في القومِ خَيرٌ مِني؟**» قال: نعم، ثم انصرف فأتى ناحية من المسجد فخطّ خطاً برجله ثم صف كعبيه فقام يصلي، فقال رسول الله ﷺ: «**أَيُّكُم يقوم إلى هذا فيقتله**» فقام أَبُوبكر فقال رسول الله ﷺ: «**أَقَتلتَ الرَّجُل!**»، فقال: وجدته يصلي فهبتُهُ. فقال رسول الله ﷺ «**أَيُّكم**

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١: ٢٢٣) تحقيق د. عبدالرحمن عميرة، و «مجمع الزوائد» (٣: ٣٠١).

يقوم إلى هذا فيقتله» فقال عمر: أنا، وأخذ السيف فوجده يصلي فرجع، فقال رسول الله ﷺ لعمر: «**أقتلتَ الرجلَ!**»، فقال يا رسول الله: وجدته يصلي فهبتُهُ. فقال رسول الله ﷺ: «**أَيُّكم يَقُومُ إلى هذا فيقتُله؟**» قال علي: أنا، قال رسول الله ﷺ: «**أَنْتَ لَهُ إِنْ أَدْرَكْتَهُ**» فذهب علي فلم يجده، فقال رسول الله ﷺ: «**أقتلتَ الرجلَ؟**» قال: لم أدرِ أين سلك من الأرض! فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ هذا أَوَّل قَرْنٍ[1] خَرَجَ في أُمَّتي، لو قَتلتَه ما اختلفَ في أُمَّتِي اثْنَان**»[2]. اهـ.

قال الرَّسُـولُ: لستُ أدري شَأْنَهُ ... ولـم يَطُـلْ بالمُصْطَفـى بـيانُـهُ
إذ جَـاءَ ذاكَ الرَّجلُ الموصوفُ ... ثـمَّ اسـتقامَ خلفَهَـم يَطـوفُ
قالَ النَّبـيُّ: هل تَرى فيمَن حَضَرْ ... أحسنَ منك؟ قال: لا، حالي أَبَرْ
ولـم يَطُـلْ بَقَـاؤُه بـل ذَهَبـا ... لِرَوْضَـةِ المسـجدِ يخْطُو غضِباً
قـال النَّبــي: أَيُّكُـمْ يَقْتُلُـهُ؟ ... يُرِيحُنَـا مِـن شَـرِّ مـا يحمِلُـهُ
فذَهَـبَ الصِّدِّيـقُ ثُـمَّ عَـادَا ... قـال: يُصَلِّـي لـم يَـرُمْ فَسَـادَا
وَذَهَـبَ الفـاروقُ وهْـوَ مُنْفَعِـلْ ... يريـدُ قطـعَ رأْسِـهِ كَمَـا جُبِـلْ
فَعَـادَ قَـالَ: سَـاجِداً وَجَدتُّـهُ ... وَلَيـسَ لـي حَـقٌّ بِمَـا عَقَدْتُـهُ
قَـامَ عَلِـيٌّ قـال: إنّـي أَقْـدِرُ ... قـال الرَّسُـولُ: أنتَ حَقّـاً أَجْدَرُ

---

(١) قال في «القاموس»: القرن: أعلى الجبل، وأول الفلاة، وأول شعاع الشمس أو أول ما يبدو منها عند طلوعها، والدفعة من المطر، والقرن أربعون سنة، والصحيح: مئة سنة، والقرن: كل أمة هلكت فلم يبقَ منها أحد. اهـ «محيط المحيط» ص٧٣١، قلت: وفي هذا إشارةٌ واضحةٌ إلى أن أول مبتدأ ظهور الفتن بكافة صورها كان في عهد العصر الأول ومع وجوده ﷺ.

(٢) رواه أبو يعلى وفيه يزيد الرقاشي ضعّفه الجمهور، وفيه توثيق لين، وبقية رجاله رجال الصحيح، انظر «مجمع الزوائد» (٣: ٨٥).

فَلَـمْ يَجِـدْهُ ثُـمَّ عَـادَ مُخبِـرا	قـال النَّبِــيُّ للجميـعِ مُنْـذِرَا
لـو تَـمَّ قَتْـلُ الرَّجُـلِ المَجهُولِ	لـم يَفْتَـرِقْ إثنـانِ فـي مَنْقُـولِ
لكـنَّ أمـرَ اللـهِ يجـريْ قَـدَرا	فانظُرْ عَجِيبَ القَدَرِ الذي جَرَى
وَمِـن هنـا بَـدَا مَسِـيرُ الفِتَـنِ	حـالاً بحـالٍ عبـرَ كُلِّ الزّمـنِ

أشار الناظم في الأبـيات التي أوردت جملة واحدة لاحتوائها على موضوع الحديث السالف إلى تفصيل قصة هذا الحديث الغريب المعبر عن عمق الحكمة الإلهية في مجريات القضاء والقدر، وفيها من عجيب مواقف الصحابة أمام ظواهر السلوك، وما يترتب على هذه المواقف من قضاء نافذ لا يملكه المرء ولا يتدخل فيه، كما أن فيها من عظيم علم المصطفى بالأمور الكائنة وتجسّدها في الأفراد منذ بداية البعثة والرسالة ومعاصرة النبـي ﷺ لهذه التحولات وأصولها، ومعايشته لمتناقضاتها، وإشارته ﷺ من واقع العلم الذي يعلمه لسر بقاء الفتن والتحوُّلات وأمره الصريح لأمثال أبـي بكر وعمر كي يتصرفا بحزمٍ أمام مجريات التحول، فيجدا نفسيهما حبـيسين لما يعلمان من أمر الله وغير قادرين على تجاوز العلم الذي علماه.

فهذا أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقوم لقتل الرجل بعد أن أبرز النبـي ﷺ سر زَيْفِهِ وَخيانته وفساد رأيه، فيرجِع أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليقول: وجدته يصلي، وهذا يدل على أن للتعبدِ هيبةً تمنع الحصيف من تجاوزها خشية الإثم مع أن الرسول ﷺ قد أطلق الأمر، وقال: «**من يقتل الرجل؟**» ولم يحدد نوع السلوك أو الحالة التي ينتفي بها عنه القتل، ولهذا قال ﷺ لأبـي بكر بعد عودته وهو يبتسم: «**قد كنتُ أعلم ذلك**» أي: لستَ صاحبه.

وقام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ليقوم بذات المهمة عازماً جازماً وهذا شأنه في مواقفه، وهو أيضاً أول قتيل في الفتن، وهو أيضاً الباب الواقي من انتشارها في الأمة، وهو الفاروق الذي يفرق بـين الحق والباطل، ولكنه أمام الرجل المشار إليه عاد إلى رسول الله، قائلاً: وجدته ساجداً لله، أي

إن عمر استهاب أن يقتل عبداً في حالة من حالات القرب عند الله، وهيبة المقام لرجلٍ رجَّاعٍ وقَّاف عند أمر الله وكتابه تقتضي أن لا يضع سيفه إلَّا فيمن يستحق، ولعله رأى في مفهوم علمه أن هذا الساجد بين يدي الله لا يستحق القتل ولا يليق أن يتجرَّأَ عليه، وكأنَّه نسي قول النبي ﷺ: «**من يقتل الرجل؟**» وأنه لم يبين الحالة ولا الكيفية.

ويقوم الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ليقوم بالمهمة ويقطع دابر الفتنة ولكن بعد زمن قد فات، وجرى فيه أمر القضاء بما جرى، فقال له ﷺ: «**أنت صاحبُه إن أدرَكتَه**» وكأنَّها إشارةٌ منه ﷺ للعلاقة الشرعية في شأن تأَهُّله لاجتثاث الفتن ومعالجتها؛ ولكنه علَّق على ذلك بقوله: «**إن أدركتَه**».

ودقائق المعرفة تشير إلى أن ترك الصديق والفاروق قتل الرجل على غير تعمد بعد الأمر النبوي باجتثاث الفتنة أمر مبرم في مجريات القدر والقضاء على غير مسؤولية أو تبعة عليهما، حيث أشرنا سلفاً أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**كنتُ أعلم ذلك**» بعد عودة كل منهما، ولما عاد الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأخبر أنه لم يجد الرجل فيه إشارة تتناسب مع قول رسول الله ﷺ: «**أنت صاحبه إن أدركتَه**»، أي: إن تهيأ لك في مستقبل الزمان الأخذ بزمام الأمور سيكون على يدك حسم كثير من الشر.

والعجيب أننا لم نلحظ مكاناً لعثمان بن عفان في هذه المسألة، وكأن الأمر يشير إلى عهده الذي برزت فيه قضايا الفتن عالية مدوَّية ولم تخمد بعد ذلك. والله أعلم.

حتى إنه لما جاء الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعده جاء وقد انتشرت الفتنة داخل وخارج الخيمة الإسلامية، ونسجت عناكِبُ الشَّرِّ خيوطَ الصِّراع والخلاف، وكان هو كرم الله وجهه أَحد ضحاياها. وفي ختام الأمر كشف ﷺ سر الأمر بالقتل للرجل فقال: «**لو قُتل هذا لما اختلف اثنان..**».

ولو كان ﷺ مأموراً بقتل الرجل لما تردد في قتله؛ ولكن الحكمة الإلهية تبرز لنا سر معرفة

رسول الله للفتن منذ باكورة الرسالة كما هو في ابن صياد، حيث قال الرسول لسيدنا عمر ابن الخطاب: «**إن يَكُنْهُ فلن تُسَلَّطَ عليه**» أي: إن كان ابنُ صَيَّاد هو الدَّجال فالحقُّ سُبْحَانه يَحْمِيه منكَ لأَنَّه جُزءٌ من حكمةِ الله في مَجْرَى قَضائهِ وقَدَرِهِ، ولله في خلقه شؤون.

مَدارس الكَذِبِ.. مُـدَّعُو النبوّة:
مُسَيْلِمَة الكَذّاب، طُلَيحة الأسَدي، الأسْود العَنْسِي

مَدارسُ الكِذْبِ بَدَتْ فِي العَرَبِ ... في آخِرِ العَصْـرِ البَدِيْعِ الذَّهَبِي
وَكَانَ طَـهَ فـي فِـرَاشِ المَرَضِ ... إِذِ ادَّعَـىْ الوَحْيَ ذُيُـوْلُ العَرَضِ

(١) المدرسة المسيلمية

أَوَّلُهـا مَدرَسَـةُ الكَـذَّابِ ... مُسـيْلِمُ النَّجْـدِيُّ ذُوْ الإِعْجَابِ
قَـدْ كَانَ قَبـلُ مُسـلماً طَمُوحَـا ... أَتَـى إِلَـى طَيْبَـةَ كَـيْ يَبُوْحَـا

أشار النَّاظِمُ فِي عنوان الموضوع إلى مدرسة كاملة تأسست في آخر مرحلة الرسالة وهي مدرسة الكذب وصاحبها مسيلمة[١] الكذَّاب وموطنها نَجْد، ومن خلال مواقف الكذاب

---

(١) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي أبو ثمامة، ولد ونشأ باليمامة بوادي حنيفة بنجد، وتلقب في الجاهلية بالرحمان، وكان يعرف برحمان اليمامة، طاف ديار العرب والعجم وتعلم الأساليب التي يستغفل بها الناس كالكهانة والعيافة والسحر واستخدام الجن وغيرها، وكان يدعي النبوة قبل إسلامه على ما ذكرته بعض الروايات، ويرسل أناساً إلى مكة ليسمعوا القرآن فينسج على منواله، وفي العام التاسع للهجرة أقبل وفد بني حنيفة يعلنون إسلامهم، وكان مسيلمة معهم، ففي رواية أن تخلف عن مقابلة رسول الله يحرس متاع قومه، فقال رسول الله ﷺ عنه: «إنه ليس بِشَرِّكُمْ مكاناً» ، فلما رجعوا أعلن شركته في النبوة معتمداً على قوله ﷺ: «إنه ليس بِشَرِّكُمْ مكاناً» ، قال بعض الشراح: إنما قوله ﷺ: «إنه ليس بِشَرِّكُمْ مكاناً» لا تعني أنه خيرهم، بل تعني أنهم أشرار، وليس هو بأكثر شراً منهم بل هو شرير منهم، وتوفي رسول الله ﷺ وأمر مسيلمة لازال ظاهراً، وبعث إليهم سيدنا أبوبكر الصديق خالد بن الوليد في جيش من المهاجرين والأنصار وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، واشتدت المعركة وثبت قوم

المُشار إليه تبرز معالم هذه المدرسة كنقطة تحول جديدة داخل خيمة الأمة الإسلامية، وتبرز معها مواقف جديدة يضع أُسُسَهَا وقواعدَهَا من لا ينطق عن الهوى ﷺ.

وقد اختلفت الروايات في وقت نبوءته، والإجماع على أن الرجل تنبَّأ وادَّعَى أنَّه يُنـزل عليه قرآن[1]، وفي بعض الروايات أنه أتى وأسلم ثم عاد إلى نجد وارتد بنبوءته، ومن مجموع الروايات يستفاد أن ظاهرة التَّنَبُّؤِ برزت في تلك المرحلة في نجد واليمن، فكان مسيلمة في نجد والأسود العَنْسي في اليمن، وإلى ذلك أشار ﷺ في قوله: «**بـينما أنا نائمٌ رأيتُ في يدي سوارين**

مسيلمة وقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً حتى اقتحم المسلمون الحديقة وحمي القتال داخلها وأُغلق بابها وأقام المسلمون عليه رجلاً لئلا يخرج منهم أحد، وقتل منهم جمع كثير ومنهم مسيلمة الكذاب، رماه حبشي بحربته التي قتل بها حمزة رضي الله عنه، وضربه رجل من الأنصار على هامته وهو أبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه –وقيل: عبدالله بن زيد الأنصاري– فخر صريعاً، وانقطع دابر القوم بعد قتله، وقتل من المهاجرين سبعون ومن الأنصار سبعون ومن سائر الناس خمس مئة. «تاريخ الخميس» (٢: ٢١٩).

(١) ذكرت الروايات أن مما زعمه قرآناً قوله: لقد أنعم الله على الحبلى . أخرج منها نسمة تسعى . من بـين صفاف وحشا . فمنهم من يموت ويدس إلى الثرى . ومنهم من يبقى إلى أجل مسمى . والله يعلم السر وأخفى، ومن قرآنه: يا ضفدع بنت ضفدعين . نقي ما تنقين . أعلاك في الماء وأسفلك في الطين . لا الشارب تمنعين . ولا الماء تكدرين . نقله الدكتور محمد الهلابـي عن الطبري، انظر «الانشراح ورفع الضيق في سيرة الصديق» ص٢٦٢.

ومن قرآنه : يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين، امكثي في الأرض حتى يأتيك الخفاش بالخبر اليقين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا لا يعدلون. ومن قرآنه : الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وثيل ، وخرطوم طويل، إن ذلك من خلق ربنا لقليل.

وقد أنزل الله في شأنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام:٩٣] قال في «الكشاف» : هو مسيلمة الحنفي الكذاب أو كذاب صنعاء الأسود العنسي . اهـ «تاريخ الخميس» (١: ١٢-١٣).

من ذهب فأَهَمَّنِيْ شأنُهما فأوحيَ إليّ في المنام أن انفخهما فطَارَا فأولتُهما كذابين يخرجان من بعدي أحدُهما العَنْسي صاحب صنعاء والآخر مسيلمة صاحب اليمامة»[1].

وذكر الناظم ما روي أنّه أسلم بادئ ذي بدء، وكان له طموح في شأن اقتسام المصلحة كما يعتقد ورأى في شأن حكم الأرض. (٢)

بِسِرِّ مَا يَرْجُوْهُ مِنْ تَقاسُمِ   مَعَ النَّبِيِّ فِي النِّظَامِ العَالَمِي

حيث ورد في الرواية أنه في العام العاشر للهجرة عندما أُصيب رسول الله ﷺ بمرض موته تجرأ مسيلمة فكتب إلى رسول الله ﷺ يزعم لنفسه الشركة مع رسول الله في النبوة، وبعث رسالته مع عبادة بن الحارث الحنفي المعروف بابن النواحة، وفيها كتب: «**من مسيلمة رسول الله –وقد كَذَب في ذلك– إلى محمد رسول الله، أمّا بعد فإن لنا نصفَ الأرض ولقريشٍ نصفَها ولكنَّ قريشاً لا ينصفون**»، فردَّ عليه رسول الله ﷺ: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ النَّبِيِّ إلى مسيلمة الكذَّاب، أمَّا بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتبع الهدى**»[3].

وحمل الرسالةَ إلى مسيلمة حبيبُ بن زيد الأنصاري، فلما أسلمها له قال مسيلمة: أتشهد أنَّ محمداً رسولُ الله ؟ قال: نعم، ويقول له: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: أنا أصمُّ لا أسمعُ، ففعل ذلك مِرَاراً، وفي كل مرة كان يقطع منه عضواً حتى مات.

وفي رواية أخرى: أنَّ الحوار بين رسول الله ﷺ ومسيلمة كان بالمدينة في منزل عبدالله بن

---

(١) «كنز العمال» (١١: ٣٧٦).

(٢) النظام العالمي إشارة إلى ما يدعيه مسيلمة الكذاب في مشروعية دعواه بأنه يوحى إليه، وأن له حقاً في إقامة ثوابت الدين العالمي الأخير كذباً وافتراءً

(٣) «دلائل النبوة» للبيهقي (٥: ٤٢٠) في باب وفد بني حنيفة.

أُبَـيٍّ ابنِ سلول، وكان مع رسول الله ثابت بن قيس ابن شماس، وتكلم مسيلمة، وقال: الأرض نصفُها لي ونصفها لك، فردَّ عليه الرسول ﷺ: «**إن الأرض للهِ يورثها من يشاء من عباده**»، وأخذ عُوْدَاً من الأرض، وقال: «**لو سألتني هذا ما أعطَيْتُكَهُ**»، فقيل: إنه قال له: لأملأنّها عليك خَيْلاً ورِجَالاً، فولَّى رسولُ الله ﷺ وهو يقول: «**وهذا ثابتُ ابن قيس بن شماس يخطُب عني**»، وإلى هذا أشار الناظم في قوله معتمداً على هذه الرواية:

وحَلَّ ضَيْفَاً عِندَ نَسْلِ ابنِ سَلُولْ　　　تَعاضُـدَاً يَحْكِي لَنَا سِـرَّ المُيُولْ

ويشير هنا إلى ما بـين الرجلين من هدف العِداء لرسول الله ﷺ، وكيف يأتي تعاضد الكذب والنِّفاق في غرض واحد. (١)

وَجَـاءَ خَيـرُ الخَلـقِ نحـوَهُ يَـرَى　　　مَـا عِنـدَهُ مِـنَ الطُّمُـوْحِ المُفْتَرَى

---

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس، وشماس هو ابن زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج، وثابت بن قيس صاحب رسول الله وخطيبه في المحافل، وقد خطب أمام رسول الله ﷺ يوم مقدمه المدينة، واشتهرت خطبته أمام وفد بني تميم، ولما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ حزن قيس ولازم بيته، ولما كلمه قومه في ذلك، قال: إني هلكت فلقد كنت أرفع صوتي بين يدي رسول الله ﷺ وأجهر له كما أجهر لكم، ولما عَلِمَ النبي ﷺ بَعَث إليه أن يأتيه وبشره بالجنَّة وبأن الله لن يحبط ماله من عمل وفضل، ومكث ثابت بعد النبي ﷺ حتى يوم اليمامة فكان من الذين بذلوا أنفسهم وحياتهم في سبيل الله حتى رُزق الشهادة، وقد نفذ أبوبكر الصديق رضي الله عنه وصيته التي أوصى بها بعد شهادته حين رآه أحد المسلمين في المنام فذكر له ما عليه من دين يحب أن يقضي عنه وأخبره بمن أخذ درعه التي كانت عليه في المعركة.

وفي الأنصار رجلٌ آخر اسمه ثابت بن قيس ابن الخطيم أبوه كان شاعراً مشهوراً، وكان من القلة الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم أحد، وكان يقاتل بين يديه حاسراً لا ترس له، وكان رسول الله ﷺ، يقول له: «**أقبل يا حاسر وأدبر يا حاسر**»، وقد شهدت ثابت هذا المشاهد كلها مع النبي ﷺ، واستعمله الإمام علي بن أبي طالب على المدائن. «في موكب السيرة النبوية» د. محمد المختار ولد أبّاه ص١٦٨.

فَطَالَـبَ النَّبــيَّ بالتَّقاسُـمِ نِصْفَيـنِ حُكْـمِ الأَرْضِ والمَغَانِمِ

فَحَمَلَ النَّبــيُّ عُـوْداً يَابِسَـا يُشِـيرُ أَنَّ المُلْـكَ للـهِ رَسَـا

يُورِثُـهُ بِأَمـرِه لِمَـنْ يَشَـا فاشـتاطَ ذاكَ غَاضِبَـاً مُرْتَعِشَـا

لأَمْـلأَنَّ الأَرْضَ خَيْـلاً وَرِجَـالْ عَلَيْكَ وَالحَرْبُ عَلَى الدُّنْيَا سِجَالْ

فَـرَاحَ طَـهَ قَائِـلاً: عَنِّـيْ يَقِـفْ نَسلُ ابنِ شَـمّاسٍ خطيباً مُتَّصِفْ

وَمُنْـذُ ذَاكَ العَهْـدِ وَالحـقُّ صِرَاعْ أَمـامَ زَيفِ البَاطلِ المُفْضِي نِـزَاعْ

يشير الناظم إلى استمرار معركة الحق والباطل بـين مدرسة الإسلام الصادقة ومدرسة الكذب والمنافقة منذ ذلك العهد، حيث أشار النبـي إلى تسلسل المنافحة في من يأتي بعده بقوله: وهذا ثابت بن قيس بن شماس يخطُب عني، وفيه دلالة انتقال أمر المدافعة عن الإسلام إلى الأجيال اللاحقة، وهذا ما تشهد به الوقائع والحوادث من تضافر الكفر والكذب والنفاق في متارس واحدة أمام الحق الناصع.

تَحَـوُّلٌ فـي الفِكْـرِ وَالمَوَاقِـفِ وخِدْعَـةٌ تَلُـوحُ فـي الوظائـفِ

إشارةٌ إلى ما أثمرته تحالفات الكفر والنفاق ومدرسة الكذب المسيلِمِيَّةِ وغيرها من مدارس الدجل في تاريخ الأمة الإسلامية من خداعٍ وتضليل في الفكر والديانة، وفي المواقف العالمية الإسلامية، واستمرار هذا الخداع والإفك في أجلى صوره ومعانيه.

وقد برز هذا التحالف منذ عهد مسيلمة حيث تحالف مسيلمة الكذاب مع رجل يسمى الرَّحَّال بن عنفوة[1]، وقد قدم هذا النهّار إلى رسول الله ﷺ مع قومه إلى النبي ﷺ فقرأ القرآن وتعلم السنن، وكان يأتي إلى أُبَيِّ بن كعب وهو من أشهر القراء للقرآن الكريم فبعثه النبي ﷺ

(١) اختلف في اسمه، فقيل: إنها (الرّحّال)، وقيل: (الدجال). وقيل: (الرجال).

سفيراً إلى اليمامة ليعلم أهلها أحكام الإسلام ويبصرهم بفرائضه فما لبث مسيلمة الكذاب أن اسْتَهْوَاهُ بخبثه ولؤمه حتى شهد لمسيلمة بأنه يوحى إليه، وأنه قد سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنه قد أشرك معه في نبوته مسيلِمة وشهد له بالنبوة**».. فكان أعظم على أهل اليمامة فتنةً من غيره، وكان يقول: كبشان انتطحا فأحبهما إلينا كبشنا[1]، وقال عنه ﷺ : «**ضرسه –أي: الرحَّال بن عنفوة– في النَارِ أعظم من أُحُد**» .

وأخذ نهار الرجال يسوق الناس إلى طريق الغواية بعد أن تحالف مع مسيلمة الكذاب، كما تحالف مسيلمة مع سجاح بنت الحارث التميمية التي ادَّعَت النبوة وقد قدمت إليه بجيش لتغزوه ومعها رهطُها من أخوالها بني تغلب، فأغراها مسيلمة بالزواج والتحالف بقوله: (هل لك أن أتزوجك وآكُلُ بقومي وقومك العرب) فقبلت وأقامت عنده ثلاثاً وتزوجها وشهدت له بالنبوة، وأسلمت سجاح بعد مقتل مسيلمة ولحقت بقومها وماتت في عهد معاوية بن أبي سفيان، وكان ظهور مسيلمة في السنة الحادية عشرة من الهجرة إبان مرض النبي ﷺ الأخير قبل موته، وفي هذه الفترة أيضاً ظهر الأسود العَنْسِي باليمن، وقد أشار النبي ﷺ إلى ظهورهما وما أهمه من أمرهما كما سبق ذكره.

---

(١) وعن رافع قال: كان بالرحال ابن عنفوة من الخشوع واللزوم لقراءة القرآن والخير فيما يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء عجيب، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً والرحال معنا جالس مع نفر فقال: أحد هؤلاء النفر في النار، قال رافع: فنظرتُ في القوم فإذا أبو هريرة الدوسي وأبو أروى الدوسي والطفيل بن عمرو الدوسي ورجال بن عنفوة، فجعلت أنظر وأتعجب وأقول: من هذا الشقي ؟ فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعت بنو حنيفة فسألته: ما فعل الرجال بن عنفوة ؟ فقالوا: افتُتن، هو الذي شهد لمسيلمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أشركه في الأمر بعده، فقلت: ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حق، وسُمِعَ الرحالُ وهو يقول: كبشان انتطحا فأحبهما إلينا كبشنا. رواه الطبراني وقال فيه: الرحال بالحاء المهملة المشددة ، «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٤ : ٣٣).

(٢) الأسود العَنْسِي:

والأسودُ العَنْسيُّ في أرضِ اليَمَنْ   قَـدِ ادَّعَـى الوَحـيَ وكان مُفتَتَنْ

هو عَبْهَلَةُ بنُ كعبِ بنِ عوفٍ العَنْسيُّ من مذحج ويقال له: (ذو الخمار)؛ لأنه كان يغطي وجهه بخمار، ادَّعَى النبوة باليمن في أخريات عهد النبي ﷺ وكان كاهِناً مُشَعوِذاً يُري الناس الأعاجيب ويسبي منطقه قلب كل من سمعه، وكان أول خروجه بعد حجة رسول الله ﷺ حجة الوداع، ومن أول خروجه إلى أن قتل (أربعة أشهر) فخرج مع قومه وَقَتَل وَالي صنعاء باذان، وفي رواية أنه مات وظهر العنسي بعد موته وتزوج زوجته (المرزبانة) وغلب على اليمن فكتب فروة بن مسيك عامل رسول الله إلى خالد يخبره[١]، وخرج معاذ بن جبل إلى أبي موسى الأشعري بمأرب وذهبا حضرموت ورجع خالد بن الوليد إلى المدينة وجعل أمرُ الأسود يستطيرُ استطارةَ الحريق، وقُتِلَ الأسود في منـزله وهو سكران قتله فيروزُ الدَّيلمي وهو قريب لزوجة باذان وكانت بنت عمه، وفرح المسلمون بقتله وأخبر النبي الصحابة بمقتله،وقُبض النبي من الغد، ووصل خبر مقتل العنسي إلى المدينة في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في آخر شهر ربيع

---

(١) جاء في «تاريخ اليعقوبي» (٢: ١٢٢) أسماء عماله صلى الله عليه وآله وسلم وقضاته حيث قال: وكان عمال رسول الله لما قبضه الله على مكة عتاب بن أسيد بن العاص وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي والمنذر بن ساوي التميمي، وبعضهم يقول: مكانُ العلاءِ أَبَانُ بن سعيد بن العاص، وعلى عَمّان عبادٌ وجيفرُ ابنا الجلندا، وقال بعضهم: عمرو بن العاص، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص، وعلى اليمن معاذ بن جبل وأبو موسى عبدالله بن قيس الأشعري يفقّهان الناس، وعلى مخاليف الجند وصنعاء المهاجر بن أبي أمية المخزومي، وعلى حضرموت زياد بن لبيد الأنصاري، وعلى مخاليف اليمن خالد بن سعيد بن العاص، وعلى ناحية من نواحيها يعلى بن منية التميمي، وعلى نجران فروة ابن مسيك المرادي، وقال بعضهم: أبو سفيان بن حرب، وعلى صدقات أسد وطيء عدي بن حاتم، وعلى صدقات حنظلة مالك بن نويرة الحنظلي، وقال بعضهم: على صدقات بني يربوع وعلى صدقات بني عمرو وتميم سمرة بن عمرو بن جناب العنبري، وعلى صدقات بني سعد الزبرقان بن بدر، وعلى صدقات مقاعس والبطون قيس بن عاصم.

الأول، قال في «تاريخ الخميس» : وفيروز الديلمي، هو ابن أخت النجاشي، وقيل: هو من أبناء فارس، ويقال له: الحِمْيَرِي، لأنه نزل حِمْيَر.

(٣) طليحة الأسدي

هو طُلَيحة بن خُوَيْلِد الأسدي من بني أسد، أسلم بادئ ذي بدء وجاء في وفد بني أسد إلى المدينة ثم ما لبث أن ارتَدَّ وادَّعى النبوة، وكان من أشجع الرجال، ولما أعلن ارتداده وادِّعاءَهُ للنبوة في أُخرَيات عهد رسول الله ﷺ بعث إليه ضِرَارَ بنَ الأَزْوَرِ لقتاله وتُوُفِّي رسولُ الله ﷺ وهو بعد لم يُذْعِنْ وقويَت شوكَتُه بعد وفاة رسول الله وظهر أمره ولحقه من العرب أقوام منهم عيينة بن حصن الفزاري، وامتنعوا عن أداء الزكاة، وكان يزعم أن الملك يأتيه بالوحي، وفي خلافة أبي بكر الصديق بعث لقتاله خالد بن الوليد على رأس جيش وقاتله مع أتباعه حتى انهزموا، وهرب طليحة وخلفه امرأته على حصانه ولَحِق بالشام وانقطعت فتنته، وعاد طليحة إلى الإسلام في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحسُنَ إسلامُهُ وحجَّ بيت الله وأبلى بلاءاً حسناً في معركة القادسية بالعراق واستشهد في (نهاوند) من أرض فارس.

مَدْرَسةُ الأُغَيْلِمَة

(المدرسة السفيانية / المروانية / اليزيدية)

ومِثْلُهـا مَدْرَسـةُ الأُغَيْلِمَـةْ ... مَـنْ يُهْلِكُـونَ الأُمَّـةَ المُلْتَزِمَـةْ

ظُهُوْرُهُـمْ فِـي عَـامِ سِتِّينَ بَـدَا ... كَمَا أَتَى فِي النَّصِّ عَنْ نُورِ الهُدَى

أمَّا مدرسة الأُغَيْلِمَةِ فهي التي وصفها رسول الله ﷺ، بقوله: «**يكون هَلاكُ أُمَّتي على يَدِ أُغيلمة من قريش**»(١)، وكان ظهورهم عام الستين من الهجرة وهم أغيلمة من قريش عند وصولهم إلى الحكم، وما ترتب بعد ذلك من مفهوم الملك العَضُوض وآثاره في الفصل بين الدِّين والدولة، وتنامت أفكار هذه المدرسة عبر تاريخ التحولات بصورٍ شَتَى في طرفي الحُكم والعِلم.

وتفرعت هذه المدرسة إلى ثلاثة أنماط:(٢)

---

(١) أخرجه في «المستدرك» من حديث أبي هريرة وقال: صحيح الإسناد.

(٢) كان ظهور المدرسة المروانية منذ عهد رسول الله ﷺ وكان الحكم بن أبي العاص والد مروان رائدها قبل ولده، وقد جاء في «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» ص٢١٨، قوله: الحكم بن أبي العاص بن عبدشمس بن عبد مناف وهو أبو مروان وعم سيدنا عثمان، أسلم في الفتح وقدم المدينة ثم أخرجه رسول الله ﷺ منها وطرده عنها؛ لأنه كان يتحيل في سماع سر رسول الله ﷺ في خفية حتى ظهر ذلك عليه، وقيل لأنه كان يحاكي النبي في مشيته وبعض حركاته، ودعا عليه النبي ﷺ، فقال: «**فكذلك فلتكن**»، فكان الحكم مختلجاً يرتعش من يومئذ، وروي أن النبي ﷺ لعنه، وهذا يروى عن عائشة رضي الله عنها من طرق كثيرة، ولما طرده النبي ﷺ من المدينة نزل الطائف ولم يزل بها حتى رده عثمان بن عفان رضي الله عنه لما ولي، وتوفي في آخر خلافة عثمان.

أما ولده مروان فقد روى الطبراني في الكبير عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ للحكم: «**إن هذا يخالف كتاب الله وسنة نبيه ويخرج من صلبه فتن يبلغ دخانها السماء**» وروى ابن عساكر عن حمزة بن حبيب رضي الله عنه، قال: أُتي رسول الله ﷺ بمروان بن الحكم وهو مولود ليحنكه فلم يفعل، وقال: «**ويلٌ لأمتي من هذا أو وَلَدِ هذا**» «كنز العمال» (١٣: ٦٧)، وروى البيهقي في «الدلائل» بلفظ: «رأى

نمط المدرسة السفيانية	نمط المدرسة المروانية	نمط المدرسة اليزيدية
وتنتمي إلى أبي سفيان ومن نَحَا نحوه	وتنتمي إلى مروان بن الحَكم ومن نحا نحوه	وتنتمي إلى يزيد بن معاوية ومن نحا نحوه

وكل واحدة من هذه المدارس يتناولها فقه التحولات برؤية ومفهوم شرعي عند التحليل دون إفراط ولا تفريط، يتفهمه العُقَلاء الذين يحبون الله ورسوله والدار الآخرة على غير انفعال ولا إنقاص أحد أو جدال، وإنما هو علم خاص بتعيين ما يجب تعيينه والسكوت عما يجب السكوت عنه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ .

ومن مظاهرها تحريفُ معاني النَّصِّ في قولِهِ ﷺ: «**عَمَّارُ تَقْتُلُه الفِئةُ البَاغِية**»[1] فقد روى عبدالله بن الحارث أن عمرو بن العاص، قال لمعاوية: أما سمعت رسول الله ﷺ يقول حين كان بناء المسجد لعمار: إنك لحريصٌ على الجهاد وإنك لمن أهل الجنة ولتقتلنك الفئة الباغية، قال: بلى فلم قتلتموه؟ قال: والله ما تزال تدحض في بولك أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذي جاء به[2].

وقد تغلغلت هذه الرؤية في داخل الحكم والعلم من خلال هذه القنوات الموعود بها، وسرى أثرها وخطرها في كثير من المسلمين جيلاً بعد جيل، ولا زال خطرها وأثرها في الأقلام والإعلام يهدم العلاقات ويدمر الأبنية السليمة.. ولكن الله غالب على أمره.. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

رسول الله ﷺ بني الحكم ينزون على منبره فأصبح كالمتغيظ» ، قال: فما رؤي رسول الله ﷺ ضاحكاً مستجمعاً بعد حتى مات.

(١) في «الحلية» لأبي نعيم عن أبي قتادة . انظر «كنز العمال» (١١ : ٧٢٢).

(٢) «جمع الفوائد» ص٥٣٩ برقم ٨٨٢٩، وقال: رجاله ثقات . كذا في «مجمع الزوائد» .

مَوقِعُ ابن صيّاد من فِقْه التَّحوُّلات

مِـنْ فِقْهِ عَصْـرِ المُصْطَفَـى المُختارِ وأَوْضَـحِ الأَخْبَـارِ وَالآثَـارِ

شـأنُ ابْـنِ صَيَّـادٍ وَمَـا بِـهِ وُصِـفْ مِنَ الغُمُوْضِ فِي النُّصُوْصِ قَدْ عُرِفْ

(١)يشير الناظم إلى أنموذجٍ آخر من نماذج الفتن والتحولات التي برزت منذ عهد صاحب الرسالة، وما كتب عنها من أخبار وآثار، وما اختلف فيه الصحابة ومن بعدهم حول شخصية ابن صياد، والغموض الذي اكتنف هذه الشخصية ومواقفها.

وَأَنَّ طَـهَ اخْتَـارَ فِـي الإِفْصَـاحِ عَـنْ كُنْـهِ مَـا يَأتِيـهِ مِـنْ أَرْوَاحِ

فَصَـادِقٌ وَكَاذِبٌ يُنازِعُـهْ مُنْـذُ الصِّبَـا وَلَيْـسَ مَـنْ يُضَارِعُهْ

---

(١) هو صافي بن صيّاد اليهودي، ولد بالمدينة، ويوم ولد أرسل النبي ﷺ: أبا ذر ليسأل أمه عن أمور منها: كم حملت به، وما هي صيحته يوم ولد، حيث كان رسول الله ﷺ يعلم خبره، وكان يقول عنه: «**يمكث أبوا المسيخ الدجال ثلاثين عاماً لا يولد لهما، ثم يولد لهما غلامٌ أعور**» وفي رواية: «**مستوراً مختوناً أضرَّ شيءٍ وأقلَّه نفعاً**» ، ويقول عن أبويه: «**أبوه رَجُلٌ طَوالٌ مضطرب اللحم طويل الأنف كأن أنفه منقار، وأمه فرضاخية عظيمة الثديين**» وفي رواية: «**طويلة الثديين**» ، وعندما ولد الغلام وانطلق أبا ذر ليسأل قالت أم الغلام: إنها حملت به اثني عشر شهراً، وإن صيحته يوم ولد كانت صيحة ابن شهر، وفي رواية: ابن شهرين، عندئذ انطلق النبي ﷺ ومعه عبدالله بن مسعود حتى أتى داراً قوراء، فقال: «**افتحوا هذا الباب**» ففتح ودخل النبي ﷺ وابن مسعود، فإذا قطيفة وسط البيت، فقال: «**ارفعوا هذه القطيفة**» فإذا غلام أعور تحت القطيفة، فقال: «**قُمْ يا غلام، أتشهد أني رسول الله**» ، فقال الغلام: أتشهد أني رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**أتشهد أني رسول الله**» ، فقال الغلام: أتشهد أني رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**أتشهد أني رسول الله**» فقال الغلام: أتشهد أني رسول الله، فقال النبي ﷺ: «**تعوذوا بالله من شر هذا مرتين**» رواه أحمد وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وانظر بتوسع «بـين يدي الدَّجال» للمؤلف ص١٦-١٧.

أشار النَّاظم إلى ما أهمَّ النبي ﷺ من أمر ابن صياد حيث ظل مجهولاً في كثير من المواقف، فقد ورد أنَّ النَّبي ﷺ لقيه وهو غلام، وفي رواية: قد ناهز الحلم، فلم يشعر ابن صياد حتى ضرب النبيُّ ﷺ ظهره بيده، ثم قال: «**أتشهد أني رسول الله؟**» فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين، ثم قال ابن صياد للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله، فقال النبي ﷺ: «**آمنتُ بالله ورسله**» اهـ.

ولما أراد عمر بن الخطاب أن يضرب عُنقَ ابن صياد برزت حقيقة خطيرة حيث قال ﷺ: «**إنْ يَكنهُ فَلنْ تُسَلَّطَ عَليه، وإنْ لا يَكنْهُ فَلا خَيرَ لكَ في قَتْلِهِ**»[1] وفي رواية: «**إن يَكُ الذي تخاف فلن تستطيعه**»، وفي رواية: «**وإلا يكن هو فليس لك أن تقتل رجلاً من أهل العَهد**»[2].

وفي مرة أخرى ذهب النبي ﷺ ومعه نَفَرٌ من الصحابة نَحْوَ ابنِ صياد ناحية النخل، فأخذ النبي ﷺ يختل بين النخل ليفاجئ ابن صياد ويسمع منه شيئاً فسبقته أم ابن صياد، فقالت: يا صاف هذا أبوالقاسم، فلما جاءه النبي ﷺ، قال له: «**ما تَرَى؟**» قال: أرى حقاً وأرى باطلاً وأرى عَرْشَاً على الماء، قال رسول الله ﷺ: «**أتشهد أني رسول الله**» قال ابن صياد: «**أتشهد أني رسول الله**»، فقال النبي ﷺ: «**آمنتُ بالله ورسله**».

وفي رواية: قال له رسول الله ﷺ: «**خَبَأْتُ لك خبيئاً فما هو؟**» وكان النبي ﷺ قد أخفى في نفسه قول الله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾[3] وهي آية الدخان التي هي من علامات الساعة، فقال ابن صيّاد: الدُّخّ.. الدُّخّ.. فقال النبي ﷺ: «**اخسأ اخسأ**» فلما ولّى ﷺ،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر ابن صياد برقم (٢٩٣٠) ، انظر «كنز العمال» للهندي (١٤ : ٣٣٠).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده عن جابر رضي الله عنه، قال: إن عمر قال : يا رسول الله ! ائذن لي فأقتل ابن صياد، قال فذكره.

(٣) الدخان: ١٠ .

قال القوم: ماذا قال؟ فقال بعضهم: «دُخ»، وقال بعضهم: «ذخ»، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا وأنتم معي مختلفون، فأنتم بعدي أشَدُّ اختلافاً**»(١).

وفي عبارته هذه ﷺ إشارةٌ إلى تحولات المستقبل في الاختلاف حول النصوص والألفاظ، وحمل كل فريق معناها على غير محمل الآخر.

حتَّىْ اسْتَفَاضَ القَولُ فِي شَخْصِيَّتِهْ بِأنَّـهُ الدَّجَّـالُ فـي ذاتِيَّتِـهْ

يشير الناظم إلى ما ساور العديد من الصحابة من أنَّ ابنَ صياد هو الدَّجال، وخاصة بعد أن ثَبَتَ قول النبـي ﷺ لعمر بن الخطاب: «**إنْ يَكنهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَليه**».

قال الأستاذ سعيد أيوب في كتابه «عقيدة المسيخ الدجال»: يعتبر ابن صياد صورة محدودة للمسيخ الدجال، ومهمته في حدود صورته التي ظهر بها، هو دجال لكنَّه يعمل في مجتمع عَصَمَ الله نبـيه من الناس ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾(٢) وعَصَمَهُ من غير الناس بالمعوذتين وعَصَمَ منهجه بالحفظ ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(٣).

وقد كان النبـي يرصد الحدث منذ بدئه فيقول للصحابة: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجِيْجُهُ**»(٤) وفي رواية: «**إن يخرج المسيخ الدَّجال وأنا -فيكم- حيٌّ كَفَيْتُكُمُوْه**»(٥) أي: سَيظَلُّ في صَغارٍ وصَغارٍ حتَّى يأتي قدر الله.

وكان بعض الصحابة يرون ابن صياد هو المسيخ الدَّجال، قيل للإمام علي بن أبـي طالب

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن الحسين بن علي رضي الله عنهما. انظر «كنز العمال» (١٤: ٦١٥).

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) الحجر: ٩.

(٤) شرح مسلم (١٣: ٦٥) كتاب الفتن، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» عن عبدالرحمن نفير عن أبيه عن جده، وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده من حديث عائشة رضي الله عنها.

(كرم الله وجهه): من هو المسيخ الدَّجال ؟ قال: «**صافِ ابن صياد**»(١).

وقال أبو ذر: لَأَنْ أَحْلِفَ عشر مرات أنَّ ابن صياد هو المسيخ الدَّجال أحب لي من أحلف مرة واحدة أنه ليس به، وذلك لشيء سمعته من النبـي ﷺ.اهـ(٢).

وأبو ذر كما سبق هو الذي بعثه النبـي ﷺ إلى منـزل ابن صياد يوم ولادته، فلعله سمع من النبـي ﷺ ما يشير إلى ذلك.

وقال محمد بن المنذر: رأيتُ جابر بن عبدالله يحلف بالله أنَّ ابن صياد هو المسيخ الدَّجال، فقلتُ: أتحلف بالله؟ قال: سمعتُ عمر بن الخطاب يحلف على ذلك عند رسول الله ﷺ فلم ينكره، وكان ابن عمر وجابر يحلفان أنَّ ابن صياد هو المسيخ الدَّجال لا يَشكان فيه، فقيل لجابر: إنه أسلم، فقال: وإن أسلم، فقيل: إنه دخل مكة وكان في المدينة، قال: وإنْ دخل.

قال عبدالله بن مسعود: لأن أحلف بالله تسعاً أنَّ ابن صياد هو الدَّجال أحبُّ إليَّ من أن أحلف واحدة أنه ليس به(٣)، قلتُ: وعبدالله بن مسعود كان مصاحباً لرسول الله ﷺ يوم ذهب إلى منـزل ابن صياد يوم ولادته(٤).

وَالْتَبَسَ الأَمْرُ بِنَصٍّ آخَرِ ... فِي شَأْنِهِ مِنْ بَاطِنٍ وَظَاهِرِ
فَانْشَغَلَ المُخْتَارُ بِالمُتَابَعَهْ ... لِكَشْفِ بَعْضِ أَمْرِهِ فَتَابَعَهْ
وَحَدَّدَ العَلَائِمَ المَعْرُوْفَةْ ... عَنْهُ، وَقَالَ: فِتْنَةٌ مَخُوْفَةْ

تشير الأبيات إلى اشتغال المصطفى ﷺ بابن صياد، ورغبته أن يتحقق من أمره، وقد ترجح

---

(١) «عقيدة المسيخ الدجال» لسعيد أيوب.

(٢) «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٣: ٣٥٧).

(٣) المصدر السابق (٣: ٣٥٨).

(٤) راجع «بين يدي الدجال» للمؤلف ص١٣-٢٢.

لدى العديد من الصحابة أن ابن صياد هو الدَّجال، قال في الفتح: مما يدل على أن ابن صياد هو الدجال، حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي في البخاري أنه كان يحلف أن ابن صياد هو الدجال، ويقول: سمعت عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يحلف عند رسول الله ﷺ فلم ينكر عليه.

وحديث ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم وعند عبد الرزاق بسندٍ صحيح، قال: «لقيتُ ابن صياد مرتين، فذكر المرة الأولى، ثُمَّ قال: لقيته أخرى، فإذا عيناه قد طفئت» وفي لفظ: «قد نفرتْ عينُه وهي خارجةٌ مثل عين الجمل، فقلت: متى فعلت عينُك ما أرى؟ قال: لا أدري، قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله تعالى أجعلها في عصاك هذه، فمسحها ونخر ثلاثاً كأشد نخير حمار سمعت، فزعم أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت وأنا والله ما شعرت».

وفي لفظه: «وكان معه يهودي، فزعم اليهودي أني ضربت بيدي صدره، وقلت: اخسأ فلن تعدو قدرك، فذكرت ذلك لحفصة قالت: ما تريد إليه؟ ألم تسمع أن الدجال يخرج عند غضبة يغضبها. وفي لفظ: إنما يبعثه على الناس غضب يغضبه» (١).

قال الحافظ: وهذه الأحاديث كلّها ليست نصّاً صريحاً في أن ابن الصياد هو الدَّجال، لأن النبي ﷺ ردد فيه القول، فقال: «**إن يَكن هو**» أي: وهذا كان عند أوائل قدومه ﷺ إلى المدينة، ثم لما أخبره تميم الداري، جزم بأن الدَّجال هو ذلك المَحْبُوس الذي رآه تميم.

وأمَّا حلف الصحابة وحديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فغايته أن يكون ابن صياد أحد الدجاجلة وأحد أتباع الدَّجال الكبير (٢). وفُقِد ابن صياد يوم الحرَّة (٣).

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٧.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٨، والدَّجال الكبير حسبما كان ﷺ يتوقعه ليس هو ابن صَياد، وسيأتي نقلٌ عن بعض الصحف القديمة والمخطوطات المؤيدة كونه صاحب تميم الداري.

(٣) المصدر السابق ص ١٩٣.

وأشار الناظم إلى ما حصل من التباس بين العلماء والمحدثين حول معارضة النصوص لبعضها في أمر الدَّجال -فإن ما ورد عن ابن صياد أنه هو الدَّجال يعارضه ما ورد في مسلم عن تميم الدَّاري وحديث الجساسة، وأنه لقي الدَّجال مسلسلاً بالأغلال في كهفٍ بجزيرةٍ- فقال:

والشـأنُ كلُّ الشَّـأْنِ فِـي التَّمْوِيـهِ   لِحِكْمَـةٍ تَخفَـى عَلَـى النَّبِيـهِ

يشير الناظم إلى حقيقة حال المسألة وما في تمويه الأمر واختلاف العلماء حوله من سَترٍ لأمر قد قدر، فالاختلاف في شأن الدَّجال له حكمةٌ بالغةٌ في إخفاء حقيقته حتى لا يُعرف ولا يُميز، كما هو الحال في كثير من قضايا الغيب التي مَوّه الشارع فيها الأمر، ولم يفصح فيه ببيان مجمَعٍ عليه كالإمام المنتظر وساعة الجمعة وليلة القدر وغيرها.

والمتأمِّلُ للنصوص بروِيَّة وتحقيق يستطيع أن يتفهم سر الإخفاء ويبرز له ما يستأنس به مسألة التحديد لظهور تلك الذات المخفية.

قال الأستاذ سعيد أيوب في «عقيدة المسيخ الدجال»: كان ظهور المسيخ الدجال لُطْفَاً من الله تعالى كَي تفقَهَ الأُمَّةُ الخاتمةُ أحداثَهُ، لأنه خَارج منها لا مَحالة، لأنها آخر الأمم بلا شكٍّ.

وظهور المسيخ الدجال لم يقتصر على الصورة التي ظهر بها لتميم في الجزيرة، بل ظهر مرة أخرى في صورة أخرى من أجل أهداف أخرى، لقد ظهر في صورة رجل يدعى «**ابن صياد**»، وظهور القوى الغيبية لم يقتصر فقط على تعدُّدِ ظهور المسيخ الدَّجال، فلقد ظهر جبريل عليه السلام في صورة «**دحية الكلبي**».**اهـ**[١].

وأضاف الأستاذ سعيد أيوب عند قوله في الحديث: «**أتشهد أني رسول الله**»، فقال ابن صياد: أتشهد أني رسول الله، قال النبي ﷺ: «**آمنتُ باللهِ ورُسلِهِ**».

قال الأستاذ سعيد: ابن صياد مقذوف قذف الله به لحكمة، هو رسول الله فتنة له بصمات على

---

(١) المصدر السابق.

جميع الفتن منذ ذَرَأَ الله ذرية آدم، ورسل الله لهم ملامح عديدة في كونه سبحانه وتعالى، فهناك مثلاً رسل مهمتهم هداية البَشر بقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[1]، فمن رفض منهج الهداية سقط في سلة رسل آخرين، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[2]، وابن صياد رسول؛ لكنَّه «**أَضَرُّ شيء وأَقلُّه نفعاً، تَنَامُ عَيْنَاهُ ولا يَنَامُ قَلْبُهُ**»[3] كما قال النبي ﷺ.

وابن صياد علامة من علامات الساعة، بل من أخطر علامات الساعة، والنبي ﷺ عندما قال لمن حوله: «**تَعوَّذُوْا باللهِ من شَرِّ هذا** (مرتين)[4]» ، فإنه يعني بذلك «**المسيخ الدَّجال**» والتعوَّذ من ابن صياد مرتين، لأنه بداية الطريق - على عهد رسول الله - والثانية نهايته في آخر الزمان، فأمرهم بالتَّعوذ من الظهور الأول «**ظهور التَّخويف**» والتعوذ من الظهور الثاني «**ظهور التَّدمير**» والنبي ﷺ رَغْمَ عِلمه بالحَدث إلَّا أنه آخذٌ بالأسباب[5].

وفي الأمر إشارة خفية إلى علاقة (الدجال باليهود) وأن دائرة العنصر اليهودي عبر التاريخ هي المعنية بترويج وإشاعة وتنفيذ مهمات الدجل والدجال في تاريخ الهويات والشعوب، فاليهود منذ عهد موسى عليه السلام وهم يعملون على (تنفيذ برنامج مشترك تعددت أسماؤه وتعريفاته) واتحدت غاياته وأهدافه، وأهم هذه الغايات إفساد المنهج النبوي للأنبياء وتحريف ما أمكن تحريفه واحتواؤه، وقد فعلوا ذلك مع كافة أنبيائهم حتى جاء عيسى عليه السلام

---

(١) الأنعام: ٤٨.

(٢) مريم: ٨٣.

(٣) رواه أحمد في مسنده من حديث عبدالرحمن بن أبي بكرة.

(٤) رواه أحمد والطبراني، وفيه مهدي بن عمران، قال البخاري: لا يتابع على حديثه. «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٣: ٣٥٧).

(٥) المصدر السابق ص١٦ - ١٧.

فكانوا هم القائمين على محاولة قتله والقضاء عليه لولا أن الله فتنهم بإلقاء الشبه على غيره وأثبت بقاءه حيا في السماء.

ومنذ ولادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والكثير من المؤمنين بالله والمنتظرين سر الظهور إنما يخافون المكر والخديعة من (اليهود) ، وخشيت حليمة السعدية حال إرضاعها له صلى الله عليه وآله وسلم من يهود، كما خشي الراهب نسطور على طريق الشام من يهود وأوصى أباطالب أن يعيد محمدا صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة.

ولم يزل اليهود يتربصون بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبالإسلام حتى هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وبرز دور اليهود في المدينة أكبر وأوسع، وأبتت السيرة من وقائع مكرهم وخداعهم ومحاولتهم اغتياله صلى الله عليه وآله وسلم وتسميمه في طعامه ما هو معلوم ومذكور.

وكل هذه الأفعال لا تعدو كونها خدمة منظمة لمصلحة الدجال والشيطان في مكرهما العالمي ضد الإسلام والمسلمين.

والمتتبع لهذه الفئة اليهودية على مدى تاريخها الماضي والحاضر يلاحظ الشراكة الواضحة والعمل المشترك في كل شؤون الحياة لمصلحة الكفر والبغي والحرام والانحلال والإفساد في الأرض.

كما يلاحظ اندراج حيلهم ووسائلهم وتمويههم في جملة الشعوب وتجنيد تلك الشعوب ومؤسساتها لتنفيذ برامج الدجل والدجال في كافة شؤون الحياة، إلى اليوم وما بعد اليوم.

وقد ذكر الحافظ السيوطي في كتابه «الدر المنثور» : أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية رضي الله عنه أن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ويكون من أمره، فعظموا أمره وقالوا: يصنع كذا، فأنزل

الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾ فأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتعوذ بالله من فتنة الدجال، ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ﴾ الدجال.اهـ.

وذكر أبوحيان في تفسيره «البحر المحيط» عند كلامه في تفسير الآية: قال الزمخشري: وقيل: المجادلون هم اليهود، وكانوا يقولون: يخرج صاحبنا المسيح ابن داود، يريدون الدجال، ويبلغ سلطانه البر والبحر، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات الله، فيرجع إلينا الملك، فسمى اللهُ تَمَنِّيهِمْ ذلك كِبْراً، ونفى أن يبلغوا مُتَمَنّاهُم.اهـ. وفي هذا التفسير إشارة إلى علاقة اليهود عبر التاريخ بالدجال كما أشرنا لذلك.

موقع الغزوات من فقه التحولات

وَكُلُّ مَا كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِي مِنْ حَدَثٍ يُعْزَى لِأَصْلِ السَّبَبِ

مُرْتَبِطًا بِالأَمْرِ مِنْ رَبِّ السَّمَا فِي السِّلْمِ أَوْ فِي الحَرْبِ فَافْهَمْ وَاعْلَمَا

فَالأَمْرُ بِالقِتَالِ فَرْضٌ قَدْ أَتَى مِنْ رَبِّنَا لِحَسْمِ شَرٍّ وُقِّتَا

لِعُصْبَةٍ فِي الكُفْرِ لم تَرْضَ السَّلَامْ ولَمْ يَرُقْهَا الدِّينُ في الأَرْضِ الحَرَامْ

فَكَانَ مَا كَانَ مِنَ الجِهَادِ وَسِيلَةَ السَّلَامِ فِي العِبَادِ

يشير الناظم إلى مرحلة هامة من مراحل المدينة المنورة ، أوجب الله فيها القتال على المسلمين وقال فيها : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

ويشير الناظم إلى أن كل شيء كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لا يأتي اعتباطاً أو صدفة ، وإنما يأتي مرتبطاً بسبب شرعي وأمر رباني مربوط بزمن ومرحلة تقتضي حمل السيف حيناً ، وحيناً حمل القرآن ، والقدوة الحسنة المجردة عن السلاح .

فالجهاد في سبيل الله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مِفْصَلاً تاريخياً وعلامة من علامات التحول في معالجة الأمور ، وفي إعادة ترتيب الإنسانية، ولفت نظرها لأسباب القوة والقهر لمعرفة الحق المراد في الوجود .

فعصبة الكفر على مدى تاريخ النبوة من البعثة إلى غزوة بدر وهم في حشد وإرجاف وكر وفر ضد النبوة وضد أتباع الرسالة الخاتمة ، وبلغ الأمر منتهاه في طول المعالجة بالحكمة والموعظة الحسنة إلى ما بلغ إليه من الصبر والمواراة وكف الأذى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبدأت عوامل القضاء والقدر الرباني تهيئ المسلمين للمواجهة الحاسمة على غير سابق إعداد ولا استعداد ، لتبرز «غزوة بدر الكبرى» مثالا عظيماً في التهيئة الربانية لنصر عباده المؤمنين.

نماذج من الغزوات الإسلامية
غزوة بدر الكبرى

بَطْشَـةُ رَبِّـي فِـي جُمُـوعِ الكَفَـرَةْ جَـاءَتْ بِلَا تَرْتِيبِ حَرْبٍ مُضْمَرَةْ
وَإِنَّمَـا كَانَـتْ لِسَـلْبِ القَافِلَـةْ غَنِيمَـةً عَلَـى طَرِيـقِ السَّـابِلَةْ
مَوْصُوفَـةً فـي سُـورَةِ الأَنْفَـالِ وَآلِ عِمْـرَانَ بِخَيْـرِ حَـالِ
لِأَجْـلِ هَـذَا أَهْـلُ بَـدْرٍ شُـرِّفُوا كَمَـا أَتَى فِي النَّصِّ مَهْمَـا اقْتَرَفُوا
وَمَوْقِـعُ الغَـزْوَةِ مِنْ سَـيَرِ الأُمُورْ تَثْبِيتُ أَمْرِ الدِّينِ في القَوْمِ الصُّدُورْ
قَاصِمَـةُ الظَّهْـرِ لِـكُلِّ مُشْـرِكِ أَوْ مُرْجِـفٍ في الدِّينِ غَيْـرِ مُدْرِكِ

يشير الناظم إلى أهم نموذج من نماذج الغزوات ، وهي غزوة بدر ، وكانت مفصلاً هاماً في تاريخ تحولات الدعوة الإسلامية منذ عهد البعثة ، وقد أشار الناظم إلى مدلولات تفردها وتميزها بما يلي:

- أنها بطشة ربانية أراد الله بها إحناء ظهور الكفرة وقصم ظهورهم وفيها إظهار دينه واعلاء كلمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.
- أنها جاءت بلا ترتيب عسكري ولا إعداد مسبق ، وإنما كان شأن النبي صلى الله عليه وسلم ومن خرج معه طوعاً أخذ قافلة أبي سفيان القادمة من الشام.
- أن هذه الغزوة ورد ذكرها بتفصيل خاص في سورتي آل عمران والأنفال.
- تميزت غزوة بدر بحصانة حاضريها جميعا ، وفيهم ورد حديث : (لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)
- كما ورد أنه لم يشارك في غزوة بدر منافق ولم يستعن فيها بمشرك ، وكانت غزوة بدر في صبيحة السابع عشر من رمضان بعد سنة ونصف من قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكانت يوم جمعة.
- ## حضر إبليس لقريش في هذه الغزوة على صورة سراقة بن مالك بن جعشم ## وقال لهم : (أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ، فخرجوا

سراعا) تاريخ الطبري (٢: ٤٣١).

- إن القلّة المؤمنة غلبت الكثرة الكافرة ، فكان جيش قريش ألف مقاتل ، وكان المسلمون في ثلاثمائة رجل وخمسة نفر، وقيل ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا.
- حصول أسباب النصرة بالدعاء والمعجزة ## حيث كان رسول الله صلى عليه وسلم يلح على ربه في الدعاء، وشارك الملائكة في المعركة ، ونزول المطر لتثبيت المسلمين وتشتيت المشركين.
- مخاطبة النبي لقتلى بدر من المشركين وهم في ## قليب بدر : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا..إلخ.
- ورد في دلائل النبوة للبيهقي قال: وروى بسنده عن موسى بن عقبة ## الحديث وفيه (وأذل بوقعة بدر رقاب المشركين والمنافقين فلم يبق بالمدينة منافق ولا يهودي إلا وهو خاضع عنقه لوقعه بدر ، وكان ذلك يوم الفرقان ، يوم فرق الله تعالى بين الشرك والإيمان ، وقالت اليهود: تيقنا أنه النبي الذي نجد نعته في التوراة ، والله لا يرفع راية بعد اليوم إلا ظهرت.

مظهر التحولات في غزوة أحد

مِـنْ بَعْـدِ بَـدْرٍ قَلِـقَ الكُفَّـارُ وَاشْـتَعَلَتْ قُلُوبُهُـمْ وَثَـارُوا
وَحَشَـدُوا جُيُوشَـهُمْ لِلْحَـرْبِ مُسْتَكْبِرِينَ فَـوْقَ أَمْـرِ الـرَّبِّ
وَقَدِمُـوا لِلْحَـرْبِ عَازِمِينَـا لِلثَّـأْرِ فـي جَمْـعٍ كَمَـا رُوِينَـا
وَشَـاوَرَ النَّبِـيُّ مَـنْ كَانَ مَعَـهْ في مَوْقِعِ الحَرْبِ وَأَرْضِ المَعْمَعَةْ
فَاخْتَلَفُـوا بَيْـنَ البَقَـاءِ وَالخُرُوجْ وَرَكِبُـوا في آخِـرِ الأَمْرِ السُّـرُوجْ
وَخَالَفُـوهُ الـرَّأْيَ لَمَّـا خَرَجُـوا وَاسْـتَعْجَلُوهُ في الخُرُوجِ وَرَجَوْا
أَنْ يَفْجَـؤُوا الكُفَّـارَ بِالمُوَاجَهَـةْ فـي أُحُـدٍ يَأْتُـونَ مِـنْ كُلِّ جِهَـةْ

يشير الناظم إلى آثار غزوة بدر على المشركين وما حصل لهم بها من ضربة موجعة في الصميم ، فقد شعروا بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد توطدت له الأمور في المدينة ولن يتركهم حتى يحمل الناس على الإسلام بدعوته وهيبته، فأعادوا ترتيب أنفسهم يتزعمهم أبو سفيان بن حرب ومن على شاكلته من قريش الذين أصيبوا في أبنائهم ورجالهم في غزوة بدر، واجتمع حولهم من الحلفاء والأعراب والساقة من تكوَّن لهم بهم جيش كبير، قال ابن إسحاق عمن حدثه حديث يوم أحد : لما أصيب يوم بدر كفار قريش أصحاب القليب ورجعت فلولهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آبائهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا فافعلوا .

وفي رواية لما رجع من حضر بدراً من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان حرب موقوفة في دار الندوة ، فمشت أشراف قريش إلى أبي سفيان فقالوا نحن طيبوا

نفسا تجهزوا بربح هذه العير جيشاً إلى محمد ، فقال أبو سفيان: وأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، فباعوها فصارت ذهبا فكانت ألف بعير والمال خمسين ألف دينار ، وفيهم نزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ ﴾ [الأنفال:٣٦].

والخبر في دلائل البيهقي (٣: ٢٢٤) : ودعا جبير بن مطعم غلاما حبشياً يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلّ ما يخطئ بها فقال له : اخرج مع الناس فإذا أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق، فخرجت قريش ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة ، وأخرجوا معهم النساء لزيادة الحمية ، ولئلا يفر أحد ، وأخرج أبو سفيان معه هند بنت عتبة ، وأخرج عكرمة بن أبي جهل أم حكيم بن الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية ، وغيرهن ممن بلغوا خمسة عشرة امرأة ، وخرج معهم أبو عمر الفاسق في خمسين رجلاً من قومه ، وكان عدد القوم ثلاثة آلاف رجل ، وكتب العباس بن عبد المطلب كتاباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بما أعد القوم ، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وشاورهم في الأمر وقال : إني رأيت في المنام سيفي ذي الفقار انكسر وهي مصيبة، ورأيت بقراً تذبح وهي مصيبة ، ورأيت على درعي ## مدينتكم لا يصلون إليها إن شاء الله.

واختلفوا بين الخروج خارج المدينة وبين المكث بها ومقاتلة المشركين فيها ، وكان رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ، ووافقه أكابر المهاجرين والأنصار ، وطلب منه بعض أحداث القوم الخروج ورغبوا في الشهادة ، وكان رجال من المسلمين لم يشهدوا بدراً فندموا على ما فاتهم من سابقة بدر وتمنوا لقاء العدو ، وأشار عبد الله بن أبي على النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج وغلب القضاء والقدر، وتهيأ النبي صلى الله عليه وسلم ولبس لأمته وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة بالناس ووعظهم وحثهم على الجهاد ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم لابساً لأمته وندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله.

وَجَـاءَهُ الْمُنَافِقُـونَ بِالْيَهُـودْ لِيَنْصُرُوا الإِسْلَامَ ضِدَّ ذي الْحُشُودْ

فَرَدَّهُـمْ طَـهَ وَقَـالَ أَسْـلِمُوا وَقَاتِلُـوا فـي جَيْشِـنَا وَهَاجِمُـوا

إِذْ لا يَجُـوزُ نُصْـرَةٌ بِمُشْـرِكِ في الحَرْبِ ضِدَّ مُشْرِكٍ في المَسْلَكِ

وَابْـنُ أُبَـيٍّ رَدَّ مِـنْ أَصْحَابِـهِ عَـنِ القِتَـالِ ثُلُثـاً # حرابـه

يشير الناظم إلى ما فعله المنافقون من حشد حلفائهم من اليهود ومجيئهم بهم إلى بعض آطام المدينة ليساعدوا المسلمين في صد المشركين عن المدينة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: قولوا لهم فليرجعوا ، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين.(١)

كما ورد في السيرة أن عبد الله بن أبي انْخَذَلَ بثُلُث الناس ورجع بمن اتّبعه من قومه من أهل النفاق والريب، فأنزل الله فيهم على نبيه صلى الله عليه وسلم من عند قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ﴾ [آل عمران:١٦٧]، يعني عبد الله بن أبي وأصحابه الذين رجعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعددهم ثلاثمئة ، وبقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعمئة(٢).

وَوَزَّعَ النَّبِـيُّ جَيْشَ الْمُسْـلِمِينْ وَمِنْهُمُ الرُّمَاةُ فِي الحَيْدِ المَكِينْ

وَأَلْـزَمَ الجَمِيـعَ أَنْ لَا يَبْرَحُـوا مَكَانَهُـمْ بِالرَّمْـيِ دَأْبـاً يُنْضَحُوا

وَخَطَـبَ النَّبِـيُّ فِيهِـمْ خُطْبَتَـهْ مُذَكِّـراً لَهُـمْ وَأَبْـرَا ذِمَّتَـهْ

يشير الناظم إلى ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من ترتيب المسلمين وتعبئتهم للقتال فجعل ظهره وعسكره لأحد وقال : (لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال)، وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير، فقاموا بأصل الجبل في وجوه خيل المشركين، وقال لهم صلى الله

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٥/ ٣٠٣).

(٢) دلائل البيهقي ج٣/ ٢٠٨/ ٢٢١.

عليه وسلم: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم(٤ : ٢٣٩).

وخطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبة بليغة قال فيها: (يا أيها الناس أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته والتناهي عن محارمه ، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر عن ذكر الذي ## ثم وطن نفسه له على الجد واليقين والنشاط، فإن جهاد العدو شديد، شديد كربه قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله رشده فإن الله مع من أطاعه وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد والتمسوا بذلك ما وعدكم الله وعليكم بالذي آمركم به، والتثبيط من أمر ## والضعف مما لا يحب الله ولا يعطي عليه النصر ولا الظفر..إلخ (١ : ٢٢١) الواقدي ، الجامع في السيرة.

وَدَارَتِ الحَرْبُ عَلَى القَوْمِ سِجَالْ   وَاسْتَبْسَـلَ الأَبْطَالُ في كُلِّ مَجَالْ
وَلَاحَ في الأُفْقِ انْتِصَارُ المُسْلِمِينْ   وَانْهَـزَمَ الكُفَّـارُ فـي حَـالٍ مَهِيـنْ

يشير الناظم إلى نجاح المسلمين في إدارة رحى الحرب واستبسلوا غاية الاستبسال ، وحفظت كتب السير ألوانا من البطولات في تلك المعركة حتى انكشف جيش المشركين ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٥٢]، قال ابن عباس : ما نصر النبي صلى الله عليه وسلم في موطن كما نصر يوم أحد وقرأ الآية ، قال : والحَسُّ هو القتل. رواه الحاكم وأحمد راجع ص٤٣٢ الجامع في السيرة.

وروى ابن سعد في طبقاته : فلما قتل أصحاب اللواء انكشف المشركون ## لا يلوون على شيء ونساؤهم يدعين بالويل ، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا..إلخ.

وَاسْـتَمْلَحَ الرُّمَاةُ نَصْرَ المَعْرَكَةْ   لَمَّـا رَأَوا الغَنَائِـمَ المُشْـتَرَكَةْ
وَنَزَلُـوا عَـنْ مَوْقِـعِ الدِّفَـاعِ   مُخَالِفِيـنَ أَمْـرَ خَيْـرِ دَاعِـي
وَصَعَـدَ الكُفَّارُ في حَالِ العَجَلْ   وَقَتَلُـوا البَاقِينَ في رَأْسِ الجَبَلْ

يشير الناظم إلى ما حصل من تحول في المعركة نتيجة المخالفة التي وقع فيها أغلب الرماة الذين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بحماية ظهور المسلمين ، حيث استبشروا

بالنصر وهرعوا إلى الغنائم مخالفين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخالفين أمر قائدهم عبدالله بن جبير، ولما رأى خالد بن الوليد وكل ## خيل المشركين فراغ الجبل من المدافعين صعد بمن معه الجبل وأجهزوا على البقية الباقية ثم أعادوا ترتيب أنفسهم ، وجاؤوا للمسلمين من وراء ظهورهم فكانت الهزيمة.

لَوْلَا ثَبَاتُ الْمُصْطَفَى وَمَنْ مَعَهْ — مِـنْ عُصْبَـةٍ ثَابِتَـةٍ فـي المَعْمَعَةْ

إِذْ دَافَعُـوا عَـنِ النَّبِيِّ بِالسِّـلَاحْ — وَقَاتَلُوا بِالسَّيْفِ صَلْتًا وَالرِّمَاحْ

وَصَـاحَ إِبْلِيـسُ الْلَعِيـنُ مُعْلِنَـا — قَتْـلَ النَّبِـيِّ كَـيْ يَزِيـدَ الحَزَنَـا

يشير الناظم إلى الثبات النادر الذي وقفه صلى الله عليه وسلم ومن بقي معه في المعركة حتى كسر طلحة بن عبيد الله تسعة أسياف ورمى سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يذب عنه ، والنبي يقول له : ارم فداك أبي وأمي، وكانت الجموع تحيط بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ومن معه ، حتى غَيَّر النبي صلى الله عليه وسلم درعه ولبس درعاً آخر تمويهاً على العدو والمتربص.

وفي أثناء المواجهة المحتدمة أصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم في رأسه وكسرت رباعيته فانسحب صلى الله عليه وسلم إلى غار بجبل أحد ، وشاع في الناس القلق والفوضى ، وصاح الشيطان فيهم بأن محمداً قد قتل ، حتى ضرب المسلمون بعضهم بعضاً في الاندهاش والجزع.

وَشَـارَكَ النِّسَـاءُ فـي يَـوْمِ أُحُدْ — سُـقْياً وَتَضْمِيداً لِكُلِّ مَنْ شَـهِدْ

يشير الناظم إلى إذن النبي صلى الله عليه وسلم للنساء في يوم أحد بالمشاركة في تضميد الجرحى.

وَحَـاوَلَ الكُفَّـارُ قَتْـلَ المُصْطَفَى — لَكِـنَّ رَبِّـي قَـدْ حَمَـاهُ وَكَفَـى

وَجَاءَتِ الأَمْلَاكُ مِنْ حَوْلِ الرَّسُولْ — وَاخْتَلَفُوا في حَرْبِهِمْ عَرْضاً وَطُولْ

وَغَشِـيَ النُّعَاسَ بَعْضُ مَنْ حَضَرْ   كَمَـا أَتَـىٰ فِـي آيِ رَبِّـي مِـنْ خَبَرْ

يشير الناظم إلى محاولة بعض الكفار الاعتداء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتله، بل إن أربعة من المشركين ممن حضر بدراً تعاهدوا على قتله يوم أحد ، وهم عبدالله بن شهاب وأبي بن خلف وابن قميئة وعتبة بن أبي وقاص ، وكلهم يوم أحد لم يبصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قال أحدهم : والله ما رأيته ، أحلف بالله إنه منا ممنوع .

وأما حضور الملائكة في غزوة أحد فالصحيح أنهم لم يحضروا ولم يقاتلوا إلا يوم بدر، وذكر ابن سعد في طبقاته : وحضرت الملائكة يومئذ ولم تقاتل.

قال ابن اسحاق أنزل الله النعاس أمنة منه على أهل اليقين به فهم نيام لا يخافون، وفي الدلائل للبيهقي بسنده عن عبد الرحمن بن عوف في قوله (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) قال ألقي علينا النوم يوم أحد.اهـ

وَانْتَهَتِ الحَرْبُ بِسَبْعِينَ شَهِيدْ   كَحَمْـزَةٍ وَمُصْعَبٍ وَكَـمْ عَمِيدْ

مِنْ كُلِّ مَنْ في اللّهِ حَقّاً جَاهَدُوا   حَتَّى قَضَوْا لِلنَّحْبِ فيما عَاهَدُوا

يشير الناظم إلى حصيلة معركة أحد وأنها بلغت سبعين شهيداً من المسلمين يأتي في مقدمتهم أسد الله حمزة ، ومصعب بن عمير ، وغيرهم ممن قضى نحبه في سبيل الله.

وَدَفَـنَ النَّبِـيُّ قَتْلَـى المَعْرَكَـةْ   وَقَـالَ: أَحْيَـاءٌ حَيَـاةً مُدْرَكَـةْ

وَقَالَ: زُورُوهُمْ يَرُدُّونَ السَّـلَامْ   عَلَى المَدَى حَتَّى إلى يَوْمِ القِيَامْ

يشير الناظم إلى اشتغال النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة بعد المعركة بدفن الشهداء ، وقد نزلت فيهم : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

[آل عمران:١٦٩].

وعن ابن عمر قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير حين رجع من أحد فوقف على أصحابه وقال : (أشهد أنكم أحياء عند الله ، فزوروهم وسلموا عليهم ، فوالذي نفس محمد بيده لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة).

وَأَرْجَـفَ   اليَهُـودُ   وَالمُنَافِقُـونْ   وَأَكْثَرُوا في النَّاسِ مِنْ سُوءِ الظُّنُونْ

يشير الناظم إلى موقف اليهود والمنافقين بعد المعركة ، وخاصة أنهم لم يشاركوا فيها ، وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل ، وقالت اليهود لو كان نبيّا # فاظهروا عليه ولا أصيب # منه ما أصيب ولكنه طالب ملك تكون له الدولة مرة ومرة عليه، وقال المنافقون نحو قولهم ، وقالوا لمن قاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كنتم أطعتمونا ما أصابوا الذي أصابوا منكم.

وَأُنْزِلَـتْ آيَـاتُ حَـقٍّ وَاصِفَـةْ   مِنْ آلِ عِمْرَانَ كَوَصْفِ العَاصِفَةْ

سِـتُّونَ مِنْ آيَاتِ رَبِّـي وَاضِحَةْ   وَإِذْ غَـدَوْتَ لِلْقِتَـالِ شَـارِحَةْ

يشير الناظم إلى أهمية الحدث وتوثيقه في القرآن العظيم فقد أنزل الله ستين آية من سورة آل عمران بدءاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١] إلى قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾ [آل عمران:١٧٩] دلائل البيهقي (٣: ٢٧٤).

غزوة بني النضير

وتأتي أهميتها في فقه التحولات أنها أول معركة معلنة مع اليهود بعد ستة أشهر من معركة أحد ، وسببها تآمر بني النضير على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاء إلى ديارهم ليعينوه في دية قتيلين من بني عامر فأجابوه وذهبوا يتشاورون على قتله وهو بجانب جدار من جدران بيوتهم ، واتفقوا على إلقاء صخرة عليه ، وانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ، فلما صعد الرجل جاء جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما بيّتوه فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فأخبر أصحابه الخبر وأمر أصحابه بالتهيؤ لحربهم.

تَآمَرَ اليَهُـودُ مِـنْ بَنِـي النَّضِيـرْ ... لِقَتْـلِ طَـهَ وَهْوَ في حَـرِّ الهَجِيرْ
قَـدْ جَـاءَ يَرْجُـو دِيَـةً مُعَجَّلَـةْ ... فَدَحْرَجُـوا صَخْرَتَهُـمْ لِتَقْتُلَـهْ
لَكِـنَّ جِبْرِيـلَ أَتَـى بِالخَبَـرِ ... وَنَبَّـهَ النَّبِـيَّ قَبْـلَ الخَطَـرِ
فَحَاصَرَ النَّبِيُّ بِالجَيْشِ الحُصُونْ ... وَحَرَّقَ النَّخْلَ وَأَجْلاهُمْ #بِدُونْ

يشير الناظم إلى المؤامرة الدنيئة التي قام بها يهود بني النضير فعادت وبالاً عليهم ، حيث جهز النبي صلى الله عليه وسلم لقتالهم أصحابه وحاصرهم ست ليال، وقطع النخل وحرقها ، مما أثار غضبهم فأنزل الله : ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر:٥].

وقذف الله في قلوبهم الرعب فقبلوا الجلاء عن المدينة بشرط الكفّ عن دمائهم ولهم ما حملت الإبل من الأموال إلا السلاح ولحقوا بخيبر ، وحزن المنافقون عليهم حزنا شديدا.

وأسلم من بني النضير رجلان يامين بن عمير بن كعب وأبو سعد بن وهب فترك لهما النبي صلى الله عليه وسلم أموالهما وسلم دماءهما ، وقسم النبي صلى الله عليه وسلم أموالهم على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا رجلين فقيرين من الأنصار ، وفيهم نزلت : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]، ونادت الأنصار رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار.

وفي بني النضير نزلت آيات سورة الحشر بأسرها، قال ابن عباس : سورةُ الحشر سورةُ بني النضير.

وَمِنْ غَرِيبِ الغَزَوَاتِ الجَامِعَةْ	ذَاتُ المُرَيْسِيعِ بِهَا كَمْ وَاقِعَةْ
فالعَزْلُ جازَ وَظُهُورُ ابْنِ أُبَيْ	بِعِلَّةِ النِّفَاقِ تُبْدِي كُلَّ غَيْ
وَقِصَّةُ الإِفْكِ الَّتِي كَانَتْ بَلا	وَفِتْنَةً عَظِيمَةً بَيْنَ المَلا

يشير الناظم إلى غزوة المريسيع التي وقعت سنة ست من الهجرة في شهر شعبان وقيل غير ذلك ، وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجمعون له، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له (المريسيع) من ناحية قديد إلى الساحل فقاتلهم صلى الله عليه وسلم بمن معه فانهزموا ، وقتل منهم من قتل وسبى من نسائهم وأبنائهم من سبى ، وفيهم جويرية بنت أبي ضرار سيدة قومها ، وهي التي تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أسلمت ، وفي هذه الغزوة جرت تحولات هامة في تاريخ الشريعة ومنها:

١. إباحة العزل ، وفيه قال صلى الله عليه وسلم : ما عليكم ألا تعزلوا فإن الله قدّر ما هو خالق إلى يوم القيامة.

٢. حديث الإفك بطوله ونزول البراءة في سورة النور ونزول سورة المنافقين ، وجاء أنها لما نزلت ـ وفيها تكذيب ابن أبي ـ قال له أصحابه : اذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه ثم قال : أمرتموني أن أؤمن فأمنت وأمرتموني أن أعطي زكاة أموالي فأعطيت ، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ الآية [المنافقون:٥].

وجاء عبدالله بن عبد الله بن أبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به فأنا أحمل رأسه إليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا) . تاريخ الطبري ودلائل البيهقي.

وكان من خبره كما ورد أن رجلا من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما بال دعوى جاهلية ، فأخبروه فقال: دعوها فإنها منتنة.

فغضب عبد الله بن أبي وقال: أَوَقَد فعلوها؟! نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: (سمن كلبك يأكلك) ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وأبلغ زيد بن أرقم رسول الله بمقالته فأنكرها عبد الله بن أبي ، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم على زيد ، فأنزل الله سورة المنافقين وأرسل النبي إلى زيد وقرأها عليه وقال: إن الله قد صدقك ، والقصة مشهورة بتفاصيلها في كتب السيرة والحديث والتفسير.

غزوة الخندق (الأحزاب)

وَغَـزْوَةُ الخَنْـدَقِ أُمُّ الغَـزَوَاتْ لِأَنَّهَا مِـنْ مَكْرِ أَعْـدَاءِ الحَيَاتْ
تَآمَـرَ اليَهُـودُ فـي إِذْكَائِهَـا وَخَرَجُـوا لِمَكَّـةٍ فـي شَـأْنِهَا
وَأَلْصَقُـوا صُدُورَهُـمْ بِالكَعْبَـةِ عَهْـدًا وَمِيثَاقـاً لِبَـذْلِ النُّصْـرَةِ
وَاسْـتَنْفَرُوا قَبَائِـلَ الأَعْـرَابِ وَمِـنْ قُرَيْـشٍ عُصْبَـةِ الخَـرَابِ

أشار الناظم إلى هذه الغزوة بأنها (أم الغزوات) ، وعلل ذلك لكونها من تخطيط وتنفيذ وتمويل أعداء الحياة ، وهم اليهود ، حيث أشارت كتب السير أن نفراً من اليهود ـ منهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضرسي وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري وغيرهم ـ حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث خرجوا حتى قدموا مكة على قريش ودعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا لذلك وأعدوا له ، فدعوهم إلى الحرب .

قال الواقدي في روايته : إن يهود كما بلغوا إلى مكة قال أبو سفيان: أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد ، قال النفر من يهود : أَخْرِجْ خمسين رجلا من بطون قريش كلها أنت منهم وندخل نحن وأنتم بين أستار الكعبة حتى نلصق أكبادنا بها ثم نحلف بالله جميعاً لا يخذل بعضنا بعضا ، ونتلو على كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل ، ففعلوا فتحالفوا على ذلك وتعاقدوا. اهـ.

وكان الذي دفع اليهود من بني النضير إلى هذه الغزوة فيما ذكر ما كان من أجلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير من ديارهم.

وَبَلَـغَ النَّبِـيَّ مَـا قَـدْ أَجْمَعُـوا عَلَيْهِ مِنْ حَـرْبٍ وَمَا قَدْ جَمَّعُوا
مِنْ عُصْبَةِ الأَحْزَابِ وَالأَعْرَابِ وَزُمْـرَةِ النِّفَـاقِ وَالخَـرَابِ
فَجَمَـعَ المُخْتَـارُ لِلتَّشَـاوُرِ أَصْحَابَـهُ لِصَـدِّ مَكْـرٍ غَـادِرِ

فَجَاءَ سَلْمَانُ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ كَفِكْرَةٍ مَسْبُوقَةٍ في المَشْرِقِ
فَوَافَقَ النَّبِيُّ حَفْرًا عَجِلا كَيْمَا يَصُدَّ القَادِمِينَ الدُّخَلا

يشير الناظم إلى بلوغ الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اجتمع عليه يهود ومن معهم ، فجمع النبي أصحابه للتشاور وأشار عليهم سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق حول المدينة ، فخط رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل عشرة أربعين ذراعاً ، وبدأ العمل في الحفر ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يشارك القوم فيه إلا بعض المنافقين ، فكانوا يتباطؤون في العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذن منه ، وكان العمل فيه نهاراً ثم يذهبون إلى أهليهم ليلاً .

وفرغ العمل منه في بضع عشر ليلة ، وقيل أربعاً وعشرين ، وفي حفر الخندق جرت جملة من الآيات والمواقف منها اعتراض ## من الجيل فضربها رسول الله صلى عليه وسلم بالمساد وقال : بسم الله فصارت كثيبا مهيلا.

وفيه رأى جابر بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شدّ على بطنه حجرا من الجوع فذهب إلى أهله وصنع طعاماً لعشرة ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى رسول الله في أهل الخندق ##

وما أجرى الله من المعجزة الكبرى في إطعام القوم من ذلك الفتات والخبز.

وَأَكْثَرَ القَوْمُ المَقَالَ المُشْتَهَرْ سَلْمَانُ مِنَّا وَإِلَيْنَا يَنْحَدِرْ
فَقَالَ طَهَ لِلْجَمِيعِ مُخْبِرَا سَلْمَانُ مِنْ آلٍ لِبَيْتٍ طُهِّرَا
فَنَالَ قُرْبَاً وَاتِّصَالًا وَسَبَبْ وَهَذِهِ مَزِيَّةٌ بَيْنَ العَرَبْ

يشير الناظم إلى ما سبق من إلحاق كل قبيلة سلمان الفارسي إليها ، حيث قال المهاجرون : سلمان منا ، وقال الأنصار كذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلمان منا أهل البيت.

نكث بني قريظة لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم

وَنَقَضَتْ قُرَيْظَةٌ عَهْدَ النَّبِي ... وَجَهَّزَتْ لِلْحَرْبِ مِثْلَ العَرَبِ

وَاتَّحَدَ الحَيَّانِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ... وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ يَرْجُو عَهْدَهُمْ

فَشَتَمُوا وَفْدَ النَّبِيِّ وَغَلَوْا ... وَعَقَدُوا المَكْرَ وَصَالُوا وَعَلَوْا

وَازْدَادَ إِرْجَافُ النِّفَاقِ وَعَلا ... حَتَّى رَأَى الأَصْحَابُ في ذَاكَ البَلا

يشير الناظم إلى ما فعله بنو النضير من تأثيرهم على بني قريظة حتى نقضوا عهدهم وتحالفوا مع الأحزاب ، وأغلظوا القول لوفد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بموقفهم ونقضهم للعهد قال لأصحابه بعد غفوة اضطجع فيها وقام : أبشروا بفتح الله ونصره، وأنزل الله في أمر الخندق وأمر بني قريضة ونقضهم للعهد واجتماع الأحزاب وإرجاف المنافقين قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠].

جاء في دلائل البيهقي : فلما اشتد البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه نافق ناس كثير وتكلموا بكلام قبيح ، فلما رأى رسول الل صلى الله عليه وسلم ما فيه الناس من البلاء والكرب قال : (والذي نفسي بيده ليفرجن الله عنكم ما ترون من الشدة ، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت آمنا ، وأن يدفع الله عز وجل إلي مفاتيح الكعبة ، وليهلكن كسرى وقيصر ، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله) ، فلما سمع بعض المنافقين ذلك قالوا : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. اهـ الطبري.

ووصف الله هذه الأقوال : ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ١٢﴾ [الأحزاب:١٢].

وَاقْتَحَمَ الخَنْدَقَ بَعْضُ المُشْرِكِين ... وَفِيهِمُ عَمْرُو بْنُ وَدٍّ لا يَلِين

وَجَـالَ في القَـوْمِ بِفَخْـرٍ وَصَلَفْ مُبَـارِزًا أَصْحَـابَ طَهَ وَاسْـتَخَفْ

فَنَـالَ مِنْـهُ الغَالِـبُ الْلَيْـثُ عَلِـي بِحَرْبَـةٍ بِكَفِّـهِ لَـمْ تَنْجَـلِ

يشير الناظم إلى صورة من صور المواجهة في ميدان المعركة عندما اقتحم الخندق عدد من المشركين، وفيهم عمرو بن ود ، واسمه عمرو بن عبد ود ، وود صنم من أصنام الجاهلية، وبارزه الإمام علي فقتله ، وكان صلى الله عليه وسلم قد دعا لعلي ساعة خروجه لمبارزته ، وقال بعد أن أعطاه سيفه وعمّمه : (اللهم أعنه عليه).

وَأَكْثَـرَ النَّبِـيُّ لِلّـهِ الدُّعَـا مُسْـتَلْهِمًا أَنْ يَسْـتَجِيبَ مَا دَعَا

وَيَهْـزِمَ الأَحْـزَابَ وَهْـوَ القَادِرُ سُـبْحَانَهُ فَهْوَ المُجِيبُ النَّاصِرُ

فَخَـذَلَ اللّهُ قُلُوبَ المُشْـرِكِينْ سِرّاً وَجَهْرًا وَأَتَى النَّصْرُ المُبِينْ

يشير الناظم إلى توجه النبي صلى الله عليه وسلم في ساعة الكرب إلى ربه سائلا منه النصرة والعون ، وقد ورد أنه كان من دعائه : اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم..

وفي رواية : لما كان يوم الأحزاب حُصر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكرب ، وحتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم إني أنشدك عهدك وعدك ، اللهم إنك إن تشأ لا تعبد).

واستجاب الله دعاء نبيّه فخذل قلوب المشركين وأجرى الأسباب باختلاف كلمتهم من جهة ، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم لنعيم بن مسعود وقد أسلم يوم الأحزاب وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة) ، وفي رواية : (فقل ما بدا لك فأنت في حل) .

فذهب نعيم وخذل بين بني قريظة وقريش وغطفان ، ثم ذهب إلى قريش وخذل بينهم وبين يهود ، ثم ذهب إلى غطفان وهم عشيرته وقومه فخذل بينهم وبين القوم ، حتى غدا كل فريق

لا يأمن الآخر منهم ، ودعت قريش اليهود إلى الحرب وكان يوم السبت فأبى اليهود وقالوا لا نقاتل فيه لأن قومنا غدوا يوم السبت فمُسخوا قردة وخنازير ، فقال أبو سفيان : (ألا أراني أستعين بإخوة القردة والخنازير).

قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥] قال المفسرون: بما أجراه الله بينهم من التخذيل والفرقة والشك حتى تفرقوا.

وَأَرْسَلَ اللّهُ جُنُودًا لَمْ تُرَا ... وَالرِّيحَ ثَارَتْ بِالحِجَارِ وَالثَّرَى

فَأَكْفَأَتْ قُدُورَهُمْ وَالبُرَمَا ... وَاسْتَأْصَلَتْ نِيرَانَهُمْ وَالخِيَمَا

يشير الناظم إلى ما وصفه الله في كتابه من قوله تعالى في وصف الحالة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩]. قال المفسرون : كانت الجنود التي أرسل الله عليهم هي الريح الملائكة ، قال : ولم تقاتل الملائكة يومئذ. وقول الناظم: البرما جمع بَرمه وهو اسم لبعض الأواني.

وَارْتَحَلَ القَوْمُ عَلَى حَالٍ شَتَاتْ ... وَقَالَ طَهَ ذَهَبَ القَوْمُ فِئَاتْ

وَنَحْنُ نَغْزُوهُمْ وَلَا غَزْوَ لَهُمْ ... مِنْ بَعْدِ هَذَا اليَوْمِ وَلَّى أَمْرُهُمْ

يشير الناظم إلى ارتحال الأحزاب من قريش والقبائل واليهود كل إلى بلده وهم في غاية الاختلاف والشتات والجهد ، وبشر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال لهم : (لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزوهم).

غزوة بني قريظة

وَجَـاءَ جِبْرِيـلُ النَّبِـيَّ عِنْدَمَـا ... قَـدْ عَـادَ مِـنْ غَزْوَتِـهِ مُبْتَسِـمَا
وَقَـالَ إِنَّـا بِالسِّـلَاحِ لَـمْ نَـزَلْ ... عَلَى الطَّرِيقِ نَحْوَ أَرْبَابِ الحِيَلْ
إلـى بنـي قُرَيْظَـةَ الأَمْـرُ جَـرَى ... مِنْ بَعْدِمَا قد نَقَضُوا كُلَّ العُرَى

يشير الناظم إلى ما أشارت إليه كتب الحديث والسير ، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فوضع السلاح فجاءه جبريل عليه السلام وأتى على ثناياه لنقع الغبار ## فقال : أوقد وضعتَ السلاح ؟ والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح.. اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم.

فَاسْـتَنْفَرَ النَّبِـيُّ كُلَّ مَـنْ رَجَـعْ ... إلـى بنـي قُرَيْظَـةٍ وَمَـنْ جَمَـعْ
وَقَالَ صَلُّوا العَصْرَ في أَطْنَابِهِمْ ... وَحَاصِرُوهُمْ فـي ذُرَى أَبْوَابِهِمْ

يشير الناظم إلى أمر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة بالخروج إلى بني قريظة وقال عبارته المشهورة : (ألا لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة)، وبعث مناديا ينادي: (يا خيلَ اللهِ اركبي).

وحاصرهم صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين ليلة ، وقيل غير ذلك ، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ونزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وَنَزَلُـوا مِـنْ بَعْـدِ جَهْـدٍ وَعَنَـا ... عَلَـى الَّـذِي يَحْكُمُـهُ نَبِيُّنَـا
فَحَكَّـمَ النَّبِـيُّ سَـعْدَ بْـنَ مُعَـاذْ ... وَكَانَ مِـنْ قَبْـلُ حَلِيفًـا وَمَعَـاذْ
فَأَنْـزَلَ القَتْـلَ عَلَـى الرِّجَـالِ ... وَالسَّـبْيَ لِلنِّسَـاءِ وَالأَطْفَـالِ
وَقِسْـمَةَ الأَمْـوَالِ وَالعَقَـارِ ... إِلَّا الَّذِيـنَ أَسْـلَمُوا لِلْبَـارِي

يشير الناظم إلى ما حكم به سعد بن معاذ على اليهود من بني قريظة فقال له رسول الله

صلى الله عليه وسلم : (أصبت حكم الله فيهم) ، وأمر صلى الله عليه وسلم بحفر الخنادق لقتل من لم يسلم منهم فقتلوا جميعاً إلا بعض من آمن وأسلم ، فأجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع إخوانهم من بني قينقاع ويهود بني حارثة وكل يهود المدينة وقال لهم : (انطلقوا إلى أرض المحشر فأنا في آثاركم) ، يعني أرض الشام فسيرهم إليها.

أمر الحديبية وخروج النبي صلى الله عليه وسلم للعمرة

إِسْـتَنْفَرَ النَّبِيُّ لِلأَصْحَـابِ وَأَعْلَـنَ الأَخْبَـارَ فـي الأَعْرَابِ
عَـنْ عُمْـرَةٍ لِلّـهِ لا لِلْحَـرْبِ يَدْعُو لَهَا مَنْ شَـاءَ فَيْضَ الرَّبِّ
إِذْ خَـرَجَ النَّبِـيُّ فـي ذِي القِعْدَةِ وَقِيـلَ فـي شَـوَّالَ فـي رِوَايَـةِ

ومن الغزوات الهامة التي أطلق عليها مسمى الغزوة خروج النبي صلى الله عليه وسلم للعمرة غير معلن حربا ولا قتالاً ، وإنما حصلت فيها مجريات القضاء والقدر والحكمة الإلهية مما جعلها مفصلاً هاماً في تاريخ التحولات ، وخاصة أنها جاءت بعد هزيمة قريش في غزوة الأحزاب وعودتهم إلى مكة خائبين وظهور الضعف والشتات على حلفائهم من اليهود والأعراب ، وفيها تحقيق لنبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعيد غزوة الأحزاب وعودة المشركين إلى مكة يوم قال : (لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزوهم) إلا أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يرغب في إظهار الخروج بمظهر الحرب والانتقام بل جعلها خالصة لله تعالى وعمرة له ولمن معه من المسلمين .

وفيها قال الصديق رضي الله عنه لما بلغه خروج المشركين وإعدادهم للصد عن العمرة (يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه فقال صلى الله عليه وسلم # عند خروج الأعراب فأبطأوا عليه ، واستنفر أصحابه من المهاجرين والأنصار فلبّوا وتهيئوا معه للخروج فخرجوا ، ولما رآهم صلى الله عليه وآله وسلم قال (أنتم خير أهل الأرض) (٣: ٤١) الجامع للسيره

وَعَلِمَـتْ قُرَيْشُ بِالخُـرُوجِ فَجَمَعَـتْ جَمْعًا عَلَى السُّـرُوجِ
وَقَـرَّرُوا صَـدَّ النَّبِـيِّ دُونَـمَا وُصُولِـهِ وَإِنْ يَكُـنْ قَـدْ أَحْرَمَـا
وَيَوْمَهَـا صَلَّـى النَّبِـيُّ جَمْعَـا صَلَاةَ خَوْفٍ في الطَّرِيقِ شَـرْعَا

يشير الناظم إلى ما أعدته قريش من العدة بعد علمهم بخروج النبي صلى الله عليه وسلم

في المدينة قاصدا العمرة، وبلغه الخبر بخروج خالد بن الوليد في طليعة جيش على طريقهم ، وقال له بشر بن سفيان الكعبي : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل ، أي: الإبل مع أولادها . والمراد أنهم خرجوا بنسائهم وأطفالهم قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا..الخ

فقال صلى الله عليه وسلم : (يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم ## فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي يعينني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة) ، والسالفه جانب العنق وكنى بذلك عن القتل ، أي: حتى أموت أو أبقى منفردا.

وفي عسفان استقبلهم خالد بن الوليد ومعه المشركون فكانوا بين النبي وبين القبلة ، فصلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الظهر أو العصر ، وعلى رواية صلاة الخوف ولأول مرة ، مما أربك المشركين ، وقد كانوا يعدون العدة للهجوم على المسلمين وقت صلاتهم.

وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم طريقاً مختصرة إلى الحديبية وفوجئ أصحاب خالد بذلك ورجعوا إلى قريش يحذرونهم وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية ، وجاء في رواية الدلائل أنه صلى الله عليه وسلم قال: (هل من رجل يعدل بنا عن الطريق ، قلت: أنا بأبي وأمي ، فأخذ بهم في طريق بحور نافذ قد #وعقاب #فاستوت بنا الأرض حتى أنزله على الحديبية.

وَنَـزَلَ النَّبِـيُّ فـي الـوَادِي عَلَى ... مَـاءٍ قَلِيلٍ لَـمْ يَكَدْ يَكْـفِ المَلا
فَانْتَـزَعَ النَّبِـيُّ سَـهْمًا وَأَمَـرْ ... بِوَضْعِهِ فـي المَاءِ فَازْدَادَ وَسَـرْ
وَقِيـلَ مَجَّـهُ النَّبِـي مِـنْ فَمِـهِ ... مَـاءً # بِـهِ فَفَـارَ مِـنْ سِـرٍّ بِـهِ

يشير الناظم إلى نزوله صلى الله عليه وسلم بماء الحديبية ، وكان قليلاً لا يفي بالحاجة فشكى الناس إليه قلّة الماء ، فأخرج صلى الله عليه وسلم سهما من كنانته وأمرهم بغرزها

في الماء فازداد ، والروايات كثيرة ومتنوعة.

وَجَـاءَهُ الوُفُـودُ يَمْنَعُونَـهُ مِـنْ مَكَّـةٍ وَأَنَّهُـمْ يَأْبَوْنَـهُ
فَقَـالَ مَا جِئْنَـا لِحَـرْبٍ أَوْ قِتَالْ وَإِنَّمَـا لِعُمْـرَةٍ طَابَـتْ مَنَـالْ
فَبَعَـثَ النَّبِـيُّ عُثْمَـانَ الشَّـهِيدْ لِمَكَّـةٍ يُفَـاوِضُ الشِّـرْكَ العَنِيدْ
وَاحْتَبَـسَ الكُفَّـارُ عُثْمَـانَ وَلَمْ يَعُـدْ وَشَـاعَ قَتْلُهُ وَسْـطَ الحَرَمْ
فَجَمَـعَ النَّبِـيُّ تَحْـتَ الشَّـجَرَةْ أَصْحَابَـهُ مُنَاجِـزًا لِلْكَفَـرَةْ

يشير الناظم إلى تردد الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة قريش وكلهم يمنعونه ومن معه دخول مكة ، وينذرونهم الحرب والقتال إن فعلوا ، ولم يقبلوا دخول أحد للعمرة ولا لغيرها، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليهم عثمان بن عفان مفاوضاً للدخول معتمرين، وطال مكث عثمان بمكة حتى أشيع أنه قد قتل بها، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة وبايعهم على مناجزة القوم وأن لا يفر منهم أحد ، وسميت ببيعة الرضوان ، وفيها وضع النبي يده اليمنى على اليسرى وقال: هذه لعثمان ، أي: مبايعته على ما بويع عليه ، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

وَفِيهِـمُ قَـالَ النَّبِـيُّ مُخْبِـرَا أَنْتُـمْ خِيَارُ أَهْلِ الأَرْضِ عُنْصُرَا

يشير الناظم إلى ما ورد في السيرة بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية: (أنتم خير أهل الأرض) وكنا ألفا وأربعمئة.

وَآلَـتِ الأُمُـورُ لِلصُّلْـحِ عَلَـى عَـامٍ يَلِيـهِ غَيْرِ هَـذَا العَـامِ # لا
وَكَتَـبَ العَقْـدَ عَلِـيٌّ وَأَبـى مَحْـواً لِإِسْـمِ اللّـهِ لَمَّـا طُلِبَـا
وَمِثْلُـهُ اسْـمٌ لِلرَّسُـولِ الخَاتَـمِ فَـكَانَ طَـهَ خَيْـرَ مَـاحٍ قَائِـمِ

يشير الناظم إلى ثمرة الوفود واللقاءات الطويلة حول الأمر ، وهي مبثوثة في كتب السيرة ، وقد أشارت نهاية الأمر إلى كتابة عقد الصلح على شروطه ، وأبى الإمام علي رضي الله عنه

ما طلبه سهيل بن عمرو من محو (بسم الله) وكتابة (باسمك اللهم)، ومحو (محمد رسول الله) ولكن (محمد بن عبد الله) فقال علي: والله لا أمحوه أبدا ، فقال له صلى الله عليه وسلم : فأرنيه ، قال: فأراه إياه فمحاه النبي صلى الله عليه وسلم بيده.

وَجَـاءَ فـي القَيْدِ إِلَيْهِمْ يَرْسُـفُ ... نَجْـلُ سُـهَيْلٍ هَارِباً يَسْـتَعْطِفُ

فَأَوْقَـفَ التَّوْقِيـعَ وَالِـدُ الفَتَـى ... مُطَالِباً عَوْدَتَـه حَيْـثُ أَتَـى

فَـكَانَ مَـا كَانَ مِـنَ المُوَافَقَـةْ ... لِأَجْـلِ بَـثِّ العَقْـدِ وَالمُطَابَقَـةْ

يشير الناظم إلى وصول أبي جندل بن سهيل بن عمر يرسف في الحديد هارباً من مكة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما رآه والده قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه يرده إلى قريش ، وجعل أبوجندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين.. أَأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ومن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم) ، فرد أباجندل إلى المشركين ، ولم يأت أحد في هذه المدة إلا ردّ إليهم وإن كان مسلما.

وَحَـزَنَ الصَّحَابَـةُ الكِـرَامُ ... وَانْزَعَجُـوا وَنَازَعُـوا وَلَامُـوا

وَاشْـتَدَّ بِالفَارُوقِ مَـا قَدْ حَصَلا ... وَقَـالَ مَـا قَـدْ قَـالَ لِطَـهَ مُعْلِنَـا

يشير الناظم إلى ما حصل بعد الصلح من الحزن والألم في صدور الصحابة حتى قال عمر لأبي بكر: أَوَلَسْنا بالمسلمين؟ لِمَ نُعطي الدنيةَ في ديننا؟ فقال أبوبكر: أَمْسِكْ غَرْزَهُ ، أي: اتبع قوله وفعله ولا تخالفه فإني أشهد أنه رسول الله، وذهب عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له ما قال لأبي بكر ، فقال له صلى الله عليه وسلم : (أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني) ، قال فكان عمر يقول فيما بعد : (ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيرا).

موقف الصحابة ودور أم سلمة الواعي

وَطَالَبَ النَّبِي كُلَّ مَنْ حَضَرْ ... تَحَلُّلَ الإِحْرَامِ فَالْأَمْرُ صَدَرْ
فَارْتَبَكُوا وَاسْتَعْظَمُوا التَّحَلُّلا ... فَقَامَ طٰهَ عَنْهُمُ مُنْفَعِلا
وَأَخْبَرَتْهُ زَوْجُهُ أَنْ يَنْطَلِقْ ... في شَأْنِ أَمْرِ اللّهِ مِنْ حَيْثُ وَثِقْ
فَحَلَقَ الرَّأْسَ وَمِنْ ثَمَّ نَحَرْ ... وَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا وَمَا انْتَظَرْ
وَأَعْلَنَ العَوْدَ إِلَىٰ المَدِينَةْ ... فَانْطَلَقُوا بِأَنْفُسٍ حَزِينَةْ

يشير الناظم إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بعد توقيع عقد الصلح:(قوموا فانحروا ثم احلقوا) ،قال: فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة: يا نبي الله اخرج ولا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، فلما رأوا منه ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

وَمَكَثَ النَّبِيُّ فِي الحُدَيْبِيَةْ ... عِشْرِينَ يَوْماً في الآثارِ المَرْوِيَةْ
وَأَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْهِ فِي الطَّرِيقْ ... سُورَةَ فَتْحٍ حَمَلَتْ سِرًّا وَثِيقْ
فَأَمَرَ النَّبِيُّ أَنْ يُدْعَى عُمَرْ ... لِيَسْمَعَ السُّورَةَ في أَمْرِ القَدَرْ
فَكَانَ هَذَا أَعْظَمَ الفَتْحِ كَمَا ... قَدْ قَالَ طَهَ لَهُمُ فِيمَا نَمَا

يشير الناظم إلى مكث النبي في الحديبية عشرين يوماً ثم عاد إلى المدينة ، وكان الجميع في حال إحباط وغم وهم حتى إن كلا منهم يسير في وجهة لوحده ، فنزلت عليه صلى الله عليه وسلم سورة الفتح وقال فيها صلى الله عليه وسلم : (لقد أنزلت علي آية هي أحب إليّ من الدنيا جميعاً) ، فقال رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا بفتح لقد صُددنا عن البيت وصُد هدينا، فبلغ صلى الله عليه وسلم ما قيل فخطب فيهم : (بئس الكلام

هذا أعظم الفتح..إلخ) . وروى بسنده عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح ببيعة الرضوان يوم الحديبية.

وَجَاءَ مِنْ مَكَّةَ بَعْدَ العَوْدَةِ — أَبُوبَصِيرٍ لَاجِئَ المَدِينَةِ

فَبَعَثَ الكُفَّارُ مَنْ يَرُدَّهُ — حَسْبَ اتِّفَاقِ الصُّلْحِ أَوْفَى وَعْدَهُ

وَفِي الطَّرِيقِ عَائِدًا تَمَكَّنَا — أَبُوبَصِيرٍ قَتْلَ مَنْ قَدْ أَمْكَنَا

يشير الناظم إلى أول اختبار تعرض له المسلمون بعد العودة من الحديبية حيث وصل أبوبصير إلى المدينة مستجيراً ولاجئاً بعد أن كان محبوسا بمكة ، فبعث المشركون بكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر الرسول أبا بصير أن يرجع إليهم وقال له: (يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يحل لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجا فانطلق إلى قومك، قال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ قال: يا أبابصير انطلق فإن الله سبحانه وتعالى سيجعل لك ولمن معك فرجا ومخرجا، فانطلق أبو بصير مع الرسل من أهل مكة ، وفي الطريق احتال على الرجلين واستل سيف أحدهما وقتله ، وهرب الثاني إلى المدينة مخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل أبو بصير، واتجه أبوبصير إلى ناحية العيص من ناحية ذي المرون # على ساحل البحر بطريق قريش إلى الشام.

وَاتَّخَذَ الطَّرِيقَ مَأْوَى وَظَفَرْ — وَمَجْمَعًا لِلْهَارِبِينَ وَمَقَرْ

يَعْتَرِضُونَ العِيرَ مِنْ غَيْرِ قُرَيْشْ — وَيَسْلُبُوا مَا لَذَّ مِنْ مَالٍ وَعَيْشْ

فَكَتَبَ الكُفَّارُ لِلْمُخْتَارِ — إِبْطَالَ شَرْطِ المَنْعِ لِلثُّوَّارِ

يشير الناظم إلى ما فعله أبو بصير من تحويل موقعه المشار إلى نقطة تجمع لكافة الهاربين من المستضعفين بمكة ، ومنهم أبوجندل صاحب الحديبية ، فقد أفلت من مكة ولحق بأبي بصير وكان معه، حتى قلقت قريش من كثرة قطعهم للطريق ونهب قوافلهم ، فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً يبطلون فيه شرطهم في منع ورد من التحق بالمسلمين

ومن أتاهم هارباً فهو آمن، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بصير كتاباً يأمرهم أن يقدموا عليه ويأمر من اتبعهم من المسلمين أن يعودوا إلى بلادهم وألا يعترضوا أحداً مر بهم من قريش ، وقدم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بصير محتضر للموت ومات وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده يقرؤه ، فدفنه أبوجندل وجعل عند قبره مسجداً ، وقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أناس من أصحابه ، وأَمِنَت قريشٌ على نميرها ، وبقي أبو جندل بالمدينة وشهد المشاهد وشهد عام الفتح ولم يزل بالمدينة حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وَنَـزَلَ الآيُ بِحَـقِّ المُؤْمِنَـاتْ مِمَّـنْ قَدِمْـنَ عِنْـدَهُ مُهَاجِـرَاتْ

يشير الناظم إلى ما نزل من آيات الله بشأن المؤمنات المهاجرات ومنع إعادتهن إلى المشركين ، حتى في فترة منع المشركين الرجال من اللحاق بالمسلمين ، فقد أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء ورد الرجال باديء الأمر، وكان صلى الله عليه وسلم يبايعهن على ما جاء في كتاب الله .

قالت عائشة رضي الله عنها : فمن أقر بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله صلى الله علسه وسلم: قد بايعتك ، كلاما يكلمها به ، والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ، وما بايعهن إلا بقوله.اهـ صحيح البخاري (ج٥/ ١٦٢) كتاب المغازي.

وَمِثْلُـهُ فـي عِصْمَـةٍ لِكَافِـرَةْ كَمَـا أَتَـى فـي آيَـةِ المُهَاجِـرَةْ

يشير الناظم إلى قوله تعالى في الآية: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠] وهو أمر بتطليق النسوة اللاتي لم يدخلن الإسلام ، وكان ممن طلق امرأته بعد هذه الآية عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلق قريبة # بنت أمية بن المغيرة ، فتزوجها من بعده معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة ، وأم كلثوم بنت أم عبيد الله بن عمر الخزاعية تزوجها من بعده أبوجهم بن حذيفة بن غانم.

بعث النبي بالرسائل إلى الملوك واتخاذه الخاتم

وَعَـزَمَ النَّبِـيُّ إِرْسَـالَ الرُّسُـلْ بِدَعْوَةِ الدِّينِ الَّتِي تَحْوِي المُثُلْ

وَاتَّخَـذَ الخَاتَـمَ لِلتَّوْقِيـعِ وَنَقْشُـهُ بِإِسْـمِهِ البَدِيـعِ

يشير الناظم إلى عزم النبي صلى الله عليه وسلم إرسال الرسل إلى الملوك والوجهاء يدعوهم إلى دين الإسلام ويقيم عليهم حجة الإبلاغ ، واتخذ الخاتم لما له لدى أولئك من أهمية في قبول الرسائل ومعرفة أربابها ، وجعل نقشه محمد رسول الله ، وقد أفاضت كتب السيرة عن الملوك الذي أرسلت لهم الرسائل ومواقفهم وما ترتب على ذلك من أمور هامة خاصة وعامة، لم نتطرق إليها هنا طلباً للاختصار ورغبة في تحديد مفهوم التحولات الأساسية في التاريخ ، ويمكن مراجعة التفصيلات في مظانها من كتب الأحاديث والسير.

غزوة خيبر وآثارها التاريخية

وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ نَحْوَ خَيْبَرَا رِسَالَةً إِلى اليَهُودِ مُنْذِرَا
يَدْعُوهُمُ لِلْحَقِّ حَتَّى يَنْصُرُوهْ وَيُشْهِرُوا إِسْلَامَهُمْ وَيَذْكُرُوهْ
فَلَمْ يَرُدُّوا بَلْ طَغَوْا وَخَالَفُوا وَأَكْثَرُوا الإِرْجَافَ فِيمَنْ حَالَفُوا
فَجَهَّزَ النَّبِيُّ جَيْشًا وَمَضَى إِلَيْهِمُ وَفِي الطَّرِيقِ عرجا#
عَلَى الرَّجِيعِ فِي بَنِي غَطْفَانِ لِيَعْبُرَ الطَّرِيقَ فِي أَمَانَ

يشير الناظم إلى غزوة خيبر الشهيرة وأهميتها من حيث تاريخها وموقعها الزمني والاجتماعي والاقتصادي بين الغزوات، وكان صلى الله عليه وسلم قد أوعده الله في الحديبية بفتحها . (عبور الأثر ج٢/ ١٧٠).

وكانت الغزوة في شهر جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة ، وهي ـ أي : خيبر ـ على بعد ثمانية برد من المدينة.

وفي رواية: انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية فنزلت سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة ، فأعطاه الله عز وجل فيها خيبر ، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح:٢٠] هي خيبر، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل خيبر رسالة هذا نصها (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى، ألا أن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوارة وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ الآية [الفتح:٢٩] ، وإني أنشدكم بالله وأنشدكم بما أنزل عليكم وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله إلا خبرتموني هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ، فإن كنتم لا

تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم قد تبيّن الرشد من الغي فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه) سنن البيهقي (١٠ : ١٨٠).

وبعدها قال صلى الله عليه وسلم : تجهزوا إلى هذه القرية الظالم أهلها ـ يعني خيبر ـ فإن الله عز وجل فاتحها عليكم إن شاء الله ، ولا يخرجن معي مصعب ـ أي: من كان بعيره مصعبا غير منقاد ولا ذلول ـ ولا مضعف ، أي: من كانت دابته ضعيفة.

واستعمل النبي سباع بن عرفطة الغفاري على المدينة ، وقيل في رواية ابن هشام: استعمل نميلة بن عبدالله الليثي. عيون الأثر.

واستعان النبي صلى الله عليه وسلم بعشرة من يهود المدينة أرسلهم إلى خيبر وأسهم لهم سهمين مثل المسلمين، وفي طريقه صلى الله عليه وسلم نزل بوادٍ يقال له الرجيع بين خيبر وغطفان ، فنزل بينهم ليحول بين إمدادهم لأهل خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم.[1]

وَأَصْبَحَ النَّبِيُّ سَاعِيًا إِلَىٰ	حُصُونِهِمْ مُسْتَبْشِرًا مُهَلِّلا
وَقَالَ إِنَّا إِنْ نَزَلْنَا فِي القُرىٰ	سَاحَةَ قَوْمٍ سَاءَ صُبْحُ المُنْذَرَا
وَقَالَ أُعْطِي رَايَتِي يَوْمَ غَدِ	لِرَجُلٍ فِي الْحُبِّ عَالِي المَشْهَدِ
فَأَسْلَمَ الرَّايَةَ صُبْحاً لِعَلِيّ	مِنْ بَعْدِ تَفْلِ عَيْنِهِ لَمَّا ابْتُلِي
فَفَتَحَ الحُصُونَ وَهُوَ مُقْتَدِرْ	وَحَمَلَ البَابَ لِأَمْرٍ قَدْ قُدِرْ

يشير الناظم إلى ما أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه عليه مع بزوغ الصباح بعد أن صلى الفجر ودخل خيبر ، واستقبلهم عمالها غادين بمكاتلهم إلى مزارعهم وأعمالهم ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا : محمد والخميس ، وأدبروا هرباً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) قالها ثلاثا ، ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،

(١) قال البيهقي هذا منقطع وإسناده ضعيف.

وكانت بيضاء ، وفيها قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ، ليس بفرار).

وكان علي رضي الله عنه أرمد فتفل في عينيه ثم قال: خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ، وورد الخبر بروايات عديدة فيها بعض الزيادات ، وكان أول ما فتح من حصونهم حصن ناعم، وخرج مرحب اليهودي مرتجزا قد حمل سلاحه مقاتلاً فخرج له محمد بن مسلمة فقتله، وقيل: إنه جرحه فمر عليه علي بن أبي طالب فقتله ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه لمحمد بن مسلمة ، وفي روايات أخرى أن عليا رضي الله عنه بارزه وقتله واحتز رأسه وأخذه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي أحد حصون يهود أخذ علي بن أبي طالب باباً للحصن وتترس به بعد أن تلف ترسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، قال الراوي: فلقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فلم نقلبه. أخرجه أحمد في مسنده (٦ : ٨).

ومن الحصون التي فتحت حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً منه ، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية فكفئت من قدورها وهي تفور بها ، وأذن لهم في لحوم الخيل . البخاري (٥: ١٧٢).

وفي رواية أنه حرم عليهم أربعا: عن إتيان الحبالى من السبايا ، وعن أكل لحم الحمار الأهلي ، وعن أهل كل ذي ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم.اهـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٢: ١٣٧) .

وحاصر النبي صلى الله عليه وسلم قلعة الزبير ، وهي من أمنع حصونهم على رأس قلّة ، فأقام على محاصرتها ثلاثة أيام ، فقيل له: إنك لو أقمت شهراً ما بالوا بهم # ديول (جدول ماء) تحت الأرض يخرجون إليها بالليل يشربون ثم يرجعون إلى قلعتهم ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مياههم فقطعها فخرجوا عليه يقاتلون أشد القتال ، وقتل من المسلمين يومئذ نفر ومن اليهود عشرة ، وافتتحه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فتح حصن أبيّ والنزار .

وبقي من حصونهم الوطيح والسلالم والغموص لابن أبي الحقيق ، وكان من آخر حصونهم

افتتاحا ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشر ليلة ، ونصب النبي صلى الله عليه وسلم المنجنيق عليهم ، فلما أيقنوا الهلكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح.

وَصَالَـحَ النَّبِـيُّ أَهْـلَ خَيْبَـرَا عَلَىٰ الخُـرُوجِ كُلِّهِمْ إِلَـىٰ العَرَا

وَيَأْخُـذُوا مَـا حَمَلَـتْ رِكَابُهُـمْ وَمَـنْ بَقِـي مِنْهُـمْ يُـؤَدِّي مَالَهُمْ

نِصْـفُ الثِّمَـارِ كُلَّ عَـامٍ لَازِمَـا فَنَزَلُـوا عَلَـىٰ الَّـذِي قَـدْ حَكَمَـا

فصالحهم على أن يحقن دماءهم ولهم ما حملت ركابهم ، وللنبي صلى الله عليه وسلم الصفراء والبيضاء والحلقة ، وهو السلاح ، وأن يخرجوا بأنفسهم وأهليهم ، ولمن بقي منهم نصف الثمر كل عام على ما لأقررناكم ، فإذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ، فنزلوا على ذلك.

وَأَخَـذَ النَّبِـيُّ مِنْ سَـبْيِ النِّسَـاءْ صَفِيَّةً وَأَسْـلَمَتْ دُونَ المَسَـاءْ

وكَانَـتِ الزَّوْجَـةَ مُـذْ أَعْتَقَهَـا وَفِي الطَّرِيقِ أَعْرَسَ الهَادِي بِهَا

يشير الناظم إلى ما كان من أمر صفية بن حيي بن أخطب ، وقد ذكر أن دحية الكلبي استأذن رسول الله في سبِيَّةٍ من السبايا فأذن له فاختار صفية بنت حيي ، وذكر للنبي صلى الله عليه وسلم مكانها وفضلها وأنها لا تصلح إلا له صلى الله عليه وسلم ، فدعا بدحية ، وبها فلما نظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خذ جارية من السبي غيرها ، وأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم وتزوجها ، وبنى بها في الطريق ، وقد ذكر إسلامها بادئ الأمر ، حيث ورد أنه لما دخلت صفية على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها: اختاري فإن اخترتِ الإسلام أمسكتكِ لنفسي ، وإن اخترتي اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك، فقالت: يا رسول الله قد هَوِيتُ الإسلام وصدقتُ بك قبل أن تدعوني ، حيث صرت إلى رحلك ومالي في اليهودية أرب ومالي فيها والد ولا أخ ، وخيرتني الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب إليّ من العتق وأن أرجع إلى قومي، فأمسكها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه، وفي الطريق كانت أم سليم بنت ملحان أم أنس قد أصلحت من شانها فبنى بها صلى الله عليه وسلم في محلة بين خيبر والمدينة بثلاث ليال وضرب عليها الحجاب.

وَقَـدِمَ الَّذِيـنَ كَانُـوا بِالحَبَـشْ إِلَىٰ النَّبِيِّ فَالْتَقَـىٰ الجَمْعَ وَبَشْ

وَأَبْلَغُـوهُ عَـنْ سَـلَامِ أَصْحَمَـةْ وَمَـا أَقَامَـهُ لَهُـمْ مِـنْ تَكْرِمَـةْ

يشير الناظم إلى وصول أصحاب الحبشة وهم جعفر بن أبي طالب ومن معه ، خمسون رجلاً فيهم أبو موسى الأشعري ، جاؤوا في سفينة من سفن البحر حتى بلغوا الوجده # ، ولما دنوا من المدينة جعلوا يقولون : غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه ، أو محمدا وحزبه.

ولما وصلوا المدينة علموا أن النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر ، فتوجهوا إليه وفرح النبي صلى الله عليه وسلم بقدومهم ، وقال عند التزامه جعفر بن أبي طالب : (والله ما أدري بأيهما أُسَرّ ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.

فلما نظر جعفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جحل ـ أي: مشى على رجل واحدة ـ فرحاً منه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم بين عينيه وأعطاه من الغنيمة. الحاكم في المستدرك (٢: ٦٢٤) .

وَأُهْدِيَـتْ شَـاةٌ إِلَـىٰ الرَّسُـولِ مَصْلِيَّةً مَسْـمُومَةَ المَأْكُـولِ

فَـلَاكَ مِنْهَـا ثُـمَّ قَـالَ إِنَّهَـا مَسْـمُومَةٌ قَـدْ أَخْبَـرَتْ عَمَّا بِهَا

يشير الناظم إلى قصة اليهودية ، وَقِيلَ اسْمُهَا زَيْنَبُ بِنْتُ الحَارِثِ ، وهي التي أهدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاة مَصليّة وأكثرتِ السمَّ في ذراعها لما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الذراع ، فلاك منها مضغة فلم يسغها ، وكان معه بشر بن البراء ابن معرور قد أخذ منها وأكل فمات منه ، وقال صلى الله عليه وسلم : (إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم) ، ثم دعا باليهودية فاعترفت ، وفي رواية دعا قومها من يهود فقالوا: (أردنا إن كنت كاذباً نستريح وإن كنت نبيّا لم يضرك)(١) . وقد اختلفت الروايات فيما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهودية ففي قول: إنه عفا عنها ، وفي قول : إنه أمر بها فقتلت.اهـ(٢).

---

(١) الخبر في صحيح البخاري ج٧/ ١٨٠ كتاب الطب ومسند الإمام أحمد ج٢/ ٤٥١.

(٢) الجامع في السيرة ج٣/ ٢٥١-٢٥٢.

عمرة القضاء

وَعُمْـرَةُ القَضَـاءِ كَانَـتْ مُلْزِمَـةْ ... فـي السَّـنَةِ السَّـابِعَةِ المُنْتَظِمَـةْ

بَدِيلَـةً عَـنْ صَدِّهِـمْ عَـنِ الحَـرَمْ ... فِيمَا مَضَىٰ مِنْ عَـامِ صُلْحٍ قَدْ أَغَمْ

سَـاقَ النَّبِـيُّ الهَـدْيَ رَاضٍ جَـذِلا ... دُونَ سِـلَاحٍ مِثْلَمَـا شَـاءَ المَـلا

وَدَخَلُـوا مَكَّـةَ مِـنْ بَعْـدِ اشْـتِيَاقْ ... وَاسْتَلَمُوا الرُّكْنَ وَطَافُوا في اسْتِبَاقْ

يشير الناظم إلى العام الذي يلي صلح الحديبية ، وهي السنة التي دخل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة معتمراً مقاضاةً لمنعهم عن العمرة العام الماضي، وروى بسنده عن ابن عمر قال: (لم تكن هذه العمرة قضاءً ولكن كان شرطاً على المسلمين أن يعتمروا قابل في الشهر الذي صدهم المشركون فيه)[1].

ولم يتخلف عنها أحد ممن شهد الحديبية إلا رجال استشهدوا بخيبر ورجال ماتوا، وخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من المسلمين عُمَّاراً فكانوا في عمر القضية أفين # (الخبر في عيون الأثر ج٢/ ١٤٩).

وساق النبي الهدي كما أشار إلى ذلك ابن عباس قال: إن أهل الحديبية أمروا بإبدال الهدي في العام الذي دخلوا فيه مكة ، فأبدلوا وعزت الإبل ، فرخّص لهم فيمن لا يجد بدنة في شراء بقرة) المستدرك ج١/ ٤٨٦ .

وساق النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية ستين بدنة، واشترطوا عليه أن لا يدخل بسلاح فوفّى لهم بذلك، ودخل من الثنية التي تطلعه على الحجون على راحلته القصواء ، فلم يزل يلبي والصحابة يلبون حتى استلم الركن بمحجته مضطبعا بثوبه ، وخرج المشركون على رؤوس الجبال ينظرون إلى النبي وأصحابه ، ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: (رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة).

---

(١) دلائل البيهقي ج٤/ ٣١٨.

ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها، وروى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون : (إنه يقدم عليكم وفدٌ وَهَنَتْهُم حُمَّى يثرب) ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجلوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا بين الركنين. اهـ صحيح البخاري ج٢/ ٨٤ كتاب الحج.

وَبَعْـدَ أَنْ مَـرَّتْ ثَـلَاثٌ طَلَبُـوا مِنْـهُ الْخُـرُوجَ وَأَتَـوْهُ يَطْلُبُـوا
شَـرْطَ اتِّفَاقٍ مِنْهُمُ عَلَىٰ السَّـفَرْ بَعْـدَ ثَـلَاثٍ فَاسْـتَعَدَّ وَصَـدَرْ
حَتَّـى أَتَـىٰ وَادٍ يُسَـمَّى بِسَـرَفْ فَحَـطَّ فِيـهِ وَبَنَـىٰ عُرْسًـا وَزَفْ

يشير الناظم إلى ما ورد في كتب السيرة إن المشركين من قريش أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد تمام العمرة في اليوم الرابع (نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضا فقد مضت الثلاث)، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم بالخروج حتى نزل بطن سَرِف وأقام المسلمون وبها بنى على ميمونة بنت الحارث وهي خالة عبد الله بن عباس، وكانت قد تزوجت في الجاهلية مسعود بن عمرو الثقفي ثم فارقها فخلف عليها أبو رهم بن عبد العزى وتوفي عنها وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، زوجها إيّاه العباس بن عبد المطلب وكان يلي أمرها)اهـ الجامع للسيرة من ٣١٠/ ٣.

غزوة مؤتة

وَغَـزْوَةٌ تَمَيَّـزَتْ عَـنْ غَيْرِهَـا ... بِمَـا جَـرَىٰ فِي شَـأْنِ حَالِ سَـيْرِهَا
بَـدْءاً بِتَعْـدَادِ القِيَـادَاتِ لَهَـا ... وَمَوْقِـفٍ مِـنْ خَالِـدٍ حِيَالَهَـا
أَسْـبَابُهَا تَأْدِيـبُ مَـنْ قَـدْ قَتَـلا ... رَسُـولَ بُصْـرَىٰ لِلْكِتَـابِ حَامِـلا

يشير الناظم إلى غزوة مؤتة التي حملت اسم قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، وهي التي جرت فيها وقائع المعركة المشار إلى تفردها عن غيرها بأمور منها :

تحديد القادة الذين رشحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمعركة ،

وأنهم قتلوا كلهم تبعاً واحدا بعد الآخر في مواقف بطولية خالدة ، ومنها موقف خالد بن الوليد في حمل الراية من بعدهم ، وإعادة ترتيب المعركة والانسحاب منها بسلام ، حتى نال لقب (سيف من سيوف الله) على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان سبب الغزوة ما ذكره ابن سعد في طبقاته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى حارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى بكتابه ، فلما نزل (مؤتة) عرض له شرحبيل بن عمر الغساني فقال : أين تريد؟ قال : الشام ، قال: لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم ، فأمر به ، فأوثق رباطا ، ثم قدمه فضرب عنقه صبرا ، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر فاشتد عليه وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله ، فأسرعوا في الاستعداد ، وكان ذالك سبب خروجهم للغزوه [(١)] ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: (إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس).

فتهيؤوا للخروج وهم ثلاثة آلاف ، وعقد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء أبيض ، ورفعه إلى زيد بن حارثة ومضوا حتى بلغوا مَعَانَ من أرض الشام ، فبلغهم أن هرقل قد

---

(١) الطبقات ج ٢ / ١٢٨.

نزل (مأرب) من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم ، وانضم إليه من لخم وجذام وغيرها مئة ألف ، فيقر المسلمون في (معان) ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا: نكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمر فنمضي له ، قال : فشجع الناس عبدالله بن رواحة وقال : يا قوم والله إن التي تكرهون لَلتي خرجتم تطلبون ، الشهاده ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنين إما ظهور وإما شهادة ، قال : فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة ، فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها (مشارف) ، فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها (مؤتة) فالتقى الناس عندها ، وتعبأ المسلمون للقتال واقتتلوا قتالا شديداً حتى قتل زيد بن حارثة طعنا [1] بالرماح ، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل بها حتيإذا ألجمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، ثم أخذ عبدالله بن رواحة الراية وتقدم بها وقاتل حتى قتل ، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة واصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم وماشى بهم ثم انحازوا وانحيز عنه حتى انصرف بالناس . (الهيثمي في الزوائد ٦/ ١٥٩) .

وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ثم أخذها خالد بن الوليد من غير أمره ففتح له) ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبعيه فقال : (اللهم هو سيف من سيوفك فانصره) فمن يومئذ سمي خالد (سيف الله) ونعى النبي صلى الله عليه وسلم الأمراء الثلاثة وعيناه تذرفان .

وَحَـزَنَ النَّبِـيُّ حُزْنًـا وَانْتَحَـبْ ... وَأَخْبَـرَ النَّـاسَ بِمَـا فِيـهِ العَجَـبْ

مِنْ وَصْفِهِ لِمَا جَـرَىٰ في المَعْرَكَةْ ... وَمَـا لَهُـمْ مِـنْ رُتْبَـةٍ وَمَمْلَكَـةْ

يشير الناظم إلى نعي النبي ﷺ للأمراء الثلاثة واستشهادهم الواحد تلو الآخر ، وما نالوه

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٦/ ١٥٨.

من شرف الشهادة وثوابها عند الله ، فقد روى أنس عن النبي ﷺ : إن النبي ﷺ نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان . رواه البخاري ، وفي رواية أخرى قال ﷺ لأصحابه: كان الذي رأيتم مني أنه أحزنني قتل أصحابي حتى رأيتهم في الجنة إخوانا على سرر متقابلين ، ورأيت في بعضهم إعراضا كأنه كره السيف ، ورأيت جعفرا ملكا ذا جناحين مضرجا بالدماء مصبوغ القوادم. مجمع الزوائد.

وفي كتب المغازي والسير تفصيلات وزيادات مفيدة حول الأمراء الثلاثة وغيرهم ممن حضر موته وما جرى بعد ذلك ، ولما عاد الجيش إلى المدينة تلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، ولقيهم الصبيان يشتدون ، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: (يا فُرَّار فررتُم في سبيل الله) فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى. اهـ تاريخ ج ٣ / ٤٢/ وقد بلغ قتلى الغزوة سبعين رجلا.

غزوة فتح مكة رمضان سنة ثمان

وَنَقَضَتْ قُرَيْشُ عَهْداً قَدْ وَجَبْ بِعَوْنِهِمْ في الصُّلْحِ مَالاً وَسَلَبْ
مِنْهُـمْ بَنُـو بَكْـرٍ عَلَـىٰ خُزَاعَـةْ وَهُـمْ عَلَىٰ العَهْدِ مَـعَ الجَمَاعَةْ
فَاسْـتَنْجَدُوا بِالمُسْلِمِينَ وَدَعَوْا نُصْرَتَهُـمْ بِعَهْدِهِـمْ لَمَّـا رَعَـوْا

يشير الناظم إلى أسباب غزوة فتح مكة، وهو ـ كما أشار إليها أصحاب السير ـ أنه تظاهرت بنوبكر وقريش على خزاعة، وكان لخزاعة عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الحديبية ولبني بكر عهد مع قريش في ذلك الصلح، فأمدت قريش بني بكر بالمال والسلاح على خزاعة وقتل منهم عدد من الرجال وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق، ووفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أهل خزاعة، يشكون إليه مافعلته بنوبكر بمعونة قريش، فقال صلى الله عليه وسلم للرسول الذي جاءه من خزاعة: (نصرتَ يا عمرو بن سالم) ونظر إلى السماء فرأى عنان سحاب فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنهر بني كعب#. البيهقي في الدلائل ج٩/ ٢٣٣.

وَاسْـتَنْفَرَ المُخْتَـارُ كُلَّ مَنْ مَعَهْ بِشَـرْطِ كِتْمَـانِ انْطِـلَاقِ أَزْمَعَهْ
وَحَاطِبٌ أَرْسَـلَ في السِّـرِّ إِلَىٰ مَكَّـةَ مَرْسُـولًا بِأَمْـرِ هٰـؤُلا
فَجَـاءَ جِبْرِيـلُ الأَمِيـنُ بِالخَبَـرْ فَبَعَـثَ النَّبِـيُّ لِلْأَمْـرِ نَفَـرْ
وَأَرْجَعُـوا الرِّسَـالَةَ المَطْوِيَّـةْ وَكَبُـرَ الأَمْـرُ مَـعَ القَضِيَّـةْ
وَطَلَـبَ الفَـارُوقُ قَتْـلَ حَاطِبِ فَدَافَـعَ النَّبِـيُّ عَنْـهُ إِذْ حُبِـي
وَقَـالَ هٰـذَا مِـنْ رِجَـالِ بَـدْرِ وَاللّـهُ أَعْطَاهُـمْ عَظِيـمَ القَـدْرِ

يشير الناظم إلى تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم للغزوة وإخبار الصحابة بذلك، واشترط عليهم كتمان الأمر، واستشار البعض منهم في الأمر كأبي بكر وعمر، وكان رأي

عمر رضي الله عنه أقرب إلى الموافقة حيث قال : وايم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة ، إنهم لحراس الكفر ، إلا أن حاطب بن أبي بلتعة ـ وهو ممن شهد بدرا ـ كتب بالأمر إلى أهل مكه وسَيَّر امرأة وجعل لها جعلا على أن تُبَلِّغَه قريشا فجعلته في رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ، وخرجت به ، وجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء بما صنع حاطب فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما فأدركاها والتمسا في رحلها الكتاب فلم يجدا شيئا ، فقال لها علي رضي الله عنه : لتخرجِنَّ الكتاب أو لنكشفنَّك ، فلما رأت الجد منه استخرجتْه من قرون رأسها ، فدفعته إليه فانطلق به مع الزبير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال له : (ماحملك على هذا؟) فقال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ولكن كنت امرأ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل منافق ، فقال رسول الله عيه وسلم : (وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) رواه البيهقي في مجمع الزوائد ج ٩ / ٣٠٤) بمعناه ورواه غيره بروايات متنوعة.

وَاسْـتَخْلَفَ النَّبِـيُّ بِالمَدِينَـةِ كُلْثُـومُ بِـنْ حُصَيْـنِ فـي رِوَايَةِ
وَخَرَجُوا في مَطْلَعِ الشَّهْرِ الأَغَرْ وَأَفْطَـرَ النَّبِـيُّ في بَعْضِ السَّـفَرْ

يشير الناظم إلى استخلاف النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة كلثوم بن حصين الطفار # على رواية ، وعلى رواية أخرى استخلف عبد الله بن أم مكتوم ، وكان خروج النبي في مستهل شهر رمضان على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة (البخاري ج ه / ١٨٥) ، واجتمع مع النبي في الغزوة عشر آلاف من المسلمين .

وَفـي الطَّرِيـقِ جَـاءَهُ العَبَّـاسُ كَـذَا أَبُـو سُـفْيَانَ وَالمِـرْدَاسُ

يشير الناظم إلى لحاق العباس بن عبد المطلب بالنبي صلى الله عليه وسلم في بعض الطريق ، وكان قد أسلم من قبل وأقام بمكة على السقاية ولم يهاجر ، كما قدم أبوسفيان بن

الحارث وعبد الله بن أمية وأسلما ، وجاء العباس بن مرداس ، وكان قد أسلم من قبل في قصته التي ذكرتها كتب السير .

أَمَّـا ابْنُ حَرْبٍ قَـدْ أَتَـىٰ مُعْتَرِفَا	مُسَـلِّمًا وَمُسْـلِمًا يَرْجُـو الوَفَـا

يشير الناظم إلى مجيء أبي سفيان بن حرب ومعه نفر من قومه فلما رأوا العسكر أفزعهم مسمع العباس # صوت أبي سفيان ، فقال: يا أبا حنظلة ، فقال: لبيك فما وراءك ؟ قال : هذا رسول الله في عشرة آلاف فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك ، فأجاره ثم خرج به على بغلته شنه # تخور رسول الله ، فرآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد وقام يشتد خلفه ، ودخل العباس به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر خلفه يقول : يا رسول الله هذا أبوسفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني أضرب عنقه ، قال رسول الله : إني قد أجرته ، فلما أكثر عمر من شأنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عباس اذهب به إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به ، فلما أصبح غدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله) ، قال: بأبي أنت وأمي ما أحكمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى # مني شيئا بعد .. إلى أن قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك أسلم واشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك .

قال فشهد شهادة الحق وأسلم ، قال العباس : قلت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا قال : (نعم.. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .. إلخ) ، وإلى ذلك أشار الناظم بقوله :

فَأَمَّـنَ النَّبِـيُّ كُلَّ مَـنْ دَخَـلْ	فـي دَارِهِ حَتَّـىٰ مَضَىٰ عَنْـهُ مَثَلْ
وَدَخَلَـتْ كَتَائِـبُ الإِسْـلَامِ	أَرْضَ الهُدَىٰ وَالمَسْجِدَ الحَرَامِ
مِـنْ كُلِّ فَـجٍّ وَالرَّسُـولُ مُعْتَمِرْ	بِبُـرْدَةٍ حَمْـرَاءَ وَالوَجْـهُ نَضِـرْ

وَلَابِسًـا عِمَامَـةً سَـوْدَاءَ مُطَئْطِـأً لِلـرَّأْسِ يَـوْمَ جَـاءَ

يشير الناظم إلى دخول المسلمين إلى مكة المكرمة عام الفتح وراية الرسول صلى الله عليه وسلم بيد سعد بن عبادة ، فلما مر على أبي سفيان قال سعد : (اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة اليوم # أذل الله قريشاً) ، فلما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداه أبو سفيان : يا رسول الله أمرت بقتل موكل # فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله فيه قريشا) .

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة فنزع اللواء من يده وجعله بيد قيس ابنه ، وكان رسول الله معتجرا ببردة حمراء ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع راسه تواضعا لله ، أي: ما كرمه الله به من الفتح حتى ، إن حُثْنُونه # (أي لحيته) ليكاد أن تمس واسطة الرحل ، وكانت عليه عمامة سوداء ، وكان دخوله من جهة كداء التي بأعلى مكة.

وَطَـافَ بِالبَيْـتِ وَطَهَّـرَ الحَرَمْ وَأَخْرَجَ الأَوْثَانَ جَمْعًا وَالصَّنَمْ

وَدَخَـلَ الكَعْبَـةَ أَدَّىٰ لِلصَّـلَاةْ وَبَعْدَهَـا أَوْفَـىٰ الدُّعَـاءَ لِلْإِلٰـهْ

وَخَطَـبَ النَّبِـيُّ عِنْـدَ البَـابِ كَمَـا عَفَـا عَـنْ كُلِّ ذِي عِقَـابْ

يشير الناظم إلى ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك طوافه بالبيت وتطهيره المسجد والكعبة وجوانبهما من الأصنام والأوثان ، وكان يأتي إلى الصنم فيهوي إليه بمخصرته مشيرا فتهوى من غير أن يمسها ويقرأ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١] فتتساقط على وجوهها ، ثم أمر بهن فأخرجن إلى المسيل ، وكان يومئذ حول الكعبة ثلاثمئة وستون وثنا وصنما .

كما دخل الكعبة وهتك ما فيها من الصور وأمر بطمسها ، ثم صلى ركعتين ، ثم خرج وصلى في وجه الكعبة ركعتين ، وفي رواية أنه كبر في نواحي البيت وخرج ولم يصل فيه .

ولما خرج من بابها خطب بالناس وهو قائم على باب الكعبة فقال: (لا إله إلا الله وحده لا

شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ... إلى أن قال: يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحُجُرات:١٣]، كما قال لقريش من فوق باب الكعبة: (يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ، قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء) . البيهقي في السنن ج ٩ ١١٨١ .

وَأَهْدَرَ النَّبِيُّ بَعْضَ الْمُشْـرِكِينْ وَأَعْلَـنَ القَتْلَ لَهُمْ مِـنْ غَيْرِ لِينْ

يشير الناظم إلى ما ذكرته كتب السيرة فيما روى ابن سعد قال: (لما كان يوم فتح مكة أمّن الرسول صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين ، وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، وهم عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطل ومقيس بن حبابة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، فقتل منهم عبدالله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن حبابة ادركه الناس في السوق فقتلوه ، وأما عكرمة فركب في البحر وأسلم فيما بعد ، وأما عبد الله بن أبي السرح فاختبأ عند عثمان بن عفان فاستجاره عثمان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أخو عثمان من الرضاعة ، وأما المرأتان وكانتا تغيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلت إحداهما والاخرى أسلمت . اهـ الجامع للسيرة ٣/ ٤٧٤ ٤٧٥

وَبَايَعَ النَّبِـيُّ كُلَّ مَـنْ حَضَـرْ مِنْ رَجُـلٍ وَامْـرَأَةٍ جَـاؤُوا زُمَرْ

وَلَـمْ يَمَـسَّ امْـرَأَةً بِيَدِهَـا بَـلْ نَاطِقًـا مُسْـتَقْبِلًا بَيْعَتَهَـا

يشير الناظم إلى مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة ، قال : فجاءه الناس الصغار والكبار والنساء فبايعوه على الإسلام والشهادة .

وَانْقَطَعَتْ بِالفَتْـحِ عَيْنُ الهِجْرَةِ وَبَقِـيَ الجِهَـادُ مِثْـلُ النِّيَّـةِ

يشير الناظم الى قوله صلى الله عليه وسلم : (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا) صحيح البخاري ج١٨/ ٣ ابواب ###

وَجَـدَّدَ النَّبِيُّ أَنْصَـابَ # الحَرَمْ وَبَعَـثَ البُعُـوثَ هَدْمًـا لِلصَّنَمْ

وقصـر الصـلاة حَتَّـىٰ رَجَعَـا وَأَرْسَـلَ الدُّعَاةَ يَدْعُو مَنْ وَعَىٰ

يشير الناظم إلى بعض أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم خلال إقامته بعد الفتح بمكة ، ومنها تجديد أنصاب الحرم ، وهي حدوده ، فقد ورد أنه ﷺ بعث تميم بن أسد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم. الجامع في السيرة النبوية (٣: ١٠٥).

وبعث بعض الرجال لتكسير الأوثان والأصنام التي حول الكعبة ، ونادى مناديه بمكة (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنما إلا كسره ، كما أرسل خالد بن الوليد إلى صنم العزى وكان بيتا يعظمه الحي من قريش وكنانة ومضر كلها فانتهى إليها خالد فهدمها ، وبعث عمرو بن العاص إلى صنم سواع وهو صنم بتهامة فدنا منه وكسره ، كما بعث بعثا لهدم صنم مناة وكانت للأوس والخزرج فهدمها.

كما قصر النبي الصلاة مدة إقامته بمكة حتى عاد إلى المدينة ، واختُلف في أيام بقائه فقيل : عشرا ، وقيل: خمسة عشر يوما ، والأصح أنها ثمانية عشر يوما .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم سراياه للدعوة إلى الإسلام ، ومنهم سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بن كنانة ولم يحسنوا القول ، بل جعلوا يقولون: صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم إني ابرأ إليك مما صنع خالد) مرتين ، ثم دفع النبي صلى الله عليه وسلم دية قتلاهم . وبعث إليهم علي بن أبي طالب للنظر في أمر ما صنع خالد بهم .

غزوة حنين

تَجَمَّـعَ الكُفَّـارُ فـي أَوْطَـاسِ حَشْـدًا كَبِيـراً ضِدَّ خَيْـرِ النَّاسِ

وَأَزْمَعُـوا المَسِـيرَ لِلْقِتَـالِ نِكَايَـةً بِالمُصْطَفَـىٰ المِثَـالِ

فَاسْـتَنْفَرَ النَّبِـيُّ مَـنْ كَانَ مَعَـهْ وَمَـنْ أَتَـىٰ مُوَافِقـاً لِيَتْبَعَـهْ

يشير الناظم إلى غزوة الطائف المعروفة بغزوة حنين والتي كان من خبرها : أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام بمكة عام الفتح بنصف شهر لم يزد على ذلك حتى جاءت هوزان وثقيف فنزلوا بحنين عامدين قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع النبي بخبرهم استنفر أصحابه ومن كان بمكة من الأعراب وانطلق حتى بلغ الجيش اثني عشر ألفاً ، فلما فصل من مكة قال بعض من معه : (لن نهزم اليوم من قلّة) .

واستخلف عتاب بن أسيد على مكة يصلي بالناس واستخلف معاذ يعلمهم الدين، واستنفر معه أصحابه وساروا نحو العدو ، وعبأ الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في السحر صفوفا ووضع الرايات والألوية في يد أهلها وانحدر رسول الله صلى الله عليه وسلم في وادي حنين وهو راكب بغلته البضاء، وأمرهم وحضهم على القتال وبشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادي فكموا في شعابه ومضايقه ، قال : فما راعنا إلا الكتائب قد شدّوا علينا شدة رجل واحد وانهزم الناس راجعين لا يلوون على أحد ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين وقال: (يأيها الناس هلموا إليّ أنا رسول اله أنا محمد بن عبد الله) ، قال: فنزل النبي من على بلغته ويقول: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب) ثم صف أصحابه . «صحيح مسلم ج٣/ ١٤٠١ كتاب الجهاد والسير».

وثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته وكان يدعو ربه ويستنصر ويقول : اللهم بك أحاول وبك أحاول وبك أقاتل، والتفت النبي صلى الله عليه وسلم عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار فقالوا : لبيك يا رسول ، أبشر نحن معك ، ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار قالوا: لبيك يارسول الله ابشر نحن معك ، فنزل فقال : (أنا عبد الله ورسوله) ، فانهزم المشركون فأصاب يومئذ غنائم كثيرة ثم انطلق إلى

الطائف.

وَوَزَّعَ النَّبِيُّ كُلَّ مَا غَنِمْ عَلَىٰ قُرَيْشٍ وَأُولِي الشَّأْنِ المُهِمْ
مِنْ جُمْلَةِ الأَعْرَابِ وَالقَبَائِلِ فَعَتَبَ البَعْضُ رِضًىٰ بِالعَاجِلِ
فَجَمَعَ النَّبِيُّ أَنْصَارَ الهُدَىٰ وَقَالَ فِيهِمْ أَنْتُمُ أَهْلُ النَّدَىٰ
يَعُودُ كُلُّ النَّاسِ بِالمَغَانِمِ وَأَنْتُمُ بِخَيْرِ هٰذَا العَالَمِ

يشير الناظم إلى كثرة الغنائم التي قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤلفة قلوبهم من قريش والأعراب حتى استشاط بعض أحداث الأنصار وجاء من يقول : قسمت الغنائم في قومك وقبائل العرب ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء ، فقال صلى الله عليه وسلم : اجمعوا إلي القوم من الأنصار ، فاجتمعوا فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا معشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني عنكم وأشار إلى ما قيل عنهم حتى قال: ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟! فوالذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، قال فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا (صحيح البخاري ج٥/ ٢٠٠/ ٢٠١).

وَقَامَ مَنْ يُدْعَىٰ بِذِي الخُوَيْصِرَةْ يُنَازِعُ المُخْتَارَ فِيما قَدَّرَهْ
وَقَالَ هٰذِي قِسْمَةٌ لَمْ تَعْدِلِ وَمَا أُرِيدَ وَجْهُ رَبٍّ مُعْتَلِي
فَقَالَ طٰهَ وَيْحَ مَا قُلْتَ افْتِرَا إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ فَمَنْ يَهْدِي الوَرَىٰ
وَاسْتَأْذَنَ الفَارُوقُ كَيْمَا يَقْتُلَهْ فَقَالَ دَعْهُ لا نُثِيرُ مُشْكِلَةْ
فَهٰؤُلَاءِ فِئَةٌ مِنْ شَأْنِهِمْ قِرَاءَةُ القُرْآنِ فِي حِرْصٍ نَهِمْ

سَـيَخْرُجُونَ فـي الزَّمَـانِ الْلَاحِقِ وَيَظْهَـرُونَ بِالفَسَـادِ المَاحِـقِ
فَمَـنْ لَقِـي مِنْهُـمْ فَرِيقًـا يَقْتُلَـهْ لِعِلَّـةٍ مَعْلُومَـةٍ مُفَصَّلَـةْ

يشير الناظم إلى ما جرى في هذه الغزوة من انتقاد ذي الخويصرة التميمي رسول الله صلى الله عليه وسلم حول العدل في القسمة وقال ك والله إن هذه القسمة ما عدل فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن يعدلْ إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر.

فقال عمر رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي ، يوشك أن يأتي قوم مثل هذا ـ وفي رواية: يخرج من ضئضئ هذا ـ قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) ، وروي بروايات وألفاظ متنوعة.

وَعَـادَ خَيْـرُ الخَلْـقِ لِلْمَدِينَـةِ بِالفَتْـحِ وَالنَّصْـرِ مَـعَ الغَنِيمَـةِ
وَجَاءَتِ الوُفُودُ مِـنْ كُلِّ مَكَانْ مُعْلِنَـةً إِسْـلَامَهَا فـي خَيْـرِ آنْ

يشير الناظم إلى عود النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة حنين حاملاً رايات النصر والغنيمة ، ولم يكد تستقر في المدينة حتى توالت الوفود من الأنحاء معلنة ولاءها للإسلام وللرسول صلى الله عليه وسلم ، فمن الوفود وفد ثعلبة ووفد صدا ووفد ثمالة والحدان # ووفد باهلة ووفد جرم وغيرهم. الجامع للسيرة ج٣.

وَبَعَـثَ النَّبِـيُّ عُمَّـالَ الـزَّكَاةْ في عَامِ تِسْـعٍ في جَمِيعِ الإِتِّجَاهْ
وَكَمْ جَرَىٰ في الأَمْرِ مِنْ وَصَايَا فِيمَـا يَخُـصُّ المَـالَ وَالعَطَايَـا
وَكَتَـبَ النَّبِـيُّ لِلْعُمَّـالِ ضَوَابِـطَ الـزَّكَاةِ لِلْأَمْـوَالِ

يشير الناظم إلى السنة التاسعة من الهجرة ، وهي السنة التي بعث فيها النبي صلى الله عليه وسلم بالعمال لجلب الصدقات من سائر الأنحاء والبلاد ، وقد جمعت كتب السيرة تفاصيل

الجهات التي بعث إليها أولئك العمال ، كما ذكرت العديد من الوقائع المتنوعة مع سائر العرب حول مسألة الزكاة وأخذها وما قد يحصل من خيانة أو إفراط في أخذ كرائم أموال الناس .

ثم أشار الناظم إلى ما عينه صلى الله عليه وسلم للأمراء والعمال في شأن ضوابط الصدقات وهو الكتاب الذي كان يعمل به ويوصي بالتزامه حتى مات ، فعمل به من بعده الخلفاء الراشدون ، وكان مقرونا بمقبض سيفه صلى الله عليه وسلم. الجامع للسيرة ص١٦/ ١٧/ الجزء٤.

غزوة تبوك

وَجَاءَتِ الأَخْبَارُ عَنْ حَشْدٍ كَثُرْ   مِـنْ جِهَـةِ الأَرْوَامِ فِيمَا قَـدْ أُثِرْ

وَأَنَّ بِالشَّـامِ هِرَقْـلاً وَالجُمُـوعْ   يُجَهِّزُونَ النَّاسَ في غَزْوِ الرُّبُوعْ

يشير الناظم إلى أسباب غزوة تبوك وما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم من اجتماع النصارى ومن شايعهم من الأعراب في نواحي الشام ، وأمر النبي أصحابه ليتهيؤوا لغزو الروم ، وذلك في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها إلا ما كان في غزوة تبوك فإنه بيّنها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو ، ليتأهب الناس لذلك وأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم ، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله ، وقال: (من جهز جيش العسرة فله الجنة) كما قال الناظم:

وَجَـاءَ عُثْمَـانُ مُجِيبـاً لِلنِّـدَا   مُجَهِّـزاً جَيْـشَ النَّبِـيِّ أَحْمَـدَا

يشير الناظم إلى موقف عثمان بن عفان يوم جاء بمئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، وفي رواية مئتا بعير وفي رواية ثلاثمئة بعير، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من على المنبر وهو يقول: ما هلى عثمان ما عمل بعد هذه، ما عمل عثمان ما عمل بعد هذه.

وَأَكْثَـرَ المُنَافِقُـونَ الكَذِبَـا   وَثَبَّطُوا النَّـاسَ لِيَبْقُوا في الرُّبَىٰ

يشير الناظم إلى موقف ناس من المنافقين حيث جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنون في التخلف من غير علّة ، فأذن لهم وهم بضعة وثمانون رجلا ، قال ابن عباس : فلما أزف خروج النبي صلى الله عليه وسلم أكثروا الاستئذان وشكوا شدة الحر وخافوا.

وَجَـاءَتِ الآيَـاتُ فـي بَـرَاءَةِ   تَكْشِـفُ سِـرَّ الإِفْـكِ وَالخِيَانَةِ

وأرجف المنافقون في المدينة بكل خبر سوء ، ونزلت سورة براءة تصف المواقف # أرسالا

حتى ظن المؤمنون الظنون، حيث نزلت براءة فيمن تخلف من المنافقين من تبوك ، فكشف الله فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون ، منهم من سمي ومنهم من لم يسم.

وَاسْتَخْلَفَ النَّبِيُّ بِالمَدِينَةِ عَلِيًّا المِغْوَارَ بِالجَدَارَةِ
وَقَالَ مِنِّي أَنْتَ في المَنْزِلَةِ كَمِثْلِ هَارُونَ لِمُوسَىٰ في الَّتِي

يشير الناظم إلى استخلاف النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب في المدينة بعد خروجه ناحية تبوك ، فأرجف به المنافقون وقالوا : ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا منه ، فلما بلغه ذلك حمل سلاحه وخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجرف ، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون إنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني ، فقال: كذبوا ولكني خلفتُك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟ فرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله صلى الله عليه على سفره.

وَفي الطَّرِيقِ قَالَ بَعْضُ المُرْجِفِينْ غَدًا نَرَىٰ مُحَمَّداً ضُحًى مَهِينْ
مُقَيَّدًا في الأَسْرِ بِالحِبَالِ تَقُودُهُ الرُّومُ بِشَرِّ حَالِ
فَنَزَلَ القُرْآنُ يَحْكِي قَوْلَهُمْ وَكَاشِفاً عَنْهُمْ (لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ)

يشير الناظم إلى حال من أظهر النفاق في طريق تبوك حيث قال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال! فلما سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقالتهم قالوا : إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله خبرهم في القرآن وأثبت استهزائهم وقال لهم : ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٦].

وَلَمْ يَجِدْ حَرْبًا وَلَا كَيْدًا وَلَا مُنَاوِءًا فَعَادَ مِنْهَا عَجِلا
وَصَالَحَ البَعْضَ كَمَا قَدْ أَرْسَلا رَسَائِلًا لِبَعْضِهِمْ مُفَصَّلا

يشير الناظم إلى نزول النبي صلى الله عليه وسلم بتبوك ولم يجد عدوا ولا حربا وإنما بعث بجملة من الرسائل إلى قيصر وملك أيلة ودومة الجندل ، كما صالح أهل أيلة وجرباء وأذرح وقعنا ومقنا#.

وَفـي الطَّرِيـقِ جَـاءَهُ المُلَثَّمُونْ   لِيُسْـقِطُوهُ وَهُـمُ لا يُعْرَفُـونْ
فَلَـمْ يَنَالُـوا مُبْتَغَاهُـمْ أَبَـدَا   وَرَدَّ رَبِّـي مَكْرَهُـمْ وَأَفْسَـدَا

يشير الناظم إلى ما رواه في سنن البيهقي ج٩/ ٣٢ عن عروة قال : ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا من تبوك إلى المدينة حتى إذا كان ببعض الطريق مَكَرَ برسول الله صلى الله عليه وسلم ناس من أصحابه فتآمروا عليه أن يطرحوه في عقبة في الطريق ، فلما بلغوا العقبة وأرادوا أن يسلكوها معه أمر رسول الله الناس أن يأخذوا بطن الوادي ، وأخذ النبي العقبة إلا النفر الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه مشياً ، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم من ورائهم قد غشوهم فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر حذيفة أن يردهم فرجع حذيفة ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضربا بالمحجن ، وارتعب القوم حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه ، فأسرعوا حتى خالطوا الناس وعاد حذيفة إلى رسول صلى الله عليه وسلم وقال صلى الله عليه وسلم: هل عرفتَ يا حذيفة هؤلاء الرهط؟ قال حذيفة: عرفتُ راحلة فلان وفلان، قال: هل علمتُم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قال: لا والله يا رسول. قال: فإنهم مكروا.. يسيرون معي حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها، قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاءك الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولون إن محمدا قد وضع يده في أصحابه. فسماهم لهما وقال: اكتماهم.اهـ سنن البيهقي ج٩

وفيهم قال تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾ [التوبة:٧٤] قال في رواية: ومات الاثنا عشر منافقاً محاربين لله تعالى ورسوله.

وَجَـاءَهُ لِلاعْتِـذَارِ مَـنْ خَـلَـفَ	فَقَبِلَ العُذْرَ لمن أبدى الأسـف
إِلَّا أَبولُبَابَـةَ الأَنْصَـارِي	فَظَـلَّ مَرْبُوطًـا إِلَـىٰ الجِـدَارِ
سَـبْعَ لَيَالٍ دُونَ شُـرْبٍ أَوْ طَعَامْ	حَتَّـىٰ أَتَـتْ تَوْبَتُهُ تُبْـدِي المَرَامْ
أَمَّـا الَّذِيـنَ صَدَقُـوا فِـي القَوْلِ	ثَلَاثَـةٌ فِـي آيَـةِ التَّنْزِيـلِ
كَعْـبُ هِـلَالٍ وَكَـذَا مُـرَارَةْ	نَالُـوا الرِّضَـا فِـي آيَـةِ البِشَـارَةْ

يشير الناظم إلى المخلفين عن غزوة تبوك وقد جاؤوا إلى رسول الله صلى اله عليه وسلم يعتذرون ويرجوه أن يستغفر لهم فقبل منهم عذرهم واستغفر لهم إلا جماعة منه ، ومنهم أبو لبابة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلم عليه فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ، ففزع أبو لبابة وربط نفسه بسارية التوبة سبعاً بين يوم وليلة في حر شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب قطرة ، وقال: لا يزال هذا مكاني حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله عليّ ، فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت له من الجهد ورسول الله ينظر إليه بكرة وعشية، ثم تاب الله عليه فنودي أن الله تعالى قد تاب عليك فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطلق عنه رباطه فأبى أن يطلق عنه أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلق عنه بيده ، فقال أبو لبابة حين أفاق : يا رسول الله إني أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأنتقل إليك وأساكنك وإني أختلع من مالي صدقة إلى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال: (يجزئ منك الثلث) ، فهجر أبو لبابة دار قومه وساكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصدق بثلث ماله ، ثم تاب فلم ير منه بعد ذلك في الإسلام إلا خيرا حتى فارق الدنيا . «الخبر في عيون الأثر باختصار ج٢/ ٧١» راجع الجامع للسيرة ص١٣٦/ ج٤.

وممن تخلف وصدق في الاعتراف لرسول الله (الثلاثة المخلفون) الذين وردت فيهم الآية : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ الآية [التوبة:١١٨] ، وهم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وقصتهم في كتب

الحديث والسير مشهورة وفيهم نزلت ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:١٠٦]، قال المفسرون: هم الثلاثة الذين خلفوا وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم حتى أتته من الله توبتهم.

مَظَاهِرُ فِقه التَّحَولاتِ قبيل موت النبي ﷺ

مِـن آخِـرِ الفِقْـهِ الَّـذِي قَد سَبَقَا ... مَـوتَ النَّبِـيِّ مَـا جَـرَى وَوُثِّقَـا
خُطْبَتُـهُ فـي حَجَّـةِ الـوَدَاعِ ... وَمَـا بِـهَـا مِـنْ جُمْلَـةِ الدَّوَاعِـيْ
جَامِعَـةٌ لِـكُلِّ أَمْـرٍ وَطَلَـبْ ... مِـنْ أَمـرِ دُنيَانَـا وَيَـومِ المُنقَلَـبْ

يشير الناظم إلى اهتمام النبي ﷺ بأمور التحولات ومجريات الأحداث، وخطورة ما قد يقع فيه المسلمون من بعده، فكانت خطبته ﷺ في حجة الوداع من أعظم وأشمل الخُطب الجامعة شؤون الحياتين، وما يجب على الأمة فهمه وإدراكه بشأن مسؤولياتها بُعيد نزول القرآن وبعثة المصطفى ﷺ، وقد قال فيها: «**لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا**»[1] واعتبر أهل العلم هذه الخطبة هي البيان الأخير في شأن الديانة والتدين وفيها حدَّدَ النبي ﷺ معالم المستقبل على الوجه الذي يرضاه الله.

فهي (ضابطة التحولات) من يوم الخطبة إلى يوم الدين فأَيُّ خَلَلٍ يجري في ضوابط هذه المفاهيم التي قررها ﷺ في خطبته تشير إلى الفساد الممقوت والنقض الصريح لِما دعا إليه ﷺ قبل أن يموت ومن هذه الثوابت:

١) حرمة الأموال والأعراض والدماء «**إنَّ دِمَاءَكُم وأَمْوَالَكُم عَليكم حَرَام**».

٢) حرمة القتال بين المسلمين، وأنَّ هذا الفعل داخل دائرة المسلمين يعد معنىً من معاني العودة إلى الكفر «**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً**».

---

(١) وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي إمامة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب حجة الوداع يقول: «اتقوا الله وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم» ، وفي رواية أخرى: «يا أيها الناس إنه لا نبي بعدي ولا أمة بعدكم» .

٣) كل أمر الجاهلية موضوع «**إنَّ كل شيء من أمر الجاهليَّة مَوضوع تَحتَ قَدَمي**».

٤) إسقاط المعاملات الربوية بكافة صورها «**وإنَّ كُلَّ رِبا مَوْضُوعٌ ولَكُم رُؤوسُ أَمْوالِكُم لا تَظلمون ولا تُظلمون قَضى الله أن لا ربا وإنَّ أوَّلَ ربا أَضَعَهُ رِبا العباس بن عبدالمطلب فإنه مَوْضُوع كُلَّه**».

٥) «**إنَّ الشَّيطان أَيِسَ أن يُعْبَدَ بأرضكم هذه أبداً؛ ولكنه أن يطمع فيما سوى ذلك فقد رَضِيَ بما تَحْقِرُون في أعمالكم، فاحذروه على دينكم**»، وفيه انتفاء الاستتباع للشرك أو الكفر الصريح، وإنما بما دون ذلك من التحريش والإفراط والتفريط.

٦) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾.

٧) «**اتقوا الله واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عَوَانٌ**.. إلخ» إشارةٌ إلى الاهتمام بالمرأة وربطها اللازم بالديانة والحرص على تعليمهن وحسن معاملتهن.

٨) «**قد تركتُ فيكم ما إن تمسكتم لن تضلوا بعدي أبداً ما اعتصمتم به**» وفي رواية: «**كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ**».

٩) «**إن كل مسلم أخ المسلم**» وجاء رواية : «**أخو المسلم وإن المسلمين أخوة**».

١٠) ولما رجع عن حجة الوداع إلى المدينة جمع الناس بماء بين مكة والمدينة يسمى (خم) وخطبهم، وقال: «**يا أيُّها النَّاس إنَّما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتيني رَسولُ رَبِّي فأجيبه**» ثم حضّ على التَّمسك بكتاب الله ووصَى بأهلِ بيته خَيراً[1].

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في مسنده وابن ماجه في مقدمة السنن عن البراء بن عازب، قال: «لما أقبلنا مع النبي ﷺ في حجة الوداع حتى إذا كنا (بغدير خم) نودي فينا الصلاة جامعة وكسح النبي ﷺ تحت شجرتين فأخذ النبي ﷺ بيد عليّ، فقال: «**ألست أولى بكل مؤمن**

(١) أخرجه مسلم.

من **نفسه»**، قالوا : بلى، قال : «**أليس أزواجي أمهاتهم**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**فإن هذا مولى من أنا مولاه.. اللَّهم والِ من والاه وعاد من عاداه**»، فلقيه عمر بعد ذلك، فقال: نسيناك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة [1]، وفي رواية أحمد: «**من كنت مولاه فعلي مولاه.. اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار**».

---

(١) ص٤٩٧ «شرف المصطفى» لعبدالملك بن أبي عثمان، قال المحقق نبيل بن هاشم الغمري: قال أبو عاصم: وقد طعن قوم في حديث : «من كنت مولاه فعلي مولاه» منهم الشيخ ابن تيمية رحمه الله ذهب إلى أنه مكذوب على رسول الله ﷺ، وقد قال الحافظ الذهبي في «السير» و «التذكرة» : الحديث ثابت بلا ريب. اهـ ص٤٩٣.

مَوقِفُهُ ﷺ مـن قَضيةِ الاجْتِمَاعِ عَلى القَرارِ بَعدَه

كَـذَا حَدِيـثٌ قَـدْ أَتَـى مُبَـدِّدَا كُلَّ الوُهُـومِ وَهْـوَ أَقـوى سَـنَدَا
مِن آخِـرِ القَـولِ الـذي أَوْصَى بِهِ كَمَـا أَتَى في النَّصِّ فاسـتَعْصِم بِهِ
فَقَدْ رَوَى العِرْبَاضُ مِن قَولِ النَّبِيْ مَوعِظَـةً جَلِيلَـةً فِـي المَطلـبِ
كَأَنَّ فيهَـا خُطبَـةَ المُـودِّعِ قَالـوا: فـأَوْصِ أَنتَ خَيـرُ مَرجَعِ
قَالَ: اسْـمَعُوا كَذا أَطِيعُـوا الأُمَرَا ولَـوْ يَكـنْ عَبْـدَاً قَمِيئَـاً أُمِّـرَا
فَـإِنَّ مَـنْ يَعِـشْ يَـرَى اَخْتِلَافَـا في الحُكْـمِ والعِلْمِ كَـذَا انصِرَافَا
فَالتَزِمُـوا المَواقِـفَ الشَـهيرةْ لِسُـنَّتِي وَخُلَفَـاءِ السِّـيـرَةْ
مِـنْ كُلِّ مَهْـدِيٍّ رَشِـيدٍ وَارِثِ عَضُّـوا عَلَيهَا فِي لَظَـى الكَوَارِثِ

(١)يشير الناظم إلى أن من صفات النبوة إخباره ﷺ بما سيحصل من بعده في محيط الحكم والعلم، وكيف استبق ﷺ الأحداث، ووضع المعالجات لشتى الظروف المتوقعة حيث ألقى خطبته الشهيرة التي رواها العرباض بن سارية، وهذا نصُّها: عن أبي نجيح العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: وعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوعظةً وَجلتْ منها القُلوب وذَرفتْ منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنَّها موعظةُ مُودِّعٍ فَأَوْصِنَا، قال: «أُوْصِيْكم بتقوى الله والسَمعَ والطَّاعةَ وإنْ تَأمَّر عَليكم عَبْدٌ، وإنه من يَعِشْ منكم فسَيَرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتِي وسُنَّة الخُلَفَاء الرَّاشدين المَهْديين عَضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومُحدَثات الأمور فإن كُلَّ بِدعةٍ ضلالة»(٢). ووردت

---

(١) القمىء : القصير المشوّه.

(٢) رواه أبو دواد والترمذي وقال : حديث حسن صحيح.

أحاديث شتى حول ما حذَّر منه النبي ﷺ من بعده حول مسألة الاختلاف في القرار، منها حديث مسلم عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ كَالمودِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، فقال: «إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ وَإِنَّ عَرْضَهُ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى الْجُحْفَةِ إِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا تَقْتَتِلُوا فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ، قَالَ عُقْبَةُ: فَكَانَتْ آخِرَ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ(١).

وقوله: «**أوصيكم بتقوى الله.. والسمع والطاعة**» قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحِكَم: (وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربِّهم، كما قال الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّ الناس لا يُصلِحُهُم إلا إمامٌ بَرٌّ أو فاجِرٌ، إن كان فاجراً عبد المؤمن فيه ربّه وحمل الفاجر فيها إلى أجله**»(٢) ، قال الحسن في الأمراء: «**هم يلَوْنَ من أمورنا خمساً: الجمعةَ والجماعة والعيد والثُّغور والحدود، والله ما يَستقيم الدِّين إلا بهم ، وإنْ جاروا وظلموا، والله لَمَا يُصْلِحُ الله بهم أكثرُ ممَّا يُفسدون، مع أنَّ -والله- إنَّ طاعتهم لغيظٌ ، وإنَّ فرقتهم لكفرٌ...**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي عن عقبة بن عامر.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان « برقم (٧٥٠٨).

(٣) «جامع العلوم» لابن رجب ص٣٤٠ .

موقفه ﷺ من الصَّلاة بالنّاس

كَـذا الصَّـلاةُ بعـدَهُ بِالنَّـاسِ ... وَمَـنْ أَحَـقُّ القَـومِ فِـي القِيَـاسِ
قَـدْ كَـرَّرَ المُخْتَـارُ لَمَّـا وَهَمُـوا ... مُـرُو أبَـا بَكْـرٍ يُصَلِّي بِكُـمُ
قَالُـوا: أَسِـيفٌ فليصَلِّهَـا عُمَــرْ ... فَقَـالَ طَـهَ: أَمْـرُ رَبِّـي قَـدْ صَدَرْ
يَأبَـى الإِلَـهُ وَكَـذَاكَ المُؤمِنُـونْ ... أَن لاَيُصَلِّـي غَيـرُهُ مَهمَـا يَكُـونْ

يشير الناظم في هذا الفصل أنَّ من مواقف صاحب الرسالة التي يُقْتَدَى بها ما كان منه ﷺ في ترشيح أبي بكر الصديق أن يصليَ بالناس في مرضه عليه الصلاة والسلام، وما جرى من تكرار لفظه بقوله: «مُرُوا أبا بكر فلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»(١) وتدَخَّلَ بعض نسائه في ترشيح سيدنا عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وما جرى منه ﷺ من انفعال وإعادة الأمر بتقديم أبي بكر مع رده عليهن بقوله: «إِنَّكُنَّ صَواحِبُ يُوسفَ»(٢).

وَفِي هذا الملحظ تأثير العاطفة والميول لدى البعض أمام الأمر الصادر، ويؤكد الرسول ﷺ أن تَقْدِمَةَ أبا بكر الصديق أمر يرضاه الله ورسوله والمؤمنون بقوله فيما رواه البخاري: «يأبى الله ذلك والمؤمنون» عدة مرات، وهذا هو ما استدل به الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مسألة تقدمة أبي بكر الصديق في الخلافة بعد رسول الله ﷺ، بقوله: «لا نُقيلُكَ ولا نَسْتَقيلُكَ.. قَدَّمَكَ رسولُ الله ﷺ لِدِينِنَا.. ألَا نَرْضَاكَ لدُنيانا؟».. وهكذا تكون المواقف.

---

(١) رواه البخاري ومسلم. «كنز العمال» (١١: ٥٤٩).

(٢) أخرجه البخاري «١: ١٧٣» برقم (٦٨٢) قال: حدثنا يحيى بن سُليمان قال: حدثنا ابن وَهْب قال: حدثني يُونس، والنَّسائي في «الكبرى» برقم (٩٢٢٧) قال: أخبرنا صَفْوان بن عَمْرو، قال: حدثنا بشر بن شُعَيب، قال: أخبرني أبي. وأحمد في مسنده (٥: ٣٦١) برقم (٢٣٤٤٨).

موقفه ﷺ من اللغط والاختلاف عنده

كَـذا دَعَـا النَّبِـيُّ عِنْـدَ مَرَضِـهْ أَصحَابَهُ مُفَسِّـراً لِغَرَضِـهْ
لِيَكْتُـبَ الوَصِيَّـةَ الأَخِيْـرَةْ فَلَغَطُـوا فِـي حَالَـةٍ مُثِيـرَةْ
فَقَالَ: قُومُوا وَاخرُجُوا مِن مَجلِسِيْ فَـكَانَ هَـذَا مِـن غَرِيـبِ النَّفَـسِ
وَفِيـهِ سِـرٌّ لِقَضَـاءٍ قَـد سَـبَقْ وَحِكمَـةٌ عَجِيبَـةٌ فِـي المُنطَلَـقْ
وَقَـالَ فِيهَـا السَّـيِّدُ العَبَّـاسُ: رَزِيَّـةٌ مَـا مِثْلُهَـا يُقَـاسُ
وَكُلُّ قَـومٍ فَسَّـرُوهَا حَسـبَمَا تَفَهَّمُـوا مِـن سِـرِّ هَـذَا الإِنْتِمـا
لِـذَا اقتَضَى الأَمرُ اجتِهَـاداً مُطْلَقَا فِـي شَـأنِ مَـن يَقُودُهُـم مُحَقِّقَـا
وَلَيـسَ فِي الأَمـرِ انتِقَـاصٌ لأَحَدْ لأَنَّ طَـهَ لا يُحَابـِي مَـن وَجَـدْ
فَتَرْكُـهُ لِلأَمْـرِ دُوْنَ فَصْـلِ مُؤَكِّـدٌ دَورَ اجْتِهَـادِ المِثْـلِ
وَمَـنْ تَعَـدَّى طَاعِنَاً فـي الصُّحبَةِ بِـأَيِّ مَعنـىً فَهْـوَ داعِـي الفِتنَـةِ

(١)يشير الناظم في هذا الفصل إلى حادثة أخرى من حوادث المرحلة الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ وما التبس فيه الأمر لدى المفسرين للمواقف، فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لَمَّا اشتد بالنبي ﷺ وَجَعُهُ قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» قال عمر: إنَّ النَّبي ﷺ غلَبَهُ الوجع وعندنا كتاب الله حَسبُنَا، فاختلفوا وكَثُر اللَّغَطُ، قال ﷺ: قُومُوا عَنِّي ولا ينبغي عندي التنازع». فخرج ابن عباس يقول: إنَّ الرزية كلَّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه(٢). وقد جاء في صحيح البخاري عن

---

(١) من وجد في نفسه وحنق.

(٢) أخرجه البخاري بعدة روايات عن ابن عباس، رقم الحديث: (١١٤، ٤١٦٩، ٥٣٤٥، ٦٩٣٢).

عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: يوم حُضِرَ رَسُولُ الله ﷺ وَفِي الْبَيْتِ رِجَالٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ» فقال بعضهم: إنَّ رسول الله ﷺ قَد غلبه الْوَجَع وعندكم الْقُرْآن، حَسْبُنَا كِتَابُ الله فاختلف أَهْل البيت وَاختصمُوا فمنهم مَنْ يَقُول: قَرِّبُوا يكتب لَكُمْ كتابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ، ومنهم من يقول غَيْرَ ذلك، فلما أَكْثَروا اللَّغْوَ وَالِاخْتِلَاف قَالَ رسول الله ﷺ: «قُومُوا» ، قال عبدالله فكان ابن عباس يقول: «إنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ لِاخْتِلَافِهِمْ وَلَغَطِهِمْ».

وفي هذا الحديث إشارة أَكَّدَ عليها الناظم، وهي إخراجه ﷺ القوم من مجلسه بعد لَغَطِهِم وعدم إلحاحه أو إصراره بعد ذلك على فعل ما أراد الله من الكتابة، مما يدل على أن الأمر لم يكن فيه وحي من الله، وإلا لزم إشهارُهُ وإظهَارُهُ مهما كان الأمر ومهما كان اللَّغَطُ في مجلسه ﷺ[1]، وأما قول العباس بأنها «**إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ**».. فهو رأي راجحٌ أبرزه لغيره باعتبار أن ذلك اليوم لو قضى فيه رسول الله ﷺ ما كان بصدده لا نحسم الخلاف والإشكال الذي يتلجلج في الصدور. وقد فسّر البعض كلام العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بما لا يناسب المقام، ولهذا عبّر الناظم عن ذلك بقوله:

وكُلُّ قـومٍ فَسَّـرُوهَا حَسْـبَمَا	تفهمَّـوا مـن سِـرِّ هـذا الانتمـاء
لِـذَا اقتضَى الأمرُ اجتهـاداً مُطْلَقَا	فـي شَـأنِ مـن يقودهـم مُحققـا

(١) قال الشيخ الندوي في كتابه «المرتضى» : وقد عاش رسول الله ﷺ بعدما طلب القرطاس ثلاثة أيام، ولم يعد إلى ما طلبه ولم يصرح بشيء في أمر الخلافة، ووصى في نفس ذلك اليوم بوصايا ولم يصرح فيها بشيء من أمر الخلافة، ويقول سيدنا علي رضي الله عنه: «**أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم**» رواه البيهقي وأحمد. ومنها قوله: «**قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قُبُور أنبيائهم مساجد، لا يَبْقَيَنَّ دِينَانِ بأرضِ العرب**» رواه مالك في «الموطأ» .

يشير الناظم إلى أن ترك الرسول ﷺ موضوع الكتابة من أساسه فتح باباً الاجتهاد على مصراعيه بعد وفاته للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين في شأن القيادة.

ومن عجيب ما نقله صاحب «تاريخ الخميس» في هذا الأمر، قوله: ومما وقع في مرحلته ﷺ أنَّ وجعَه اشتد يوم الخميس فأراد أن يكتب كتاباً، فقال لعبد الرحمن بن أبي بكر: «**ائتني بكتف أو لوح أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه**»، فلما ذهب عبدالرحمن، قال: أبى أن يختلف عليك يا أبا بكر. اهـ[1].

وليسَ في الأمرِ انتقاصٌ لأَحَدْ لأَنَّ طَـهَ لا يُحَابِي مـن وَجـدْ

يشير الناظم إلى أن حديث الكتابة وما جرى بشأن اللَّغَطَ وما ترتب عليه ليس فيه من حيث مفهوم (سنة المواقف) من «**انتقاص لأحد**» من الصحابة أو الحاضرين.. لأن الرسول ﷺ لم يشر بقوله إلى تهمة أحد من أصحابه في مجلسه، وإنما أمر الجميع بالخروج.. ولو كان في هذا الموقف ما يدل على انتقاص أحدٍ معين لسببٍ أجراه الله على لسانه فالموقف النبوي «**لا يُحابي**» أحداً سواء كان قوله من قبيل التأثر بالموقف أو كان في نفسه شيء على أحد من القوم.

إضافة إلى أن فَهْمَ البعض امتناع قول النبي حقيقة معينة للّغَطِ الذي جرى عنده فهمٌ لا يتناسب مع مقام النبوة، فالنبي ﷺ لن يكتم شيئاً من الوحي أمر بإبلاغه.

فَترْكُـهُ للأَمْـرِ دُوْنَ فَصْـلِ مُؤَكِّـدٌ دَورَ اجْتِهَـادِ المِثْـلِ

أي ترك الأمر دون فصل فيه يؤكد بروز موقف صاحب الرسالة من موافقته على الاجتهاد في شأن هذا الأمر الذي لم يحسم، وأما حديث الموالاة الذي سبق فهو حديث بمختلف رواياته يُبْرِزُ فضل الإمام علي ومكانته في الإسلام إلّا أن العلماء أكدّوا عدم إثبات الخلافة نصاً للإمام

---

(١) «تاريخ الخميس» (٢: ١٦٤).

رضي الله عنه، قال البيهقي في كتاب الاعتقاد: «ليس في الحديث[1] -إن صحّ إسناده- نصٌّ على ولاية علي رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ»[2]، وقال الإمام الشافعي: إن المراد به في الحديث: ولاء الإسلام وذلك لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[3]، ولما سأل سائل عنه الحسن بن علي رضي الله عنهم قال له: «لو عنى به رسول الله ﷺ علياً لكان نصح المسلمين وقال: أيُّها الناس هذا وليُّ أمركم والقائم عليكم من بعدي فاستمعوا له وأطيعوا، والله لئن كان الله عز وجل اختار علياً لهذا الأمر وجعله القائم به للمسلمين من بعده ثم ترك أمر الله ورسوله لكان علي أوَّل من ترك أمر الله ورسوله وأعظمَ الناس خطيئة وجرماً.. وحَاشَاه ذلك.

(١) حديث الموالاة.

(٢) «كتاب الاعتقاد» للبيهقي (١: ٣٣٢).

(٣) محمد: ١١.

مَواقف أخيرة قُبيل مَوته ووصَاياه عند موته التي رَفَع بها صَوته ﷺ

وكان مـن آخِرِهـا قـد أكَّـدَا نبيُّنـا الصَّـلاةَ ذِكْـراً ردَّدَا

كَـذَا الـزَّكَاةَ مِثْلَهـا مـا مَلَكـتْ أيمْانكـم بهـا الـرُّواةُ قـد رَوَتْ

وآلَ بَيْتِـيْ قَـالَ: أُوصِيكُـمْ بهـمْ وبَشَّـر الزَّهْـرَاءَ فِيمـا قـد فُهِـمْ

مِـنَ اللُّحُـوقِ بالنَّبِـيِّ المُصْطفـى فابتسـمتْ وكان هـذا مَوقِفـا

وَطَلَـبَ السِّـواك لـمَّـا نَظَـرَه وخِيْـرَ فَاختَـارَ الحَيـاةَ الآخِـرَه

(١)يشير الناظم إلى المواقف الأخيرة التي أبرزها ﷺ كشاهد على اهتمامه بأهم أمور تشغله قُبيل وفاته تكراره ﷺ على الوصية: «الصَّلاةَ.. الصَّلاةَ وآلَ بيتي» ، وهي أمانة وضعها رسول الله في أعناق الأمّة، وبشارة للسيدة الزهراء بأنها أسرع آل بيته لحوقاً به ﷺ.

ووصية الرسول ﷺ بآل بيته إشارةٌ منه لكل من سيتولى قرارَ الحكمِ أو العلمِ من بعده أن يعرف حَقَّ القُربى من رسول الله ﷺ كَخُمُسِ الخُمُسِ وتقدمتهم وتكرمتهم واستفادة الشعوب من علمهم وخُلُقِهِم إذ بهم وبمن أخذ عنهم منهج السلامة تجتمع كلمة الأمَّة وتزول غالب سلبياتها.

وأما مسألة موقعهم من القرار فلا إشارة في نص الحديث في ما يظهر لنا إلى شيء من ذلك حيث جرى مثل هذه الوصية منه ﷺ بالأنصار وغيرهم، والله أعلم.

---

(١) (خِيْـرَ) بسكون الياء وفتح الراء أي: خُيِّرَ، وخُففت لمناسبة الشعر، وهي لغة في أحد وجيهها.

موتُ النبيِّ ﷺ تَحولٌ خَطيرٌ في فِقه التَّحوُّلات

كانت أخطر التحولات في عصر الرسالة موتُ النبيِّ ﷺ، وهي -كما أشار صاحب «الإشاعة» في الباب الأول- من أعظم المصائب في الدِّين بل أعظمها، ومن ثم قال ﷺ: «**إذا أصيب أحدُكُم بمصيبةٍ فليذكر مصيبَتَهُ بي، فإنَّها أَعظمُ المصائب**»[(١)]؛ لأن وجوده ﷺ بين ظهراني الناس كان أمان للأمة وتأسيس لشرف الدعوة الإسلامية بنزول الوحي على رسول الله ﷺ وثباتٍ في المعالجات لكل ما يقع في الناس من جُنوحٍ وخَطأٍ.. وأما موته ﷺ فهو باب لفتح ما أَوْعَدَ به ﷺ من توارد علامات الساعة، وبروز رؤوس الفِتن التي حَذَّر منها عليه الصَّلاة والسلام في مجمل أحاديثه.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ، قال: «**من أصيب منكم بمصيبة من بعدي فليَتَعَزَّ بمصيبته بي عن مصيبته، فإنه لن يصابَ أحدٌ من أمتي من بعدي بمثل مصيبته بي**»[(٢)].

وعن عوف بن مالك رفعه، قال: «**أُعْدُدْ سِتّاً بين يدي السَّاعة: مَوتِي، ثم فَتحُ بيتِ المَقدس... الحديث**»[(٣)] اهـ.

---

(١) رواه الطبراني عن سابط الجمحي وابن سعد عن عطاء بن أبي رباح.

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن عوف بن مالك ، وتمام الحديث: «**أُعْدُدْ سِتّاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتانٌ يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مئة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلَّا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون**

مَظاهِرُ تَحَوُّلاتُ ما بَعْدَ عَصْرِ الرِّسَالة

مَـاتَ الرَّسُـولُ وانْقَضَـى بمَوْتِـهِ ... وَحْـيُ السَّـماءِ ورخيـمُ صَوْتِـهِ
ولَـمْ يَمُـتْ حَتّـى أَقَـامَ الحُجَجَا ... وأَظْهَـرَ الدِّيـنَ فصَـارَ أَبْلَجَـا
يَحْفَظُـهُ الفُحُـولُ والعُـدُولُ ... مِـن كُلِّ حَبْـرٍ عَالِـمٍ يَصُـولُ

أشار الناظم إلى انتقال الرسول ﷺ من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، وأن بهذا الأجل المقضي انقطع عن الأرض «**وحي السماء**» الذي استمر ثلاثاً وعشرين سنة، كما انقطع أيضاً رخيم صوت الرسول ﷺ بين أصحابه وأهله؛ ولكنَّه عليه الصلاة والسلام «**لم يمت حتى أقام الحُجَجَ**» وجاهد في سبيل الله «**وأظهر الدِّين**» عالياً بلجاً «**يحفظه الفُحُول**» من الصحابة «**والعُدُول**» من العلماء والتابعين وتابعي التابعين.

وكَانَ مَـوْتُ المُصْطَفَـى عَلامَـةْ ... لحَيْـرَةٍ فـي مَنْصِـبِ الإِمَامَـةْ

يشير الناظم إلى إحدى علامات التَّحول في هذه المرحلة، وهي مَوتُ رسول الله ﷺ، وما أدَّى إليه ذلك الأمرُ من مواقف متنوعة.

وقد جَرَى في الموتِ بَعْضُ القَلَقِ ... وحالـةٌ مِـن رَجْفَـةِ المُنْطَلَـقِ

إشارةٌ إلى المفاجأة التي حدثت بموت رسول الله ﷺ في أصحابه وشمول القلق والارتجاف من هول الحدث باعتبار حال البشرية.

فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً».

فَعُمَـرُ الفَـارُوقُ كانَ لا يَـرَى مَـوْتَ النَّبـِـيِّ إنَّمَـا الرُّوحُ سَـرَى

وقـال مَـن نَـادَى بمَـوتِ أَحْمَـدِ قَتَلْتُـهُ بالسَّـيْفِ دُونَ المَسْـجِدِ

إشارة إلى ما طَرَأَ على سيِّدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند تلقي الخبر وإصراره على أن رسول الله لم يمت وإنما ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وإنه سيرجع، وصعد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المنبر يصيح بالناس ويهدد القائلين بموت رسول الله بالقتل والنفاق.

ولَـمْ يَـزَل حَتَّـى أَتَـى الصِّدِّيـقُ وهْـو الحَـرِيُّ بالَّـذي يَلِيـقُ

فَقَبَّلَ المختارَ فـي الوَجهِ الوَضِيْ وَقَال: طِبْتَ فـي الحياةِ والمُضِيْ

أشار الناظم إلى موقف الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من مفاجأة الموت حيث دخل على رسول الله وكشف الغطاء عن وجهه وَقَبَّلَهُ، وقال: «**طِبْتَ يا رسول الله حيّاً وميتاً**» ثم خَرَجَ إلى المسجد ورأى ما أصاب الناس من الفزع والهلع، وسمع ابن الخطاب وهو يتوعَّدُ، وقد تَيَقَنَ الصديق من موت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعـادَ للمسـجدِ يَـرْوِي بثَبَـاتْ مَوْتَ الرَّسُولِ والجميعُ في شَتَاتْ

وكان هذا موقفاً شجاعاً من سيدنا أبـي بكر الصديق أمام هذا التحوُّل، فثباته أمام مفاجأة الموت أسهمت في لَـمِّ شَعثِ أصحاب النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحسمَتْ موقف الحَيرة التي ضربت عقولهم وأفهامهم، إذ صعد المنبر بعد أن أبَى عمَرُ بن الخطاب النـزول وتلا على الناسِ الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾(١).

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

ونـــزلَ الفَـارُوقُ لا يَقْـوَى عَلَـى مَشْـيٍ لِما قَد نَـالَ مِنْ جَهْـدِ البَلا
وسَـمِعَ الآيـةَ تُتْلَـى فبَكَـى وَضَـجَّ بَـيـتُ اللـهِ حُزْنـاً وشَـكا

إشارة إلى وقع الآيات القرآنية على الصحابة، إذ أخذ سيدنا أبوبكر الصديق يرددها على الناس، فنـزل الفاروق منهار الجسم لا تحمله رجلاه، وضجَّ الناس بالبكاء والنحيب عند تيَقُّنِهم موتَ رسول الله ﷺ، وقال بعضهم لما سمع الآية: والله كأنَّها اليوم أُنـزلت، حتى ورد في بعض الآثار كما رواه الحافظ ابن رجب: ولما توفي رسول الله ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دهش فخلط، ومنهم من أُقعد فلم يُطِقِ القِيَام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطقِ الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية. اهـ[1].

وهذا من أعظم مواقف الصِّدِّيق وثباته أمام هذا التحول الخطير، قال القرطبـي: هذه الآية أوَّلُ دليل على شجاعة الصديق وجرأته، فإن الشجاعة والجرأة أحدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، وبهذه الكلمات القلائل واستشهاد أبـي بكر الصديق بالقرآن الكريم خَرَجَ الناسُ من ذهولهم وحيرتهم ورجعوا إلى الفهم الصحيح رجوعاً جميلاً. اهـ.

وَكَانَ هَـذَا أَوَّلَ التَّحَـوُّلِ وَلَـمْ يَـزَلْ نَبـيُّنَـا فِـي المَنــزِلِ

(١) «الانشراح ورفع الضيق في ترجمة سيدنا أبـي بكر الصديق» ص١١٥.

اختلاف الصحابة حول موضع القبر الشريف

واختَلفُوا في مَوقِعِ الضَّرِيْحِ حَتَّى أَتَى الصِّدِّيقُ بالصَّحِيحِ
وَقَالَ لَحدُ سَيِّدِي بِمَنْزِلِهْ سَمِعْتُهُ مِن لَفظِهِ ومقْوَلِهْ
فَحَفَرُوا تَحتَ الفِرَاشِ حُفْرَتَهْ وَأَنْزَلُوا فِي لَحدِهِ قَطِيفَتَهْ

(١)ومن المواقف المباركة التي تداركها الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ساعة وفاة النبي ﷺ مسألةُ إرشاده لهم بموقع دفن النبي ﷺ حيث اختلفوا في موضع دفنه فأشار لهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول بمعناه: «إنَّ مكان دَفْنِه مكان مَوْتِهِ»(٢) فحُفِرَ له ﷺ في حجرته حيث كان فراشه ودفن هناك ﷺ.

---

(١) ويؤيد هذا حديث ذكره في «فيض القدير» (٢: ٢١) وإسناده حسن وله وشواهد قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**افرِشُوا لي قطيفةً في لحَدِي**» .

(٢) عن ابن جريج عن أبيه أنهم شكوا في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يدفنونه، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن النبي لا يحول عن مكان يدفن حيث يموت، فنحوا فراشه فحفروا له موضع فراشه. رواه ابن أبي شيبة وأحمد، ولفظه : لن يقبر نبي إلّا حيث يموت، قال ابن كثير: هذا منقطع من هذا الوجه فإن ولد ابن جريج فيه ضعف ولم يدرك أيام الصديق. «كنز العمال» (٧: ٢٣٥).

تَحولات ما بَعد مَوتِ النَبيِّ ﷺ وانقطاع الوَحْي

ومـا جَـرَى مِـن مَظْهَـرِ السَّـقِيفَةِ وجَمْـعِ رَأْيِ القَـوْمِ فـي الخَليفَـةِ

لما علم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنهُمۡ بموت رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يوم الاثنين الثاني عشر من ربيـع الأول في السنة الحادية عشر للهجرة يوم وفاة رسول الله ﷺ، وتداولوا الأمر بـينهم في شأن الخلافة، ولحقهم أبوبكر وعمر إلى السقيفة فقام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «**أمَّا بعدُ فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم معشر المهاجرين رَهْطٌ وقد دَفَّتْ دَافَّةٌ**[١] **من قومكم فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنونا من الأمر**»، وقام أبوبكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، فقال: ما ذكرتمُ فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلَّا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بـيد عمر ويد أبـي عبـيدة بن الجراح، فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أميرٌ ومنكم أمير يا معشر قريش، فكثُر اللَّغَطُ وارتفعتِ الأصواتُ. وفي رواية لأحمد أن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنهُقال: ولقد علمتَ يا سعدُ أن رسول الله ﷺ، قال وأنت قاعد: «**قريشٌ ولاةُ هذا الأمر، فبَـرُّ النَّاس تبعٌ لبرهِم، وفاجرُ النّاس تَبَعٌ لفاجِرهم**» فقال سعد: صدقتَ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء، وقام عمر بن الخطاب، وقال لأبـي بكر: «**اُبْسُطْ يَدك يا أَبَابكر**» فبسط يده، فبايعه وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار[٢].

---

(١) دفت دافة: أي عدد قليل.

(٢) رواه البخاري في كتاب الحدود برقم (٦٨٣٠).

وبرز في هذا التحول موقفان:

الأول: موقف سيدنا أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي عرف كيف يقبض على زمام الأمور بكلمته في السقيفة كما قبض على زمامها في المسجد، وأيَّده سعد بن عبادة الذي كان له رأي آخر من قبل.

والثاني: موقف عمر بن الخطاب عند ظهور اللَّغَط والاختلاف وبدء مبايعته لأبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفَلتَةٌ جاءَتْ كأَجْلَى مَوْقِفِ تُزِيلُ لَبْسَ الأَمْرِ فِي السِّرِّ الخَفِيْ

المقصود من «الفلتة» المشار إليها قوة الموقف الناشئ عن القيام بالحجة الدامغة حيث ألهم الله أبا بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حجج الإقناع، فأدخل إلى قلوب الأنصار الحق دون أن يعرضهم للفتنة، حيث أثنى عليهم بما هم أهله، وذلك موقف هام، ثم أقنعهم بعد أن اعترف بفضلهم أنه لا يعني أحقِّيَّتَهم في الخلافة، لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نصّ على أن المهاجرين من قريش هم المقدَّمُون في هذا الأمر(١). وأشار المؤرخون إلى أنَّ أبا بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ استدل على أن أمر الخلافة في قريش بوصية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «استوصُوا بالأَنْصَار خيراً، اقبلوا من مُحسِنِهم وتجاوزوا عن مسيئهم» كما احتج أيضاً بقوله: «إنَّ الله سمَّانا الصَّادقين وسمَّاكم المُفلحين» إشارة لما ورد في آية: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢)، ثم قال: وقد أمركم الله أن تكونوا معهم حيثما كانوا

---

(١) «رفع الضيق» ص١١٥.

(٢) الحشر: ٨-٩

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(١).

وبهذه المواقف ومثلها توحد صف المسلمين، وقد ثبت فيما بعد ذلك أن أبابكر الصديق قام باستبراء نفوس المسلمين من أي معارضة لخلافته واستحلَفَهُم جهاراً على ذلك.

فأبرز الإمام علي كرم الله وجهه موقفاً ثالثاً فصل في الأمر وأكد الخلافة، إذ قال الصديق: أيُّها الناس اذكُروا الله أيُّما رجل ندم على بـيعتي إلا قام على رجليه، فقام علي بن أبـي طالب ومعه السيف فدنا منه حتى وضع رجلاً على عتبة المنبر والأخرى على الحصى، وقال: «**والله لا نقيلك ولا نستقيلك، فمن ذا يؤخرك؟ قدّمك رسول الله ﷺ**»[٢]. اهـ.

وبَعْدَ دَفْـنِ المُصْطَفَى قالوا: نَرَى   تَنَاكُـرَ الأحـوال مِمّـا قَـد جَـرَى

إشارة إلى مدلول التحوُّلات النفسية التي طرأت على الصحابة عند فراقهم لرسول الله ﷺ وذهابه عنهم فجأة، وقد ألِفُوا الاحتكام إليه والالتفاف والإجماع عليه والتشاور لديه، حيث ورد «ما نفضنا أيدينا من تراب رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا»(٣)، وهذه ظاهرةٌ حقيقيةٌ تلحق مثل هذا التحول، وتطرأ على النفوس والقلوب وحشة وانـزعاج، وخاصة أن كلما اختلف عليه القوم من قبل كانت عصمة الوحي تفصل فيه وتجزم في شأنه، وأمّا ما هم فيه الآن إنما يرجع لصِرف الفهم والاجتهاد. (٤)

ومِـن هنـا تَحَـوَّلَ الأَمْـرُ إلـى   صِـرْفِ اجتهادٍ في القَـرارِ والوَلا

---

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) «الأنصار في العصر الراشدي» ص١٠٨، «رفع الضيق» ص١٢١. انظر «كنز العمال» (٥: ٦٥٤).

(٣) رواه البخاري، راجع «الإشاعة» الباب الأول.

(٤) أي: إنه بعد انقطاع الوحي بقي ترجيح الأمر قائماً على الاجتهاد والشورى، خلافاً لما كان عليه الأمر خلال عهد رسول الله ﷺ.

وهذا تحولٌ لزم أن يتبعه قرارٌ وموقفٌ.

وبَـرَزَتْ مَوَاقِـفُ التَّحَـوُّلِ ومِثْلُهَـا مَوَاقِـفُ التَّعَقُّـلِ

وبعد هذه المرحلة التي انتقل فيها رسول الله ﷺ برزت على سطح الواقع الاجتماعي مواقف متنوعة أفرزها التحول الجديد ما بـين مواقف تعقل واتزان ومواقف اندفاع وانفعال.

فمن مواقف التعقل والاتزان:

١- أن قيادة الأمة لا تقام إلَّا بالاختيار.

٢- وأن البـيعة أصل من أصول الاختيار وشرعية القيادة.

٣- وأن الخلافة لا يتولاها إلَّا الأكفَاء دِيناً وعَقلاً وإدارةً.

٤- لا تدخل الخلافة السياسية ضمن الوراثة والقبلية إلَّا من داخل قرار النص الشرعي الذي لا يتعارض مع أصول الإسلام، وإذا افترضنا دخولها بها اعتقده البعض من نصوص تؤكد أو تشير لذلك، فإن مواقف رجل الخلافة يوقف العمل بالنص عند قبوله الرأي الآخر والالتزام به، كما فعل الإمام علي وفعل بصورة أوسع وأشمل الإمام الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وفي هذين حجة لمن أشكل عليه الأمر.

٥- الحوار الذي دار في السقيفة أدَّى إلى تسليم كافة العناصر للنصوص التي تحكمهم، حيث كانت المرجعية في الحوار إلى النصوص الشرعية.

٦- الإعلان من سيدنا أبـي بكر الصديق بعد البـيعة باستبراء نفوس المسلمين من أي معارضة لخلافته، وقيام الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قائلاً: «**والله لا نقيلنك ولا نستقيلنك فمن ذا يؤخرك قدَّمَكَ رسول الله** ﷺ»[(١)].

(١) ورد في رواية أخرى قول الإمام علي: «**لا نقيلك ولا نستقيلك، قدمك رسول الله** ﷺ **لديننا، ألا نرضاك لدنيانا؟**» قال الباقلاني: يعني بذلك حين قدمه للإمامة في الصلاة واستنابته في الحج. راجع «رفع الضيق»

٧- اجتماع السقيفة يقرر مبدأ الشورى كأصل شرعي لنظام الحكم في الإسلام.

٨- اختيار رجل الدولة بالشورى والبيعة الحرة.

٩- شَفْعُ الاختيارِ بالبيعة العامة، أي: موافقة جمهور المسلمين.

١٠- خطاب رجل الدولة للمسلمين عند استلام الحكم.

مواقف الاندفاع والانفعال:

١- ما احتجّ به الآخَرونَ حول عقد البيعة لأبي بكر رضي الله عنه مع غياب الإمام علي رضي الله عنه عن السقيفة، وكان مستخلياً بنفسه قد استفزه الحزن على رسول الله ﷺ، ومشغولاً بحال فاطمة رضي الله عنها وأهل بيتها، وهذا تحوُّلٌ طرأ عليه بسبب انتقال رسول الله ﷺ، ولكنه اتخذ بعد ذلك موقفاً ودخل فيما دخل فيه الناس، وبايع أبابكر على ملأ من الأشهاد، ولم يشذ أو يخالف أو يعلن تمرداً أو طلباً بخلافة، وهذا هو موقف الاقتداء والاهتداء.

ونحن هنا لسنا بصدد إثبات أو نفي الأحقِّيَّة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إن كانت نصوص السنة النبوية قد جعلت له في ذلك حقا كما يقول البعض؛ لأن هذا الخلاف على النفي أو الإثبات هو الذي أوقع الأمة في بوتقة الصراع الذي دخل منه الشيطان على الجميع، وإنما نحن بصدد تأكيد موقف من اجتهد فأقر بخلافة أبي بكر، ثم بصدد تأكيد موقف الإمام علي رضي الله عنه الذي اتخذه بالموافقة تحت أي اعتبار يليق به؛ لأن بعض المعارضين لخلافة أبي بكر يسردون من الآثار ما لا يليق بالإمام ولا بمواقفه ومع هذا وذاك فإن موافقة الأنصار على بيعة أبي بكر تنفي ما قيل بأن الإمام علياً احتج به في قوله: «**اللهَ اللهَ يا معشر المهاجرين لا تَخرجوا سُلطان محمد في العرب من داره وقَعر بيته إلى دوركم وقُعُور بيوتكم... الخ**».

ص١٢٢ .

ثم رد بشير بن سعد الأنصاري (لو كان هذا الكلام سمِعَتْهُ الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر ما اختلف عليك اثنان)[1]. إذن فبيعة أبي بكر أَيَّدَهَا الأنصار لعدم علمهم كغيرهم بهذه الأحقية ثم بعد علمهم بهذه الأَحَقِّيَّةِ مسمياً ما ورد ذكره من قول الإمام علي، لم ينكث الأنصار بيعة أبي بكر، فكان على الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يعارض الجميع وأن يقف بعيداً عن الساحة أو أن يموت في سبيل موقف الأحقِّيَّةِ هذا إذا تجاوزنا حكمة أبي بكر الصديق وسلامة مواقفه منذ ساعة وفاة رسول الله ﷺ.

٢- ما نسب لسعد بن عبادة من مجانبته البيعة ومخالفته لأبي بكر وعمر، مما يخالف علمه ومقامه، كما أنه لم يصح ما ورد في بعض المراجع أنه بعد بيعة أبي بكر كان لا يصلي بصلاتهم ولا يفيض الحج بإفاضتهم[2].اهـ

٣- ما روجه البعض أن الطمع في الرئاسة سبَّبَ الانشغال بالخلافة عن دفن النبي ﷺ.

٤- ما يقال من أن حديث «**الأئمة من قريش**»[3] شعار رفعته قريش لاستلاب الخلافة من الأنصار وأنه مجرد رأي لأبي بكر وليس حديثاً، وهذا القول من نوع التشويش والتشويه الذي يحلو لبعض العناصر المستفيدة من منهج التشويش والتشويه والتحريش.

(١) كتاب «نظرية عدالة الصحابة» لأحمد حسين يعقوب ص ١٣٢ - ١٣٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) حديث «الأئمة من قريش» ورد في الصحيحين وغيرها بألفاظ متعددة. «رفع الضيق في سيرة أبي بكر الصديق» ص٢٥.

مَرْحَلَةُ الخِلافَةِ الرَّاشِدَة

عن أبي الطفيل رضي الله عنه أنه سمع حذيفة رضي الله عنه يقول: «**يا أيها الناس ألا تسألوني؟ فإن الناس كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الخير وكنت أساله عن الشر.. أفلا تسألون عن مَيِّتِ الأَحياء؟ فقال: إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فحَيِيَ بالحق من كان ميتاً ومات بالباطل من كان حيّا، ثم ذهبت النبوةُ فكانت الخلافة على منهاج النبوة، ثم يكون مِلْكاً عَضُوضاً، فمن الناس من يُنكر بقلبه ويده ولسانه والحقَّ استَكْمَل، ومنهم من ينكر بقلبه ولسانه كافّاً يده وشعبةً من الحق تَرَكَ، ومنهم من ينكر بقلبه كافّاً يده ولسانه وشعبتين من الحقِّ تَرَكَ، ومنهم من لا ينكر بقلبه ولسانه، فذلك مَيِّتُ الأحياء**»

حذيفة بن اليمان أمين سر رسول الله ﷺ يشهد بسلامة المرحلة الراشدة، عن «اتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة» (١: ٢١٣) لحمود بن عبدالله التويجري

أهمية تثبيت مرحلة الخَلافة الراشدة

تَثْبيتُنَا لنقلِ عُهدةِ القرارْ | من عَصرِ طَـهَ لِأبِي بكرٍ مَنارْ
يُشِيرُ أَنَّ الدِّيْنَ في سَلَامَةِ | بِمَا جَرَى مِنْ فَلتَةِ الزَّعَامَةِ
وَأنَّ عَصْرَ الرَّاشِدِيْنَ الخُلَفَا | عَصرُ انْتِقَالِ الإرثِ إرثِ المُصْطفَى
لِأهلِهِ مِنْ دُونَمَا اخْتِلَافِ | وَمَنْ يَقُلْ بِضِدِّهِ يُجافِيْ
بِنَقْضِهِ مَوَاقِفَ الإِمَامِ | مَنْ وَافَقَ الصِّدِّيقَ بِالتَّمَامِ
لِأَنَّ فِي التَّثْبِيْتِ مِنْهَاجَ اجْتِمَاعْ | لِلخُلَفَاءِ وَهْوَ أَصْلُ الاِتِّبَاعْ
وَهْوَ الَّذي ارْتَضَاهُ أَصْحَابُ النَّبِيْ | وَحَكَمُوا العَصْرَ بِدُونِ شَغَبِ
وَدُوْنَ تَحْرِيشٍ وَلَا مُؤَامَرَةْ | وَهُمْ عُدُولٌ فِي الدُّنَا وَالآخِرَةْ

هذا الفصل جعلناه إضافياً لأجل تثبيت مرحلة الخلافة الراشدة، والتأكيد على سلامة هذه المرحلة، واعتبارها المرحلة الشرعية الوارثة لرسول الله ﷺ بدءاً بالبيعة لسيدنا أبي بكر الصديق ونهاية بتنازل الإمام الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي هذا التثبيت حسمٌ واضح للأغراض والأمراض التي شتَّتَتْ تاريخَ الأُمَّة، ونزعت بها نحو الصراع والنـزاع المفتعل والتحريش الأَنَوِيِّ الماحِلِ، ويؤيد هذا الأمرَ جملةٌ من الأحاديث، منها:

١) قوله ﷺ: «**القائمُ بعدي في الجَنَّة والذي يقومُ بعده في الجَنَّة والثالثُ والرابعُ في الجنة**»(١).

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٣١٩).

٢) أخرج الإمام أحمد وغيره عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قيل يا رسول الله من يؤَمَّرُ بَعدَك؟ قال: «**إِنْ تُؤَمِّرُوا أَبَا بَكْرٍ تَجِدُوهُ أَميناً زَاهِداً فِي الدُّنْيَا رَاغِباً فِي الْآخِرَةِ، وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عُمَرَ تَجِدُوهُ قَوِيّاً أَمِيناً لا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَإِنْ تُؤَمِّرُوا عَلِيّاً -ولا أراكم فاعلين- تَجِدُوهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا يَأْخُذُ بِكُمْ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ**»[1].

وفي هذا الحديث تأكيد على أمرين:

الأول: سلامة منهج الشيخين وجدارتهم بالخلافة وأهليتهم الشرعية لها.

الثاني: إثباته صلى الله عليه وآله وسلم لجدارة الإمام رضي الله عنه في الخلافة وإثباته أيضا إحالة الأمر في الترجيح للصحابة أنفسهم.

وأيا كان شأن المسألة عند تحليلها من وجهات النظر المتنوعة فإن الشأن كل الشأن في اعتماد سلامة المرحلة الراشدة من خلال استقراء النصوص النبوية ذاتها لما يترتب على هذا الاعتماد من سلامة التسلسل الشرعي في انتقال القرار من مرحلة الوحي إلى مرحلة الاجتهاد.

---

(١) رواه أحمد في مسنده وله شاهد عن حذيفة وأخرجه الطبراني..

نُصوصٌ صريحةٌ فِي سَلامة المَرْحَلة الرَّاشدة

يعتبر تأكيد فقه التحولات على سلامة انتقال القرار الإسلامي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي بكر الصديق بالاجتهاد والمشورة ترسيخا لمبدأ الشورى في الإسلام ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

وأيدته وقائع الأحوال ومواقف الانتقال ذاتها في بروز مواقف الصديق رضي الله عنه أمام الجميع بالجدارة والتقدمة وسلامة التصرف.

أما فيما يتعلق بالنصوص الصريحة المؤيدة هذا الانتقال المشروع فمنها قوله ﷺ: «**القائمُ بعدي في الجَنَّة والذي يقومُ بعده في الجَنَّة والثالثُ والرابعُ في الجنَّة**»[2].

وهو -أي: الحديث- من دلائل النبوة، فقد ذكر النبي ﷺ الخلفاء الأربعة المبشرين بالجنة، وفيه دلالة صريحة على أنَّ كل واحد منهم قد قام بالأمر والخلافة. اهـ[3].

وفي الحديث «**الخِلافة ثَلاثون سَنَة ثُمَّ تَعودُ مُلْكَاً**»[4] إشارةٌ واضحةٌ لسلامة مرحلة الخلافة الراشدة وهي مرحلة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين وللحسن رضي الله

---

(١) الشورى: ٣٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) راجع كتاب «بيعة علي بن أبي طالب في ضوء الروايات الصحيحة» لحسن فرحان المالكي.

(٤) رواه أحمد في مسنده والترمذي وأبو داود عن سفينة مولى رسول الله، قال: «**الخلافة ثلاثون سنةً ثم تكون مُلكاً**»، ثم يقول سفينة: أمسك.. خلافة أبي بكر سنتين وخلافة عمر عشرة وعثمان اثنتي عشرة وعلي ستة.

عنه ثمانية أشهر. اهـ[1].

وسماها النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلافة ورضيها كبار الصحابة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ولم يطعن أحد في مسماها أو تسلسلها المشروع، بل الذين بايعوا عليا رضي الله عنه في خلافته كان أكثرهم ممن بقي حيا وبايع أبابكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، وعلى هذا فإن تثبيت مرحلة الخلافة الراشدة بدءا بمرحلة أبي بكر الصديق ينقل القرار الإسلامي على ثوابته ومشروعيته على منهج السلامة من عصر الرسالة إلى عصر الخلافة على الوجه الشرعي الصحيح، وكل ما قاله واحتج به المعترضون والمعارضون تحت أي مسمى يرجع إلى أنموذجين:

١- خلاف أو اختلاف يندرج تحت مفهوم الاجتهاد وإبداء الرأي لدى الأتباع حول نص أو فهم أو موقف لا يقدح في سلامة انتقال القرار ذاته.

٢- تعصب الرأي وغرض ذاتي لهدم قرار الإسلام على أهله، واستثمار هذا التعصب من خلال التحريش والتفريق والتمزيق وتحريف للنصوص والمواقف والثوابت ، وهذا ما يُرجعه فقه التحولات إلى مضلات الفتن وعلامات الساعة الموعود بها بين المصلين في التسلسل المتعاقب عبر المراحل والأزمنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) المصدر السابق ص٦٩.

عَصْرُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق

«يا أيها الناس إني قد جئتُ إليكم، فقلتُ: إني رسول الله إليكم، فقلتُم كذبتَ، وقال أبوبكر : صدقتَ.. فهل أنتم تاركو لي صاحبي (ثلاثاً)»

رواه مسلم

«اِقْتَدُوا بالّذَينِ مِن بَعْدِي أبي بكرٍ وعُمَرَ»

رواه الحاكم

مُبايعةُ الخليفة الأول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١)

وبُويِـعَ الصِّدِّيـقُ بِالخِلَافَـةْ ... فـي فِتْنَـةٍ أَبْعَـدَتِ المَخَافَـةْ

وَقَـامَ بِالأَمْـرِ وَكَانَ أهلَـهُ ... وَالأَمْـرُ شُـوْرَى كلُّهُـمْ يُجِلُّـهُ

يشير الناظم إلى أول مراحل الدولة الإسلاميَّة تحت ظل الخلافة الراشدة وهي مرحلة أبي بكر الصديق، ويشير إلى أول إيجابـيات التحول بالإجماع التام على خلافة الصديق وقيامه

---

(١) هو أبو بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول المسلمين من الرجال برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واسمه عبد الله ابن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي، يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة، ولد بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وأشهر ومات وله ثلاثة وستون سنة .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة واثنين وأربعين حديثاً ، قال النووي: وسبب قلة روايته مع تقدم صحبته وملازمته النبي صلى الله عليه وسلم أنه تقدمت وفاته قبل انتشار الأحاديث واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها.

ولي الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنتين وأربعة أشهر، وأجمعت الأمة على تسميته بالصديق لأنه بادر إلى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم ولازم الصدق، وكانت له في الإسلام المواقف الرفيعة منها قصته يوم ليلة الإسراء وثباته، وجوابه للكفار في ذلك وهجرته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك عياله وأطفاله وملازمته في الغار وسائر الطريق، ثم كلامه يوم بدر ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الأمر في تأخر دخول مكة، ثم بكاؤه حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن عبداً خَيَّرَهُ اللهُ بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة» ، ثم ثباته يوم وفاة رسول الله صلى الله وسلم وخطبته الناس وتسكينهم، ثم قيامه في قضية البيعة لمصلحة المسلمين، ثم اهتمامه وثباته في بعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام وتصميمه في ذلك، ثم قيامه في قتال أهل الردة وجمع القرآن الكريم، ثم تجهيزه الجيوش إلى الشام لفتوحه وإمدادهم بالإمداد، ثم ختم ذلك بمهم من أحسن مناقبه وأجل فضائله وهو استخلافه على المسلمين عمر رضي الله عنه وتفرسه فيه ووصيته له واستيداعه الله الأمة، وتوفي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة.

بالمسؤولية على أفضل الأحوال مجسداً مبدأ الشورى في حياة المسلمين منذ بيعته واجتماعهم عليه رضي الله عنه وأرضاه، بدايةً من السقيفة ثم البيعة العامة دون مخالفة أحد، وقد انعقد إجماع أهل السنة والجماعة سَلفاً وخَلفاً على أَحَقِّيَّةِ أبـي بكر الصديق بالخلافة بعد رسول الله ﷺ لفضله وسابقته، ولتقديم النبـي ﷺ إياه في الصلوات ولم يتخلف منهم أحد.

وقد وردت بعض الآثار التي أشارت إلى تخلُّفِ الزُّبَير والإمام علي رضي الله عنهما عن مبايعة الصديق -كما أسلفنا-، ولكن تلك الأخبار مردودة بما ورد عن مبايعتهما في اليوم الثاني لوفاة رسول الله ﷺ، قال أبو سعيد الخدري: لما صعد أبوبكر المنبر نظر في وجوه القوم فلم يَرَ الزبير بن العوام فدعا بالزبير فجاء، فقال له أبوبكر: يا ابن عمة رسول الله ﷺ وحوارِيَّهُ: أتريد أن تَشُقَّ عصا المسلمين؟ فقال الزبير: لا تثريب عليك يا خليفةَ رسول الله، فقام الزبير فبايع أبا بكر، ثم نظر أبوبكر في وجوه القوم فلم يرَ عليَّ بن أبـي طالب فدعا بعلي فجاء، فقال له أبوبكر: يا ابن عم رسول الله ﷺ وَخَتَنَهُ على ابنتِهِ، أتريد أن تشق عصا المسلمين؟ فقال علي: لا تثريب عليك يا خليفةَ رسول الله ﷺ، فقام علي فبايع أبا بكر. اهـ[1].

وقد سأل عمرو من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال له: أشهدت وفاة رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: حتى بويع أبوبكر، قال سعيد: يومَ مات رسولُ الله كره المسلمون أن يَبْقَوا بعضَ يَوم وليسوا في جماعة، قال: هل خالف أَحَدٌ أبا بكر؟ قال سعيد: لم يخالفه إلَّا مرتد أو كاد أن يرتد، وقد أنقذ الله الأنصار فجمعهم عليه فبايعوه، قال: هل قعد أحد من المهاجرين عن بيعته، قال سعيد: لا، لقد تتابع المهاجرون على بيعته. اهـ

وقد أوردت بعض كتب السير عن تأخُّر بيعة علي حتى وفاة فاطمة ما مفاده: «لما ماتت فاطمة -عليها السلام- أرسل علي إلى أبي بكر أَنْ أَقبِلْ عليّ، فأَقْبَلَ أبوبكر حتى دخل على عَلِيٍّ

(١) «رفع الضيق» ص١٦٨-١٦٩.

وعنده بنو هاشم، فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم، قال: «**أمَّا بعد يا أبابكر، فإنه لم يمنعنا أن نبايعك إنكارا لفضيلتك ولا معاتبة عليك؛ ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً فاستتبددت به علينا، ثم ذكر قرابته من رسول الله ﷺ فلم يزل يذكر حتى بكى أبوبكر، فقال أبوبكر: لَقَرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ من قرابتي**».

وهذه الرواية إنما تؤكد مطالبةَ عليٍّ بالخلافة لقرابته من رسول الله وباسم بني هاشم جميعاً، وليس بما هو في نص معين بالخلافة، ولهذا فالخليفة أبوبكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أثبت هذه القرابة وأهميتها، ولم يذكر الإمام في مقالته إشارة من رسول الله إلى بيعته من بعده فكان الأمر مبنياً على الاجتهاد لدى الصحابة.

وأما بقية ما أورده المعارضون للخلافة فهو مجرد مواقف ما بين فعل وردة فعل، وهذا محقوق حصوله بين الناس، وخاصة في مثل هذه الحالة من التحول، ولا ينبني عليه نقض لبيعة ولا إثبات لغيرها، وإنما هي شبه الأراجيف التي قد كان منها كثير في عهد صاحب الرسالة يريد منها أصحابها زعزعة ثقة الناس بالصحابة الأثبات، وبهذه الفهوم على ما تعتقده نفوسهم يشيرون إلى فشل أصحاب محمد ﷺ من تحمل مسؤولياتهم من بعده، وفساد مرحلة الخلافة الراشدة التي بفساد مشروعيتها يفسد انتقال قرار الأمة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى وراث الأمانة، بينما الحقيقة المثبتة وما تؤيده القراءة الواعية لفقه التحولات أن الانتقال الشرعي للقرار الإسلامي قد تَمَّ من مرحلة الرِّسالة إلى مرحلة الخِلافة الرَّاشدة على الوجه الصحيح بالإجماع.

وبرزت مواقف الإمام علي منذ بـيعته، فلم يُفَارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع عنه في جماعة من الجماعات، وكان يشاركه المشورة وتدبـير أمور المسلمين.اهـ[1].

---

(١) «الخلفاء الراشدون» للخالدي ص٥٦ ، راجع «رفع الضيق» ص١٦٩.

بل حسم الإمام علي رضي الله عنه الموقف أمام المغرضين وردّ كيدهم في نحورهم، فقد روى ابن المبارك عن مغول عن ابن أبجر، قال : «لما بُويع أبوبكر جاء أبو سفيان بن حرب إلى علي رضي الله عنه، فقال: أخذ عليكم هذا الأمر أذل بيت في قريش فو الله لأملانها خيلاً ورجالاً، فقال له علي رضي الله عنه: ما زلت عدواً للإسلام وأهله، فما ضَرَّ الإسلام وأهله شيئاً، إنا رأينا أبابكر لها أهلاً»[1].

وكلُّ ما نشأ من التناقضات والتُّهم إنما صُنعَ بعد مرحلة الخلافة الراشدة مع ارتفاع رؤوس الخلاف التي مَهَّدَ لها مقتل سيدنا عثمان ثم مقتل سيدنا علي رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين.

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» .

مواقف الصّديق بعد تولي الخلافة: إِنْفَاذُ جَيْشِ أُسَامَة

وأَنْفَـذَ الصِّدِّيـقُ للجِهَـادِ أُسَـامَةً وَالجَيـشَ بِاجتِهَـادِ
إِذْ كَانَ رَأْيُ البَعْـضِ أَلّا يُرْسِـلَهْ لِمَا يَـدُورُ مِـنْ جَدِيْـدِ المَرْحَلَهْ
وَكَانَ فِـي إِرسَـالِهِ دَرْءُ الخَطَـرْ وَمَظْهَـرُ الثَّبَـاتِ وَالأَمْرُ اسـتَقَرْ

كان من أول مهمات خليفة رسول الله في مسؤولياته المُنَاطَةِ بالتحول المفاجئ لموت رسول الله ﷺ تنفيذ ما كان ﷺ قد أوصى به، حيث تَمَّ تجهيز جيش أسامة قُبَـيْلَ موت النبـي ﷺ بـيومين فقط، وكان ابتداء ذلك قبل مرض النَّبـي ﷺ، فَنَدَبَ الناس لغزو الروم في آخر صفر ودعا أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: «**سِرْ إِلَى مَوْضِعِ مَقْتَلِ أَبِـيْكَ فَأَوْطِئْهُمُ الخَيْلَ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ هَذَا الجَيْشَ**»، وظل الجيش معسكراً بالجرف حتى وفاة رسول الله ﷺ فرجعوا إلى المدينة وتغيرت الأحوال بانتقال رسول الله ﷺ إلى ربه، حتى كانت عائشةُ الصِّدِّيقةُ تصف الحالة بقولها: «**لمّا قُبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة، واشرأب النفاق، والله لقد نـزل بـي ما لو نـزل بالجبال الراسيات لهاضها، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنّهم معزى مطيرة في حُشٍ في ليلة مطيرة بأرض مُسْبَعة**»[1].

وفي اليوم الثالث من وفاة رسول الله ﷺ أمر الصديق المنادي أن ينادي ليتم بعث أسامة «**ألا لا يبقينَّ بالمدينةِ أحدٌ من جُنْدِ أُسَامة إلا خَرَجَ إلى عَسْكَرِهِ بالجُرْف**».

واقترح بعض الصحابة بأن يبقى الجيش، وقالوا: إن هؤلاء جُلُّ المسلمين والعرب على ما

(١) الجرف موضع خارج المدينة.

ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين.

وأرسل أسامة من معسكره بالجُرْف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما إلى أبـي بكر يستأذنه في أن يرجع بالناس، وقال: إن معي وجوهَ المسلمين وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون.

ولكن أبابكر أَصَرَّ على استمرار تسيير جيش أسامة مهما كانت الظروف والأحوال، واجتمع الصحابة للتَّشَاوُرِ في الأمر، واعترض ابن الخطاب على تسيير الجيش مُبدياً أسباباً هامة وخطيرة تقتضي ذلك، فلم يكن من سيدنا أبـي بكر إلَّا أنْ جمعهم مرةً أخرى، وقال: «**والذي نفسُ أبـي بكر بـيده لو ظننتُ أنَّ السِّبَاعَ تخطفني لأنفذتُ بَعْثَ أُسَامَةَ كَما أَمَر رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَو لم يَبْقَ في القُرَى غَيْرِيْ لَأَنْفَذْتُهُ**».

ففعل ذلك وأثبتت الأيامُ سَلَامَةَ رَأْيِهِ وَصَوَاب قراره، ثم قال لأسامة بعد أن جَهَّزَهُ لِلسَّفَرِ «**إذا رَأَيْتَ أَنْ تُعِيْنَنِي بِعُمَر فَافْعَل فَأْذِنَ لَهُ**» وبقي عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مع أبـي بكر الصديق.

مَوقفه من صَدقات رسول الله ﷺ من بَعده
وما جَرَى حَولها من التَّحْريش والإثَارة

مِـنْ موقِفِ الصِّدِّيْـقِ فِيْمَا ذُكِرَا مَنْـعُ لِقَسْـمِ فَـدَكٍ أَنْ يُؤْثَـرَا
لمَّـا أَتَـتْ فَاطِمَـةٌ لِتَطْلُبَـهْ إِرْثـاً مِـنَ الْمُخْتَارِ حَقّاً تَكْسِـبه
فَاحْتَجَّ بِالَحدِيْثِ مِنْ قَوْلِ النَّبِي أَنْ لَيْـسَ إِرْثَـاً لِلنَّبِـيِّ العَرَبِـي
وَمَـا تَرَكْنَـا بَعْدَنَـا مِـنْ صَدَقَـةْ وَإِنَّمَـا الحَـقُّ بِدَفْـعِ النَّفَقَـةْ
فَعَتِبَـتْ فَاطِمَـةٌ فِيْمَـا ذُكِـرْ مِنْ مَوْقِـفِ الصِّدِّيْقِ لمَّا لَمْ يُقِرْ
بِـالإِرْثِ لِكِـنْ جَاءَهَـا مُعْتَذِرَا مُبَيِّنَـاً مَوْقِفَـهُ مِمَّـا جَـرَى
فَلَـمْ تَعِبْـهُ أَوْ تُخَالِـفْ مَوْقِفَـه لمَّـا رَأَتْ حُجَّتَـهُ مُشَـرِّفَه
وَهَـذِهِ مَوَاقِـفُ التَّمَيُّـزِ لَـمْ تَخْتَلِـطْ بِلَوْثَـةِ التَّحَيُّـزِ
وَقَدْ أَصَابَ البَعْضَ دَاءُ الرَّفْضِ فَاعْتَبَـرَ المَوْقِـفَ مَنْعَ الفَرْضِ

ومن المواقف التي تفرّد بها الخليفة الأول أبوبكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ موقفه من (صدقة رسول الله ﷺ التي تسمى فَدَكاً[1]) وكانت وجهة نظره في هذه المسألة التزامه بالنص الذي سمعه

(١) قال الحموي في معجم البلدان: فَدَك بالتحريك -أي: بتحريك الفاء والدال وآخره كاف- قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع صلحاً، وذلك أن النبي ﷺ لما نزل خيبر وفتح حصونها ولم يبقَ إلا ثلاث واشتد بهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن ينزلهم على الجلاء وفعل، وبلغ ذلك أهل فدك فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك، فهو مما لم يرجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت خالصة لرسول الله ﷺ، أي:

من رسول الله ﷺ: «(إنا) نحن مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُوْرَثُ وَمَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ... الخ»[1] والتزم الصديق بهذا النص وأنفق على فاطمة وغيرها من آل البيت من بيت مال المسلمين حتى قيل أن فاطمة -عليها السلام- عَتِبَتْ عليه ولم تكلمه حتى ماتت رضي الله عنهم أجمعين، وقيل: أنه استرضاها قبل موتها إلّا أنه لم يمنحْها (سهم فَدَك)، وقد وَسَّع البعضُ الملامَ على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجعلوا ذلك قادحاً في خلافته، والحقُّ أنَّ هذا الموقِفَ ليس بقادح.. وإنما هو اجتهاد اجْتهده، والله يغفر لنا ولهم.

وعَلَّلُوْا الأَمْـرَ بِمَـا لَا يَتَّفِـقْ ... عَقْـلاً ونَقْـلاً وبِمَـا لَا يَنْطَبِـقْ
عَلَـى سُـلُوكِ مَنْهَـجِ السَّـلَامَةِ ... أَصحابِ طَـهَ مَعْدِنِ الشَّـهَامَةِ
مَـنْ وُثِّقُـوْا بِنَـصِّ خَيْـرِ الخَلْقِ ... أَئِمَّـةِ الدِّيْـنِ حُمَـاةِ الحَـقِّ

يشير الناظم إلى ما قد فَهِمَتْهُ بعضُ المذاهب حولَ هذه المسألة وحكمها متَّهمين أبابكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما لا يليق مع من وَثَّقَهم ﷺ ورضي عنهم، وضَمِنَ لهم على الله بالجنة حيث نهج المخالفون للسلامة منهجَ التَّحريشِ والطَّعنِ، معَ أنَّ أهل البيت بعمومهم وفاطمة وعلي رضي الله عنهما ثبت عنهما السكوت، والسكوت عد الطلب والرضا بما اجتهده الخليفة وقَبِلَا منه النفقة كغيرهم من آل البيت حتى وفاته رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

وكما أشرنا سلفا إلى أن مثل هذا الموقف لا يقدح في سلامة القرار بالخلافة وبجدارة أبي بكر رضي الله عنه ، وإنما هو باب فتحه أهل التحريش لإيقاد نار الفتنة بين آل البيت من جهة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جهة أخرى وللأسف، ولا زالت بعض نماذجه وصوره وقودا للمرحلة وتهويشات الطامحين والمتربصين بالإسلام.

ليست من نوع الغنائم التي توزع على المقاتلين وإنما هي لرسول الله ﷺ يضعها حيث شاء.

(١) رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها وقال: هذا حديث غريب، وابن عساكر عائشة رضي الله عنها.

مَوَاقِفُ أَهْلِ الرِّدَّةِ أُنْمُوذُجٌ خَطِيرٌ فِي التَّحَوُّلات

وَارْتَدَّ أَعْرَابٌ مِنَ الجَزِيْرَةِ وَرَفَضُوْا العَوْدَةَ للحَظيْرَةِ
فَاتخَّذَ الصِّدِّيْقُ مِنْهُمْ موقِفَا وَلَمْ يُهَادِنْ أَوْ يُسَاوِمْ مَنْ جَفَا
حَارَبَهُمْ عَلَى الزَّكَاةِ وَالوَلا حَتَّى وَإِنْ صَلُّوْا وَصَامُوْا فِي المَلا
وَحَسَمَ الأَمْرَ بِهَذَا الاِجْتِهَادْ وَرَسَّخَ الإِسْلامَ فِي كُلِّ بِلاَدْ

يشير الناظم إلى مظهر من مظاهر التحولات التي طرأت على مرحلة الخلافة عند انتقال الأمر من عهد رسول الله ﷺ إلى عهد أبـي بكر، ومن ذلك ما ذُكر من ردة بعض القبائل العربـية، وقد ذكرت بعض المصادر أن انتقال الأمر من مرحلة إلى مرحلة بموت رسول الله ﷺ أفرز تحولاً في حياة العرب.

فمنهم من ترك الإسلام جُملةً وتفصيلاً وعادَ إلى الوثنية وعبادة الأصنام، ومنهم من ادّعى النبوة، ومنهم من دعا إلى ترك الصلاة، ومنهم من بقي يعترف بالإسلام ويقيم الصلاة؛ ولكنه امتنع عن أداء زكاته، ومنهم من تَحَيَّرَ وَتَرَدَّدَ وانتظر على من تكون الدائرة.

ولمّا كانت الردّة سمع أبوبكر الصديق وجهاتِ نظرِ الصحابة في شأن حربهم، فلما سمع وجهاتِ النَّظرِ اتخذ القرار، لقد كان أبوبكر الصديق أنفذَ القوم بصيرة في هذا الشأن، إذ فهم أنَّ الزَكَاةَ لا تنفصل عن الشهادتين، وأنّ (لا إله إلا الله) بغير زكاة لا وزن لها في حياة الشعوب، وأنَّ السيف يشرع دفاعاً عن أدائها كما يشرع دفاعاً عن (لا إله إلا الله)[1].

---

(١) «رفع الضيق» بتصرف ص٢٠٠ – ٢٠١.

وبعد أنْ عمل الصِّدِّيق على إعداد جيوش الإسلام لمحاربة المرتدين كتب لهم كتاباً عاماً أرسله قبل تسيير الجيوش يتضمن ما يلي:

١- بيان أساس مطالبة المرتدين بالعودة إلى الإسلام.

٢- بيان عاقبة الإصرار على الردَّة.

٣- بيان أنَّ العبد لا يعبد محمداً، وإنما يعبد الحي الذي لا يموت، ولا عذر لمرتد.

٤- من رجع إلى الإسلام وَأَقَرَّ بضلاله وكَفَّ عن قتال المسلمين وعمل صالحاً فهو من مجتمع المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم.

٥- من يأبى الرجوع إلى صف المسلمين لا مفر من حربه ولن يُعْجِزَ الله بأية حال.

وبهذا بعث الصديق قادة الجيوش إلى حيث كان مجمع القبائل المرتدة:

١- جيش خالد بن الوليد إلى بني أسد ثم إلى تميم ثم إلى اليمامة، وأدى هذا الجيش أعظم الأدوار في إسقاط الكذابين العربيين: طُليحة الأسدي ومسيلمة الكذَّاب.

٢- جيش عكرمة بن أبـي جهل إلى مسيلمة في بني حنيفة ثم إلى عمان والمهرة فحضرموت فاليمن.

٣- جيش شرَحْبِيْلَ بن حَسَنَة إلى اليمامة في إثر عكرمة ثم حضرموت.

٤- جيش طريف بن حاجر إلى بني سليم من هوازن.

٥- جيش عَمْرِو بنِ العَاص إلى قضاعة.

٦- جيش خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام.

٧- جيش العلاء بن الحضرمي إلى البحرين.

٨- جيش حذيفة بن محصن الغلفاني إلى عمان.

٩- جيش عرفجه بن هرثمة إلى المهرة.

١٠-جيش المهاجر بن أبـي أمية إلى اليمن (صنعاء ثم حضرموت).

١١-جيش سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن[١].

وقد استطاعت هذه الجيوش المبعوثة إلى الأفجاج أن تعيد هيبة الإسلام وقوة الدعوة وترسخ الخلافة الراشدة وتهدم أوكار الإفك والتحريش والردة، بصرف النظر عمن يطعن في بعض القادة ويتخذ من مجريات المعارك ونتائجها وسيلة للأغراض والأمراض، فالمقاتلون على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذاته وقعت منهم الأخطاء والتجاوزات ولم يجرد صلى الله عليه وآله وسلم أحدا من دينه ولا سلامة معتقده، ومن اختارهم رسول الله قادة للجيوش في عهده كخالد بن الوليد وسماه بالسيف المسلول فقد اختاره أيضا أبوبكر الصديق رضي الله عنه، ففي الاختيار اقتداء وفي عزله على عهد عمر بن الخطاب حكمة وهدف لخليفة مقتدى.

(١) المصدر السابق ص٢١٠ - ٢١١.

مَوْقِفُ أبـي بكرٍ من قَرَارِ جمَعِ القُرْآنِ

وِمِـنْ عَظِيـمِ مَوْقِـفِ الصِّدِّيـقِ   تَجْمِيعُـهُ لِلمُصْحَـفِ الوَثِيـقِ
لمّـا رَأى القَتْلَ بِهِمْ قَدِ اسْـتَحَرْ   مِـنْ عُصْبَةِ القُـرْآنِ سَـبْعِينَ نَفَرْ
فِـي أَرْضِ نَجْـدٍ شُـهَدَاءَ الدِّينِ   يُحْيُـونَ بِالمَـوتِ عُـرَى اليَقِيْنِ
فَاسْتُنْطِقَ الحُفَّاظُ عَنْ آيِ الْقُرَانْ   عَبْـرَ الثِّقَـاتِ نَقَلُوهَـا بَأَمَـانْ

تشير الأبـيات إلى أحد مواقف الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عندما برزت علامات التحوُّل في شأن القُرَّاء حملة القرآن، فقد ثبت أنَّ سبعين منهم قُتلوا في معركة اليمامة خلال حروب الردة، فرأى الصِّدِّيقُ خطورة الأمر وأن القرآن يحتاج إلى حفظٍ وجمعٍ خوفاً من ذهابه بذهاب القراء، فاستشار كبار الصحابة في ذلك فوافقه الأغلب إلَّا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ونفر معه؛ ولكن الصديق اتخذ الموقف وندب للجمع المبارك جملة من الصحابة تحت إمرة زيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقد اختلف الباحثون والعلماء حول مسألة كتابة القرآن، هل كان القرآن مكتوباً على صفة المصحف من عهد رسول الله ﷺ أم كان مفرقاً في الأوراق والجلود والعظام؟ ثم جُمع على عهد أبـي بكر الصديق على صفة المصحف، وقد كتب في هذا الباب أستاذنا العلامة محمد بن أحمد الشاطري رسالة عن جمع المصاحف أثبت فيها وجود القرآن مكتوباً ومجموعاً منذ عهد رسول الله ﷺ، وأنه لم يمت عليه الصلاة والسلام إلَّا وقد جمع المصحف بـين الدفتين كتابةً وتحقيقاً، وقد طبعت هذه الرسالة وسميت «عرض الأدلة والبراهين على كتابة المصاحف في حياة سيد

المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم في عهد الخلفاء الراشدين»[1] ، وكان أول باب فيها ما صورته: إن المصحف الذي نقرؤه وهو بين أيدينا هو نفسه الذي جمع وكتب في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وأهل بيته، وهؤلاء هم الجيل الفريد الأول الذي يتلوه حق تلاوته، وتلته عنه الأجيال المسلمة جيلا بعد جيل إلى جيلنا الحاضر، وسيتلقاه عنا من بعدنا من الأجيال القادمة إلى يوم القيامة.

وفي موقع آخر قال: هناك أحاديث تدل على وجود القرآن كمصحف في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها ما رواه مسلم في صحيحه وغيره: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو لئلا يناله» ، وحديث: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو لئلا يناله العدو» . اهـ ص٣٩ . وهذا صريح في لفظ القرآن جملة، وهو أولى من تأويله بأن المراد الموجود منه في المصحف.

---

(١) طبعة دار الحاوي.

اِسْتِعْداداتُ الصّديّقِ لِمَرْحَلَةِ التَّحَوُّلِ مِن بَعْدِهِ

لمّـا رَأى الصِّدِّيـقُ قُـربَ أَجَلِهْ | بِمَـرَضِ المَـوْتِ وقَطْـعِ عَملِهْ
أدَارَ شَـأنَ الأَمْـرِ بِالتَّدَبُّـرِ | وَوَضْـعِ مَـا يَرجُـوهُ بِالتَّفَكُّـرِ
فَاسْـتَخْلَفَ الفَارُوْقَ واستَشَارَا | صَحَابَـةَ النَّبِـيِّ فِيمَـا دَارَا
وبُويِـعَ الفَـارُوقُ قَبْـلَ مَوتِـهِ | وَأَجْمَعُـوْا عَلَيْـهِ فِـي إِمْرَتِـهِ

تشير الأبـيات إلى استمرار مواقف الصديق الإيجابـية طيلة خلافته وحتى مرض موته، ولما ثقل به المرض جمع الناس إليه واستشارهم في شأن الخلافة فأعادوا إليه الأمر ولم يخالف أحدٌ إلّا أبوطلحة الذي، قال له في شأن استخلاف الفاروق: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبوبكر: أَجْلِسُوني.. أبالله تُخَوِّفُوْنِي؟ خَابَ مَن تَزَوَّدَ من أمركم بظُلم! أقول: اللَّهم استخلفتُ عليهم خيرَ أهلك، ثم نبّه من يرى غلظة عمر، فقال: ذلك لأنه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه[1]، ثم كتب عهداً باستخلاف عُمَرَ وَأَمَرَ بقراءته على الناس في كافَّةِ الأَمصَار، وقُرِئَ في المدينة، ثم اختلى بابن الخطاب وأوصاه بالمسلمين خيراً، ودعا الناس إلى بـيعته فبايعوه بالإجماع.

ولما حضرته الوفاة لم يَفُتْه أن يتخذ موقفاً هاماً في بـيته، فقد كانت عائشة رضي الله عنها تعوده وتستشهد بقول القائل:

لَعَمْرُكَ ما يُغني الثَّرَاءُ مِنَ الفتَى | إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمَاً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

---

(١) المصدر السابق ص٣٩٢.

فَنَظَرَ إِليها كَالغضبان، ثم قال: ليس كذلك يا أمَّ المُؤمنين، ولكن قول الله أصدق: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ ثم قال يا عائشة: إنه ليس أحد من أهلي أحبَّ إليّ منكِ، وقد كنتُ نحلتُكِ حَائطاً وَإِنَّ في نفسي منه شيئاً، فرديه إلى الميراث، قالت: نعم، فأرجعته رضي الله عنها[1].اهـ.

ومات رحمه الله تعالى ورضي الله عنه يوم الإثنين ليلة الثلاثاء في الثاني والعشرين من جماد الآخر سنة ١٣ للهجرة بعد أن مرض خمسة عشر يوماً[2].

وقد أبرز الصديق أمام التَّحَوُّلات مواقفَ جديرةً بالإجلال، ومنها:

١) الموقف من حيرة الصحابة حول موت رسول الله.

٢) الموقف من قضية السقيفة وإقناع الأنصار.

٣) الموقف من بعث أسامة والإصرار على إنفاذه.

٤) الموقف من محاربة أهل الردة.

٥) الموقف من مسألة الخلاف حول جمع القرآن.

٦) الموقف من مدَّعِي النبوة.

٧) الموقف من قضية فَدَك والالتزام بالنص مع الإنفاق على آل البيت وزوجات الرسول مدة حياته.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق ص٣٩٦-٣٩٧.

عَصْرُ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ

«عَصر غَلْقِ الفتنة»

قال ﷺ: «لو كان بعدي نبيٌّ لكان عُمر، اللهم أعزَّ الإسلام بعمر»

الخميس (٢: ٢٤٣)

«خيرُ هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر وعمر»

ذكره الذهبي في «دول الإسلام» عن الإمام علي رضي الله عنه

«كان عمر بن الخطاب حائطا حصينا على الإسلام يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه، فانثلم الحائط والناس يخرجون منه ولا يدخلون فيه»

رواه ابن وضاح عن ابن مسعود

مَظْهَرُ التَّحَوُّلاتِ وبِناءُ المَوَاقِفِ على عَهْدِ الخَليفَة الثَاني[1]

وكانَ عَهْدُ عُمَرَ الفَارُوقِ عَهْدَ البِنَا وَجَوْهَرَ التَّطْبيقِ
أَقَامَ أَرْكَانَ النِّظَامِ العَالِمِي وَنَفَّذَ الأَحْكَامَ فِي المَحَاكِمِ

انتقل القرار الإسلامي بالإجماع بين الصحابة من الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتمت مبايعته رضي الله عنه علنا في المسجد ولم يتخلف أحد من أهل الحل والعقد عن بيعته، وفي رواية: إن طلحة قال: أتولي علينا فظا غليظا؟ ما تقول لربك إذا لقيته؟ فقال أبوبكر: ساندوني ، فأجلسوه فقال: أبالله تخوفونني؟ استعملتُ عليهم خير أهلك . وقال علي رضي الله عنه: يا خليفة رسول الله ، امض لرأيك فما نعلم به إلا خيرا. «تاريخ الخميس» (٢: ٢٤١).

واستقبل عمر الخلافة صبيحة يوم الثلاثاء لتسع بقين من جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشر للهجرة، وكان أول ما تكلم به حين صعد المنبر: اللهم إني شديد فليّني، وإني ضعيف

(١) هو أبو حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، وهو أول من سمي بأمير المؤمنين، وكنّاه رسول الله ﷺ بأبي حفص لما رأى فيه من الشدة والبأس، والحفص لغةً الأسد، ولقبه الرسول بالفاروق يوم أسلم في دار الأرقم؛ لأنه كان يفرق بين الحق والباطل، وهو أول من جهر بالإسلام، وفرح المسلمون بإسلامه، بشره النبي بالجنة، وشهد له بأن الله تعالى جعل الحق على لسانه وقلبه، وأن الشيطان يفر منه، عاش ثلاثاً وستين، واستمرت خلافته عشر سنين وستة أشهر وخمسة ليال، ولي الخلافة في جماد الآخر سنة ١٣ للهجرة يوم الثلاثاء، وكان رضي الله عنه رجل مواقف سواء في عهد رسول الله ﷺ أو في بعده وقد وافقه القرآن في أكثر من موقف.. وهي جديرة بالنظر والتأمل إذ فيها إشارة قطعية لسلامة توجهه، وبها ينتفي كل ما يتقوله المتقولون الذين يجعلون من مواقفه بعد الإسلام طعنا في دينه وأمانته سواء في قرار الحكم أو العلم أو غيرها.

فقوني، وإني بخيل فسخّني.

ويعد هذا العصر الذي تولى فيه الفاروق سدّة الحكم من أزهى عصور الإسلام وأكثرها امتداداً وحركةً؛ بل يُعِدُّهُ البَعْضُ عهدَ تأسيسِ دولة المؤسسات والنظام الإداري والعسكري والاقتصادي، قال فيه ابن مسعود: «**كان إسلامُ عُمَرَ فَتْحاً، وكانت هجرتُهُ نَصْرَاً، وكانت إمارتُهُ رَحَمَةً**».

كان هو صاحب المواقف أمام مظاهر عصره ومسؤوليات خلافته، فهو أول من كتب التاريخ الهجري في شهر ربيع الأول سنة سبعة عشر فكتبه من هجرة النبي من مكة إلى المدينة بمشورة الإمام علي بن أبي طالب، وكان هو أول من جمع الناس على صلاة التراويح بإمامة أُبَيِّ بن كَعْب، وهو أول من عَسَّ بالمدينة وحمل الدِّرَّة وأدَّب بها، وَهُوَ أَوَّلُ من فتح الفتوح، وهو أول من مصّر الأمصار، وهو أول من وضع القضاة بها، وهو أول من دون الدَّوَاوِين، وهو أول من حَرَّكَ أساطيل السفن بالأرزاق والحبوب من مصر إلى البحر الأحمر والمدينة، وهو الذي أخرج اليهود من جزيرة العرب إلى الشام.

ولمن أراد استزادة في شأن مواقفه فليراجع أمهات التاريخ والسير.

وكانَ باباً ضِدَّ كُلِّ الفِتَنِ   وسَنَداً للعَدْلِ دُونَ وَهَنِ

يشير الناظم إلى علاقة الفاروق بمجموع الفتن، وَأَنَّ النَّبي ﷺ شبهه بالباب الفاصل بين التحوُّلات ووقوعها لحديث «**هذا غلق الفتنة** -وأشار ﷺ بيده إلى عمر- وقال: **لا يزال بينكم وبين الفتنة بابٌ شديدُ الغلق ما عاش هذا بين أظهركم**»[1].

وفي صحيح البخاري أن عُمَرَ سَأل حذيفة رضي الله عنهما عن الفتنة التي تموج كموج البحر، فقال يا أمير المؤمنين: «**لا بأس عليك منها إِنَّ بينك وبينها باباً مغلقاً**»، **قال**: «**أيفتح**

(١) أخرجه البزار عن قُدامة ابن مظعون عن عمه عثمان بن مظعون.

أو يكسر»، قال: «لا بل يكسر»، قال: «**ذاك أحرى أن لا يغلق**» وفيه أن الباب هو عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وروى الطبراني بسندٍ رجاله ثقات أن أبا ذر لقي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذ عمر بيده فغمزها، فقال له أبو ذر: أَرْسِلْ يدي يا قُفْلَ الفتنة... الحديث، وفيه أن أبا ذر قال: لا تصيبكم فتنة ما دام فيكم هذا، وأشار إلى عمر. اهـ[1].

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضاً كما أشار الناظم «**سنداً للعَدْلِ دُونَ وَهَنِ**» وحكاياته في هذا الشأن وأخباره لا تخفى، رضي الله عنه وأرضاه.

وخطب في الناس فقال: أما بعد فقد ابتليتُ بكم وابتليتم بي، وخُلّفت فيكم بعد صاحبي، من كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا ومهما غاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة، فمن يحسن نزده حُسناً ومن يسئ نعاقبه ويغفر الله لنا ولكم.

ومن مثل ذلك ما ذكر أنه وفد على عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الربيعُ بن زياد الحارثي فأعجبته هيئته ونحوه فشكا عمر طعاماً غليظاً أكله، فقال الربيع: يا أمير المؤمنين إِنَّ أحق الناس بطعام لين ومركب لين وملبس لين لأنت، فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه، وقال: أما والله ما أراك أردت بها الله وما أردت بها إلَّا مقاربتي.. هل تدري ما مثلي ومثل هؤلاء؟ قال: وما مثلك ومثلهم؟ قال: مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم، فقالوا له: أنفق علينا، فهل يحل له أن يستأثر منها بشيء؟ قال: لا يا أمير المؤمنين.

ثم قال عمر للربيع: إني لم أستعمل عليكم عُمَّالِي ليضربوا أبشارَكُمْ وَلِيشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم؛ ولكني أستعملهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، فمن ظلمه عاملُهُ بمظلمة فلا إذن له عليّ، ليرفعها إليّ حتى أقصه منه، فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين إن أدّب أميرٌ رجلاً من رعيته أتقتص منه؟ فقال عمر: ومالي لا أقتص منه وقد رأيت رسول الله

---

(١) «الإشاعة» ص٥.

ﷺ يقص من نفسه ؟[1].

قال الناظم:

وعِنْـدَهُ عِلْـمٌ بِسِـرِّ مَـا يَقَـعْ وَمَا يَكُونُ مِـنْ مَصِيرِ المُجْتَمَعْ

إشارةٌ في البيت إلى ما يعرفه سيدنا عمر من سرِّ التحولات وحقيقة شأن رجالها، وما أخبر به ﷺ في تقلبات المراحل، وقد أكدت الأحاديث الشريفة أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **«مُلْهَمٌ ومُحَدَّثٌ»**، أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحدٌ فإنَّهُ عُمَر**»[2].

قال الناظم:

وَيَسْتَشِـيرُ في شُـؤُونِ المَرْحَلَةْ كُلَّ إمَـامٍ عَـارِفٍ بالمَسْـأَلَةْ
كَمِثلِ بَابِ العِلْمِ مَنْطُوقِ الزَّمَانْ أَوْ صَاحِبِ السِّرِّ حُذَيفَةَ اليَمانْ
كَمِثْـلِ عَـزْلِ حَاكِـمٍ مُنَافِـقِ وَتَرْكِـهِ جَنَـازَةً لمَـارِقِ

يشير الناظم إلى استشارة عمر لمجموعة من الصحابة حوله ممن يعلم عدل رأيهم وسلامة مشورتهم وعمق فِقْهَم بعلامات السَّاعة، ويأتي في مقدمتهم سيدنا الإمام علي بن أبي طالب الذي كان مستشاراً ناصحاً له، ولمن كان قبله -سَيِّدِنَا أَبِي بكر الصديق-، وكان سيدنا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يستعيذ من مُعْضلةٍ ليس لها أبو الحسن-أي علي بن أبي طالب[3]، وكان الإمام علي يقول عند موت عمر: «**والله ما خلفت أحداً أحب إلى أن ألقى الله تعالى بمثل عمله منك يا عمر**»[4].

---

(١) «الفاروق عمر بن الخطاب» لمحمد رضا ص٣١ - ٣٢.

(٢) «تاريخ الخلفاء» ص ١٠٩ .

(٣) «إمام المتقين» للشرقاوي ص١٨.

(٤) المصدر السابق ص٢١.

ومن ذلك ما روي أن بنات ملك الفرس أراد عمر أن يبـيعهنَّ كالجواري وَيَضَعَ ثمنهنَّ في بـيت المال وأعطاهنَّ للدَّلَّالِ ينادي عَلَيْهِنَّ بالسوق فكشف الدَّلَّال عن وجه إحداهنَّ فلطمته لطمة شديدة، فصاح الرجل (وَاعُمَرَاه) وَشَكَا إليه فدعاهنَّ عمر وأراد أن يضربهنَّ بالعَصا، فقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ، قال: «**أكرمُوا عزيزَ قوم ذَل، وغَني قوم افتقر**»[1] إنَّ بَنَاتِ الملوك لا يُبَعنَ ولكنْ قَوِّمُوهُنَّ، فَقَوَّمُوهُنَّ وَكُنَّ ثَلَاثَاً فأعطاه أثمانَهُنَّ وَوَهَبَهُنَّ واحدةً لمحمد بن أبـي بكر والثانية لعبدالله بن عمر والثالثة لابنه الحسين[2].

قال الشرقاوي في كتابه «إمام المتقين»: استطاع عليٌّ بِحُسْنِ المَشُوْرَة لعمر أن يخفف من شدته، وأن يشد أزره في وجه أصحاب المطامع الذين أغراهم الغنى المفاجئ، واطمأن عمر واتخذ عليَّ بنَ أبـي طالب صديقاً على الرَّغْمِ مِن أنَّ عليّاً أصغرُ منه بنحو عشرين عاماً، وتزوج عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من أمِّ كُلثوم بنتِ الإمام عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما ورد في السيرة. اهـ.

وكان ممن يستشيرهم عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مرحلة خلافته حذيفةُ بن اليمان «**أَوْ صَاحِبِ السِّرِّ حُذَيْفِة اليَمَانْ**»[3].

---

(١) من حديث «**ارحموا ثلاثة : عزيز قوم ذل : وغني قوم افتقر ، وعالما بين جهال**» أخرجه ابن حبان من حديث أنس رضي الله عنه، وأورده الإمام السيوطي في «الجامع الكبير» برقم ١٠٧ : ٢٩٥١ وقال: الحديث عن أنس وفيه عيسى بن طهمان.

(٢) «إمام المتقين» ص ٩٨.

(٣) هو حذيفة بن حسيل بن جابر بن ربـيعة بن فروة...إلخ نسبه من بني عبس المعروف باليماني العبسي، أسلم حذيفة وأبوه وأرادا شهود بدر فصدهما المشركون وشهدا أحداً فاستشهد اليمان بها، وروى حذيفة عن النبـي ﷺ الكثير، استعمله عمر على المدائن فلم يزل بها حتى مات بعد مقتل عثمان وبعد بـيعة علي رضي الله عنه بأربعين يوماً سنة ٣٦هـ، وكان حذيفة يقول عن العلم بفقه التحولات: لقد حدثني رسول الله ﷺ ما كان وما يكون حتى تقوم الساعة، وفي الصحيحين أن أبا الدرداء قال لعلقمة: أليس فيكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره؟ يعني حذيفة، وروى ابن سعد عن محمد بن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب

وقد ورد أنّ أمير المؤمنين كان يستشيره في بعض أمور الناس، وخاصة في شأن علامات المنافقين، ومنها: ما روي عن حميد بن هلال، قال: أُتى عمر بن الخطاب برجل يصلي عليه فدعا بوُضُوْءٍ ليصليَ عليه وعنده حذيفة فمرزه -أي قرصه بأصابعه لئلا يصلي عليه- مرزة شديدة، قال عمر: فَصَلُّوا على صاحبِكم، من غير أن يخبرَهم، قال عمر: يا حذيفة أَمِنْهُم أنا؟ قال: لا، قال: ففي عُمَّالي أحدٌ منهم؟ قال: رجل واحد، وكأنَّما دلَّ عليه حتى نـزعَهُ من غير أن يخبره .اهـ[(١)].

وعِلمُـهُ بالبَـابِ كَيْـفَ يَنْكَسِـرْ إِذْ دَبَّرَ القَتْلَ المَجُوسِـيُّ الأَشِرْ

إشارة إلى أن سيدنا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لديه علم بشأن الفتنة من بعده، وأنه قد علم أن الرسول سماه «**الباب**»، وأنه يُكْسَرُ أي يقتل، وكان قتله على يد أبـي لؤلؤة المجوسي[(٢)].

إذا بعث عاملاً كتب في عهده: أن اسمعوا له وأطيعوا ما عدل عليكم، فلما استعمل حذيفة على المدائن كتب في عهده أن اسمعوا وأطيعوا وأعطوه ما سألكم، وروى البخاري ومسلم وأبو داود من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: لقد خطبنا النبـي ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئاً من مقام الساعة إلَّا ذكره علمه من علمه وجهله من جهله، إن كنت لا أرى الشيء قد نسيت فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه.

(١) «كنـز العمال» (١٣: ٣٤٤).

(٢) أبو لؤلؤة المجوسي غلام كان بالكوفة، طلب المغيرة بن شعبة من عمر أمير المؤمنين أن يأذن له في دخول المدينة المنورة لما عنده من صنعة فيها منافع للناس فكتب إليه عمر رضي الله عنه، فأذن له أن يرسل به، وكان كافراً مجوسياً فلما وصل إلى المدينة طلب من أمير المؤمنين أن يرفع عنه شدة الخراج، فقال عمر رضي الله عنه: خراجك ليس بكثير في كفة عملك، فانصرف ساخطاً يتذمر. وفي رواية قال له عمر: وما عملك؟ قال: الأرحاء، فقال له عمر: ألا تجعل لنا برحى؟ فقال: لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها، فلما ولى قال عمر: أوعدني العبد آنفاً، وفي رواية أنه قال: يكفينا الله قد علمت أنه يريد بكلمته غدراً، وأعد المجوسي عدة القتل فاصطنع خنجراً له رأسان وشحذه وسمّه، ثم أتى به إلى الهرمزان (وكان حينها بالمدينة) وقال له: كيف ترى هذا الآن ؟ قال: أرى أنك لا تضرب به أحداً إلَّا قتلته، فتحين أبو لؤلؤة حتى جاء في صلاة الفجر وعمر رضي الله عنه يُوقظ الناس للصلاة حتى إذا أُقيمت الصلاة، ويقول: أقيموا

قال في «الإشاعة»: وحاصل معنى الأحاديث أنه ﷺ شبَّه مدة حياة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحصنٍ منيعٍ فيه أهل الإسلام، وشبَّهَ شَخصَ عُمَرَ ببابِ ذلك الحصن، وَفَهِمَ عمرُ وسأل حذيفةَ: أيموت أم يقتل؟ فأخبره أنه يقتل، فقال: ذلك أحرى أن لا يُغْلَقَ، فإن الباب إذا كان موجوداً يمكن غلقه بعد الفتح بخلاف ما إذا انكسر، وإنما كان هو الباب دون عثمان لأن وجود الباب يمنع من دخول العدوِّ الحِصْنَ، وإن الفتنة لم تظهر في حياة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأن وجودَهُ كان باباً مانعاً من ظهورها، وإنما ظهرت في حياة عثمان[1].

واسْـتَفْحَلَ الأَمْرُ بِهَـذَا وَانْفَتَحْ　　　بَـابٌ خَطِيرٌ فِي المَصِيرِ ورَجَحْ

إشَارةٌ إلى انطلاق الفتنة بعد كسر الباب كما هو مقرر في الأحاديث السابقة، وكانت مواقف الفاروق مع هذا التَّحَوُّلِ الخطير أن سأل الناسَ بعد أن أفاق من غشيته، وقال: هل صلى الناس؟ قالوا: نعم، فقال: لا إسلام لمن ترك الصلاة، وكان قبل ذلك عندما طُعِنَ قال: قولوا لعبدالرحمن بن عوف فليصلِّ بالناس، ودعا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بوُضُوءٍ فتوضأ ثم صلى، وقال: من قتلني؟ قالوا: أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة، فقال: الحمد الله الذي لم يجعل قاتلي يُحَاجُّنِي عند الله بسجدة سجدها له قط، ما كانت العرب لتقتلني، أنا أحب إليها من ذلك. ودعا بأصحاب رسول الله ﷺ وجعل الأمر شورى بـينهم وألزمهم التشاور ثلاثة أيام، وأمر صهيباً أن يصلي بالناس.

فلما قبض عمر وذلك في ٢٦ ذي الحجة ٢٣هـ، قال ابن عباس: خرجنا به إلى حجرة عائشة

صفوفكم وكبّر فطعنه أبو لؤلؤة ثلاث طعنات واحدة في كتفه وأخرى في خاصرته والثالثة تحت سرته، وقد خرقت الصفاق، وهي التي قتلته، وطعن معه ثلاثة عشر رجلاً وهَلك منهم سبعة ورمى رجل على رأسه ببرنس فانتحر أبولؤلؤة بخنجره. ويرى بعض المؤرخين أن مقتل الخليفة كان مؤامرة مدبرة لأكثر من جهة ولم تكن مجرد نزوة من المجوسي ، كما جاء في «تاريخ الخميس» .

(١) «الإشاعة» ص٣٣.

ودخل عبدالله بن عمر، وقال: يستأذن عمر ابن الخطاب، قالت: أدخلوه فأدخلوه مع صاحبـيه[1].

وبعد دفنه اجتمع أهل الشورى[2] وتداولوا الأمر حتى استقر إلى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) كان ابن الخطاب قد طلب من عائشة وهو في مرض موته أن يدفن بجوار صاحبـيه فأذنت إلَّا أنه طلب منهم التثبت من رأيها بعد موته.

(٢) هم الذين اختارهم عمر الفاروق بعد إصابته، وهم: عثمان وعلي وطلحة والزبـير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبـي وقاص، وجعل عبدالله بن عمر معهم مشيراً وليس منهم.

مقتل سيدنا عمر بن الخطاب مُؤامرةٌ مُشتركةٌ

جاء في «تاريخ الخميس» (٢: ٢٧٣) ما مثاله: (رَأَى عبدالرحمن بن أبي بكر أبا لؤلؤة المجوسي والهرمزان وجفينه يدخلون في مكان يتشاورون وبينهم خنجر له مقبض في وسطه، فقتل عمر في صبيحة تلك الليلة فاستدعى سيدنا عثمان عبدالرحمن بن أبي بكر فسأله عن ذلك، فقال: انظروا إلى السكين فإذا كان ذا طرقه، فلا أرى القوم إلَّا وقد اجتمعوا على قتله.. فنظروا فوجدوها كما وَصَف عبد الرحمن). اهـ.

وقد فَسَّرَ هذه الحادثة كتاب «إسلامُ الصوفية هو الحل» (١)، بقوله: وقد بلغ من تَبَرُّم هؤلاء بفتح المسلمين بلادَهم أنْ ثَارتْ نُفُوْسُ طائفةً منهم بعمر بن الخطاب الذي حَطَّم نعرةَ التَّعصُّبِ للقوميَّاتِ الإقليميةِ أو الدِّينيةِ وأذابها في دولة الإسلام، لذلك بلغ الإستياء والسخط بالمتمسكِين بالقومية الفارسية أمثال (الهرمزان) وهو سيد من سادات الفرس فَقَد سلطانه وَمَكَانَهُ، كما كان يقف وراء التعصب للنصرانية (جفينة) الذي كَانَ نصرانياً من أهل الحيرة يُعَلِّم الكتابة لأهل المدينة، وكان ثالث الأثافي كعب الأحبار أحد أحبار اليهود المتعصب للصهيونية(٢) الذي أَنْذَرَ

---

(١) للشيخ عز الدين ماضي أبوالعزائم.

(٢) في قوله: (للصهيونية) ربما كانت (لليهودية) لأن لفظة الصهيونية لم تعرف آنذاك، وإنما ظهرت الصهيونية في مرحلة اضطهاد الدول الأوروبية لليهود، و(صهيون) موضع معروف بالبيت المقدس فيه كنيسة صهيون، وقيل: اسم لبيت المقدس وفيها جبل يسمى (جبل صهيون) ، وكان أول إنشاء جمعية عشاق صهيون عام ١٣٠٠ هـ بعد المذابح الكبيرة التي نزلت باليهود في روسيا، وهدفها ترحيل اليهود إلى فلسطين ، وعن طريق هذه الجمعية تسلل اليهود إلى فلسطين.اهـ «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» لمحمد عصام عرار الحسني.

سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بقوله: (اعلم أنك ميتٌ في ثلاثة أيام.. ولم يعر سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الإنذار عناية خاصة).اهـ.

وجاء في «تاريخ الخميس» (٢: ٢٤٨) إنه لما كان من الغد الذي توعد فيه أبولؤلؤة المجوسي أمير المؤمنين جاءه كعب الأحبار فقال: يا أمير المؤمنين، اعهد فإنك ميت في ثلاث أيام، قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله التوراة، فقال عمر: آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا ولكن أحد صفتك وحليتك، وبأنه قد فني أجلك، وعمر لا يحس وجعا ولا ألما فقال عمر: رضينا بقضاء الله وقدره، فلما أصيب تذكر قول كعب فقال: وكان أمر الله قدرا مقدورا، فلما كان الغد جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان، ثم جاءه من بعد الغد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة ، وهي لك إلى صبحها[1].

وقد حَرَّضَ هؤلاء الثلاثة كما هو واضح من خلال وقائع الأحوال فيروزاً المجوسيَّ المسمى بأبي لؤلؤة على قتل أمير المؤمنين.

وإذا ما دققنا النظر في هذه المؤامرة المشار إليها فستجد أن الجهات المشتركة في تخطيطها وتنفيذها:

١- اليهود ممثلة بكعب الأحبار.

٢- النصرانية ممثلة بجفينة النصراني.

٣- المجوسية ممثلة بالهرمزان وبأبي لؤلؤة المجوسي.

---

(١) وروى الديلمي أن عمر رضي الله عنه دخل على أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فوجدها تبكي فقال: ما يبكيكِ؟ قالت: هذا اليهودي -كعب الأحبار- يقول: إنك باب من أبواب جهنم، فقال عمر: ما شاء الله! ثم خرج فأرسل إلى كعب فجاءه فقال: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة، فقال: ما هذا؟ مرة في الجنة ومرة في النار؟ فقال: إنا لنجدك في كتب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقتحموا فيها فإذا مت اقتحموا. رواه الخطيب عن مالك ، «إتحاف الجماعة» لحمود التويجري (١: ١٤٩).

وهكذا كان اغتيال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تدبير مؤامرة دَبْرَّهَا أعداء الإسلام استغرق إعدادها زمناً طويلاً قبل الحادث من رموز اليهودية والصليبية والقومية الفارسية. اهـ[1].

وفُجِعَ الإسلام والمسلمين بهذه الحادثة التي كان رسول الله ﷺ قد نبَّه إليها، وحذَّر من وقوعها، وعبّر عنها «**بكسرِ الباب**» وأنه لن يُغلق بعده أبداً، وكان الأمر كذلك.

(١) «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» ص٤٩.

عَصْرُ عُثمانَ بنِ عَفّان

«أَوَّلُ الفِتَنِ قَتل عُثمان وآخرها خُروج الدَّجَال.. والذي نفسي بيده ما من رجلٍ فِي قلبه مثقال حَبَّة من قَتل عُثمان إلّا تَبِعَ الدَّجَال إن أدركه، وإن لم يدركه آمن به في قبره»

أخرجه ابن أبي شيبة وابن عساكر عن حذيفة بن اليمان

«ألا لا تُبْطِرَنَّكُمُ الفانية، ولا تُشْغِلَنَّكُمْ عن الباقية، واحذروا أحداثَ الدهرِ المُغير، والزَمُوا جماعتَكم، ولا تتفرّقوا شيعاً وأحزاباً»

من خطبة لسيدنا عثمان رضي الله عنه رواها الطبري في «تاريخ الرسل» (٤:٣٨)

مَظْهَرُ التَّحَوُّلاتِ والمَواقِف في عَهْدِ سَيِّدِنا عُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]

وجـاءَ عُثْمـانُ يُقِيـمُ الأَمْـرَا   ويَرْقَـعُ الخَـرْقَ فزِيـدَ شِـبْرا

هذه الأبـيات خاصة بمظهر التَّحوُّلات على عهد سيّدنا عُثمان من مبتدأ خلافته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد كانت وفاة سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متأثراً بجراحِهِ تَحُوُّلاً خطيراً في سلسلة الحُكم والعِلم، واجتمع أهل الشُّورَى الذين عيَّنَهُم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فنظروا في الخلافة من بعده واختاروا بعد طول مُدَاولة عُثمان ابن عفان رضي الله عنه.

قال ابن عباس: لما فَرَغَ مِن دفن عمر بن الخطاب: اجتمع هؤلاء الرَّهط -يعني أهل الشُّورى- فقال عبدالرحمن بن عوف اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، قال الزبـير: قد جعلت أمري إلى علي، وقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبدالرحمن، فقال: عبدالرحمن أيكم تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه فسكت عثمان وعلي، فقال عبدالرحمن: أفتجعلونه إليّ، قالوا: نعم، فأخذ بـيد علي فقال: لك من قرابة رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت فآلله عليك لئن أُمِّرتَ لتعدلَنَّ ولئن أمّرتَ عثمان لتسمعنَّ

---

(١) هو عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف، ويرتفع نسبه إلى لؤي بن غالب، ولد في السنة السادسة من عام الفيل، وأسلم قديماً بمكة المكرمة وهو ابن تسع وثلاثين سنة، وكان الصديق سبباً في إسلامه، هاجر الهجرتين وتزوج رقية بنت رسول الله ﷺ، ثم تزوج بأم كلثوم، ولذلك سمي ذا النورين، وهو من السابقين الأولين وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة الذين توفي عنهم رسول الله وهو راضٍ، روى عن رسول الله مئة وستة وأربعين حديثاً. وفتحت في خلافته إفريقية وكرمان وسواحل الروم وطَبرستان وسجستان ونيسابور وفارس وأعمال خراسان وغيرها، وقتل وعمره ثلاث وثمانون سنة يوم الجمعة ثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين رحمه الله.

ولتطيعنَّ، قال: نعم، ثم خلا بعثمان، وقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق، قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثم ولج أهل الدار فبايعوه. اهـ[1].

وكانت مبايعته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد دفن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بثلاث ليالٍ، ومنذ أن ولي الخلافة قام فيهم بأمر الله وَجَيَّشَ الجيوش للفتوحات، ففي السنة التي وُلِّيَ فِيْهَا فتحت الري وفتح في الروم حصون كثيرة.

وأول ما نُقم عليه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما ولى الكوفة الوليدَ بن أبـي مُعَيطٍ وعزل سعد بن أبـي وقاص. وكان هذا العزل لسعد بداية التحول في علاقة الخليفة بالرأي العام وخاصة أنه حكي أن الوليد صلى بهم الصبح أربعاً وهو سكران ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟!

وخلال السنوات المتلاحقة أقام الخليفة عثمان عدداً معن المنجزات الهامة، كغزوة قبرص ثم الأندلس.

وزاد عثمان في مسجد الرسول ووسعه، وفي سنة ثلاثين فتحت بلاد كثيرة في خراسان وفتحت نيسابور صُلحاً وكذا مرو وبـيهق.

وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة منها سنتين لم ينقم عليه أحد[2] إلَّا أنه بعد ذلك استعمل جملة من أقربائه وأهل بـيته ووصلت إليه شكايات الناس ببعضهم فكان يكتفي بعتابهم ولم يعزلهم، وكأنَّه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان يتمهل في الأمر لحكمة يَراها وبُعد نظر لم يستسغه الآخرون.

قال الناظم:

إِذْ كَثَّـرَتْ مُسَـبِّبَاتُ الفِتَـنِ ... أَنْيابَهَا وَهَـاجَ بَحْـرُ الإِحَـنِ

وَجَاءَ جِيْلٌ لَمْ يَعِشْ عَصْرَ الهُدَى ... ومَطْلَعَ الإِيمانِ في أَرْضِ النَّدَى

(١) «الإشاعة» ص٣٧ .

(٢) «تاريخ الخلفاء» ص١٤٥-١٤٦.

يشير الناظم إلى ما جرى من سَيْرِ الفتنة في أُخريات عهد سيدنا عُثمان، فقد ذكر المؤرخون أن مجريات التَّحوُّلات التي عَكستها سُلوكيات بعض أَقْربَاء سيدنا عثمان جعلت الناقمين يتخذون المواقف حيالها.

فجاء أهل مصر إلى عثمان يشتكون من عبدالله بن أبـي سرح، فكتب عثمان إليه كتاباً يهدده فيه فأبى ابن أبـي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان، وضرب بعض من شكاه من أهل مصر حتى قتله، فَخَّر من أهل مصر سبعمائة فنـزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة ما صنع ابن أبـي سرح، فذهب جماعة منهم إلى عثمان ومنهم علي بن أبـي طالب، فقال لهم: اختاروا رجلاً أُوَلِّيْهِ عليكم، فأشار الناس على محمد ابن أبـي بكر الصديق فكتب عهده وولاه وخرج معهم عددٌ من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما هم إليه، وفي الطريق إذا هم بغلام على بعير يخبط به خبطاً كأنه يطلب أو مطلوب فسألوه، فقال: إن غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر، فقيل له: هذا أمير مصر، فقال: ليس هذا أريد، فقال له محمد بن أبـي بكر: غلام من أنت؟ فمرة يقول: غلام أمير المؤمنين، ومرة يقول: غلام مروان، فَفَتَّشوه فإذا معه كتاب من عثمان إلى ابن أبـي سرح، فجمع محمد بن أبـي بكر من كان عنده من المهاجرين والأنصار ثم فَكَّ الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه «**إذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتلْ في قتلِهِمْ وَأَبْطِلْ كتابَهُ وَقَر على عملك حتى يأتيك رأيي، واحبس من يجيءُ إليَّ بتظلم منك**».

فلما قرؤوا الكتاب فزعوا ورجعوا إلى المدينة وأظهروا ذلك للناس، فاشتد حَنَقُهُم، وذهب علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالكتاب والغلام إلى عثمان، فنفى عثمان أنه بعث بالكتاب، وقال: لا أمرت به ولا عِلمَ لي به، قال علي: فالخاتم خاتمك، قال: نعم، قال كيف خرج الغلام ببعيرك وبكتاب عليه خاتمك ولا تعلم، فحلف عثمان ما بعثتُ به ولا كتبتُ الكتاب ولا عِلْمَ لي به.

وأما الخط فعرفوه أنه خط مروان وسألوه أن يدفع إليهم مروان، فأبى ومروان عنده في الدار، فخرج القوم غضبى وحُوصر عثمان ومنعوه الماء وذهب الصحابة إلى بيوتهم معتبين، ومكث بعضهم على باب عثمان لحراسته، وَتَسَوَّرَ جماعةٌ الدَّار على عثمان، ولم يكن معه إلَّا امرأته، فدخل القوم عليه وقتلوه[1].

وكان قتله في أوسط أيام التشريق من سنة ٣٥ وقيل يوم الجمعة لثمانِ عَشْرٍ خَلَتْ من ذي الحجة، ودفن ليلة السبت واختلف في تحديد وفاته[2].

وقد أشار الناظم إلى هياج الفتنة التي أَدَّتْ إلى قتلِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إذ كان وَقُودُهَا سلوكُ جيلٍ لم

---

(١) المصدر السابق ص١٤١-١٥٠.

(٢) ومن البديهي أن موقف عثمان كان موقفاً سليماً في كل الأحوال وإن اقتضى الخطأ الناشئ عن مروان بن الحكم ما اقتضاه من تعصب وفتنة، فرجل الدولة والخلافة لا يمكن أن يفتح باب الإثارة على موقع القرار لمجرد اتخاذ الناس موقفاً معيناً، ولعل عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يريد أن يملي لمروان ويجمع خيوط مؤامرته لو تركه الثائرون دون ضعف ولا تحد، وكأنِّي بالاندفاع الناجم عن الموقف المذكور قد أخرج القوم عن طور الاعتدال في المطالبة كما لم يجد لدى الخليفة منفذاً يجاملهم به، بل كان موقفه السياسي سليماً، مما يؤكد بُعد نظره في معالجة المسألة.

وهذا هو الشأن نفسه بعد ذلك في قضية الإمام علي كرم الله وجهه ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين، فبعد نظر الإمام في شأن قتلة عثمان وأخذهم بعد جمع خيوط المؤامرة لم يقبله معاوية، بل وقف ومعه عدد من كبار الصحابة بنفس الاندفاع الذي أدى في عهد عثمان إلى قتله، وهذا ما يعبر عنه بالفتنة، حيث أنصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان في موقفه وأشار إليه محددا موقف الضاغطين عليه بأنهم منافقون.

وفي هذا البيان النبوي ملحظ هام جدا في تقييم سلوك المطالبين عثمان بالخلع، وإن كانت عقلانية المواقف تفيد سلامة مطلب الثائرين كما كانوا يعتقدون لما في أيديهم من الأدلة القاطعة.

فعقلانية الدوافع لا تقوم بشيء أمام قدسية القرار الشرعي وإن بدا صاحبه مختلَّ التوازن في معالجة الأمور، فالمحافظة على القرار مع اختلال توازن صاحبه أعظم عند الله من انتقال القرار إلى أيدي الغوغائية ومدبري المؤامرات.

يعشْ العصرَ الأول عصر الرسالة، بل وَرِثَ الإسلام عن طريق الآباء، فكان من السهل على هذه الأجيال أن تتجرأَ عَلَى أَحَدِ المبشرين بالجنة، وقد أشارت أحاديث النبي ﷺ إلى هذه المرحلة وما يدور فيها، وأنها لا تقف عند مسألة الصِّراع على الإمارة، وإنما لها أبعاد أخرى، فقد ورد في الحديث عن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «**قَتلَ النَّبِيُّ ﷺ يومَ الفَتْحِ رجلاً من قريش صَبْراً**» ثم قال: «**لا يُقْتَلُ مِنْ قريش بعد هذا اليوم صبراً إلا رَجُلٌ قتل عثمان بن عفان فاقْتلوه، فإلا تفعلوا تُقتلوا قَتْلَ الشَّاء**»[1].

إذن فمقتل عثمان تَحَوُّلٌ أَخبَرَ عنه ﷺ، ويجب أن يُتَّخَذَ فيه موقفٌ، وكأنَّ رسول الله ﷺ قد أَطَلَّ على فتنة عهد عثمان وامتحان الولاء فيها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال وعثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ محصور[2]: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إنها ستكون فتنةٌ واختلافٌ أو اختلافٌ وفتنةٌ**، قال: قلنا: مُرْنا يا رسول الله، قال: «**عليكم بالأمير وأصحابِه**» وأشار إلى عثمان[3]، وفي هذا الحديث يحدد الرسول المواقف قبل حصول التحَوُّلَاتِ.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ لعثمان: «**إنَّ اللهَ مُقَمِّصُكَ قَميصاً – أي مُوَلِّيكَ الخلافة – فإن أَرَادَكَ المنافقون على خلعه فلا تَخلعْهُ**»[4]. وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عثمان إنك سَتَلِي الخلافة بعدي، وسيُرِيدُكَ المنافقون على خلعها فلا تخلعْهَا، وصُمْ في ذلك اليوم تفطر عندي»[5]، ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عبدالله الحبري

---

(١) رواه البزار والطبراني عن الزبير بن العوام.

(٢) أي: محصور بمكة عام عمرة القضاء.

(٣) رواه الحاكم والبيهقي والطبراني في «الأوسط» كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه أحمد في مسنده والحاكم في «المستدرك» والطبراني في «المعجم الكبير» كلّهم عن عائشة رضي الله عنها. «الإشاعة» ص٣٩.

(٥) رواه ابن عدي وابن عساكر، المصدر السابق.

قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فذكر الحديث، وفيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا عثمانُ عسى أن يُقَمِّصَكَ اللهُ قميصاً، فإِنْ أرادك المنافقون على خَلْعِهِ فلا تَخْلَعْهُ» (ثلاث مرات)، فقال لها النعمان بن بشير: يا أم المؤمنين، أين كنتِ عن هذا الحديث؟ فقالت: نسيتُه وربِّ الكعبة حتى قُتِلَ الرجلُ. اهـ «إتحاف الجماعة» (١: ١٦٠).

وفي هذين الحديثين إشارة نبوية على امتداد الرؤية النفاقية داخل الجسد الاجتماعي الإسلامي، وما سيحصل من تفاقم في التحولات، وما يجب أن يتخذ معه عثمان من المواقف.

ولم تقف مسألة عثمان عند هذا الحد بل تحولت إلى قضية عالمية ينبني عليها مسيرةُ عصرٍ بكامله ومراحلَ متقلباتٍ كُثْر.

فعن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «**أَوَّلُ الفِتنِ قَتْلُ عُثمانَ وآخِرُهَا خُروجُ الدَّجَال**»[1] ورَبطَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين حركة العواطف وحقائق المواقف، فيقول فيما زاد ابن عساكر: «**والذي نفسي بيده مَا مِنْ رَجلٍ في قلبه مِثقال حَبَّةٍ من قَتْلِ عُثمانَ إلا تَبِعَ الدَّجالَ إن أَدْرَكَهُ، وإنْ لم يُدْرِكْهُ آمنَ به في قَبْرِه**».

إذن فمقتل عثمان كان «**مرحلة**» ومنعطفاً عالمياً في تَحوُّلات الأُمَّة ومسيرة الانحراف نحو منطلقات المسيخ الدِّجال.

قال السيوطي في «تاريخ الخلفاء» وأخرج عن سمرة قال: إنَّ الإسلامَ كان في حِصنٍ حصين، وإنهم ثُلِمُوا في الإسلام ثُلمَةً بقتلهم عثمان لا تسدُّ إلى يوم القيامة، وإن أهل المدينة كانت فيهم الخلافة فأخرجوها ولم تَعدْ فيهم».

وأخرج محمد بن سيرين قال: «لم تُفقد الخيل البلق في المغازي والجيوش[2] حتى قُتل عثمان»،

(١) سبق تخريجه.

(٢) يقصد قتال الملائكة مع المسلمين.

وفي هذا دلالةٌ على تحولٍ في شأن عِزَةِ الأمة وعلاقتها بالجهاد في سبـيل الله ومواقفها من عدوها العالمي، ولم يُختلف في الأهلة حتى قُتل عثمان. اهـ[1].

وَاشْـتَبَكَتْ مَسَـائِلُ السِّيَاسَـةِ ... لِتَنْتَهِـي بِفِتْنَـةِ الرِّئَاسَـةِ
وَنَازَعُـوْا عُثْمَـانَ فِـي سِياسَـتِهْ ... وَقَتَلُـوْهُ وَهْـوَ فِـي تِلاوَتِـهْ
وَلَـمْ يُفِـدْ وُجُـوْدُ أَهْـلِ العَقْـلِ ... وَسَـادَةِ العِلْـمِ رُوَاةِ النَّقْـلِ
إِذْ بَلَـغَ السَّـيْلُ إِلَـى حَـدِّ الزُّبَى ... وَاشْـتَدَّ حَـالُ المُسْـلِمِينَ وَكَبَا

إشارة في الأبـيات إلى فتح باب النِّزاع السياسي قُبـيل مَقْتَل سيدنا عثمان، ودخول هَيْشَاتِ الأسواق في تسيير دفة الصراع، وبروز العديد من مظاهر الثَّراء والرغبة في الرِّئاسة.

أخرج ابن عساكر عن حكيم بن عباد بن حنيف قال: «**أَوَّلُ مُنْكرٍ ظَهَرَ بالمدينةِ حِين فَاضتِ الدُّنيا وانتهى سِمَنُ النَّاس**» . أي: ظَهَرت الدَّعَةُ والرَّفَاهِيَّةُ التي لم تُؤْلَفْ من قبل.

وَسَـالَ دَمُّ أَحَـدِ الصَّحَابَةِ ... بِسَـيْفِ مَـنْ آمَـنَ بِالإِضَافَـةِ

أي: قُتِل سيدنا عثمان وهو أحد صحابة رسول الله والمبشر بالجنَّة على يد عدد من غَوْغَاء مصر والمدينة ممن اجتمعوا في فتنة الصراع.

وقد أشارتْ بعض كتب التاريخ إلى أن محمد بن أبـي بكر الصديق كان مع المتَسَوِّرِيْنَ

---

(١) «تاريخ الخلفاء» ص١٥٣، وربط بعض شراح الحديث بين الفتن على عهد عثمان رضي الله عنه وضياع خاتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان في يده بوقوعه في بئر أريس: فقال: قال الباجوري: وفي وقوعه إشارة إلى أن أمر الخلافة كان منوطا به، فقد تواصلت الفتن وتفرقت الكلمة وحصل الهرج، ولذلك قال بعضهم: كان في خاتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما في خاتم سليمان من الأسرار؛ لأن خاتم سليمان لما فقد ذهب ملكه وخاتمه صلى الله عليه وآله وسلم لما فقد من عثمان انتقص الأمر وحصلت الفتن التي أفضت إلى قتله واتصلت إلى آخر الزمان. اهـ عن كتاب «منتهى السول على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول» (١: ٥٥٨) طبعة دار طوق النجاة ١٤١٩ هـ.

الدَّارَ على سيدنا عثمان، دخلوا عليه من جهة دار رجل من الأنصار دون أن يعلم بهم أحدٌ ممن حوله، لأنهم كانوا فوق البيوت، ولم يكن معه إلَّا امرأته، فدخل محمد بن أبي بكر الصديق وأخذ بلحية عثمان، فقال له عثمان: واللهِ لو رَآكَ أَبُوكَ لسَاءَهُ مَكانك مِنِّي، فَتَراخَتْ يده، ودخل رجلان آخران فقتلاه وخرجا هَارِبَين من الدار، وصرختْ امرأته فلم يُسمع صُرَاخُها لما كان في الدار من الجَلَبَة حتى صعدت امرأته على النَّاس، وقالت: إنَّ أميرَ المؤمنين قد قُتل، فدخل الناس فوجدوه مَذْبُوحاً[1].

وَانْتَحَبَ الإِمَامُ فَوْقَ صَاحِبِهْ ... حَتَّى اسْتَرَابُوْا مَوْتَهُ بِجَانِبِهْ

وَقَالَ تَبَّاً آخِرَ الدَّهْرِ لهُمْ ... لَمْ يُحْسِنُوا صُنْعَاً فخَابُوا كُلُّهُمْ

يشير الناظم لموقف الإمام علي أمام خطورة التَّحَول بقتل عثمان، فقد ذُكِرَ أنَّ علياً بعث بالحسن والحسين، وقال: اذهبا بسيفيكما حتى تَقُومَا على باب عثمان، فلا تَدعَا أحداً يصل إليه، وخضب الحسن بن علي بالدم على الباب حيث رماه أهل الحصار[2].

ولما عَلِمَ الإمام علي بخبر مقتل عُثمان وكان في أرضٍ له، فقال: «**اللَّهُمَّ إني لم أرْضَ ولم أُمالِئْ**».

قال الأعمش عن أبي جعفر الأنصاري قال: لما قُتل عثمان جِئتُ عَلِيَّاً وهو جالس في المسجد وعليه عمامةٌ سوداء، فقلت له: قُتل عُثْمان! فقال: «**تبَّاً لهم آخرَ الدَّهر**».

وروى الربيع بدر بن سيار عن أبي العالية أن علياً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ دخل على عثمان فوقع عليه

---

(١) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص١٥٠، ومما ذكره: أخرج عساكر عن كنانة مولى صفية وغيره قالوا: قَتَلَ عثمانَ رجلٌ من أهل مصر أزرق أشقر يقال له: حمار.

(٢) المصدر السابق.

وجعل يبكي حتى ظَنُّوا أنه سيلحق به[1].

لقد كان مقتل عثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَحوُّلاً خطيراً في تاريخ الدعوة الإسلامية كُلِّها؛ لأنها ارتبطت بالنصِّ مباشرة، وبرزت كإحدى الركائزِ الثلاثِ التي أشار النبـي ﷺ إلى خطورتها في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده وابن شيبة في تاريخ المدينة عن عبدالله بن حوالة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبـي ﷺ أنه قال: «**مَنْ نَجَا من ثلاثٍ فقد نَجَا**» قالوا: ماذا يا رسول الله ؟ قال: «**مَوْتِـي، وخُروجُ الدَّجال، وقَتل خليفةٍ مُصْطَبر بالحقِّ يُعْطِيه**»[2].

وَكَأنِّـي بالتبريرات التي تكتنف الأحداث تشير إلى أن الفتنة مختلطة بها بحيث تخفى على الحصيف فضلاً عن الغرِّ والعَجُول، وأيّـاً كانت عَدَالَةُ المَطْلَبِ الذي اتخذه المصريون أمام عُثمان في تسليم مروان أو عقابه على ما فعل بهم، وما فُعِل بعثمان أيضاً فإنَّ مجريات الأحداث كانت لا تحمل الحل من كل الوجوه، بل تحفز بالجميع نحو الفتنة، وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ للهِ سَيفاً مَغْمُوداً في غِمْده ما دَامَ عُثْمان بن عفان حَيّـاً، فإذا قُتل عُثمان جُرِّدَ ذلك السيفُ فلم يُغْمد إلى يومِ القِيامة**» [3].

وهذا يفسر الفرق بـين النهايتين: نهاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ونهاية الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

قال ابن بطال: إنما خُصّ عثمان بذكر البَلَاء[4] مع أن عمر قُتل أيضاً ؛ لكون عمر لم يُمْتَحَنْ بمثْلِ ما امتُحِنَ به عثمانُ من تسلُّطِ القوم الذين أرادوا أن ينخلعَ من إمَامَتِه بسبب ما نسبوه إليه

(١) «الفتنة المعاصرة وموقف المسلمين منها» ص ١٣٨.

(٢) «تحقيق مواقف الصحابة» (٢: ٨)، وفيه إشارة للذين ساهموا في تأييد الناس على عثمان.

(٣) رواه ابن عدي والديلمي وابن عساكر عن أنس مرفوعاً، وقال ابن عدي : تفرّد به عمرو بن فائد وله مناكير. انظر «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص١٥٢.

(٤) إشارة إلى قوله ﷺ: «**وبشِّرَه بالجنة على بلوى تصيبه**» .

من الجور والظلم، مع تنصله عن ذلك واعتذاره عن كل ما أوردوه عليه، ثم هجومهم عليه في داره وهتكهم ستر أهله.[1].

وقد صَبَـرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صبراً جميلاً على ما حدث له وهو يعلم مصيره، فقد روي عن أبـي سهلة مولى عثمان، قال قال لي عثمان يوم الدَّار: إن رسول الله ﷺ قد عهد إليّ عهداً فأنا صابرٌ عليه. وحدث أيضاً عن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إنك سَتُبتلى بعدي فلا تقاتلن**» [2].

ويفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال: الذين يأمرون بالقسط من الناس: ولاة العدل عثمان وضربه.

---

(١) «تحقيق مواقف الصحابة» (٢: ٩).

(٢) رواه أبو يعلى عن عثمان رضي الله عنه. انظر «تحقيق مواقف الصحابة» (٢: ١٠).

مَوْاقِفُ الصَّحَابةِ من قَتْلِ عُثْمَان

يعتبر مقتل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ منعطفا وتحولا خطيرا في تقرير مصير المعاصرين له، وبهذا وَلَجَ كثير من الطاعنين في بعض الصحابة على غير تثبت تبعاً للتحولات التي طرأت وما نقله الأخباريون عنهم.

وقد أشار صاحب كتاب «تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة» إلى هذا الموضوع بتفصيل مفيد، وأبرز مواقف الصحابة العدول، وأنهم برآءٌ من التآمر على عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فقد أخرج الإمام أحمد في فضائل الصحابة عن عبدالرحمن بن أبـي ليلى قال: «**رأيتُ عَلياً رافعاً حِضْنَيْهِ، يقول: اللَّهم إني أَبْرأُ إليكَ من دَمِّ عُثمان**».

عن عميرة بن سعد قال: كنا مع عليٍّ على شاطئ الفرات فمرت سفينة مرفوع شراعها، فقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**يقول الله عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ والذي أنشأها في بحر من بحاره ما قتلتُ عثمان ولا مالأتُ على قتله**» [1]، وعن ابن سيرين قال: لقد قُتل عثمانُ يوم قُتل وما أحدٌ يتّهم عليّاً في قتله[2].

وعن حذيفة لَمّا بلغه قتلُ عثمان، قال: اللَّهم إنك تَعلمُ بَراءتي من دَمِ عُثمان، فإن كان الذين قَتَلُوه أَصَابُوا فإني بريءٌ منه، وإن كان أَخْطَؤوا فقد تعلم بَراءتي من ذِمته، وستَعلم العربُ لئن كانت أصابتْ بقتله لتَحلبنَّ بذلك لبناً وإن كانت أخطأتْ بقتله لتحلبنَّ بذلك دماً، فاحتَلِبُوا

(١) المصدر السابق (٢: ١٩).

(٢) المصدر السابق.

بذلك دَماً ما رفعت عنهم السيوف ولا القتل [1].

وروى ابن شيبة عن طلق بن حنشاف، قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: فيم قُتل أمير المؤمنين عثمان؟ قالت: قُتِل مَظْلوماً لَعنَ اللهُ قَتَلَتَه، وروى عن بعض أزواج النبـي ﷺ إنهنّ قلنَ حين قتل عثمان: هَجَمَ البَلاءُ وانكفأ الإسلام[2].

وأخرج أبو نعيم في معرفة الصحابة بسنده إلى عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: عُثمان بن عفان ذو النُّورين قُتل مَظْلُوماً، أُوتي كِفْلَين مِن الأَجْر[3].

وروى ابن سعد في الطبقات بإسناده إلى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: لو أجمع النَّاس على قَتل عُثمان لرُمُوا بالحجارةِ كَما رُمِي قَوم لُوط[4].

وعن الزهري قال: كان سعيد بن المُسيب يسمي العام الذي قتل فيه عُثمان عام الحُزْن[5].

وهذه النصوص وغيرها تثبت سلامة موقف الصحابة من الوقوع في الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأنها مرحلةُ تحولٍ خطيرٍ وشرٍّ مُستطيرٍ ولا يتناسب ما كان فيها من الخيانات على من أخذ عن رسول الله ﷺ.

وقد سُئل الحسن البصري رحمه الله -وهو شاهدُ عيان- أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والأنصار؟، قال: «**كَانوا أَعْلاجَاً من أهل مِصر**» ولما جاء حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خبر مقتل عثمان وكان على فراش الموت، قال: «**اليوم نَفرت القُلوب بأنْفَارها، الحمدُ لله الذي سَبقَ بـي الفتن قَادتها وعُلُوجَها**».

(١) المصدر السابق (٢: ٢٨)، وكذلك «فضائل عثمان بن عفان» لعبد الله بن أحمد بن حنبل (١: ٩٤) .

(٢) المصدر السابق (٢: ٣١).

(٣) المصدر السابق (٢: ٣٣).

(٤) المصدر السابق (٢: ٣٧).

(٥) المصدر السابق (٢: ٤٦).

وجملة مواقف سيِّدنا عُثمان:

١) اشترى بئر أرومه.

٢) جهز جيش العسرة.

٣) اتساع الفتوح في عصره.

٤) تحولت الدولة في عهده إلى دولة بحرية لأمره باستخدام الأساطيل البحرية.

٥) جمع العالم الإسلامي على نسخة المصحف الإمام.

٦) منع الصحابة من الدفاع عنه في الفتنة وطلب سلامة الآخرين التزاماً بما أوعده به رسول الله ﷺ.

عصر الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه

* «عليٌّ مع القُرْآن والقُرْآنُ مع عَلي لن يَفْتَـرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوض» .

رواه الحاكم والطبراني في «الأوسط» عن أم سلمة

* «أَنَا مَدينةُ العِلم وعَليٌّ بَابُها فمن أرادَ المدينةَ فليأتِ الباب».

رواه الحاكم والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما

* عن أبـي ذر: «ما كُنا نَعرفُ المنافقين إلا بتكذيبهم الله ورسوله والتَخلُّف عن الصَّلَوات والبغض لعليٍّ بن أبـي طَالب».

أخرجه الخطيب في «المتفق»

* «إنَّ الأُمَّة ستغدرُ بِكَ بعدي وأنتَ تعيشُ على مِلَّتِي وتُقْتَلُ على سُنَّتِي، من أَحبَّكَ أَحبَّني ومن أبغضكَ أبغضِني، وإنَّ هذه ستُخضبُ من هَذا – يعني لِحيتَه من رَأسِه– «.

أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن علي بن أبي طالب

* قال رجل للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نسمعك تقول في الخطبة: «اللهُمَّ أصلحنا بما أصلحتَ به الخلفاءَ الراشدين المَهْدِيِّين».. فمَن هُم؟ فاغْرَوْرَقَتْ عيناهُ وقال: «هما حَبِيبَايَ أبوبكرٍ وعُمَرَ إماما الهدى وشيخا الإسلام ورَجُلا قريشٍ والمقتدى بهما بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مَنِ اقتدى بهما عُصِمَ ومَنِ اتَّبَعَ آثارَهُما هُدِيَ إلى الصراط المستقيم، ومَن تَمَسَّكَ بهما فهو من حزب الله»

ذكره السيوطي في «تاريخ الخلفاء»

مَظاهرُ التَّحوُّلات وبناءُ المَواقف على عَهْد الإمامِ علي بن أبي طالب كرم اَلله وجهه(١)

---

(١) هو أبو الحسن وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الإسلام وخَتَنُهُ على ابنته سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء وأحد العشرة المبشرين بالجنة، أبوه أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبدمناف وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، كان أول من أسلم من الفتيان وكتم إسلامه، وهو أول من صلى مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد خديجة عليها السلام.

أنابه صلى الله عليه وآله وسلم بديلا في أداء أمانات الناس ليلة الهجرة وقال له: «**إِنَّ قُرَيْشاً لم يَفْقِدُوني ما رَأَوْكَ**» واضطجع علي وكانت قريش تنظر إلى فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم تر إلا عليا وتظنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أصبح الصباح فوجدوا عليا فقالوا: لو خرج محمدٌ لخرج عليٌّ معه، ولحق الإمام علي رضي الله عنه برسول الله بعد أداء الودائع التي لديه، وقدم المدينة وقدماه تقطران دما من جراء مشيه ليلا وكمونه نهارا، فلما قدم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**ادعوا لي عليا**»، فقيل: إنه لا يقدر على المشي، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأى ما بقدميه فتفل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يديه ومسح بهما رجليه ثم دعا له بالعافية، فلم يشتك منهما حتى استشهد رضي الله عنه.

وتزوج الإمام علي رضي الله عنه بفاطمة الزهراء رضي الله عنها بعد غزوة أحد، وكان عمرها خمسة عشر عاما وخمسة اشهر، فأصدقها درعه (الحطمية) التي أهداها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له، وولدت له الحسن والحسين ومحسناً.

وصفه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه باب العلم فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**أَنَا مَدِينَةُ العِلْمِ وعَلِيٌّ بَابُها، فمَن أَرادَ العِلْمَ فلْيَأْتِ بَابَهُ**» وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب) .

شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المغازي كلها سوى تبوك حيث استخلفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المدينة، ولما آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه اتخذ عليا أخاه دون غيره، ففي الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه فجاء علي تدمع عيناه فقال: يا رسول الله.. آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد؟ فقال رسول الله

وبُويِـعَ   الإمـامُ   بالخِلافَـةِ   والظَّـرْفُ صَعْبٌ لبُلُـوغِ الغايَةِ

يشير الناظم إلى ما جرى بعد مقتل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ من إلزام الناس الخلافة إلى الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ والمرحلة تغلي كالمِرْجَل، حيث أشارت كتب السير والتاريخ عن اضطراب حال

صلى الله عليه وآله وسلم : «**أَنْتَ أَخِي فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ**» .

وجلل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهل بيته بكسائه وضم عليا رضي الله عنه وفاطمة والحسن والحسين وقال: «**اللهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلُ بَيتِي وخَاصَّتِي.. اللهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرا**» ، قالت أم سلمة: يا رسول الله أنا منهم؟ قال: «**إِنَّكِ إلى خَيْرٍ**» رواه أحمد في مسنده.

وعن علي رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بيد حسن وحسين وقال: «**مَنْ أَحَبَّنِي وأَحَبَّ هَذَينِ وأَبَاهُمَا وأُمَّهُما كان مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ**» رواه الترمذي.

عرف رضي الله عنه بشجاعته وإقدامه فارسا لا يجارى، وكان يوم خيبر على الراية لمكانته القتالية الفريدة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه ليلا: «**لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ على يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ، ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ**» ، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الصباح غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «**أَيْنَ عَلِيُّ بنُ أبي طَالِبٍ؟**» فقالوا: يا رسول الله يشتكي عينيه، فقال: «**فَأَرْسِلُوا لَهُ**» ، فأتي به فبصق في عينيه ودعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية .

بويع له رضي الله عنه بالخلافة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ولكنه لم يستقر في المدينة ونقل مركز الخلافة إلى الكوفة، وهناك استقر بها ولكن الفتن تفاقمت وتوسعت وعانى منها كثيرا رضي الله عنه، ولأجل ذلك خاض حروبا عديدة منها معركة صفين والجمل والنهروان.

وكانت مدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، واستشهد رضي الله عنه على يد أشقى الآخرين عبدالرحمن بن ملجم الخارجي، ومكث بعد ضربه بالسيف ثلاثة أيام ومات فغسله الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر، وكانت وفاته لأحد عشرة بقيتا من رمضان سنة ٤٠ هـ.

واختلف في موقع قبره فقيل: عُمِّيَ عليه حتى لا ينبشه الخوارج، وأرجح الأقوال أنه في النجف الأشرف بالعراق، رحمه الله رحمة الأبرار.

المسلمين بمقتل عثمان فقام كبار الصحابة ودخلوا على الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقالوا: «**إن هذا الرجل قد قُتل ولابد للناس من إمامٍ ولا نجد اليوم أحداً أحقَّ بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول الله** ﷺ، فقال: **لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيرٌ من أن أكون أميراً**، فقالوا: **لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خَفيّاً ولا تكون إلا عن رِضى المسلمين، فبايعَهُ المهاجرون والأنصار ثم بَايَعَهُ الناس**»[1].

ورُويت في قصة بيعته حوالي ثماني روايات كلّها تُشير إلى مشروعية خلافته، يقول ابن عساكر في تاريخه: «**بُويعَ عَليٌّ بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بالمدينة يوم الجُمعة حِين قُتل عُثمان لاثنتي عشرة ليلة بقيتْ من ذي الحجة فاستقبلَ المحرم سَنة ست وثلاثين.. ثم بُويع البيعة العَامة في مَسْجِدِ رسول الله** ﷺ»[2].

ويقول الحافظ الذهبي في شأن البيعة: «**لما قُتلِ عُثمان سَعَى النَّاس إلى عَلي، وقالوا: لابد للنَّاس من إمامٍ فحضر طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص والأعيان، وكان أَوَّل من بايعَهُ طَلحة ثم سَائر النَّاس**»[3].

وما روي غير ذلك من الروايات ففيها نظر[4]، قال صاحب تحقيق موقف الصحابة: والذي يظهر من هذه الروايات -بعد إيراد العديد من الروايات- أنَّ التوقف في البيعة كان في البداية فقط كما كان علي ذاته يأباها فلما اتضح الأمر واجتمع الناس على بيعة علي بايع هؤلاء، وليس أدل على ذلك من قول الواقدي: ولم يتخلف أَحَدٌ من الأنصار إلَّا بايع فيما نعلم.

ويقول ابن كثير: فلما كان يوم الجمعة وصعد عليٌّ المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس.

---

(١) المصدر السابق (٢: ٥٩-٦٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (٢: ٨٠).

(٤) المصدر السابق، وقد صنف في هذا الموضوع الأخ حسن فرحان المالكي رسالة وافية.

وكان من قدر الله في تحولات هذه المرحلة أن شَقَّ بعض بني أمية العصا وهربوا من المدينة إلى الشام ومكة فراراً من بـيعة الإمام، والذين ذهبوا إلى الشام حملوا معهم قميص عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُضرَّجاً بالدِّماء وأَنَامِلُ زوجته نَائلة بنت الفُرافِصة التي بَتَرها القتلة وهي تدافع عن زوجها.

وعلَّق معاويةُ القميصَ على منبر جامع دمشق وأعلن العصيان على الإمام مطالباً بثأر عثمان وأنه لن يُبايع حتى يسلم إليه القتلة.

وواجه الإمام علي أمام هذه الأوضاع عدة مشاكل كانت سبباً في التحولات المتداعية.

الأولى: مطالبة الخوارج له بقَتَلَةِ عثمان قبل البـيعة، وهو أمر لا يتأتى في ظل الوضع المضطرب.

الثانية: ضرورة عزله للولاة الذين يمثلون المرحلة الاستبدادية في وجهة نظر الناس.

الثالثة: التزامه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مبدأ الصراحة والصدق دون مداراة فيما يعلم أنه الحق.

وقد أشار عليه ابن عباس بتولية طلحة والزبـير على بعض الأمصار لتخفيف حدة التوتر، ولكن الإمام أَبَى، وقال: «إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **إن الوَلايةَ لا تُعطَى لمن يَطلبُها ولا لمن يَحرص عَليها**».

وتفاقمت الأمور في الشام بتأليب الناس على قتلة عثمان، وأثارت الجمهور ضد بـيعة الإمام علي، فأرسل الإمام علي إلى معاوية يحذره من شَقِّ عصا الطاعة ويدعوه إلى إنفاذ البـيعة ودرء الفتنة ولكن معاوية لم يرد.

وتنادى الناس بالمدينة وما حولها واحتشدوا لنصرة الإمام علي عند بلوغهم احتشاد أهل الشام؛ ولكن الإمام لم يأذن لأحد بالخروج حتى يعذر الذين خرجوا عن طاعته.

وجاءت إلى المدينة أموال من الخراج فاتخذ الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ موقفاً عادلاً في التسوية بـين الناس في القسمة والأعطية على غير ما يعهدون في العهد السابق، فأثار ذلك الأمر التذمر لدى

الكثير من الناس وفيهم بعض المهاجرين والأنصار، ولما عاتبوه في ذلك أبى، وقال: «**إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جَاع فقيرٌ إلا بتخمة غني**»[1].

ونصحه المغيرة بن شعبة أن يثبتَ معاوية على الشام في الإمارة حتى يلتزم الطاعة فأبى، وقال: «**إن أقررت معاوية على ما في يده كنت متخذاً المضلين عَضداً، ولا يراني الله كذلك أبداً**».

وعزل الإمام علي كافة عمال عثمان في الأمصار ولم يُبقِ أحداً غير أبـي موسى الأشعري، وأرسل سهل بن حنيف الأنصاري والياً على الشام خلعاً لمعاوية بن أبـي سفيان فتلقاه بتبوك فرسانٌ من أهل الشام وهددوه بالقتل إن هو دخل الشام وردوه إلى المدينة.

فدعا الإمام علي كبار الصحابة ومنهم طلحة والزبـير وعرض عليهم الأمر، وذكر لهم أنه لابد أن يتجهز لقتال معاوية ولا ينتظر حتى يزحف على المدينة بجيش من الشام.

وفي هذه الأثناء كانت عائشة رضي الله عنها قد فرغت من الحج عائدة إلى المدينة فبلغها خبر مقتل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهي بالطريق فعادت إلى مكة وأعلنت عن مطالبتها بدم عثمان.

وعلم الإمام علي بما يجري بمكة فأصابه الحزن والإشفاق من هذه التداعيات والتحولات، وجاءه طلحة والزبـير يستأذنا في الذهاب إلى العمرة فأذن لهما، وقال: ما العمرة تريدان إنما تريدان أن تمضيا إلى شأنكما فامضيا[2].

وفي مكة اتفق شأن طلحة والزبـير مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على الخروج إلى العراق للمطالبة بدم عثمان، والنظر في الأمر ووصلت الأنباء إلى الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بخروجهم إلى البصرة فأخذ يجهز للرحيل.

---

(١) «إمام المتقين» للشرقاوي ص٢٣٧ – ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٧.

وكان يرجو أَنْ يُقيمَ العَدْلا إِذْ كَانَ مَعْدُوداً لَهُ بَل أَهْلا
فَاشتَبَكَتْ مَسائِلُ التَّحَوُّلِ بِطَمَعِ الجَاهِ مَعَ التَّمَوُّلِ

تشير الأبيات إلى ما برز للإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من خطورة الموقف والتحولات، وأنها استمرار خطير لما أخبر به ﷺ من الفتن المتلاحقة، وكيف التبس الأمر حتى على جهابذة العلم والمعرفة ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

ومِن غَريبِ آيَةِ التَّحَوُّلِ ما كان من بعضِ الرجال الكُمَّلِ
كمَوْقِفِ الزبيرِ أو كَطَلَحَةِ أَوِ الحُمَيرَا فِي مَسيرِ الفِتْنَةِ
تَنْبَحُهَا كِلابُ ماءِ الحَوْأَبِ تحقيقَ قَولِ المُصْطَفى بيثربِ
فصَمَّمَتْ على الرجوعِ إنّما قامَ رجالٌ يَحْلِفُونَ القَسَما
بأَنَّ هذا الماءَ لَيسَ ما وَرَدْ فَصَدَّقَتْ وَأَمْرُ رَبي قد نَفَذْ

يشير الناظم إلى ما جرى من عجيب قدر الله في سلوك كبار الصحابة -كما ذكرهم في الأبيات- فهؤلاء كانوا على قدر عظيم من العلم والدين.

وقد ورد أن عائشة رضي الله عنها لما بلغ ركبها إلى ناحية من نواحي الطريق نبحت الكلاب، فسألت عائشة: أيُّ ماء هذا؟ قالوا: ماء الحَوْأَب، فصرختْ في ذُعر: ما أراني إلَّا راجعة، وثبت الجميع وسألوها؟ قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول لنسائه: «**كأني بإحداكنّ تنبحها كلاب الحوأب..**» ثم اتجه إليَّ وقال: «**إياك أن تكوني أنتِ يا حُميرا!**»؛ ولكن القوم جمعوا لها خمسين من الأعراب فحلفوا أن ماء الحوأب قد جاوزوه أول الليل.

ومضى الركب في الطريق إلى البصرة واجتمع الجيشان جيش علي وجيش طلحة والزبير وعائشة، ونزل عليٌّ بـ(ذي قار) ودعاهم ثلاثة أيام للصلح والتَّفَاهم، وكان قتلة عثمان في

الجيشين فخافوا أن يصطلح القوم فيكون فيهم قتلهم، فأخذوا يحرضون الناس على القتال.

ونادى عليٌّ الزبيرَ، وقال: تعال ولك الأمان، فخلا به، وقال: أنشدك الله.. هل سمعت رسول الله ﷺ، يقول وأنت لاوِي يَدِي: «**لتقاتلنّه وأنت له ظالم ثم ليُنصرنّ عليك**» ؟ **قال: لقد ذكّرتني شيئاً أنسانيهِ الدهرُ.. لا جرم.. لا أقاتلُك**»[١].

ونشبت المعركة في ظروف غامضة وقد كاد الفريقان أن يتفقا على أمر.

جاء في «تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة» فلما نـزل الناس منازلهم واطمأنوا خرج علي وخرج طلحة والزبـير وتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمراً هو أمثل من الصلح وترك الحرب، فافترقوا على ذلك وأرسل علي رَضِيَاللهُعَنْهُ إلى رؤساء أصحابه، وأرسل طلحة والزبـير إلى رؤساء أصحابهما ما عدا أولئكم الذين حاصروا عثمان.

فبات الناس على نية الصلح وبات الذين أثاروا الفتنة بشر ليلة، وقال قائلهم: «إن يصطلحوا مع علي فعلى دمائنا، وتكلم ابن السوداء عبدالله بن سبأ[٢] وهو المشير فيهم، فقال: يا قوم إن عزَّكم في خلطة الناس فصانعوهم، وإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، ويشغل الله علياً وطلحة والزبـير ومن رأى رأيهم عما تكرهون.

فغدوا في الغلس وعليهم ظلمة وما شعر بهم جيرانهم إلا وقد وضعوا فيهم السيوف فثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه الذين باغتوهم وخرج الزبـير وطلحة يسألان، فقالوا: طرَقَنا أهلُ الكوفة ليلاً، وقال أهلُ الكوفة: طرَقَنَا أهلُ البصرة ليلاً، وَنشَبَت المعركة[٣].

يقول الإمام الطحاوي: فجرتْ فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة والزبـير،

---

(١) رواه ابن أبي شيبة وابن منيع والعقيلي ، انظر «كنز العمال» (١١: ٣٤٠) و «الإشاعة» ص٤٩.

(٢) انظر الكلام عن السبئية ودورهم في الفتنة في الفصل القادم.

(٣) «تحقيق مواقف الصحابة» ص١١٦ – ١١٩.

وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين.

ويقول الباقلاني: وقال جملة من أهل العلم: إنَّ الواقعة بالبصرة بـينهم كانت على غير عزيمة على الحرب بل فجأة[١].

وأشير بعقر الجمل الذي عليه الهودج وكان فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فلما عقر حمل الهودج بما فيه إلى أمير المؤمنين، وضربت عليها قبة، وكان معها أخوها محمد بن أبـي بكر، فجاء إليها الإمام علي فسلم عليها، وقال: كيف أنت يا أمّ؟ قالت: بخير.. الله يغفر لك.

وأرسل بها إلى البصرة مع جمع من النسوة، ثم عزمت على الرجوع نحو المدينة، فبعث إليها الإمام بما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وأرسل معها أربعين امرأة من نساء البصرة وسيَّرَ معها أخاها محمداً.

وقد فَعَل الإمام علي مع أم المؤمنين ما فَعَل من الإكرام والأدب اعترافاً بفضلها ومكانها من رسول الله ﷺ، وامتثالاً لقوله ﷺ: «**إن وُلِّيتَ من أمرِها شيئاً فارْفِقْ بها**»[٢].

ولما سئل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن موقعة الجمل: أمشركون هم؟

قال: «**من الشرك فَرُّوا**» .

قيل: أمنافقون ؟

قال: «**إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً**» ،

قيل: فمن هم؟ قال: «**إخوانُنا بَغَوْا علينا**» [٣].

ولما فرغ الإمام علي من معركة الجمل ورجع إلى الكوفة أرسل جريرَ بن عبدالله البجلي

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٦.

(٢) الحاكم في «المستدرك» عن أم سلمة.

(٣) «الإشاعة» ص٥١ – ٥٤.

إلى معاوية بالشام يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ويبايع، فامتنع معاوية حتى يسلم قَتَلَةَ عثمان، وأخذ معاوية في تسيير جيش من الشام وأخذ الإمام يعدُّ العُدة للمقاتلة فالتقيا في صِفِّين، وحين عَسْكَر الإمام بصفين أرسل وفداً إلى معاوية يدعوه إلى حَقْن الدِّماء والدخول في المبايعة فأرسل إليه معاوية: إن عثمان قُتل مظلوماً فَليدفع لنا قتلته حتى نسلم هذا الأمر.

فقال الإمام: ادخلوا إلى البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه، فقالوا: لا تستحق بيعة وَقَتَلَة عثمان تراهم صباحاً ومساءاً[1].

لقد كان الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ غيرَ مُهادنٍ ولا مُساومٍ في مقتل عثمان، وإنما كان يرغب في استيثاق الكلمة وإقامة الأمن ثم يكون الطلب وتقع الدعوى ويكون الجواب وتقوم البينة ويجري القضاء في مجلس الحكم، ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدَّى ذلك إلى إثارة الفتنة وتشتيت الكلمة.

ونشبت الحرب بين الفريقين واقتتلوا اقتتالاً شديداً حتى بلغت القتلى ثلاثين ألفاً، ورجحت كفة الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الحرب وقُتل عمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقد قال ﷺ: «**عمارٌ تَقْتله الفئةُ الباغية**»[2].

قال الناظم: (٣)

وِمِثْلُهُ مَا قِيلَ فِي عَمَّارِ ... يَقْتُلُهُ البَاغُونَ بِالبَتَّارِ
عَلَامَةٌ حَدَّدَهَا نَبِيُّنَا ... فَحَرَّفَ البُغَاةُ مَعْنَىً بَيِّنَا
وَأَعْلَنُوا أَنَّ الَّذِي قَدْ قَتَلَهْ ... ذَاكَ الَّذي لِلحَرْبِ طَوْعاً حَمَلَهْ

---

(١) «تحقيق مواقف الصحابة» (٢: ١٥٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في رواية البخاري «**ويح عمار تقتله الفئة الباغية**».

كان مقتل عمار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تحولاً خطيراً في المواقف، وكاد جيش معاوية أن يُهزم، وخاصة أنَّ كثيراً من المقاتلة امتنع عن القتال لما عرف بالعلامة أن البُغاة هم قتلة عمار، فما كان من مهندسي الفتن إلَّا أن بـيَّنوا الأمر على غير وجهه، وقالوا: إن الذي جاء بعمار إلى الحرب هو علي وفئته، فهي التي قتلته، وهي الفئة الباغية، وليس جماعة معاوية، واستمر القتال.

وعندما برز الحَقُّ وانكشف جَيْشُ الشام عَمدُوا إلى حِيلة المصاحف ورفعها وطلب تحكيم كتاب الله، وكلا الموقفين في فقه التحولات انحرافٌ خطيرٌ في سُنَّة العِلم والحُكم.

قال الناظم:

فصَـارَ أَمْـرُ المَسْـخِ والتَّحَـوُّلِ   في الأمرِ والعِلمِ عَظيمَ المُشْكِلِ

فالباغون حرَّفوا سنة الحكم برفض البـيعة، ثم حرَّفوا سنة العلم بما قالوه في مفهوم الحديث: «**عَمَّار تقتله الفئة الباغية**»[1] وفي سياسة رفع المصاحف فوق الرماح مطلب تحكيم كتاب الله، وقد فَطِنَ الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ للخدعة والحِيلة، فصاح بجيشه كما نقله الطبري في تاريخه: إن أهل الشام لما رفعوا المصاحف على الرماح ونادوا بتحكيم كتاب الله في الخلاف لم يقبل ذلك الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ونبَّـه القوم إلى إنها مجرد خَديعة ومَكيدة بقوله: «**عِبادَ الله.. امْضُوا على حَقِّكم وصِدقكم في القتال، وَيْحَكُمْ إنهم ما رفعوها لكم إلا خديعةً ودهناً ومكيدة**».

وبرز هنا دور الخوارج ودور الأتباع المتعصبـين للرأي، فقال قوم: ما وسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله، فقال لهم: «**إني ما قاتلتهم إلا ليدينوا بحكم هذا الكتاب فإنهم قد عَصَوُا اللهَ عز وجل في أمرهم ونَسُوا عَهْدَهُ ونَبَذُوا كتابَهُ**».

فقال جماعة القراء: يا علي أجب إلى كتاب الله إذا دُعيت إليه، وإلَّا ندفعك بِرُمَّتِكَ إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك.

---

(١) سبق تخريجه.

قال: **احفظوا عني نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي، أمَّا أنا فإن تطيعوني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدالكم**.

وقبل القوم التحكيم واختاروا أبا موسى الأشعري، وتبدأ المحاورة حول الصلح، وفي هذه الأثناء دخل على الإمام قومٌ من القراء فيهم حُرْقُوص بن زهير السَّعدي قائلين: لا حكم إلَّا لله، تُبْ من خطيئتِكَ وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا، فقال الإمام: «**قد أردتُكم على ذلك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وشرطنا شروطاً وأعطينا عليها عهوداً ومواثيقاً**»، قال حُرْقُوص: ذاك ذنبٌ يجب أن تَتُوبَ منه، فقال علي: «**ما هو ذنبٌ ولكنه عَجزٌ في الرأي وضعفٌ في العَقل، وقد تقدمتُ إليكم فيما كان منه ونهيتُكم عنه**»، فأبوا وقالوا: لئن لم تدعْ تحكيم الرجال في كتاب الله قاتلناك نطلب بذلك وجه الله ورضوانه[1].

وجَرَى التحكيم على الوجه الذي ذَكَرَتْهُ رواياتُ التَّاريخ إلَّا أن الإمام البَاقلاني في «مناقب الأئمة» نقد رواية التحكيم ، قال الباقلاني: فما اتفق الحكمان على خلعه، وعلى أنهما لو اتفقا على ذلك لم ينخلع.

وتفرق القوم بعد التحكيم على غير وفاق ولا اتفاق، وبقي الإمام علي يجهز جيوشه لقتال أهل الشام مرة بعد أخرى إلَّا أن أمر الخوارج شغله عنهم.

إِذْ جَعَلَ البَاغُـوْنَ أَمْرَ الاِجْتِهَادْ — حَقَّـاً لَزِيْمـاً وَظَّفُـوْهُ لِلفَسَـادْ

فَاجْتَهَدُوْا بِالنَّصِّ فِي قَتْلِ الإِمَامْ — وَاعْتَبَـرُوْا القَتْلَ صَلَاحَـاً لِلأَنَامْ

يشير الناظم إلى الخَوارج واتخاذِهُمُ النُّصوصَ وَسِيْلَةً لتحقيق مآربهم وغاياتهم، قال ابن حَزْم عنهم: وأسلاف الخوارج - هم القراء - كانوا أعراباً قرؤوا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ ولم يكن فيهم أحدٌ من الفقهاء ولا من أصحاب أحد من علماء

---

(١) «تحقيق مواقف الصحابة» (٢: ٢٢١).

الصحابة، ولذا تجدهم يكفر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة تنـزل بهم من دقائق الفُتْيَا وصغارها، وكانوا قوماً كُثر في جيش الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وبرز دورهم الخطير في موقعة صفين، وكانوا أكثر الناس عِبادة وأقرأهم لكتاب الله؛ إلَّا أن الخلاف كان متأصلاً فيهم، فلم يفعل أمير المؤمنين شيئاً إلَّا وخالفوه[1].

وقد اتفقوا بعد التحكيم على كفر علي ومعاوية معاً، فاعتزلوا أمير المؤمنين ونـزلوا (حَرَوْراء)[2]، فأرسل إليهم الإمام عبدالله بن عباس فرجع بعضهم وأبى آخرون، وأخذ الإمام يقاتل الخوارج حتى هزمهم في موقعة النهروان، فلما فرغ الإمام منهم واستدل على ذي الثديتين في الحرب مقتولاً، قال أحدهم: الحمد لله الذي أبادهم وأراحنا منهم، فقال الإمام علي: «**كلا والذي نفسي بـيده إن منهم لمن في أَصلاب الرِّجال لم تحمله النِّساء بعد وليكونَنَّ آخرهم لصاصاً حَرادين**».

(١) المصدر السابق (٢: ٢٠٤).

(٢) حروراء موقع في نواحي الكوفة.

المدرسة السَّبَئِيَّة وبروزها[1]

(١) يرى ابن كثير في تاريخه أن مقتل عثمان كان مدبرا وأن تألب الأحزاب عليه كان من فعل ابن سبأ، ويؤيد هذا القول ما ذكره ابن خلدون في «العبر» (٢: ١٠٢٧): إن عبدالله بن سبأ يعرف بابن السوداء كان يهوديا فهاجر أيام عثمان فلم يحسن إسلامه فأخرج من البصرة فلحق الكوفة ثم الشام فأخرجوه فلحق بمصر، وكان يكثر الطعن على عثمان ويدعو في السر إلى أهل البيت ويحرض الناس على القيام بذلك، والطعن على الأمراء، فاستمال الناس بذلك في الأمصار، وكاتب بعضهم بعضا.اهـ.

ويشير إلى مثل ذلك المقريزي وابن حجر والسيوطي، ويقول ابن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ): عبدالله ابن سبأ صاحب السبئية. «المحبر» ص٣٠٨، ويقول ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ): السبئية ينسبون إلى عبدالله بن سبأ .اهـ. «المعارف» ص٦٢ (الطبعة المحققة)، وكل ذلك مما يؤكد علاقة ابن سبأ بأمرين:

أولا: تكوين فتنة المدرسة السبئية التي انتشرت فيما بعد داخل الخيمة الإسلامية وتطورت إلى منهج ومذهب اختلط بالمنهج الخاص بغلاة المتعلقين بآل البيت رضي الله عنهم وهم منه براء.

الثاني: علاقة هذه المدرسة وما تفرع منها بالمدرسة الدجالية العالمية التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بروزها عالميا منذ عهد آدم في العالم، وحذر منها بالخصوص في مسيرة الجسد الإسلامي بمقتل عثمان رضي الله عنه في قوله: «أول الفتن قتل عثمان وآخرها خروج الدجال» رواه ابن عدي وابن عساكر، انظر «الإشاعة» ص١٣٩.

وكان من خطر أعمال هذه المدرسة:

١- التخطيط في السر.

٢- اتخاذ آل البيت ذريعة لتأليب العامة وإدخال المعتقدات الفاسدة بين الإفراط والتفريط باسم آل البيت وهم منها براء.

٣- إثارة الفوضى وزعزعة الثقة بالحكم والأمراء من خلال الإرجاف وتكوين الأحزاب المتعارضة وانتحال المواقف السياسية بالتزوير كما هو في قضية عثمان رضي الله عنه وتزوير الرسالة التي أثارت المصريين وغيرها.

٤- استخدام الإشاعة والدعاية بصورة فعالة (الكذب الإعلامي).

٥- استغلال الفرص للإثارة والدفع بالمتنازعين للقتال والحرب كما هو في معركتي الجمل وصفين.

لقد كانت وسائل المدرسة السبئية هي الامتداد الخطير للمدرسة الدجالية العالمية داخل الجسد الإسلامي، وخاصة إذا علمنا أن مصدرها الأساسي هو (ابن سبأ اليهودي) وأن اليهود في العالم هو الذراع الأيمن للدجال ومدارسه في التاريخ، ولا تخفى وسائلهم الحقيرة في إسقاط الأنظمة والدول والتحريش السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإعلامي إلى اليوم وبعد اليوم، فهي سلسلة من المؤامرات ضد البشرية بعمومها، وضد دعوات الحق في العالم بخصوصها، ولهذا فإن النظرَ إلى (فتنة مقتل عثمان) من وجهة الإسلام العالمية لا يُفَسِّرُ القضيةَ بما يفسره المؤرخون المشتغلون بجزئيات المواقف، وإنما تُفَسر الحوادث بإعادة قراءة نصوص التحولات التي أخبر عنها صلى الله عليه وآله وسلم وربطها بمسيرة الأحداث بعد ذلك.

ولهذا فإن التمعن والتأمل لمواقف الصحابة أنفسهم وارتباكهم وقلقهم أمام هذه الفتن يبرز لنا العنصر الخفي الذي يعمل على إفساد المواقف، ويحرك الأمور ضد التيار الإسلامي الصحيح.

فسيدنا عثمان رضي الله عنه لما شعر بالفتنة في الأمصار وأن الأمة تتمخض عن شر قال: «والله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها» الطبري (٤: ٣٤٣) عن «تحقيق مواقف الصحابة».

وكان جواب الصحابة رضي الله عنهم لما جاءهم الأعراب الثائرون –وقد غشهم من غشهم بكتب ادعى أنها وردت من كبار الصحابة– أن الثائرين لم يجدوا منهم تشجيعا على ثورة ولا على فتنة بل تبرؤوا مما نسب إليهم من رسائل تؤلب الناس على عثمان رضي الله عنه ووجدوا عثمان مقدرا للحقوق بل وناظرهم فيما نسبوه إليه ورد عليهم افتراءاتهم وفسر لهم صدق آماله حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك بن الأشتر النخعي: لعله مكر به وبكم. المصدر السابق.

ولما اقترب (أعراب الفتنة) من المدينة بعثوا من يستطلع لهم أخبار المدينة فذهب رجلان فلقيا أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعليا وطلحة والزبير وقالا: إنما جئنا نستعفي عثمان من بعض عمالنا، واستأذنا لرفاقهم بدخول المدينة فأبى الصحابة وقال الإمام علي رضي الله عنه: «**لا آمركم بالإقدام على عثمان ، فإن أَبَيْتُمْ فبَيْضٌ سيُفَرَّخ**» فعاد الرجلان وعاد أهل الفتنة يحيكون حيلة أخرى للدخول، ولما دخل منهم جماعة قال لهم بعض الصحابة: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم.. فارجعوا لا صحبكم الله، وذو المروة وذو خشب مكانان نزل بهما ذلك الجيش، وفي رواية ابن عساكر عن علي بن أبي طالب: «**لقد علمتْ عائشةُ أن جيشَ المروة وأهل النهروان ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وآله وسلم**» قال أبوبكر بن عياش: جيشُ المروة قَتَلَةُ عثمان. «تحقيق مواقف

الصحابة» (١: ٣٣٢).

وفي المرة الأخيرة ظهرت قضية الرسالة المزورة التي خولت للأعراب الدخول إلى المدينة بعدها لإثارة الفتنة ولما دخلوا على عثمان رضي الله عنه قالوا: كتبتَ فينا بكذا وكذا، فقال: «إنهما اثنتان: أن يقيموا رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبتُ ولا أمليتُ ولا علمتُ» قالوا: قد أحل الله دمك ونقضتَ العهد والميثاق، وحصروه في القصر. اهـ.

واستوقف الإمام علي رضي الله عنه وفد الكوفة والبصرة وقد قالوا: إنما جئنا لننصر إخواننا ونمنعهم، فقال لهم الإمام علي رضي الله عنه: «**وكيف علمتُم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لَقِيَ أهلُ مصر وقد سِرْتُمْ مراحلَ ثمّ طويتُم نحوَنا؟**» ثم قال الإمام رضي الله عنه: «**هذا واللهِ أمرٌ أُبْرِمَ بالمدينة**» اهـ «تحقيق مواقف الصحابة» (١: ٣٣٤).

وتشير الوقائع إلى أن تزوير الكتب تكرر في هذه المرحلة، فهذه عائشة رضي الله تعالى عنها تُتهم بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان فتنفي وتقول: «لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبتُ لهم سوداءَ في بيضاءَ حتى جلستُ مجلسي هذا» رواه ابن كثير في «البداية والنهاية» ، عن «تحقيق مواقف الصحابة» (١: ٣٣٤) ويعقب الأعشى فيقول: فكانوا يَرَوْنَ أنه كُتبَ على لسانها.

ويتهم الوافدون عليا رضي الله عنه بأنه كتب إليها ليقدموا عليه المدينة فينكر ذلك ويقسم «والله ما كتبتُ إليكم كتاباً» انظر «تحقيق مواقف الصحابة» (١:٣٣٥) ، قال ابن كثير معلقا على هذه الأخبار: وهذا كذبٌ على الصحابة وإنما كتبت كتب مزورة عليهم، فقد كُتب من جهة علي وطلحة والزبير إلى الخوارج –قتلة عثمان– كتبٌ مزورةٌ عليهم أنكروها، وكذلك زور هذا الكتاب على عثمان أيضا فإنه لم يأمر به ولم يعلم به. اهـ.

ويستفاد من هذا كله أن هناك عنصرا مدسوسا يعمل لحساب مدرسة الدجال ذات العلاقة المباشرة باستثمار الفتن في تاريخ الديانات والشعوب.. ومنها المدرسة السبئية.. وقد استمالت (عنصر الأعراب) الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم من قبائل مختلطة من مضر وربيعة واليمن، وهؤلاء هم (القُرّاء) سلفُ الخوارج، ومنهم كما ذكره بعض الرواة الأعراب المرتدون الذين استعين بهم في الجهاد على عهد عثمان رضي الله عنهم، وتشير عائشة رضي الله عنها إلى هؤلاء بقولها بعد مقتل عثمان: «إن الغوغاء من أهل الأمصار ونُزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأحدثوا فيه الأحداث وآووا المحدثين.. مع ما نالوا من قتال إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر». اهـ «تحقيق مواقف الصحابة» (١: ٣٥٤).

المدرسة السبئية تعريف معاصر يشير إلى مدرسة ذات هوية سياسية منحرفة منتمية إلى مذهب عقيدي خطير ينسب إلى عبدالله بن سبأ الهمداني منشأ اليهودي أصلا، وله مذهب فكري معروف ذكرته أغلب كتب التاريخ والسير والطبقات، وصار فيما بعد مدرسة فكرية متميزة تحمل آراء ومعتقدات بذرت بذور الشقاق في المجتمع الإسلامي، وكانت من جملة العوامل التي أدت إلى مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وتفرق المسلمين شيعا وأحزابا، والتي اخترقت أتباع الإمام علي وشَذَّتْ وَغَلَتْ في الأحكام والتَّصورات والمواقف، وأرجفت في مسألة الولاء والبراء إرجافاً خطيراً، حتى كان للإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دورٌ فاعلٌ في معاقبة الغالين والمُفْرِطين والمُفرِّطين في محبته منهم، كمثل دوره الفاعل في معاقبة وتعقب الغالين في عدوانه والخروج عنه.

وهذا من فقه التحولات لدى الإمام ومعرفته بامتداد الفتنة وسيرها عبر الأزمنة، ولم يطل الأمر بالإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد حكم الخوارجُ بقتلِهِ وقَتْلِ معاويةَ وعمرو بن العاص في يومٍ واحدٍ.

قال في «الإشاعة» ص٥٩: لمّا رجع عليٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قتال الخوارج وتجهز للشام قُتل في سابع

وشدد الإمام علي رضي الله عنه على الأعراب بعد مقتل الخليفة عثمان وخاطب أهل المدينة بقوله: «**يا أيها الناس أخرجوا الأعراب عنكم**» وقال: «**يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم**» .. فأبت السبئية الطاعة وأطاعهم الأعراب. اهـ «تحقيق مواقف الصحابة» (١: ٣٥٤).

إذن فالمدرسة السبئية تعمل على إثارة المواقف وتستفيد من الأعراب والغوغائية، وهذا هو أيضا منهج المدرسة الدجالية في التاريخ الماضي والتاريخ المعاصر، وأساسها العمل على الإثارة وامتلاك موقع القرار أو منازعته، وفي هذا يقول الإمام علي رضي الله عنه لما بويع على الخلافة وطلب منه طلحة والزبير إقامة الحدود على قتلة عثمان: «**يا إخوتاه إني لستُ أجهل ما تعلمون.. ولكن كيف أصنعُ بقوم يملكوننا ولا نملكُهم؟ هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانُكم وثابت إليهم أعرابُكم..**» اهـ «تحقيق مواقف الصحابة» (١: ٣٥٥).

عشر من رمضان وهو خارج لصلاة الصبح، قَتَلَهُ أَشْقَى الآخرين عبدالرحمن بن مُلجِم ضربه بسيفٍ مسمومٍ ليلةَ الجمعة سنة أربعين للهجرة.

قال الناظم:

فَقَامَ أَشْـقَى القَوْمِ نَسْـلُ مُلجِمِ   غَـدْراً يُريـقُ دَمَ خَيـرِ مُسْـلِمِ

فَزَادَتِ الأُمُـورُ نَقْضاً وَانْتِقَاصْ   وَاشْتَبَكَتْ وَلمْ يَعُدْ مِنْهَا مَنَاصْ

إشارة من الناظم إلى اختتام حلقة الخلافة الراشدة بالإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**وانتقاض**» الأمور من بعده واشتباكها.

تَحوُّلات عَصْر الإمام عَلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومَواقِفه مِنْهَا

١) آثار مقتل عثمان وتبني القتلة سياسة المُرَاوَغَةِ والدفع بالأمور على طريق نشوء المدرسة الدجالية في الأمة.

٢) تشبث معاوية ومن معه في الشام بثأر عثمان حتَّى صار مَطِيَّةً للفتنة وسبباً في معركة صِفِّيْن وما تلاها.

٣) تَبَنِّي عائشةَ والزبير وطلحة قضية ثأر عثمان بالعراق، وسبباً موصلاً إلى معركة الجَمل على غير رضا منهم وإنما بإيعاز طرف ثالث يمثل مدرسة الدجال.

٤) انتشار ظاهرة الثراء والإقطاعات والمخصصات المالية التي حجزت الإمام علي عن إرضاء الجميع واضطراره إلى إيجاد سياسة مالية جديدة لم يرضَ عنها الكثير.

٥) بروز فئتين معارضتين لموقف الإمام علي وأهل بيته وأتباعه بعد معركة صفين، وهم:

١- غلاة الشيعة: الذين قَبِلُوْا التَّحْكِيمَ وألزموا الإمام به.

٢- الخوارج: الذين رفضوا التحكيم وخرجوا على الإمام.

وصارت هاتان الفئتان قوةً سياسيةً ذاتَ موقعٍ وتأثيرٍ في الواقع الاجتماعي إلى اليوم.

وقد قاتل الإمام علي الخوارج وانتصر عليهم، وأما الشيعة فقد انقسمت جماعاتهم بعد ذلك إلى أقسام متنوعة، وتبنى بعضهم مبادئ مختلفة تماماً عن مواقف الإمام علي وأهل بيته وخاصة من تأثروا بالمدرسة السبئية إلَّا من عصمه الله.

مرحلةُ الإمام الحَسَن السبْط رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (الخليفة الخامسَ)

* «إن ابني هذا سيِّدٌ وسيُصلِحُ الله به بين فئتين من المسلمين».

أخرجه أحمد والبخاري

* «نظر النبي ﷺ إلى علي وفاطمة والحسن والحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: أنا حَرْبٌ لمن حاربَكُم وسِلْمٌ لمن سالمكُم».

رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة

* «كانت جَماجمُ العرب بيدي يسالمون من سالمتُ ويحاربون من حاربتُ فتركتُهَا ابتغاءَ وجهِ الله».

الإمام الحسن بن علي

خِلافَةُ الإمامِ الحَسَنِ وتَنَازُلِه عَنِ الحُكْمِ(١)

وبَايـعَ النَّـاسُ الإمـامَ الحَسَـنَا ... خَلِيْفَةً يَرْجُوْ الكَرِيْمَ المُحْسِـنَا

فَقَـامَ بِالأَمْـرِ وَجَهَّـزَ الجُنُـوْدْ ... لِلشَّـامِ كَيْ يُلْزِمَهُمْ أَخْذَ العُهُوْدْ

يشير الناظم إلى ما جرى بعد مقتل الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الاجتماع على تعيين الإمام الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خليفةً للمسلمين حتى قيل: إن الذين اجتمعوا على بيعة الحسن أكثر ممن اجتمع على بيعة أبيه، فتمَّ الأمر على ذلك وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما ميالا إلى السلام ومعالجة الأمور بالحسنى إلا أن القوم دافعوه الأمر وأكثروا عليه في أمر الحرب ضد أهل الشام،

---

(١) ولد الإمام الحسن السبط يوم الثلاثاء خمسة عشر من رمضان في السنة الثالثة للهجرة، ويكنى «أبا محمد»، ويلقب «بالتقي»، حفظ عن جده جملة من الأحاديث وعن أبيه وعن أمه، وكان الحسن أشبه الناس برسول الله ﷺ، فعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أشبههم بالنبي ﷺ الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال النبي ﷺ للحسن: «**اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه**» رواه الترمذي، ولقد حَجَّ الحسن خمساً وعشرين حجة ماشياً على قدميه، وكان حكيماً كريماً صبوراً، توفي لخمس خلون من ربيع الأول سنة ٥٠ للهجرة النبوية وقيل سنة ٥٢ هـ ودفن في البقيع.

والعجيب أن المؤرخين لم يعتبروا الإمام الحسن خليفةً يُعدّ بعد الخلفاء الأربعة وإنما اعتبروا الخليفة الخامس عمر بن عبدالعزيز، والمعتقَد -والله أعلم- أن الإمامَ الحسنَ هو الخليفة الخامس، وأنه تنازل عن الحكم، فالمرحلة التي كان يحكم فيها كانتْ مرحلةً شرعيةً وموثقةً بالنص بالنبوي، وهي جزءٌ من مجريات فقه التحولات في المرحلة، بل هي مفترقٌ هامٌّ في طريق القرار الشرعي في الإسلام.

والخليفة السادس من هذه الوجهة هو عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وعنهم أجمعين، ولم يَثْبُتْ أن أحداً من العلماء والمؤرخين عَدَّ خلافةَ معاويةَ تسلسلاً عددياً في الخلفاء الراشدين، وإنما كانت خلافتُه بموافقة الإمام الحسن ورضاه لِمَا شابَ الأمرَ من ملابساتٍ وظروفٍ خاصةٍ أَلْزَمَتِ الإمامَ الحسنَ بالتنازل، ودفعتْ معاوية لاهتبالِ الموقف كما سبق اهتبالُه في التحكيم بينه وبين الإمام علي رضي الله عنه في معركة صفّين ولكن بصورة أخرى.

فخرج بهم إلى المدائن بعد خلافته بثمانية أشهر تقريبا، وكان الجيش من لفيف الناس والأعراب، والتقى الجيشان بناحية الأنبار من أرض السواد.

وراجع الإمام الحسن أهل الشام وعلى رأسهم معاوية ومن معه درءاً للفتنة وحقن الدماء، فما وجد من الجانبين إلا الرغبة في القتال، ورأى الحسن رضي الله عنه في أصحابه تفككا حتى قيل: إنه صاح صائح بهم أن قيس بن سعد بن عبادة قتل وكان قائد جيش الإمام الحسن، فهرج القوم وماجوا وأخذ ينهب بعضهم بعضا حتى نازعوا الحسن رضي الله عنه في فراشه الذي كان عليه وجرحه أحدهم بسلاحه.

ورأى الحسن بعد هذا الأمر وما سبقه أن يقبل الصلح ويولي الحكم إلى معاوية بشروطه، فأرسل إلى معاوية يفاوضه الأمر، فقَبِل معاوية وأرسل إليه أن اطلب ما شئت واشترط فإني أوفي لك بذلك وأرسَلَ بَـيَاضَاً وخَتَمَ في أسفله، فاشترط الحسن على معاوية ما يلي:

١) أن يكون بـيت مال الكوفة تحت تصرفه.

٢) أن يكون له خراج دار أبـي جرد.

٣) أن تكون الخلافة بعد معاوية له ولأخيه الحسين، وفي رواية: أن تكون للمسلمين يولوا من شاؤوا.

٤) أن لا يتعرض معاوية لأهل العراق ولا ينتقم منهم.

فتَمَّ الصُّلح والتوقيع على ذلك وقام الحسن بن علي خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، وقال: **«أيُّها الناس إن الله هَداكم بأوَّلِنا وحَقَنَ دِمَاءَكُم بِآخِرِنا، وإِنَّ معاوية نازعني أمراً أنا أحقُّ به منه، وإني تركته حَقْناً لدماء المسلمين وطَلَباً لما عند الله»** (١).

وجاء في «البداية والنهاية» أنه قال: إنَّ الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وان لهذا الأمر مُدة والدنيا دُوَل، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ

(١) «الإشاعة» ص٩١.

﴿لَكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ، ولم يَسُرَّ هذا معاويةَ ولم يزل في نفسه.

قال ابن كثير: وحصل على بيعة معاوية عامئذ الاجتماع والاتفاق، فرحل الحسن بن علي ومعه أخوه الحسين وبقية إخوتهم وابن عمهم عبد الله بن جعفر من أرض العراق إلى أرض المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام-، وجعل كلما مَرَّ بحيٍّ من شيعتهم يبكتونه على ما صنع من نزوله عن الأمر لمعاوية، وهو في ذلك البار الراشد الممدوح، وليس يجد في صدره حرجاً ولا تَلَوُّماً ولا ندماً؛ بل هو راضٍ بذلك مستبشرٌ به، وإن كان قد ساء هذا خلقاً من ذويه وأهله وشيعتهم، ولا سيما بعد ذلك بمدد وهَلُمَّ جَرَّاً إلى يومنا هذا.

والحقُّ في ذلك اتِّباعُ السنة ومدحُهُ فيما حَقَنَ به دماءَ الأمة، كما مَدَحَهُ على ذلك رسول الله ﷺ وكان أصحاب الحسن يقولون : يا عارَ المؤمنين، قال : فيقول لهم: العار خير من النار .

وقال له رجل يقال له أبو عامر: السلام عليك يا مذلَ المؤمنين، فقال: لا تَقُلْ هذا يا عامر ! لَستُ بمذل المؤمنين ولكنِّي كرهتُ أَنْ أقتلهم على الملك[1]. اهـ. وسُميت تلك السنة «سنةَ الجَماعة» لاجتماع الناس ورفع القتال، وتحقق للإمام الحسن ما قاله فيه جده ﷺ: «**إن ابني هذا سيِّدٌ، وسيصلح الله بين فئتين من المسلمين يكون بينهما مقتلة عظيمة**»[2].

---

(١) قلت: وفي هذه العبارة من الإمام الحسن إشارة إلى عدم اهتمامه بمسألة الملك كمطلب أساسي إذا اختُلف عليه وعرّضت دماء المسلمين للإهدار والإسالة، كما أنه من الملاحظِ وعيُ الخلفاءِ الراشدين المهديين رجالِ السلامة وحملةِ ميراث الاقتداء والاهتداء بأن التضحية بالحكم وقرار المُلك خيرٌ مِن سَفْك الدماء في سبيله مع وجود البديل الأفضل: وهو رضاء الله، والقيام بحق العلم، وخدمة الشعوب.

(٢) المصدر السابق، سبق تخريجه.

وصية الإمام الحسن بن علي لأخيه الحسين عند موته

جاء في «تاريخ الخميس» ص٢٩٣: روينا من عدة وجوه أن الحسن لما حضرته الوفاة قال للحسين أخيه: يا أخي، إن أباك حين قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استشرف لهذا الأمر رجاء أن يكون صاحبه فصرفه الله عنه ووليها أبوبكر، فلما حضرت أبابكر الوفاة تشرف لها أيضا فصرفت عنه إلى عمر، فلما قبض عمر جعلها شورى بين ستة هو أحدهم فلم يشك أنها لا تعدوه، فصرفت عنه إلى عثمان فلما هلك عثمان بويع له ثم نوزع حتى جرد السيف وطلبها فما صفا له شيء منها، وإني والله ما أرى أن يجمع الله فينا أهل البيت النبوة والخلافة، فلا أعرفنّك ما استخفك من سفهاء أهل الكوفة فأخرجوك.اهـ . وللوصية بقية متعلقة برغبته في أن يدفن في بيت عائشة تراجع في المصدر ذاته.

وفي هذه الوصية خلاصة (منهج السلامة لآل البيت رضي الله عنهم وأرضاهم) وهو المنهج السديد الذي جاء على لسان من مدحه جده صلى الله عليه وآله وسلم بالسيادة وبالإصلاح بين المتصارعين على القرار والحكم،وإذا طعن أحدهم في الوصية فلن يطعن في موقف الحسن وما ترتب عليه من اجتماع ووئام وحقن دماء، وإعادة حياة إلى الشعوب.

وكأني بفقه التحولات يقف رافدا لسلوك ومواقف آل البيت، تلكم المواقف المنتسبة بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ ذاته، ويلخص هذا الفقه الهام سلوك هذه المدرسة إلى ما يلي:

١. إن التجربة العملية منذ عهد صدر الإسلام إلى عهد مواقف الإمام علي زين العابدين بن الحسين ترسم لآل البيت منهجا عمليا جديدا، يجب فيه صرف النظر عن مسألة لمطالبة بالقرار والحكم.

٢. ألا يكون هؤلاء السادة الأشراف وسيلة لاستخفاف السفهاء من المتعلقين والمحبين الذين يدفعون بالأئمة للقرار ثم يجري على أيديهم خذلانهم ويكون الأشراف هم الضحية.

٣. أن يحافظ آل البيت على شرف النبوة ويلتزمون القدوة فيه ولا يطالبون بالقرار والخلافة ولا يقاتلون في سبيلها حقنا للدماء وإقامة للحجة على من يتشبث بالقرار على حسابهم.

٤. إن ما ترتب من مواقف لاحقة تحت ما يسمى بمذهب آل البيت إنما هو مذهب علمي فقهي للتعبد وشرائع الأحكام، مثله مثل المذاهب الفقهية المتعددة، وله مميزاته الخاصة في الاجتهاد ، أما ما يتعلق بالمواقف والقرار والخلافة والمطالبة بها فقد قرر الأمر فيها صدور آل البيت كالإمام علي والحسن والحسين وعلي زين العابدين.

وما طرأ لدى بعض آل البيت الكرام بعد ذلك من عودة للمطالبة بالقرار إنما كان ما بين الاجتهاد القائم على قراءة الأحداث ومجرياتها وعلى فطرة الشجاعة ورفض الذل والمهانة، أو بين ما تبنته بعض الفئات المتخذة من المطالبة وسيلة للبلوغ إلى المآرب وسببا في المكاسب بحجة أو بغير حق راجية الرغبة في امتلاك القرار ومنازعة المنافسين لهم كمنازعة القبائل أشباهها وأمثالها على مسألة التشفي ودماء الثأر للأسف.

وهذا ما تفسره مواقف الثائرين باسم آل البيت في المراحل المتقلبة إلى اليوم، حتى اضطر بعضهم رغبة في الوصول إلى الحكم إلى الانخراط في الأحزاب والجماعات والتكتل، ولا يعدو هذا الفعل إذا نسب لمن يقتدى به منهم أنه اجتهاد

ذاتي ومحاولة فردية، تُعَرِّضُ مدرسةَ آل البيت كلها إلى الخطر والانتحار، وتُفْسِدُ وظيفةَ الأبوة الشرعية في بناء الشعوب على الحكمة والموعظة الحسنة وتهيئة أسباب الاستقرار.

مَوْقِفُ الإمامِ الحُسين بِنْ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]

وَاتَّخَذَ الحُسَينُ مَوْقِفَ اجْتِهَادْ
لَّما رَأَى الأَشْياعَ قَامُوا لِلجِهَادْ

وَكَاتَبُوهُ فِي الخُرُوجِ سِرًّا
وَبَايَعُوهُ كَيْ يُقِيمَ الأَمْرَا

فَجَرَّدَ العَزْمَ وَمَنْ كَانَ مَعَهْ
مِنْ آلِ طَهَ فِي المَسِيرِ يَتْبَعَهْ

واعترضَ الخروجَ بعضُ العترةِ
ومن لهم رأيٌ من الصحابةِ

وأَخْبَرُوهُ أَنَّ حُبَّ مَنْ دَعَاه
لا يرتقي لمستوى بذلِ الحياةْ

لَكنَّ أَمْرَ اللهِ قَدْ سَاقَ الحُسينْ
لأَجَلٍ لا ريبَ فيه بيقينْ

---

(١) ولد الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما بالمدينة المنورة لخمس خلون من شعبان السنة الرابعة بعد الهجرة، ولما أخبر به ﷺ جاء وأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى، وسماه حسيناً، وعَقَّ عنه بكبش، وقال لأمه: «**احلقي رأسه وتصدقي بوزنه فضة وافعلي به كما فعل بأخيه الحسن**»، كنيته «أبوعبدالله»، وله ألقاب كثيرة، منها: (الرشيد، والوفي، والسيد، والذكي، والمبارك)، وفيه وفي أخيه الحسن رضي الله عنهما قال ﷺ: «**إنهما سيدا شباب أهل الجنة**»، وقال في الحسين: «**حسينٌ مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط**» رواه الترمذي وابن ماجه.

كان في شبابه مقداماً شجاعاً، وكان أحد حراس عثمان أيام حصاره، شارك هو وأخوه الحسن في معارك جمة مع أبيهما الإمام علي كرم الله وجهه ورضي الله عنهم، كان كريماً مضيافاً رحيماً، تحلى بمجموع فضائل الخير، قال فيه ﷺ مخبراً عن استشهاده: «**إن ابني يقتل بأرض يقال لها: كربلا، فمن شهد ذلك فلينصره**» «الإصابة» (٨: ١٩٩).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ناولني رسول الله ﷺ كفاً من تراب أحمر، وقال: «**هذه من تربة الأرض التي يقتل بها ابني -يعني الحسين- فإن صار دماً فاعلمي أنه قتل**»، وكان مقتله يوم عاشوراء سنة ٦١ للهجرة النبوية بكربلاء رحمه الله رحمة الأبرار. اهـ باختصار عن «قرة كل عين» للكابلي.

حضر الإمام الحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قتل والده الإمام علي وعمل من بعده بوصيته التي قال فيها: «**يا بني عبد المطلب لا تخوضوا دماء المسلمين خوضاً تقولون: (قُتل أمير المؤمنين).. ألا لا تَقْتُلُنَّ بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا مُتُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربةً، ولا تمثِّلُوا به فإني سمعت ﷺ يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»**» . اهـ.

وولي الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الخلافة ورأى من مواقف القوم وموقف الأضداد ما جعله يتخذ القرار الأخير لنشر السلام ولو على حسابِ حقِّهِ في الحكم بعد البيعة، لأن موقِفَهُ يعتبر مَوقِفَ الوسطية الشرعية والاعتدال الواعي بين طرفي الإفراط والتفريط .

وقد شهد الحسين هذه المواقف وعاصرها معاصرة واعية، وأدرك أهمية قرار أخيه الحسن وما اتفق عليه مع معاوية من شروط الصلح.

ولما مات الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ شهد الحسين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تحوُّلاً خطيراً في الاتِّفاقِ، وخاصة أنَّ موت الحسن كان بالسُّمِّ مَدْسُوساً عليه، قال عمير بن إسحاق: دخلتُ أنا ورجلٌ آخَر من قريش على الحسن بن علي، فقال: قد سُقيتُ السُّمَّ مراراً وما سقيت مرة هي أشدّ من هذه، وقد أخذ في السَّوْقِ (النَّـزْعِ) فجاء الحسين حتى قعد عند رأسه، وقال: «**أيُّ أخي من صاحبك؟**» قال تريد قتلَهُ!! قال: نعم، قال: «**فإن كان صاحبي الذي أظن فالله أشدُّ نقمة**».. وفي رواية عند ابن كثير في «البداية والنهاية» : «**الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، وإن لم يكن... ما أحب أن تقتل بي برئياً**».

ونستفيد من مفهومنا من فقه التحولات أنَّ مُجرياتِ الأُمُور التي طرأت بُعَيدَ وفاةِ الحسن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أكسبت الحسينَ رضي الله عنه موقفاً جديداً، ومنها :

- عدمُ موافَقتِهِ على بيعة يزيد وبقي متمسكا بذلك ومعه عبدالله بن عمر وعبدالرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير وغيرهم، أي: إنهم قبلوا ما قبله الإمام الحسن وما اتفق عليه

مع معاوية؛ ولكنهم لم يقبلوا ما ترتب على بيعة يزيد واتخذوا من ذلك موقفاً شرعياً لمخالفة ذلك ما اتفق عليه الحسن مع معاوية في شروط الصلح، ومات معاوية إثر ذلك في رجب سنة ستين، وأفضت الخلافة إلى يزيد، وأرسل إلى الحسين وابن الزبير ليبايعا فهربا ليلا إلى مكة ومن مكة عقد العزم على الخروج إلى الكوفة كما سيأتي.

- وَضَعَ أهلُ العراق في عنقه بيعتَهم وأرسلوا إليه مئة وخمسين كتاباً يدعونه إليهم فاضْطَرَّ أن يبعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب وأرسل معه كتاباً وبويع له بالكوفة فكتب مسلم بن عقيل إلى الحسين ليقدم، وتجهز الحسين -بناءً على ذلك- بينما عَزَلَ يزيد أميرَ الكوفةِ وقاتَلَ مسلمَ بن عقيل وتخاذلَ الأشياعُ حولَهُ حتى تركوه وحده، ثم قُبِضَ عليه وقُتل، وقُبيل قتله أرسل إلى الحسين رسولاً يقول له: (ارجع بأهلك ولايغرنك أهلُ الكوفة فإنهم أصحابُ أبيك الذي كان يتمنى فراقَهُم بالموت أو القتل، إذ أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لكاذب رأي). قال الراوي: ولقي الرسولُ الحسينَ بمكان يسمى (زُبَالَة) لأربع ليال من الكوفة فأخبره الخبر وأبلغه الرسالة، فقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**كلُّ أمرٍ حَمَّ نازلٌ عند الله.. نَحْتَسِبُ أَنْفُسَنا وفَسَادَ أَئِمَّتِنا..» اهـ**[1].

جاء في «أسد الغابة» : وامتنع مع الحسين عن بيعة يزيد عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن أبي بكر، ولما توفي معاوية لم يبايع الحسين أيضا وسار من المدينة إلى مكة فأتاه كتاب أهل الكوفة وهو بمكة ومنها تجهز للمسير في سبعين فارسا من أهل بيته وغيرهم، والتقى مع جيش يزيد في كربلاء وسأل الحسين عن المكان فأخبره فقال: «**صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أرض كرب وبلاء»**» ، فجرى من أمر الله فيها ما كان وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) نفس المصدر.

مَوقِف بعض الصَّحَابة من خُروجِ الإمام الحُسين بن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

كان كثير من الصحابة وأولو الرأي يرقُبُونَ الأمر من خلال شواهد الأحداث والتغيرات، ولهذا فقد أشار العديد منهم برأيه حول مخرج الإمام الحسين وطلبوا منه عدم الرحيل حتى قال له عبد الله بن العباس(١): (إن أهل العراق قوم غدر فلا تغترَّنَّ بهم، أَقِمْ في هذا البلد حتى ينفي

---

(١) ولد قبل حادثة الفيل بثلاث سنين، وهو أكبر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسنتين، وكنيته أبو الفضل، عرف بلطفه وأدبه، قال له ابن عمر: أنت أكبر أم النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: هو أكبر مني وأنا ولدت قبله.

وكانت أخلاقه عالية وعرف بالكرم والجود وصلة الأرحام، قدمته قريش وأسندت إليه عمارة المسجد الحرام، ثم أسندت إليه السقاية ، فغدا بذلك مقدما في قريش كلها.

أبوه عبدالمطلب، واسمه (شيبة الحمد)، سمي بذلك لأنه ولد في رأسه شيبة واحدة، آزر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة قبل أن يسلم، وشهد معه ليلة العقبة الثانية، وأخذ على الأنصار العهد في نصرتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ليلة الإسراء افتقده العباس فخرج يبحث عنه حتى وصل إلى ذي طوى والنبي صلى الله عليه وآله وسلم في طريق عودته، فكان ينادي: يا محمد يا محمد.. فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا ابن أخي أَعْيَيْتَ قومَك منذ الليلة فأين أنت؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أتيتُ بيتَ المَقْدِس**» ، فقال العباس: في ليلتك؟ قال: «**نعم**» ، فقال العباس: هل أصابك إلا خير؟ فقال: «**ما أصابني إلا خيرٌ**» .

وخرج العباس مكرها إلى بدر مع قريش، ووقع أسيرا في يد المسلمين فافتدى نفسه بمئة أوقية من ذهب، وقد أحس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلقا ليلة أسره ولم ينم، فقيل: يا رسول الله.. ما لك لا تنام؟ قال: «**سمعتُ أَنِينَ عَمّي في وَثاقِه**» فأطلقوه فسَكَتَ فنام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وعاد العباس إلى مكة وكتم إسلامه ثم أقبل مهاجرا إلى المدينة سنة الفتح فاستقبل النبي بالأبواء وكان معه

أهل العراق عدوهم ثم اقدُمْ عليهم) فَرَدَّ الحسين: «يا بن عم والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق ولكنّي قد أزمَعْتُ المسير» فقال: (فإن كنت سائراً فَلَا تَسْرِ بِأَوْلادِك ونسائك فوالله إني لخائف أَن تُقتَلَ كَمَا قُتِل عثمانُ ونساؤه وولدُهُ ينظرون إليه) ، ونهاه عبد الله بن عمر، ولما رأى موقفه في المسير اعتنقه وبكى، وقال: (أستودعك الله من قتيل).

قال في «الإشاعة» : انتقل الحسين من المدينة إلى المنورة هرباً أيضا من بيعة يزيد لما مات معاوية، وبويع يزيد بالشام وغيرها، وانتقل الحسين من المدينة إلى مكة هرباً من بيعة يزيد فأرسل إليه أهل الكوفة أن اقدم إلينا نبايعك، فنهاه ابن عباس وذكر له مواقفهم، ثم أمره إذا أصر على الرحيل أن لا يرحل بأهله فأبى فبكى ابن عباس، وقال: واحسيناه، وقال له ابن عمر نحو ذلك، ثم قبَّله بين عينيه، وقال: أستودعك الله من شهيد، أو قال: أستودعك من قتيل.

وكذلك نهاه ابن الزبير، ولم يبقَ أحد بمكة إلَّا وحزن لمسيره، وأخذ البيعة للحسين بالكوفة مسلمُ بن عقيل وبايعه بها اثنا عشر ألفاً، فأرسل إليه زياد بن أبيه من يقتله بالكوفة، وتفرَّق عنه المبايعون وسار الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ غير عالم بذلك فلقي الفرزدق فسأله، فقال: قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء.

وفي كربلاء جهز إليه ابن زياد عشرين ألف مقاتل فقاتلوه مع أهل بيته ومن معه حتى قُتل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقُتل معه من إخوانه وبنيه وبني أخيه الحسنُ، ومن أولاد جعفر وعقيل تسعة عشر

في فتح مكة وكان يقول صلى الله عليه وآله وسلم فيه: «**من آذى العباسَ فقد آذاني، وإنما عَمُّ الرجلِ صِنْوُ أبيه**» ، وقال له في فتح مكة: «**اللهمَّ انْصُرِ العَبّاسَ ووَلَدَ العَبّاس**» ، قالها ثلاثا. ولما قحط الناس على عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب توسل عمر بالعباس وتبرك به للسقيا فسُقوا، ولما رحل للشام اصطحبه معه. وكان مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنينٍ ماسكاً بزمام بغلته حين فر الناس، وكان معه يوم تبوك، ولما توفي صلى عليه عثمان رضي الله عنه وشُيع في جنازة عظيمة وذلك يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب عام ٣٢ هـ قبيل مقتل عثمان بسنتين، ودفن في البقيع رحمه الله.

رجلاً[1].

وكان ﷺ في حياته قد وصف هذه التحولات وما يجري خلالها من مواقف، وتعددت الأحاديث في هذا الباب ما بين الصحيح والضعيف، وكلها تشير إلى تغير سُنَّةِ الحكم في هذه المرحلة، ولا شكَّ أنه بهذا التغير يسري التغير إلى العلم، وكأنِّي برسول الله ﷺ وقد عاش هذا التحول، فعن أبي العالية عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعاً: «**أول رجلٍ يغير سنُّتي رجل من بني فلان**»[2] يعني بني أمية، وأخرج أبو يعلى عن أبي عبيده مرفوعاً: «**لا يزال أمرُ أمَّتي قَائماً بالقسط حتى يكون أوَّلُ من يثلمه رجلٌ من بني أُمية يُقال له: يَزيد**»[3].

ومن تحولات هذه المرحلة وتداعياتها استباحةُ جيش يزيد المدينةَ بعد موقعة الحرة الشهيرة التي وردت في العديد من كتب السير والتاريخ، حتى جالت فيها الخيول بمسجد رسول الله ﷺ وتعطل المسجد الشريف ثلاثة أيام، ثم حُوصِرَت مكة الشريفة أربعةً وستين يوماً، ورمي البيت بالمنجنيق، واحترقت أستار الكعبة، ثم احترق باقي ما فيها، ومات يزيد بعد هذه الموقعة بثلاثة أشهر[4].

وبويع بعده لمعاوية بن يزيد وكان رجلاً صالحاً ومحباً لآل البيت خلافاً لأبيه، ولم تدم به خلافته بل صعد المنبر وَخَلَعَ نفسه عنها، قائلاً في آخِر خطبة: «**شأنكم وأمركم، فخُذوه ومن رضيتم به عليكم فولوه، وخَلعتُ بيعتي من أعناقكم والسلام**»[5].

ولكن قومه لم يرقْ لهم موقفه وأخذوه ودفنوه حياً وعمره ثلاث وعشرون سنة، وقيل: أقل

(١) «الإشاعة» ص٧٠.

(٢) رواه ابن عساكر عن ابن العالية.

(٣) المصدر السابق ص٧١.

(٤) المصدر السابق ص٧٤.

(٥) المصدر السابق ص٧٥، وفي رواية أخرى: أنه لزم بيته فألم به مرض فكان سبب وفاته، وقبل أن يفارق الحياة أوصى الضحاك بن قيس أن يصلي بالناس حتى يقوم لهم خليفة. «أعلام أهل البيت» ص١٤.

من ذلك، وبُويع ابن الزبـير بعد معاوية بن يزيد، وانتظم حكم الحجاز واليمن ومصر والعراق والشام، ولم يتخلف عن بـيعته إلَّا بنو أمية ومن شايعهم.

بروز مدرسة النمط الأوسط وأهمية ذلك في فقه التحولات

مِـنْ بَعْدِ مَـا أُصِيبَ حَـالُ الأُمَّةِ بِكَرْبَـلَاءِ البَغْـيِ وَالخِيَانَـةِ
تَقَسَّـمَ الأَمْـرُ إِلَـىٰ قِسْـمَيْنِ قِسْـمِ السَّـلَامِ وَهْوَ فَرْضُ عَيْنِ
مَنْ أَخَذُوا صُلْحَ الإِمَامِ الحَسَنِ طَرِيقَـةً وَمَنْهَجًـا لِلزَّمَـنِ
كَذَا اقْتَفَـوْا مَنْهَجَ زَيْنِ العَابِدِينْ لَمَّا أَشَـاحَ عَـنْ قِتَـالِ الظَّالِمِينْ
وَاتَّخَـذَ الصُّلْـحَ بَدِيـلًا دَائِمًـا لِحِفْـظِ دِيـنِ اللّـهِ أَمْـرًا قَائِمَـا

يشير الناظم إلى مفصل هام من مفاصل التاريخ الإسلامي خلال مرحلة الملك العضوض ، وهو ما سماه الناظم (بكربلاء البغي والخيانة) حيث قتل الإمام الحسين وجملة من أهل بيته عليهم السلام أجمعين ، وبهذه الفاجعة طويت صفحة تاريخية وفتحت صفحة أخرى.

وإليها يشير الناظم بانقسام الأمر في الأمة إلى قسمين :

قسم رضي صلح الإمام الحسن وما ترتب عليه من اجتماع كلمة الأمة تحت مسمى (أهل السنه والجماعة) سواء من أهل البيت أو من غيرهم من سائر المتعلقين والشيعة المحبين سواء بسواء ، واعتبروا أن مقولة الإمام الحسن في خطبته منهجا وطريقة ، وهي قوله: (إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا).

وهذا القول نص أبوي يحدد مرحلة الصلح المدعومة بقوله صلى الله عليه وسلم: (إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين) ، بصرف النظر عن الغدر والمكر الذي جرى من المعارضين له ولآل البيت فيما بعد.

فالأصل المنصوص على دوام أثره هو الصلح والصلح خير.

وجاء من بعد هذا الموقف موقف الإمام زين العابدين الذي رجح موقف الصلح وأخذ به وهو الأحق أن يأخذ بثأر أبيه منهجاً وشرعة ، وخاصة أن منهج الصلح قد أثمر اتساع الأخذ بالعلم وخدمة الملة الإسلامية واشتغال الجل الأوسع من الناس بذلك ، ولم يخرج من هذا

المنهج إلا (أهل الإفراط والتفريط) ، وكان الإفراط ممثلا في أولئك الخارجين باسم آل البيت من صادق وكاذب ، وبين أهل التفريط وهم حملة قرار الملك العضوض ومن شايعهم في ظلمهم وبطشهم .

وَاعْتَبَـرُوا مَـا حَـلَّ بِالحُسَـيْنِ مَسْـؤُولية # مَـا بَيْـنَ فِرْقَتَيْـنِ
بُغَـاةُ ظُلْـمٍ قَتَلُـوهُ عَنَتَـا وَفِرْقَـةٌ قَـدْ خَذَلُـوهُ مُـذْ أَتَـىٰ
لَمْ يَنْصُرُوهُ سَاعَةَ الحَسْمِ المراء# فَـكَانَ مَـا كَانَ وَلِلّـهِ المُـرَادْ

وقد اعتبر هؤلاء الناهجين منهج الصلح (مقتل الحسين) ومن معه من آل البيت جرما عظيما يحمل مسؤوليتها كلٌّ من الفريقين أهل التفريط البغاة القتلة وأهل الإفراط المبايعين الغفلة ، الذين خذلوه ساعة الحسم المطلوب ، وتفرقوا عنه وتركوه عرضة للقتل والإبادة ، بعد أن حملوه على الخروج والانتقال من الحجاز إلى العراق .

أَمَّـا الخُـرُوجُ لِلْحُسِـينَ مَطْلَبَـا لِلصُّلْـحِ وَالإِصْـلَاحِ مُنْـذُ ذَهَبَـا
وَكُلُّ مَـنْ قَـدْ خَرَجُـوا بِالاجْتِهَادْ وَاسْتَشْهَدُوا مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ المُرَادْ
فَهٰـؤُلَاءِ مِـنْ رِجَـالِ النَّمَـطِ لَـمْ يَخْرُجُـوا إِلَّا لِصَـدِّ الغَلَـطِ
كَمِثْـلِ زَيْـدٍ وَابْنِـهِ وَمَـنْ عُـرِفْ مِنْهُـمْ وَفِيهِـمْ عَنْهُـمُ لَـمْ يَخْتَلِـفْ

يشير الناظم إلى مسألة الخروج ذاتها ودوافعها لدى الإمام الحسين عليه السلام وأن النظر لها من واقع النصوص خير من النظر إليها من واقع المستثمرين لها سلباً وإيجاباً ، فالحسين عليه السلام قال عن نفسه: (إنما خرجت لأصلح في أمة جدي) ، ويترتب على هذا النص الأبوي أن مهمة الإمام الحسين هي (الإصلاح في الأمة).

ولهذا يوكد الناظم أهمية التفصيل للأمور بين هذه المجموعات المشتبكة ويشير إلى سلامة توجه رجال النمط الأوسط في كلا الحالين : (حال الصلح الحسني وحال الخروج الحسيني) ، وأن كل الذين خرجوا من هذا النموذج القائم على الاجتهاد المشروع للأئمة

جزء لا يتجزأ من النمط الأوسط كمثل الإمام زين بن علي وابنه يحيى ومن جاء من بعدهم على ذات الطريق .

وَآخَرُونَ اتَّخَذُوا الثَّأْرَ شِعَارْ	كَعُقْدَةٍ لِلذَّنْبِ مَقْرُوناً بِثَارْ
كَرَدِّ فِعْلٍ ضِدَّ أَفْعَالُ البُغَاةْ	جِيلاً بِجِيلٍ وَشِعَاراً في الحَيَاةْ
وَصَارَ دِينًا وَوَلَاءً وَبَرَا	وَغَضْبَةً تَشْمَلُ تَارِيخاً جَرَىٰ
مِنْ بَعْدِ مَوْتِ المُصْطَفَىٰ وَمَنْ خَلَفْ	حَتَّىٰ زَمَانِ الوَهْمِ يَأْتِي في الخَلَفْ

يشير الناظم أيضا إلى ما ترتب من ثورة وصراع دموي بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام ، وخاصة من طرف المفرطين ، الذين حولوا (مقتل الإمام الحسين) إلى قضية ثار وانتقام من التاريخ الإسلامي كله على غير تميز ولا تفصيل واع ، ومثل هؤلاء قد أصدروا من قبل مقتل الإمام الحسين أحكام البطلان على مرحلة الخلافة كلها .

ولأهمية هذا الموضوع أخذ الناظم في تفصيل الأمر حسب مجرياته الصحيحة بعيدا عن الغلو وعن الجفاء ، فالغلو قد أفسد الحقائق وصار وسيلة تبرير للظلم والعدوان ، ولذا يشير الناظم إلى أسباب اتخاذ الثأر شعارا لدى البعض وهو ما سماه بـ(عقدة الذنب) ، وهي العقدة التي أصابت المتخاذلين عن نصرة الإمام الحسين وآل بيته فحولوها إلى شعار انتقام وثورة كانت بادئ ذي بدء على الظالمين البغاة ، ثم تحولت بفعل اختلاط الأفكار والطموحات السياسية إلى ردة فعل معاكسة لم تنقطع بانقطاع السبب وذهاب المسؤولين عن القتل والبغي ، بل صارت دينا وولاء وبراء وغضبة تمسخ معالم التاريخ الشرعي وتشمل حتى من كان من (آل البيت أنفسهم) ممن نهج منهج الإمام الحسن في الصلح ومنهج علي زين العابدين رضي الله عنهم أجمعين .

فالإفراط المسيس لم يسمح لهؤلاء حتى بتبرئة (آل البيت الأطهار) بل جعلوهم جزأ لا يتجزأ من (سياسة الملك العضوض) وخلطوا بين أهل السنة والجماعة الأبوية الشرعية وبين أهل السنة المصنعة السياسية جهلاً وتعصباً وجاهلية ، حتى صارت نصوصهم تكفر وتقصي عن الديانة كل مراحل السلامة الأبوية بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم إلى عهد الإمام

المنتظر ، وهو عهد في منهج الإسلام لا مراء عليه ولا خلاف في مسألة وقوعه ، ولكن # لإزالة آثار الجور والظلم في موقع قرار الحكم والاقتصاد ، وما ترتب على ذلك من هيمنة الملك العضوض وسياسة الاستعمار والاستهتار والاستثمار.

أما حملة قرار العلم والشريعة والجهاد في سبيل الله على طريق الاتباع المتصل فهم الطائفة المنصورة في كل زمان ومكان ، بصرف النظر عن مبدأ الحكم والسياسة ، ولا يدخلون في حكم أهل الإفراط القائل: كل ما بني على باطل فهو باطل ، ويقصدون بهذه المقولة كل ما ترتب على الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها باطل على غير تمييز ولا تفصيل . وهذا ظلم أشد من ظلم أهل التفريط وأخطر على الأمة والإسلام كله .

وَالثَّأْرُ في الإِسْلَامِ مَحْدُودُ البَلا ... يَنَالُ كُلَّ قَاتِلٍ قَدْ قُتِلا

أَوْ مَنْ تَوَلَّىٰ القَتْلَ أَوْ مَنْ حَارَبَا ... بِسَيْفِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَارَبَا

وَلَا يَجُوزُ مِثْلُ هٰذَا في الشُّعُوبْ ... مِنْ بَعْدِ أَنْ مَرَّ الزَّمَانُ في الدُّرُوبْ

يشير الناظم إلى ما تقرر شرعاً حول مسألة القصاص والأخذ بالثأر ، وأهل البيت النبوي هم أولى الناس بالشرع وتطبيقه ، فالثأر في الاسلام مقيد بقتل القاتل وحده ، أومن وافقه وتولاه ، أو من حمل معه السيف أو ساعده بالمال أو وارى به ، أي: تكتم عليه وأعانه ، فهؤلاء شرعاً يستحقون القتال .

ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يُورَّث هذا الثأر والدم من جيل إلى جيل ومن مرحلة إلى أخرى حتى يصبح كل المسلمين منذ عهد مقتل الحسين إلى الساعة الإمام المنتظر مسؤولين عن دمه ودماء آل البيت ، ولا أن يتحول الأمر من شرع أبوي نبوي إلى تسييس وضعي أنوي يهدد حصون الإسلام من داخله ويهدمها باسم الثأر وباسم نصرة آل البيت عليهم السلام .

تَحوُّلات عَصر بني أُميّة

المُلك العَضوض.. الشُّحُّ المُطَاع.. الهَوى المُتَّبَع..
الدُّنيا المُؤْثَرة.. إِعْجابُ كُلِّ ذي رَأيٍ برأيِهِ..

«هَلَاكُ أُمَّتِي على يَدْ أُغيلمة من قُريش»

أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة رضي الله عنه

«لا يَزالُ هَذا الدِّين قائماً بالقسطِ حَتَى يكون أَوَّلُ مَنْ يَلْثُمُهُ رَجلٌ من بَنِي أُمية»

رواه أبو يعلى والبزار عن أبو عبيدة الجراح

مَظَاهِرُ التَّحَولاتِ على عَهْدِ بني أُمَيَّةَ

قال الناظم:

وَكَمْ رَأَىْ الإِسْلَامُ مِنْ تَحَوُّلِ ... مِنْ بَعْدِ عُثْمَانَ القَتِيْلِ الأَوَّلِ
وَبَعْدَ بَابِ العِلْمِ مِيْزَانِ الهُدَى ... وَمَا جَرَى مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الرَّدَى
فَكُلُّ عَصْرِ الخُلَفَاءِ اللَّاحِقِ ... مُلْكٌ عَضُوضٌ لم يَكُنْ بِرَائِقِ

تشير الأبيات إلى مرحلة جديدة من مراحل التحول من تاريخ الإسلام، إذ هي مربوطة بما سبقها من التحولات كما أشار إليها الناظم: «**من بعد عثمانَ القتيلِ الأولِ**». فبهذا الحدث طرأت على المسيرة الإسلامية تحوّلات جديدة، وكذلك بمقتل الإمام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَكأنّي بالأمة مع هذه التحولات الخطيرة تحتاج إلى موقف جديد يحمل كل معاني التضحية في سبيل الله، فكان موقف الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -وهو من أجلى المواقف الهامة في مرحلة التحولات- يحمل في طياته علماً هاماً ومشهداً جديداً في التعامل مع الأحداث، وهو ما عُرّف بسُنَّة المواقف.

وقد رصدتْ كتبُ السنَّة أحاديثَ عديدة حول مرحلة بني أمية في الحكم، باعتبارها حلقة في سلسلة التداعيات والتحولات الموعودة، وهذه الأحاديث لا تنفي خيرية الأمة واستمرار فضلها، وإنما هي تقرير حالة شرعية حول مسألة القرار.

ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو يعلى والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيتُ في النومِ بني الحَكَم ينزون على منبري كما تنزوا القردة**» قال: فما رؤي

النبي ﷺ ضاحكاً مستجمعاً حتى توفي[1].

لقد كانت هذه الرؤيا علامة من العلامات التي أبرزت في حياة رسول الله ﷺ موقفاً لمظهر من مظاهر التحولات من بعده، إذ كان ﷺ يتفاعل مع الأحداث ويعيشها قبل حدوثها، ومع هذا فقد جاء في رواية ابن المسيب ما خفف على رسول الله ﷺ الموقف.

فقد روى البيهقي عن ابن المسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**رأى النبي ﷺ بني أمية على منبره فساءه ذلك، فأوحي إليه: إنما هي دنيا أُعْطُوها، فَقَرَّت عينه**»[2].

وعن الحسن بن علي عليهما السلام قال: إن رسول الله ﷺ قد رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً فساءه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، ونزلت ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ **يملكها بنو أمية**». قال القاسم بن الفضل: فحسبنا مدة حكم بني أمية فإذا هي ألف شهر لا تزيد ولا تنقص[3].

قال الناظم:

واذْكُرْ أبا هِـرٍّ الَّذي كان يَصِيحْ … عَن عَامِ سِتِّينَ مِنَ الأمْرِ القَبِـيحْ

يشير الناظم إلى ما كان يقوله أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللهمّ لا تبلغني عام الستين، قالوا: وما عام الستين؟**» قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون هلاك أمتي على يد أُغَيْلِمَةٍ من قريشٍ**»، وكأنه يشير إلى ما جرى من الفتن على يد أمراء بني أمية، وكان خلفاء بني أمية كما ورد في «الإشاعة» غيّروا سنَّةَ النبي ﷺ في الحكم.

---

(١) رواه أبو يعلى والبيهقي في «الدلائل» عن أبي هريرة . المصدر السابق ص٦٣ .

(٢) رواه ابن عساكر وابن أبي حاتم وابن مردويه في «الدلائل» عن سعيد المسيب.

(٣) وهذا القول في بني أمية لا يشمل صالحي هذا البيت ومن استقام منهم، وإنما يختص بشأن القرار والحكم، حيث برز في بني أمية من العلماء والدعاة والصالحين من لا يعاب شأنهم ولا يستنقص دينهم؛ بل يحترم موقفهم ورأيهم ويستند إليهم في خدمة الإسلام إلى اليوم.

بَدْءُ المرحلةِ المروانيّةِ ونهايةُ المرحلةِ اليَزيدِيّة

وبايع بنو أمية مروانَ بن الحكم، وخرج بهم إلى دمشق من فلسطين، واقتتلوا مع عامل ابن الزبـير فقتلوه، وهو الضحاك بن قيس، وغلب مروان على الشام، ثم توجه إلى مصر، وغلب عليها سنة خمسة وستين، وتوفي مروان في تلك السنة، وعهد إلى ابنه عبدالملك فقام مقامه، واستمر في محاربة عُمَّالِ ابن الزبـير حتى لم يبقَ معه إلَّا الحجاز واليمن، وجهز عبدالملك لمحاربته الحجاج بن يوسف الثقفي، فحاصر بن الزبـير حتى قتله بمكة[1].

ثم تولى بعد عبد الملك ابنه الوليد ثم ابنه الآخر سليمان بن عبد الملك، ثم تولى عمر بن عبدالعزيز، وهو موضوع الفصل التالي.

---

(١) كانت مدة حكم ابن الزبـير تسع سنين وزيادة، وقد ذكرت كتب السير والتاريخ نماذج من المواقف السلبـية التي جرت على يد الحجاج، فقد هدم الكعبة وقتل ابن الزبـير، وبلغت ضحاياه من الناس مئة ألف وعشرين ألف، وأربعة آلاف قتلهم صبراً، وأهان جملة من الصحابة منهم أنس بن مالك، ودس على عبدالله بن عمر مَن ضربه بحربة مسمومة وهو في الطواف فكانت سبب موته، وقد أشارت الأحاديث إلى موقع الحجاج في التحولات، منها ما رواه البـيهقي في «الدلائل» عن حبـيب بن ثابت قال: قال علي رضي الله عنه لرجل: «**إنك تدرك رجل ثقيف**»، قيل: ما رجل ثقيف ؟ قال: «**ليقالُنَّ له يوم القيامة: اِكْفِنا زاويةً من زوايا جهنم، رجلٌ يملك عشرين أو بضعاً وعشرين سنة، لا يدع لله معصية إلَّا ارتكبها، حتى لو لم تبقَ إلَّا معصية واحدة وكان بـينه وبـينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها، يقتل من أطاعه بمن عصاه**».

عهد الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز (الخليفة السادس)[(١)]

حَتَّى أَتى عَهْـدُ الإمَـامِ العَادِلِ ... مُجَدِّدِ الدِّينِ الصَّدُوقِ الفاضِلِ

نجـلِ العزيزِ عمـرَ الموصوفُ ... بالعدلِ في الحكمِ هو المعروفُ

قد وقفَ المواقـفَ المحمودةْ ... وشـرَّعَ القواعـدَ المنشـودةْ

---

(١) هو أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز القرشي الأموي، أبوحفص، تابعي جليل، روى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد ويوسف بن عبدالله بن سلام وغيرهم ، وروى عنه جماعات من التابعين منهم محمد بن المنكدر والزهري وغيرهما، صنف بعضهم في مناقبه مجلدا، ، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يولد لي رجل بوجهه شين يلي، فيلأ الأرض عدلا، قال نافع: لا أحسبه إلا عمر بن عبدالعزيز، والشين الذي بوجهه شجة من أثر حافر فرس وهو غلام، لما أصابه الفرس جعل أبوه يمسح الدم عن وجهه ويقول: إن كنت أشجّ بني أمية، أمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، اسمها حفصة، وأمها البنت التي قالت لأمها: إن لم يعلم أمير المؤمنين فإن ربه يعلم ويرى، أطيع أمره في العلانية وأعصيه في السر، تعني عمر بن الخطاب، وسمعها عمر فأمر ولده عاصما يتزوجها، وقال: لعل الله أن يرزقك منها نسمة مباركة، فجاءت بأم عمر بن عبدالعزيز.

ومن مظاهر عدله في مدة خلافته زيادة أموال بيت مال المسلمين حتى شكا عماله كثرتها ، فأمر مناديا ينادي في الأمصار: من كان عليه دين فقضاؤه على بيت مال المسلمين، فقضى في ذلك العام ديون المسلمين أجمعين ولم يبق أحد عليه لأحد دين ، ثم نادى مناديه في الأمصار: من لم يتزوج من شباب المسلمين فعلى بيت المال زواجه ومؤنته حتى يتوفر له من العمل ما يكفيه، فلم يبق من العزاب إلا من كان معذورا أو مريضا أو غازيا أو مسافرا.

وقد أثبت الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز إمكانية إقامة العدل الاجتماعي وتوزيع الثروة المالية والاقتصادية على الرعايا دون خلل في اقتصاد الدولة ولا حصول عجز أو مديونيات للغير، ويعتبر حكمه حجة على كافة مراحل عصور الحكم في البلاد العربية والإسلامية من بعده، إذ تحقق بحكمه رغم قصر الزمان ما لم يتحقق في العصور التي طالت مرحلة حكامها في الشعوب.

أَحْيَـا لَنَـا مَوَاقِـفَ الأَسْـلَافِ وَنَصَـرَ الدِّيْـنَ بِـلَا خِـلَافِ
وَلَـم يَطُـلْ مُقَامُـهُ فـي الحُكْـمِ بَـلْ سُـقِيَ السُّـمَّ بِغَيـرِ عِلْـمِ
فَعَـادَتِ الأَوْضَـاعُ لِلتَّحَـوُّلِ عَـنِ الطَّرِيْـقِ العَالمـيِّ الأَمْثَـلِ

يشير الناظم إلى عهد الخليفة الخامس عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والذي تميز عصره بنموذج متفرد من التحولات والمواقف وخصوصاً في قرار الحكم، والذي مكث في الخلافة سنتين وخمسة أشهر، وكانت بـيعته في صفر سنة تسع وتسعين على ماذكره «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص٢١٤ .

وقد بدأت تحولات عمر بن عبدالعزيز ومواقفه قبل أن يكون خليفة فهو قد اتخذ موقفاً من تنعمه ورفاهيته التي كان يألفها، قال السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ص٣١٣: كان قبل الخلافة على قدم الصلاح إلَّا أنه كان يبالغ في التنعم والاختيال في المشية حتى عَزَفْ بعد ذلك عن ذلك كله. اهـ. وبدأ بأهل بـيته وأقاربه فأخذ ما بأيديهم وأعادها إلى بـيت مال المسلمين، ثم أخذ ما بـيد زوجته فاطمة بنت عبدالملك. قال السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ص٣١٦ عن خلافة عمر بن عبد العزيز: ملأ فيها الأرض عدلاً ورد المظالم وَسَنَّ السُّنَنَ الحَسَنة. اهـ. حتَّى كان يقول وهبُ بن منبه: إن كان في هذه الأمة مهديٌّ فهو عمر بن عبدالعزيز، وقد توفي عمر بن عبدالعزيز بدير سمعان من أعمال حمص لعشرٍ أو لخمسٍ بقينَ من شهر رجب سنة إحدى ومائة وله حينئذ تسع وثلاثون سنة وستة أشهر، وكانت وفاته بالسم، لأن عشيرته من بني أمية تَبَرَّمُوا منه لتشديده عليهم وانتزاع ما غَصَبُوه من أموال الناس ومن بيت مال المسلمين رحمه الله رحمة الأبرار، وقد كان عهده القصير زمنا أنموذجا متفردا في مراحل حكم بني أمية كلها.

قال السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ص٢٢٩: وتولى الحُكمَ بعده يزيد بن عبدالملك بن مروان، ومكث أربعين يوماً يسير بسيرة عمر بن عبدالعزيز، ثم عدل عن ذلك.

وكان قد كتب له عمر بن عبدالعزيز وصية قبل وفاته، قال له فيها: «سلام عليك، أما بعد فإني لا أراني إلَّا لما بـي، فالله الله في أمة محمد، فإنك تدع الدنيا لمن لا يحمدك، وتقضي إلى من لا يعذرك،

والسلام» ، وقُتل يزيد بموضع قرب كَرْبَلاء لدى خروج يزيد بن المُهلَّب على الخلافة في أواخر شعبان سنة مئة وخمس، وتولى بعده أخوه هشام، ثم الوليد بن يزيد بن عبدالملك، وكان فاسقاً منتهكاً لحرمات الله، قُتل في جماد الآخر سنة ست وعشرين ومائة، وقد ورد في مسند الإمام أحمد حديث «**ليكوننَّ في هذه الأمة رجل يُقال له الوليد، لهو أشر على هذه الأمة من فرعون لقومه**»[1]، وهو الذي رشق المصحف بالسهام[2].

ثم تولى بعده يزيد الناقص، ولقب بالناقص لأنه أنقصَ الجُندَ من أعطياتهم، ومات من العام الذي تولى فيه سابع ذي الحجة سنة ست وعشرين بعد المائة، وقد مات بالطاعون، ثم تولى بعده إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك، بويع له بالخلافة سبع سنين، ثم خُلع، خرج عليه مروان بن محمد الملقب بالحمار، وتنازل إبراهيم لمروان وبايعه، وعاش إبراهيم حتى سنة اثنتين وثلاثين، وقُتل فيمن قتل من بني أمية على يد السفاح العباسي، وكان مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، ولقب بالحمار لصبره وقوة جلاده في القتال، وقتل مروان مع ظهور بني العباس، وكان مقتله في مصر بقرية بوصير هارباً من العباسيين في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين.

وبمروان الحمار اختتمت مرحلة الحكم لبني أمية، وبدأ عصرٌ جديدٌ، ومع كل مرحلة تزول تبقى آثارها في الأجيال بصورة وأخرى بما ينغرس في الشعوب مِنَ الوَهَنِ والضَّعْفِ واختلال المواقف.

---

(١) رواه أحمد في مسنده وابن حبان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) «تاريخ الخلفاء» ص ٣٣٤.

عَصْرُ بني العَبّاسِ

«ليكونَنَّ في ولد العباس مُلوكٌ يَلُون أَمر أمَّتي، يُعِزُّ الله تعالى بهم الدِّين»

أخرجه الدارَقطني في الأفراد عن جابر . «كنز العمال» (١١/ ٧٠١)

عصر بني العباس

وَجَاءَ لِلحُكْمِ بَنُو العبَّاسِ بِقُوَّةِ السِّلَاحِ وَالمِرَاسِ
وَعَالَجُوا الأُمُورَ بِالسِّيَاسَةِ وَالمَالِ وَالطُّمُوْحِ وَالرِّيَاسَةِ
حَتَّى اسْتَتَبَّ الأَمْرُ فِيْهِمْ وَلَهمْ لِبَعْضِ أَجْيَالٍ تَتَالَى أَمرُهُمْ
وَأَبْدَعُوا في خِدمَةِ الحَضَارَةِ وَالعِلْمِ وَالأَشْعَارِ وَالإِدَارَةِ
وَانْدَمَجُوا فِي الفُرْسِ وَالرُّوْمَانِ وَتَرْجَمُوْا فَلْسَفَةَ اليُوْنَانِ
وَأَوْغَلَ المَأْمُوْنُ فِي التَّفَلْسُفِ وَقَالَ فِي القُرْآنِ قَوْلَ المُسْرِفِ
وَأُغْرِقَ الحُكَّامُ في التَّمَتُّعِ وَأَظْهَرُوْا في النَّاسِ بَعْضَ البِدَعِ
إِلَّا القَليلَ مِنْهُمُ مَنْ أَصْلَحُوا وعَدَلُوا فِي النَّاسِ حَتى صَلُحُوا

يشير الناظم إلى مرحلة حكم بني العباس، وهي إحدى مراحل تحول القرار داخل الخيمة الإسلامية، ومن المراحل التي أشارت إليها أحاديث التحولات.

فمن هذه الأحاديث ما أورده السيوطي في «تاريخ الخلفاء»:

أخرج أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «**يخرج رجلٌ من أهل بيتي عند انقطاع الزمان وظهور من الفتن، يقال له: السفاح، يكون إعطاؤه المال حثياً**» اهـ[1].

وقد ذكر صاحب كتاب الإشاعة أحاديث شديدة الوقع على مرحلة بني العباس، وقال البرزنجي بعد إيرادها: فَتُحْمَلُ الأحاديثُ -إن صحت- على شرارهم.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» عن أبي سعيد الخدري. المصدر السابق ص٢٣٨.

وأول خلفائهم أبوالعباس السفاح، ثم تولى بعده أبوجعفر المنصور، وكانت له مميزات في الحكم وهو الذي ضرب أبا حنيفة على القضاء ثم سجنه حتى مات بعد أيام لكونه أفتى بالخروج عليه[1].

وأول من أحدث مشي الرجال بين يديه بالسيوف والأعمدة والقسي الموترة الهادي أبومحمد موسى بن المهدي المتوفي سنة سبعين ومئة، وكثرت الفتوحات في عهد الرشيد هارون، الذي غزا نقفور صاحب الروم بعد نقضه للهدنة، حيث كتب إليه يقول: (بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلبِ الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه لا ماتسمعه) ثم غزاه وقتَلَهُ.

ظهور مدرسة الاعتزال

ومن خلفاء بني العباس المأمون ابن الرشيد، ولم يكن في بني العباس رجلٌ أعلم منه، كان من تحولات عصره وحكمِهِ قَوْلُهُ بخلق القرآن وحمل الناس على ذلك، وسار على نهجه من بعده جملة من الخلفاء، ومنهم المعتصم الذي كان أول من أدخل الأتراك إلى الديوان، وكان يتشبه بالأعاجم، وبنى مدينة (سر من رأى) وانتقل إليها مع علمائه وعساكره الأتراك.

وَأَوَّلُ مَن عيّـنَ سلطاناً من الأتراك في بلاط الخلافة الواثق ابن الرشيد، وهو حفيد هارون الرشيد، وسار على عقيدة خلق القرآن كجَدِّهِ المأمون، وامتحن الناس بهذه الفتنة أَيَّ امتحان، حتى إنه قتل الشيخ أحمد بن نصر الخزاعي -وهو من علماء الحديث- قائماً بالبصرة على نشر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فامتحنه في مسائل القول بخلق القرآن، ثم قتله بيده وعلقه في (سر من رأى) ست سنين مصلوباً، وكان له وزير مبتدع وهو أحمد بن أبي داود المعتزلي الذي

(١) المصدر السابق ص٢٤١.

كان أيضاً وزيراً لسلفه.

وفي أخريات عُمْرِ الواثقِ رجع عن فتنة القول بخلق القرآن، وكان سبب ذلك كما ذكره السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ص٢١٩: أنه دخل عليه أبو عبدالرحمن عبدالله بن محمد الإدريسي شيخ أبـي داود والنسائي وهو مُقَيَّدٌ بالحديد في فِتنةِ القول بخلق القرآن، فقال الشيخ: أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم إليه، أَعَلِمَهُ رسولُ الله ﷺ فلم يَدْعُ النَّاسَ إليه أم شيءٌ لَم يَعلَمْهُ؟ قال ابن أبي داود: بل عَلِمَهُ، قال: فكان يسعه ألا يدعو الناس إليه وأنتم يسعكم؟ قال: فبهتوا، وضحك الواثق وقام قابضاً على فمه ودخل بـيتاً ومد رجليه وهو يقول: وسع النبـي ﷺ أن يسكت ولا يسعنا، فأَمَدَّهُ بثلاثمائة دينار وأعاده إلى بلده ولم يمتحن الواثق بعدها أحداً، ومُقِتَ ابن أبـي داود من يومه، مات الواثق سنة مائتين وثلاثين من الهجرة.

وبويع بعده بالخلافة للمتوكل على الله جعفر أبي الفضل ابن المعتصم، وكان على يده تحوُّلٌ هام لم يسبَق له مثيل، وهو ميلُهُ لآلِ البـيت النبوي وإكرامهم، وقطع القول ببدعة خلق القرآن، قال السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ص٣٢٠: بالغوا في الثناء عليه حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة أبوبكر الصديق في قتل أهل الردة، وعمر بن عبدالعزيز في رد المظالم، والمتوكل في إحياء السنة وإماتة التَّجَهُّمِ (بدعة الجهمية).

ومن المآخذ عليه هدمه لقبر الإمام الحسين -عليه السلام- في كربلاء وتحويله إلى مزرعة، ومنع الناس من زيارته، وبعد موته وتولية ولده المنتصر بالله رَدَّ زيارة الحسين وأعاد لآل البـيت فَدَكَ التي كانت لهم، ولم يتمتع بالخلافة إلَّا أشهراً معدودة، ثم قُتل سنة ثمان وأربعين بعد المائتين.

ظهور فتن القرامطة والزنج

وفي عصر خلافة المعتمد على الله أبـي العباس أحمد المتوكل ظهرت فتنة الزنج وَقُتِلَ آلافٌ مِن المسلمين، كما ظهرت القرامطة في آخر خلافته، وفي عهد المقتدر ضعُفَ شأن الخلافة العباسية واختل نظام الدولة، وفي عهد المقتدر أيضاً قُتل الحَلّاج، وظهر الفاطميون وَغَزَوْا مصر واستولوا على أكثرها، وبرزت أُمُّ المقتدر ونساؤه وحريمه في القبض على شؤون الدولة، وفي سنة ستة عشر وثلاثمائة ظهرت القرامطة وهزمت جيوشَ المقتدر بالله وانقطع الحجُّ، وفي سنة سبعة عشر وثلاثمائة خُلع المقتدر وبُويع لمحمد بن المعتضد ولقب بالقاهر بالله، وفي اليوم الثاني قام العسكر وخَلَعُوا القاهر وأعادوا المقتدر بالله[1].

رحلة المهاجر أحمد بن عيسى إلى حضرموت

وفي هذا العام أيضاً خرج الإمام المهاجر أحمد بن عيسى من العراق إلى المدينة المنورة، وفي سنة ثمانية عشر بعد الثلاثمائة قتل القرامِطَةُ الحُجَّاجَ، واستباحوا الحرم الشريف، ونـزعوا الحجر الأسود وأخذوه معهم مدة اثنين وعشرين سنة، وفي عهد المطيع بالله أبـي القاسم الفضل بن المقتدر اشتد الغلاء والجوع حتى أُكلت الجِيَفُ ومات الناس على الطريق، وفي عهده أُعيدَ الحجرُ الأسودُ إلى مكانه، وفي عهده أيضاً بدأ العمل على إقامة المآتم على الحسين بسنة اثنتين وخمسين بعد الثلاث مئة، وفي ثاني عشر من ذي الحجة من ذات العام عمل عيد ديرخم تحت رعاية معز الدولة.

---

(١) المصدر السابق ص٣٥٥.

الحُروب الصَّليبيَّة ودَورُ صَلاح الدِّين في المرحلة(١)

كَذَا الصَّلِيْبِيُّونَ عَاثُوْا فِي البِلَادْ لَوْلَا صَلَاحُ الدِّيْنِ أَحْيَا لِلجِهَادْ

---

(١) ولد صلاح الدين عام ٥٣٢هـ - ١١٣٧م من أسرة كردية عاشت في بلدة دَوِيْن وهي من أطراف أذربيجان، وقيل: إنه من أصل عربي لأن قبائل العرب كانت تنزل عند الأكراد وتتزوج منهم، والأرجح أنه من أسرة كردية الأصل استعربت بنزولها إلى العراق.

وكان ميلاد صلاح الدين في مدينة تكريت بالعراق وخرج به والده ليلة ميلاده من تَكْرِيتَ ضارباً في الأرض بعد خلاف جرى مع حاكم البلاد، ثم توجَّه إلى المَوصِل ونزلا عند صاحبها (عماد الدِّين زنكي) والي وحاكم الموصل آنذاك، فأحسن وفادتها وأعطاهم أرضاً يعيشون فيها، واشتغل نجم الدين والد صلاح الدين وأخوه في جيش عماد الدين وأخلصا له الخدمة وأحرزا انتصارات عديدة ، وعهد عماد الدين إلى نجم الدين إدارة بَعْلَبَكّ عند سقوطها بأيديهم عام ٥٣٤هـ (١١٣٩م)، وحين توفي عماد الدين زنكي انتقل نجم الدين وأسرته إلى قرى استقطعها من أيدي الدمشقيين بعد أن سلمهم بعلبك، والتحق بخدمة (طغتكين) الذي رفعه إلى قيادة الجيش.

وكان صلاح الدين في هذه الأثناء يتربى على النسك والصلاح وقضاء الحياة بين التعلم والتنقل بين دمشق وبعلبك حتى اكتملت فروسيته، وعندما أرسل أسد الدين شيركوه على رأس حملة إلى مصر اصطحب ابن أخيه صلاح الدين، وقد بلغ من العمر ستة وعشرين عاماً، واستطاع الجيش أن يَدْحَر المصريين ويحاصر القاهرَة ودخلها فاتحاً، وكان صلاح الدين معه مشاركاً منذ تلك اللحظة؛ ولكن الخليفة الفاطمي خدع شيركوه ونفاه خارج القاهرة وألب عليه الإفرنج لمحاصرته؛ ولكنه حاربهم مستعيناً برأي صلاح الدين حتى صَدَّهم.

وخرج شيركوه من مصر إلى الشام ثم عاود الكرة لمحاربة الصليبيين بمصر وخاصة بعد أن اصطلح الفاطميون مع الفرنجة على أن يدفع الفاطميون خراجاً سنوياً لهم.

وحاول شيركوه أن يستميل الوالي الفاطمي (شاور) إلى جانبه لمحاربة الصليبيين؛ إلَّا أن شاور أبى وأبلغ الصليبيين موقف شيركوه، واستعد الإفرنج وشاور لمحاربة الفريقين، وجعل شيركوه على قلب جيشه صلاح الدين ابن أخته، واتفق معه على خطة لاستدراج الصليبيين خارج القاهرة، ثم ذهب شيركوه

واحتل الإسكندرية ووقف معه أهلها وجاء الإفرنج لحصاره ولم يظفروا بطائل.

وطالت المعارك بين الفريقين وزاد قلق الإفرنج من مناوشة نور الدين بالشام لقلاعهم وحصونهم، وسارت الرسل بين المعسكرين للصلح فاتفق الجميع على أن يرحل الإفرنج، ويرحل أيضاً شيركوه وصلاح الدين من مصر، ويقدم شاور لشيركوه خسارته في المعركة، وأن يقدم ملك الإفرنج السفن لشيركوه كي يحمل فيها بعض جنوده إلى الشام.

ورفع الحصار وغادر صلاح الدين وشيركوه مصر إلى الشام؛ إلَّا أن الصليبيين عاودوا حملتهم على مصر وعاثوا فيها الفساد فاستنجدت مصر بنور الدين في الشام فأرسل حملة فرد المعتدين بقيادة شيركوه وانسحبوا عن مصر وبقي شيركوه في مصر وتعرض لعدد من الدسائس لقتله ولكن الله سلمه وخاصة أن ولد شاور (شجاع) كان يميل إلى شيركوه أسد الدِّين ميلاً كبيراً.

واستطاع أسد الدين شيركوه بعد ذلك أن يتخلص من شاور بقتله وجمع الأمر في يده تحت إمرة الخليفة العباسي ببغداد، وتوفي أسد الدين بعد شهرين وخلفه في منصب الوزارة ابن أخيه صلاح الدين وهو في سن الثانية والثلاثين، وأحسن سياسة الرعية وأحبه الناس، وبدأ يعمل في توطيد سلطته في مصر، وتنفيذ رغبته في جمع كلمة بلاد العرب والمسلمين.

ومع ازدياد الفتن بين أمراء الشام بعث إليه بعضهم ليقدم إلى الشام لإنقاذهم من الخطر فلبى الطلب، وجهز جيوشه لذلك وأيده الخليفة العباسي على ذلك حتى بلغ دمشق في ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ أكتوبر ١١٧٤م، ودخلها من غير مدافعة ثم فتح حلب وبعلبك بعد معارك ضارية، وبعلبك هي البلد التي قضى فيها سنين حياته الأولى، وواصل فتحه في الشام مع ما لقيه من المنازعة والحرب ومحاولات الاغتيال حتى أتم الله له فتح الشام كلها، ثم توجه إلى جبال اللاذقية حيث يقيم الحشاشون الذين كان لهم دور في التآمر على قتله ونال منهم منالاً، ثم صالحهم وأعطاهم الأمان على شروط اشترطها معهم، وكان لهذا الصلح أثر بعيد في سير الحروب الصليبية، فناصر الإسماعليون صلاح الدين من حروبه وعاد إلى مصر موطداً ملكه ومشيداً للكليات والجسور والمستشفيات والحدائق وتقوية وسائل الدفاع وزيادة الأسطول، وأثناء ذلك بلغته الأنباء بمهاجمة الفرنجة لبعلبك وأطراف دمشق وهزموا أخاه (توران شاه)، فسارع بجيوشه نحو جنوب فلسطين لفتح الطريق الساحل بين مصر وفلسطين، وتوسع صلاح الدين في بَثِّ جنده في الأنحاء مما تسبب إرباكاً لمن بقي معه، وكادت الهزائم تحل بهم، وقد تركت هذه الرحلة موقعاً وأثراً عميقاً في نفس صلاح الدين.

ولم يأتِ عام ٥٧٣هـ حتى جهز صلاح الدين جيشه وسار نحو الشام وقاتل الفرنجة قتالاً شديداً حتى اضطرب موقفهم وتقهقروا واضطروا لمصالحة صلاح الدين عام ٥٧٦هـ مدة سنتين وعاد إلى مصر، وأثناء هذا تمت له أيضاً عقد مصالحات عديدة مع ملوك الإفرنج ومع ملك بيت المقدس ٥٨٠ هـ.

وتواجه جيش صلاح الدين مع الفرنجة الذين تحالفوا على القتال وعبر بجيشه نهر الأردُنّ جنوب طبرية واستولى عليها، وتحرك الفرنجة للمواجهة، والتقى بهم صلاح الدين بين (لوبين وحِطّين) وحملت عليهم جيوش المسلمين، وهم -أي: الفرنجة- في غاية من الانهيار والتعب، فنالوا منهم منالاً حتى غروب الشمس وباتوا في أتلال حطين وهم على أسوأ حال، وزحف صلاح الدين ليلاً على التلال وحاصرها، وفي يوم ٢٦ ربيع الثاني -وكان يوم جمعة- التحم الجيشان وأطبق جيش المسلمين على الفرنجة وقطعوا منهم الماء واستداروا عليهم من كل جهة وقاتلوهم وأسروهم، وبقي ملك الفرنجة على التل وحوله مجموعة من الأمراء والنبلاء وبضع مئات من الجنود وهاجمهم ثلة من المسلمين عدة مرات فاستسلم الفرنجة جميعاً وفي طليعة الملأ (غي دي لو سينان) و(رينودي شانيون) و(جِفري) أخو الملك، وهرب الملك ريموز ملك طرابلس هائماً على وجهه مع ثلة من الفرسان حتى بلغ إلى صور ثم إلى طرابلس ومات بعد ثلاثة شهور.

وأحسن صلاح الدين معاملة الأسرى الفرنجة إلا رينو الذي طعنه صلاح الدين في كتفه بعد أن أثاره، ثم أجهز عليه الجند، وكان الأسرى ثلاثة آلاف والقتلى مثل ذلك.

وجهز صلاح الدين جيشه بعد ذلك نحو فلسطين وجنوب لبنان ولم يجد مقاومة تذكر بعد معركة حطين، وفتح الناصر وقَيْسَارَيَّة وحَيفَا وصَفُّورِيَة والفُولَة وما حولها ثم اتجه إلى صَيدا وبيروت مُسَلماً بعد حصار، ثم فتح صُور وتوجه إلى باب القدس واستسلمت بعد أيام من الحصار ثم الرملة والخليل وبيت لحم.

وفي ١٥ رجب ٥٨٣هـ وصل إلى مشارف القدس وطلب من أمرائها المصالحة فأبوا فهاجمها بعد حصار وقتال، ودخلوا المدينة يوم السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ من ثقب فتحوه في السور واستسلمت الحامية الإفرنجية وكره صلاح الدين إراقة الدماء فاشترط عليهم أن يخرج المحاربون من المدينة خلال أربعين يوم، وسمح للروم ونصارى القدس بالإقامة بالمدينة والتمتع بحقوقهم كاملة، ومن شاء من الرعايا أن يخرج إلى موقع من مملكته فله الخروج كرعايا للسلطان، وقبل الفرنجة الشرط وبدؤوا يغادرون القدس مع كامل معداتهم وأدواتهم والجنود المسلمون يحرسونهم إلى حيث يريدون من غير أذى ولا نهب ولا استفزاز.

وظل موقف صلاح الدين وجنده في معاملة الأسرى والرعايا مضرب الأمثال لدى الفرنجة، ولما خرج البطريرك اللاتيني (إيرا كلوس) وكان يحمل مقداراً كبيراً من المال والجواهر قيل للسلطان: خذ ما معه لتقوي به المسلمين، فقال: لا أغدر به، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير كغيره من الأسرى.

واجتمعت نساء الفرنجة للخروج من بيت المقدس وطلبن منه أن يصفح عن أزواجهن وآبائهن وأبنائهن، فتأثر صلاح الدين وأطلق كل زوج وأب وابن وخرجوا جميعاً.

وكم من أخبار فتح بيت المقدس من صور ونماذج تشير إلى عظمة صلاح الدين وشفقته ورحمته وفروسيته الإسلامية، وأقام صلاح الدين شهراً كاملاً في القدس ثم جهز جيوشه لمحاصرة (صُور) التي استعصت على جنوده، وخاصة بعد أن فرحوا بالانتصار في بيت المقدس واستهانوا بالفرنجة، وكان للفرنجة دراية في حروب البحار وقد باغت الفرنجة المسلمين وقتلوا منهم عدداً كبيراً وأصابوا سفنهم وغنموا مغانم كبيرة.

ورأى صلاح الدين أن رفع الحصار عن صور أقرب إلى السلامة من استمرار القتال حتى تتهيأ الجيوش للحرب، فرفع عنهم الحصار واستمرت الحروب مع الفرنجة في أنحاء أخرى من الشام حتى أطلت سنة ١١٩٠ ولم يبقَ بأيدي الصليبيين غير مدينة صور وطرابلس وقلعة طرطوش بعد أن أخذ عليه حاكمها عهداً وقسماً بالإنجيل أنهم لا يشهدون حرباً عليه؛ ولكنهم خلفوا الوعد ونكثوا العهد وذهبوا يجهزون للحرب ويتراسلون مع أوروبة لإقامة الحرب مرة أخرى أو كما سميت (الحملة الصليبية الثالثة).

وفي صُور أعدّ الإفرنج عدتهم للحرب الثالثة واستفادوا كثيراً من تسامح صلاح الدين في إطلاق أسراهم وأمرائهم حيث أعادوا تجمعهم وأعدوا عدتهم في (صُور وعَكّا) ، ففي عكا كان صلاح الدين وجيوشه تحاصر الجيوش الصليبية من خارج المدينة وظل الحصار سنتين كاملتين والمسلمون في داخل المدينة، وحصنوها تحصيناً منيعاً، ولما التحم معهم صلاح الدين في أول معركة من شهر شعبان ٥٨٥هـ زحزحهم ودخل أطراف المدينة، ثم انسحب عنها وتوقف القتال عدة شهور كان كل من الفريقين يعيد ترتيب نفسه، ولما عاد صلاح الدين لقتالهم وجدهم أكثر عدداً وعدة، واستمر القتال عامين في البر والبحر تكبد فيها كل من الفرنجة والمسلمين الخسائر الكبيرة كان منها المعركة المسماة (بالوقفة الكبرى) التي خسر فيها المسلمون خمسة الآف جندي لولا أن صلاح الدين ثبت وصَال وجَال وجمع فلول المسلمين وحثَّهم على العهد حتى قَهَرُوا جيوش الإفرنج.

وتوعكت صحة صلاح الدين وعانى من التوعك كثيراً ولكنه كان لا يتأخر عن تنظيم جيوشه وترتيب أمور

دولته وكانوا يلومونه على ما يفعل، فيقول: (إذا ركبت للجهاد زال عني الألم حتى أنزل).

ومع طول المدة وطول الحصار ضيق الإفرنج حصارهم على المسلمين في عكا واستولى الجند عليها، وكانت مصيبة عظيمة على المسلمين وكانت أول معركة كبرى يخسرها صلاح الدين بعد أربعة عشر عاماً من الفتوحات، ويعزو بعض المؤرخين أن من أسباب ضعف جند صلاح الدين عدم تعاون الخليفة العباسي مع الجيوش الإسلامية المجاهدة حيث رأى أن ما يفعله صلاح الدين نوع من التوسع لنفسه وخاصة بعد أن أطلق على نفسه (الملك الناصر)، وعمد صلاح الدين في آخر الأمر إلى حرب العصابات التي ظلّت تشاغل الإفرنج في عكا وصور ومن حولها، حتى عام ٥٨٧هـ سبتمبر ١١٩١م وكان المسلمون قد أخلَوا قَيساريَّة وحَيفا واشتبكوا مع الجيوش الصليبية في معركة طاحنة ذهب فيها من المسلمين أكثر من سبعة الآف مقاتل وتشتت الجيش واحتموا بغابة كثيفة الشجر واستطاع صلاح الدين حماية من بقي بحسن تدبيره وصبره، وانسحب إلى القدس بعد أن حطم كافة قلاع عسقلان ويافا واللد والرملة لئلا يستفيد منها الصليبيون.

وزحف ريتشارد قلب الأسد إلى القدس ببطء واحتل كافة القلاع التي تخلّى عنها المسلمون وأعاد إعمارها وبدأت المفاوضات بينه وبين صلاح الدين وأبدى كل منهما الإعجاب بالآخر وحسن تدبيره.

ويقال: إن الحملة الصليبية الثالثة اشترك فيها ما لا يقل عن خمس مئة الآف أو ست مئة ألف مقاتل صليبي وذهب فيها ما لا يقل عن مئة وعشرين ألف مقاتل؛ ولكنها لم تؤتِ أكلها بل واجهت قوى المسلمين وهمة صلاح الدين في صموده ومعاركه، وثقل على ريتشارد قلب الأسد عدم قدرته على استعادة القدس من يد صلاح الدين فوافق ريتشارد أخيراً على إقامة صلح دائم مع صلاح الدين ليسود السلام بين الفريقين ثلاث سنوات وتم الصلح وألقت الحرب أوزارها.

وعاد ريتشارد إلى أوروبا في أكتوبر وفي البحر غرقت سفينته وخرج إلى الشاطئ سالماً متنكراً في أرض النمسا وهم أعداء ألداء له، حيث اكتشفوا أمره وأسروه ثم أطلق سراحه وعاد إلى بلاده، و بها قتل في معركة مع بعض خصومه عام ١١٩٩م.

أما صلاح الدين فعزم على الحج ولكن أتباعه طلبوا منه الاهتمام بالحصون والدفاع وتأخير الحج، فتأخر للغرض المذكور ورجع إلى دمشق وبها بقي يدير شؤون الدولة والجيوش حتى وفاته يوم السابع والعشرين من صفر عام ٥٨٩هـ مارس ١١٩٣م وقد بلغ السابعة والخمسين من عمره.

قال مؤلف كتاب «صلاح الدين» : والواقع أن سرّ عظمة صلاح الدين ودعامة مجده هي الأخلاق التي امتاز

وَخَلَّصَ القُدْسَ وَصَدَّ الكَفَرَهْ ... وَيَومَ حِطِّينَ الصَّلِيبَ دَحَرَهْ

سُميت تلك الحروب بالحروب الصليبية؛ لأن محاربي الإفرنجة كانوا يرسمون الصليب على ثيابهم وأسلحتهم.اهـ.

وكانت فكرة الحروب الصليبية ناتجةً عن اهتمام الأوروبيين بإقصاء الأتراك السلاجقة من حوض البحر الأبيض، وكان الأتراك مسلمين آنذاك فانتشرت فكرة الحرب على الإسلام، وكان دعاة الحرب يصورون المسلمين لأبناء أوربا على أنهم أَكَلَةُ لَحم البشر، وذئابُ الإنسانية وأعداءُ المسيح، وغير ذلك من الصور التي عبّر عنها المؤرخ الإنجليزي (جيبون) بقوله: ولم تكن هذه التُّهم سوى نتيجةَ الجَهْلِ والتَّعصبِ، وهي صور ينفيها القرآن ويكذبها تاريخ الفاتحين العرب وتسامحهم مع المسيحية في الحياة العامرة وفي الشرائع والقوانين.اهـ.

ويقول المؤرخ (رنسيمان): إن المسيحيين كانوا أسعدَ حظًّا في الغالب تحت حكم جماعات المسلمين منهم تحت حكم ملوك الرومان حيث تمتعوا بحرية التجارة والعيش في ظلال الأمن ولم يُرْهِقْهُمُ المسلمون بالضرائبِ كَمَا كانُوا يعانون. اهـ

وقد اصطبغت الحَرَكَةُ الصَّلِيبيَّةُ من أول أمرها بصبغة الجَشَعِ الاقتصادي والسياسي والرَّغبةِ الجامحةِ في السَّيطرة، وجعلوا من إنقاذ بيت المقدس شعاراً مُزَيَّفاً وَسبباً في تحريك العاطفة الدينية لدى الدَّهماء والعماة، ولهذا فإن الحروب الصليبية كانت أولَ تجربة في الاستعمار الغربي خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق وهي كما عرف عنها أول حروب عالمية عَرَفَها التاريخ[1].

بها في وقت تفسخت فيه الأخلاق وانهارت القيم.

(١) «الفتنة المعاصرة» ص١٦٤، ص ٥١ صلاح الدين، قلعبي.

مَرْحَلةُ الدُّويلات وهَجْمةِ التَّتَار

وَاحْتَدَمَـتْ مَرَاحِـلُ التَّحَـوُّلِ وَمَـا جَـرَى مِـنْ فِتْنَـةِ التَّبَـدُّلِ
وَلَـمْ يَـزَلْ هَذَا الصِّرَاعُ مُسْـتَمِرْ وَعُصْبَـةُ الإِفْرَنْـجِ تَغْـزُوْ وَتَفِـرْ
تُنَازِعُ الشَّـامَ وَمِصْرَ بِالحُرُوْبْ وَتَزْرَعُ الرُّعْبَ عَلَى كُلِّ الدُّرُوبْ
وَأَغْلَـبُ الحُـكَامِ فِـي حَـرْبٍ ضَـرُوسْ وَفِتْنَـةٍ ذَلَّتْ لَها شُـمُّ الـرُّؤُوسْ
واسْـتَطْمَعَ الكَافِـرُ فِيْهِـمْ وَبَـدَا يُجَنِّـدُ الجُيُـوشَ يَغْـزُوْ البَلَـدَا
إِذْ جَاءَتِ المَغولُ كَالسَّيْلِ العَرِمْ مِـنْ جِهَةِ الشَّـرقِ بِنَـارٍ تَضْطَرِمْ
وَالْمُسْـلِمُونُ فِي صِرَاعٍ مُرْعِبِ وَفِـي اخْتِـلَافٍ وَنِـزَاعٍ مَذْهَبِيْ

كان المسلمون آنذاك في حالَةٍ من الاختلاف والتجزؤ؛ بل حتى إنهم لا يدركون طبيعة الحركة الصليبية وهدفها، فالفاطميون في مصر ذهبوا يفكرون في التحالف مع الصليبيين ضد خصومهم من أهل السنة أي الخلافة العباسية في بغداد، والأتراك السلاجقة في الشام، وكان صاحب السلطة الفعلية في مصر آنذاك هو الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي الذي ظل يحكم البلاد طوال عهد الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤ - ١١٠١م) والسنوات العشرين الأولى من حكم الخليفة الآمر، أي: حتى سنة ١١٢١م، ويظهر عدم إدراك الوزير الأفضل للحركة الصليبية من أنه عندما رأى الصليبيين يهاجمون السلاجقة (أعداء الدولة الفاطمية آنذاك) فَكَّرَ أَنْ يُقِيمَ تَحالُفَاً بينه وبين الصليبيين بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين، وانتهز الوزيرُ الأَفضلُ الفرصةَ أمام هذا الوضعِ في أواخر القرن الحادي عشر وأرسل جيشاً تمكَّنَ من فتح بيت المقدس، وَمِنْ ثَمَّ كانتِ المشاوراتُ مع الصليبيين حول

أَنْطَاكِيَة، إلَّا أَنَّ الصليبيينَ أعادوا ترتيب أنفسهم وجردوا حَمْلَتَهُم على القدس بعد فتح بيروت وطَرَابُلُسَ وَصُور وَعَكَّا وَالرَّملة ثم اقتحموا القدس بعد حصارها ودخلوها في ١١ رمضان ٤٦٣هـ/ ١٤ يوليو ١٠٩٩م وأعملوا السيف في أهلها، وهكذا غَدتْ بيت المقدس مملكةً لاتينيةً بالإضافة إلى ما حولها من البلاد، وبقيت بعض البلدان الساحلية تُقاوم الصليبيين من جهة وبين أُمرائها وولاتها حروب داخلية من جهة أخرى حتى تمكن الصليبيون من السيطرة على بقية البلاد، قال (ريف غروسر): وبدلاً من أن يتحدَّ الأمراءُ المسلمون ضد الصليبية واجهوها فُرادى وفرادى فسُحِقوا الواحِدَ تلو الآخر وتغلغلت الصليبية بينهم[1].

حَتَّـى انْتَهَـوْا بِهَجْمَـةِ التَّتَـارِ مَـنْ دَمَّـرُوا مَظَاهِـرَ الإِعْمَـارِ

يشير الناظم إلى مرحلة التتار التي كانت بلاءً عظيماً على الأمة، وتحوُّلاً خطيراً في تاريخ كل هجمة كما سبق، وأزمةً عَبَّـر عنها في «تاريخ الخلفاء» فقال: هو حديث يأكل الأحاديث، وخبرٌ يطوي كلَّ الأخبار، وتاريخٌ يُنسي التواريخ، ونازلةٌ تصغِّر كلَّ نازلة، وفادحةٌ تطبق الأرض، وتملؤها ما بـين الطُّول والعَرض، يسكنون بأطراف الصِّين، وهم سكان برارٍ ومشهورون بالشر والغدر، وكان أوَّلُ خروجهم في سنة ست وستمائة من بلادهم إلى نواحي الترك وفرغانة وأخذوها، واستمروا في اجتياح البلاد حتى سنة خمس عشر وستمائة، فاستباحوا مملكة خوارزم شاه، وهي مملكة إسلامية جهة نيسابور، وأخذوا بُخارَى وسَمَرقَنْد، حتى وصلوا إلى همدان وقزوين وأذربـيجان وما حولها، وقتلوا غالب أهلِها رجالاً ونساءً، وديانتهم عبادة الشمس، ويأكلون جميع الدوابِّ وليس لهم نكاح يُعْرَفُوْنَ به.

ولما دخلت سنة ست وخمسين بعد الستمائة وصل التتار إلى بغداد يقدمهم هولاكو، قال

---

(١) «صلاح الدين» ص٥٤ لقلعبي.

الناظم:[1]

إِذْ جَاءَ هُوْلَاكُوْ بِجَيْشٍ جَحْفَلِ يُدَمِّـرُ الأَرْضَ بِـلَا تَعَقُّـلِ
حَتَّى انْتَهَى بِجَيْشِـهِ إِلَى العِرَاقْ قَتْـلاً وَنَهْبـاً وَدَمَـاراً وَاحْتِـرَاقْ
وَهَـدَّمَ المَسَـاجِدَ الشَّـرِيفَةْ وَقَتَـلَ المُسْـتَعْصِمَ الخَلِيفَـةْ
وَأَخْـرَبَ البِـلَادَ وَاسْـتَبَاحَا وَرَوَّجَ الخَنَـاءَ وَالسِّـفَاحَا

ودخلت سنة سبع وخمسين وستمائة والأمة بلا خليفة، واجتمع في الشام الأمراء والأعيان وكذلك بمصر، وقام الأمير قُطُز بحضور الشيخ عزِّ الدين عبدالسلام ودار الحديث حول ما يُجَابِهُ المسلمين، وفي هذه الأثناء تَسلْطَنَ قُطُز ولقب «بالملك المظفر» وأخذ يُعِدُّ العُدَّةِ لملاقاة التتار.

ودخلت سنة ثمان وخمسين والبلاد بلا خليفة، والتتار يتقدم، ووصلوا في تقدمهم إلى أطراف الشام، ودخلوا دمشق وقد تحرك المصريون إلى الشام للقتال، وفي مقدمتهم الملك المظفر، فالتقى الجيشان عند عَين جَالوت، واصطفُّوا للقتال يوم الجمعة خامس عشر من رمضان، وهُزِمَ التتارُ شَرَّ هزيمة، وقتل من التتار مقتلة عظيمة وَوَلَّوُا الأدبارَ، ودخل المظفر إلى دمشق مؤيداً منصوراً، وساق الظاهر بـيبرس وراء التتار إلى بلاد حلب وطردهم عن البلاد، واختلف الظاهر مع المظفر حول بعض الأمور فاتفق بـيبرس وبعضُ من معه على قتل المظفر فقتلوه في طريق العودة إلى مصر وغير لقبهُ إلى «الملك الظاهر».

ودخلت سنة تسع وخمسين بعد الستمائة والبلاد لا زالت بلا خليفة، فأقيمت الخلافة بمصر وبويع الخليفة المستنصر، وكان مدة انقطاع الخلافة ثلاث سنين ونصف.

---

(١) يبدأ منذ هذا العهد عهدٌ جديدٌ في تاريخ التحولات، قال ابن الأثير في تاريخه: إن أحداث سنة ٦١٧ هـ التي وقع فيها غزو المغول تَعجُّ بأعظم كارثة حَلَّت بالإنسانية. «الفتنة المعاصرة» لفؤاد علي مخيمر ص١٦١

وَقَـامَ بِيْبَـرسُ الشُّـجَاعُ يَزْحَفُ عَلَى بِلَادِ الغَرْبِ حَتَّى أُرْجِفُوا
وَدَكَّ أَرْمِينيـا بِجَيْـشٍ مُقْتَـدِرْ وَاحْتَـلَّ أَنْطَاكِيَّـةَ الثَّغْـرَ العَسِـرْ

والخليفة المستنصر بالله هو أحمد أبو القاسم ابن الظاهر بأمر الله أبـي نصر محمد ابن الناصر لدين الله أحمد العباسي، وكان محبوساً ببغداد، فلما أخذ التتار بغداد أُطلق فهرب إلى عرب العراق، فلما تَسَلْطَنَ الظاهر بـيبرس وفد عليه فتلقاه السلطان خارج مصر وأدخله في حفلٍ مهيب، ثم بويع له بالخلافة، ثم ارتحل إلى العراق وودعه السلطان بـيبرس وخرج معه جملة من الأمراء والحكام، وفي الطريق لَقِيَهُ عسكرٌ من التتار فتصافوا له فقاتلهم وقتل جماعة من المسلمين وقُتل الخليفة المستنصر، وذلك في الثالث من محرم سنة ستين بعد الستمائة، وكانت خلافته دون الستة الأشهر [(١)].

وَاجْتَهَـدَ المُظَفَّـرُ المُجَاهِـدُ فِي عَيْـنِ جَالُوْتَ وَنِعْـمَ القَائِدُ
إِذْ دَحَـرَ المَغُوْلَ حَتَّـى انْهَزَمُوْا فِـي كُلِّ فَـجٍّ بَعْدَمَـا تَحَطَّمُـوْا

يشير الناظم إلى دور دولة المماليك بمصر في الوقوف أمام المد المغولي الجارف حيث أشارت كتب التاريخ أنَّ هولاكو كتب إلى المظَفَّرِ كتاباً يدعوه فيه إلى طاعته فأجاب عليه المظفر بقتل رسله وتعليق رؤوسهم على باب زويله أحد أبواب القاهرة، وكتب الى أمراء الشام بعزمه على قتال المغول، وتوجه ركن الدين بيبرس البندقداري حتى لقي طلائع المغول وأخذ يُنَاوِشُهُمْ ويشاغلهم ريثما يصل السلطان المظفَّر وفي سبتمبر ١٢٦٠م التقى الجيشان وألقى السلطان خُوْذَتَهُ على الأرض وصاح بجيشه (وا إسلاماه) ثم حَمَلَ عَلَى العدو واندفع جنودُهُ ورَاءَهُ في معرَكَةٍ ضاريةٍ حتَّى هزموا المغول وقتلوا أميرَهُم (كتبغا) واخْتَلَّتِ الصُّفُوفُ وتقهقرَ المَغُولُ، والمسلمون خلفهم وواصل بيبرس هُجُومه على المغول في الشام واسترجع منهم كافة حصونها

(١) «تاريخ الخلفاء» ص ٣٣٩ - ٤٤٠ باختصار وتصرف.

وعاد إلى مصر إلَّا أنه حصل بينه وبين الملك المظفر خلافٌ شديد أدَّى إلى قتل المظفر وتلقب بيبرس الظاهر وحكم مصر واستمر في فتوحاته وأحيا الخلافة العباسية، ومن ثم مَدَّ نفوذه واتجه في سنة (٦٦٥هـ - ١٢٦٦م) للاستيلاء على صَفَد وهُونين وتِبْنِيْن والرملة في فلسطين وعلى القليعات وحلب وعِرقَه في ساحل الشام، وأرسل الأمير قلاوون والملك المنصور الثاني لايور إلى إرْمِيْنِيَة الصغرى.

وواصل فتوحاته وبعث بغارات إلى أرمينيا وغزاها، وعاد جيشه بأربعين ألفاً من الأسرى وما لا يحصر من الغنائم، وكذلك أحرز بيبرس نصراً عظيماً باحتلال أنطاكية بعد حصارٍ لم يَطُلْ أكثر من خمسة أيام ثم عاد للاستيلاء على طرابلسَ وحصنِ عَكَّا وحصنِ الأكرادِ وحصونِ الإسماعيليةِ، وتوفي الظاهر بيبرس في محرم ٦٧٦هـ وهو في الطريق من حلب إلى دمشق.

وبويعَ المستنصرُ الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبـي علي الحسن بن أبـي بكر بن حسن ابن علي القبـي ابن الخليفة المسترشد بالله ابن المستظهر بالله، وكان قد اختفى أيام التتار ثم نجا، وخرج من العراق ودخل دمشق، فلما جاء الملك المظفر بعد هزيمة التتار في عينِ جالوتَ اجتمع به وبايعه بالخلافة، وبقي في أنحاء الشام يقاتل التتار، واستنصر عليهم في عدة مواقع، ولما رجع الظاهر بـيبرس إلى مصر أرسل إليه؛ ولكنه تأخر في الجهاد فبويع للمستنصر بالخلافة، ولما قدم المستنصر طلبه الظاهر بـيبرس للدخول إلى مصر فدخل وأكرمه وبايعه بالخلافة وامتدت أيامه نيفا وأربعين وسنة[1].

وفي محرم من عام إحدى وستين بعد الستمائة جاء إلى مصر جماعة من التتار مسلمين مستأنسين، وكان ذلك بداية خُفُوْتِ أمرهِمْ وكِفَايَةِ شَرِّهم[2]، وفي سنة ثلاث وستين وستمائة

---

(١) المصدر السابق ص٤٤١.

(٢) المصدر السابق.

مات الطاغية هولاكو.

وفي سنة ثمانين بعد الستمائة عاد جيش التتار إلى الشام وحصل الإرجافُ، وخرج السلطان لقتالهم وانتصر المسلمون[1].

وفي سنة أربعة وتسعين وستمائة دخل إلى الإسلام «قمازان بن أرغون بن ابغابن بن هولاكو» ملك التتار، ففرح الناس بإسلامه وفشا الإسلام في جيشه.

وفي سنة ست وثلاثين بعد السبعمائة، مات ملك التتار أبو سعيد، وهو آخِر ملوكهم عدلاً، ولم تقم لهم بعد موته قائمة[2].

وفي جمادى الأولى سنة ثلاث وستين بعد السبعمائة تولى الخلافة المتوكل على الله أبو عبدالله محمد بن المعتضد، وامتدت أيام خلافته خمساً وأربعين سنة، وولي الخلافة من ولده خمسة.

وكان من أعماله إحداثُ العلامة الخضراء على عمائم الشرفاء من آل البيت سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، وقال في ذلك أبو عبدالله ابن جابر الأعمى صاحب شرح الألفية:

جَعَلُوا لأَبْنَاءِ الرَّسُولِ عَلامَةً ... إِنَّ العَلامَةَ شَأنُ مَنْ لم يُشْهَرِ

نُورُ النُّبُوةِ فِي كَرِيمِ وُجُوهِهِم ... يُغْنِي الشَّرِيفَ عَنِ الطِّرَازِ الأَخْضَرِ

وفي سنة ثمان وثمانمائة مات الخليفة المتوكل، وما جاء بعد هذه المرحلة كان ضُعفاً مستطيراً وبلاءاً متفشياً، وقد سمى المؤرخون عصر اكتساح المغول لبغداد وسقوط الخلافة (مرحلة الانهيار)، وما جاء بعدها يطلق عليه «**عَهْد الدُويلات**» لعدم انتظام العالم الإسلامي والعربي تحت دولة واحدة وقرار موحد.

قال الناظم:

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤٣.

(٢) المصدر السابق ص ٤٤٦.

وَمُزِّقَـتْ ثَوَابِـتُ الخِلَافَـةِ وَحَـلَّ بَالعَالَـمِ كُلُّ آفَـةِ
وَصَارَ حُكْمُ العَالَمِ الإِسْـلَامِيْ بِضْـعَ دُوَيْـلَاتٍ بِـلَا انْسِـجَامِ

بعد أن أجهز المغول على الخلافة العباسية أصبحَ العالم الإسلامي ممزقَ الأوصال، كل دويلة يحكمها حاكم له أطماعه ورغباته، والشعوب مغلوبٌ على أمرها تَعيشُ حَياةَ البؤس والهَوان.

وكما سبق ذكره في الأحداث الجارية بعد سقوط دولة بغداد فإن الدويلات المتنازعة لا يستقيم لها أمر ولا يستقر لها كيان، اللَّهم إذا استثنينا مرحلة هزيمة المغول على يد المماليك وانتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين وتطهير بيت المقدس منهم.

إِعادةُ قرار الخلافَة الإسلامية على يَدْ بَني عُثْمان

وَجَاءَ لِلحُكْمِ بَنُوْ عُثْمَانِ　　　دَكُّوْا صُرُوْحَ الإِفْكِ وَالبُهْتَانِ

وَأَجْمَعُوْا عَلَى قَرَارِ الأُمَّةِ　　　تَحتَ شِعَارِ الدِّينِ وَالخِلَافَةِ

أشارتِ الأبيات إلى عهدٍ جديدٍ مِنْ عهود التَّحوُّل في تاريخ الأُمَّة، حيث عاشت الأمة الإسلامية منذ سقوط الخلافة على عهد اكتساح التّتار لبغداد وما بعدها تشتيتاً للقرار، وعاشت حالة من التفكك والفوضى والصراع سواء كانت فوضى وصراع الغزاة والمتنافسين من المسلمين ضد بعضهم البعض، أو صراعهم مع الروم والتّتار والصَّليبيِّينَ وغيرهم من الطامعين.

إلى أن جاء قَدَرُ الله لدولة بني عثمان في تركيا، إذ بدأ العثمانيون يقاتلون الروم ويناوِشُونهم حتى انتصروا عليهم واستَولَوا على عاصمتهم وهي «القُسْطَنطينية» عام ٨٧٤ هـ (١٤٥٣م)، وجعلوها عاصمةً لهم، وتمكنوا أيضاً من الاستيلاء على كثير من البلاد العربية المفكَّكَةِ والتي طمع فيها البرتغاليون، ووحدوا قرار العالم العربي والإسلامي بإعلان الخلافة العثمانية على أنقاض الخلافة العباسية، وكان ذلك تَحَوُّلاً هاماً في تاريخ القرار الإسلامي العالمي بعد انتكاسِهِ وتفكُّكِهِ.

تأسست الدولة العثمانية نسبة إلى صاحبها ومؤسسها الأول **عثمانَ بن أرطغرل بن سليمان شاه التركماني** الذي انتصر في حربه على جملة من القبائل في آسيا الصغرى، فارتفع أمره عند آخر الملوك السلاجقة السلطان علاء الدين فقربه وولّاه على البلاد، ولقب بالملك، وفي سنة ٦٩٩ هـ توفي السلطان علاء الدين وصفا الجو لعثمان وغزا بلاد الروم وحارب التتار وأخرج الروم من آسيا الصغرى، وتواتر بنو عثمان على الملك وحاربهم تيمورلنك مع بداية استقرار ملكهم، وعاث في مملكته الفساد، وثبت آل عثمان في حربهم ضد تيمورلنك وجيوشه، كذلك حربهم مع

المسيحيين من جيرانهم في المجر والصرب وغيرها، واستطاع السلطان مراد العثماني فتح العديد من البلدان رغم الخسائر والمناوشات الكبيرة التي عانتها بلاده.

وفي عهد محمد الفاتح العثماني استطاع أن يدافع عن مملكته ويسترد ما أخذ منها، ويفتح القسطنطينية بعد أن أُخذت منهم، وعاد إلى بلاد الصّرب وما حولها ليفتحها، واستمرت فتوحاته في البلاد اليونانية وغيرها، ومات السلطان الفاتح في ربيع الأول سنة ٨٨٦هـ ودفن بالآستانة.

وتولى بعده الحكم ابنه السلطان بايزيد، وفي عصره استقرت أمور الدولة، ومات بايزيد في ربيع أول سنة ٩١٨ هـ، وتولى الحكم سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح الذي حارب الدولة الصفوية بإيران واحتل بتريز، ثم تحول إلى فتح بلاد الشام ومصر.

وكان عصر السلطان حسن الغوري، والتقى جيشه مع العثمانيين قريباً من حلب في مَرْج دَابق، وقُتل السلطان الغوري في المعركة، واستلم السلطان سليم بلاد الشام وأعاد إعمارها وأكرم علماءها، ثم سار إلى مصر ودخلها، وقامت معارك مع المماليك حتى قتل سلطانها طومان، ودخلت مصر في طاعة الدولة العثمانية [1]، واستبدلت العمامة بالطَرْبُوش، وأرسلوا لشريف مكة الشريف بركات في شأن الدخول في طاعة الدولة العثمانية فقبل الشريف، وأخذوا للسلطان البيعة في الحرمين الشريفين، وعاد السلطان إلى تركيا ومات في ثمانية شوال ٩٢٦ هـ وعمره أربع وخمسون سنة.

وتولى بعده سليمان باشا القانوني وهو عاشر ملوك العثمانيين، وسمي بالقانوني لأنه سن العديد من القوانين المدنية الموافقة للشريعة الإسلامية، وفي عهده فتحت بِلغرَاد، وفتح جزيرة رُودِس في البحر الأبيض، وهي حصن منيع استعصت على من قبله، ووقع معهم معاهدة

---

(١) «شرح أشعة الأنوار» للبيحاني (٢: ٢٠٨) باختصار وتصرف.

استسلام، وخرجوا من الجزيرة إلى مَالِطَة، ودخلت الجيوش الإسلامية الجزيرة، ثم احتل العثمانيون بلاد القِرَم، وطالت الحرب مع النمسا ولم يتمكن السلطان من فتحها لشدة البرد وبعد المسافات على التموين(١).

وفتح العثمانيون بلاد العجم من أرض فارس بعد تمردهم وبلاد المجر، ثم تقدم إلى بغداد وكانت تحت حكم العجم، ورفع عليها علم الخلافة العثمانية، وأصلح المنشآت والقبور والمآثر، وعاد إلى تبريز، ومنها وصله الخبر بفتح الجزائر، وبداية غزو السواحل الإيطالية والفرنسية والأسبانية، وفي سنة ١٥٣٤م احتل تونس؛ ولكن الأسبان أعادوا تونس مرة أخرى.

وجهز القانوني جيشاً من السويس بمصر لمطاردة البرتغاليين في مياه المحيط الهندي، ولتعزيز قوته في اليمن، وتجديد الحملة على عدن، واستطاع الجيشُ الاستيلاءَ على عدن وأخرج آخر حكام الطاهريين منها، وأصبح معظم اليمن بل كله تابعاً لبني عثمان اللهم إلَّا بعض أجزائه التي كان يحكمها أئمة الزيدية(٢).

وبعد فتح عدن توجه العثمانيون إلى الهند لمقاتلة البرتغاليين بَرّاً وَبَحْرَاً، ولكنهم انهزموا وعادوا إلى عدن(٣)، وتواترت الحروب بين العثمانيين والزيدية حول صنعاء حتى توفي السلطان سليم القانوني في سنة ٩٧٤هـ.

وتولى الحكم بعد سليمان القانوني سليمُ الثاني وواصل فتوحاته وحروبه على نَسَقِ أبيه، وكان من أعمال سليم الثاني غزو قُبْرص، واستمرت تحت الحكم العثماني إلى سنة ١٢٩٥هـ، ثم تنازلت عنها تركيا للإنجليز أيام السلطان عبدالحميد الثاني.

---

(١) المصدر السابق (٢: ٢١٧).

(٢) المصدر السابق (٢: ٢٢٢).

(٣) المصدر السابق.

المرحلةُ الغُثَائِيَّةُ

بدءُ انهيارِ دولة الخِلافة وبُروزُ الفتن: الأحْلاس، السَّراء، الدُّهَيماء، الصَّمَّاءُ العَمْيَاءُ

(الِاسْتِعْمار، الِاسْتِهْتَار، الِاسْتِثْمَار)

«**يُوشكُ أَنْ تَداعى عليكمُ الأممُ كما تَداعى الأَكَلَةُ على قَصْعَتها**» قالوا: أمنْ قلَّة نحنُ يا رسول الله؟

قال : «**لا.. أنتم يومئذ كَثيرٌ ؛ ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاء السَّيلِ، يُلقى عَلَيْكُمُ الوَهَنُ**» قالوا : وما الوهنُ يا رسولَ الله؟

قال: «**حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموتِ**»

بدءُ ضَعف الدَولة العُثْمانِية وظُهُور مَرْحَلة الغُثَائية

لمَّا بَـدَا الضَّعْفُ بِدَوْلَـةِ القَرَارْ ... وَبَرَزَتْ فِيهَا شُـرُوْطُ الاِنْحِسَارْ
وَظَهَـرَتْ مَعَالِـمُ الحَضَـارَةْ ... فِي الغَرْبِ وَازْدَانَتْ بِهَا الإِدَارَةْ
تَوَجَّـهَ الأَتْـرَاكُ نَحْـوَ الاِقْتِبَاسْ ... فَدَخَلَ النَّخْرُ إِلَى عُمْقِ الأَسَاسْ

يشير الناظم إلى بدء ما حَلَّ بدولة الخلافة، حيث تواتر سلاطين آل عثمان من بعد سليم الثاني في مرحلة بدأت فيها أطماع الدول الأوروبية، واكتشاف رأس الرجاء الصالح، وكانت البرتغال مملكة أوروبية في الجنوب الغربي من أسبانيا على المحيط الأطلنطي وعاصمتها «لَشْبُوْنَة»، وشعبها شعباً استعمارياً، ولهذا طمعوا في السيطرة على البحار، ووجدوا في دولة آل عثمان ضَعْفاً في التسليح الحربي مما يَسَّر للبرتغاليين غزو الشواطئ، ولم ينتبه العثمانيون لهذا الخطر إلَّا في عهد سليمان باشا القانوني.

قال الناظم:

وَأَوَّلُ العَهْـدِ قَـوِيٌّ مَظْهَـرُهْ ... دِيْنَـاً وَدُنْيَـا وَكَـذَاكَ جَوْهَـرُهْ
وَآخِـرُ العَهْـدِ انْحِسَـارٌ وَانْهِيَـارْ ... وَدَخَنٌ فِي الحُكْمِ مِنْ تَحْتِ السِّتَارْ
أَفْضَـى إِلَـى تَدَخُّـلِ اليَهُـودِ ... وَدَعْمِهِـمْ سِياسَـةَ التَّجْدِيـدِ
تَغَلْغَلُـوْا فِـي الحُكْمِ بِاسْـمِ الدِّيْنِ ... إِذْ أَسْـلَمُوْا زُوْرَاً بِـلَا يَقِيْـنِ
وَكَوَّنُـوْا سِيَاسَـةَ الأَحْـزَابِ ... وَهَيَّـؤُوْا الأَوْطَـانَ للخَـرَابِ

تشير الأبـيات إلى مرحلة الدولة العلية العثمانية، وما كانت عليه في بداية أمرها من القوة والمَنَعَةِ والعزة، مما جعل لها في نفوس الأعداء هيبةً ومكانةً في شؤون الدين لما كانت عليه من نصرٍ لمنهج الإسلام على منهج أهل السنة، وبهذه الهيبةِ انتشر المذهب السنّي في أطراف العالم،

وتعزز مذهب أهل الذوق «التَّصوف» وسَادَ رجالُهُ وعلماؤُهُ برَغْمِ مآخِذِ البعض على عِلَّاتِهِمْ مِنَ الإِفْرَاطِ والتَّفريط؛ ولكنَّها كانت مرحلة ذات أبعاد، ولكلِّ مذهبٍ رؤيةُ إفراطٍ وتفريطٍ في الغالب، والمتربصون دائماً لا يقفون إلَّا عند السَّيِّئِ أو الوجه المظلم لا غير.

وكفى أنَّ هذه الإفراطات والتفريطات مع غيرها من العوامل كانت من أهم أسباب ضعف الدولة فيما بعد، وبدء انحدارها في العد التنازلي أمامَ ضرباتِ أعدائها وسياسةِ أضدادِها ومؤامراتِ أبنائِها الذين بَهَرَتْهُم مظاهرُ الحضارة الغربية، وأبواقُ الدعوات التحررية، ففتحوا على أنفسهم أبوابَ كلِّ شيء، فكانت من أخطر الأمور المؤدية إلى الانهيار، وتتلخص هذه العوامل فيما يلي:

١) تأثر الدولة بالحضارة الغربية والتمتع بالشهوات.

٢) اتصال المفكرين والمثقفين المسلمين بالأوربيين، وكثرة البَعَثَاتِ إلى أوربا والانغماس في الحريات الأوروبية.

٣) تغلغل يهود الدونمة في الجمعيات والتكتلات السياسية، ووصولهم من خلال الحزبية إلى مواقع القرار، وتشجيع هذه الجمعيات على النمو واختراق الواقع التقليدي.

٤) التأثر الأعمى بسياسة القوميات التي روَّج لها اليهود، كسياسة التتريك [١] والتعريب وحركة الانفصال، وخاصة في شعوب البلقان المسيحية[٢].

٥) تأثر العديد من الحكام وبطانات البلاط العثماني والجُنْدِ بدعوة العلمانية «فصل الدِّين عن الدولة»، وهو ما كانت تروج له الدول الأوروبية إِبَّانَ مرحلةِ الثَّورة الصناعية.

قال الناظم:

---

(١) التتريك: مبدأ تركيا للأتراك، وهي ما تسمى بالدعوة إلى الطورانية (القومية التركية).

(٢) كانت هناك دعوة تسمى (السلافية)، وهي توحيد صفوف نصارى البَلْقان ضد المسلمين.

فَسُـمِّيَتْ بِفِتْنَـةِ الأَحْـلَاسِ كَمَـا أَتَى فِـي قَوْلِ خَيْـرِ النَّاسِ
هَرْبٌ وحَرْبٌ وَانْتِقَاضُ الدُّوَلِ عَـنِ القَـرَارِ الوَاحِـدِ المُبَجَّـلِ

تشير الأبيات إلى ما سَمَّاه الرسول ﷺ «**بِفِتْنَة الأحْلَاس**» وهي من أمارات الساعة، وقد صنَّف العلماء هذه الفتنةَ بأنها من الفتن التي قد عَبَرت في فِتَنِ المراحل المتقدمة، جاء في ذيل «الإشاعة» قال الإمام الشاه ولي الله رحمه الله: يشبه والله أعلم أن تكون فتنة الأحلاس قتال أهلِ الشام عبدَالله بن الزبـير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ذكر ذلك في «الحجة البالغة» (٣: ١٩٦).

قال في «بذل المجهود» (١٨: ١٣٢) في شرح معنى «**الأحلاس**»، قال: جمع حليس وهو ما يبسط تحت حُرِّ الثياب فلا تزال مُلقاةً تحتها، وقيل الحِلْسُ: هو الكِسَاءُ على ظهر البعير تحت القَتَبِ.

قال في المتن: كنا قعوداً عند رسول الله ﷺ فذكر الفتن فأكثر في ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس، فقال قائل: يا رسول الله، وما فتنة الأحلاس، قال: «**هَرَبٌ وحَرَبٌ**» قال في شرح بذل المجهود: «**هَرَب**» بفتحتين: أي: يفر بعضهم من بعض لما بـينهم من العداوة، «**وحَرَب**»: بفتحتين أي أخذ مال وأهل بغير استحقاق.

قال في «الإشاعة» : والذي أظن أنها فتنةٌ حدثت في آخر خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وثارت بعد المسلمين، حتى تمادت وبقيت إلى زمن معاوية، واتفق عليه بعد صلح الإمام الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال في «بذل المجهود» ص (١٨: ٣٩٦): فتنة الأحلاس حَمَلَهَا الشيخُ الشاه وليُّ الله الدهلوي في «حجة الله» (٣: ١٥٩) على قتالِ أهلِ الشام ابنَ الزبـير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي «بذل المجهود» (٥: ٨٨) على مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلت: وإذا كان المفسرون للحديث قد جعلوا «**فتنة الأحلاس**» هي ما جرى لابن الزبـير أو مقتل عثمان، فإن سياق الحديث يشير إلى تلازم فتنتين معاً لا يفصل بـينهما زمنٌ طويلٌ ولا عهدٌ متقادم، فالحديث الشريف يجمع بـين

مرحلتين متقاربتين كما هو في النص: «**فقال قائل يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ فقال: «هَرَبٌ وحَرَبٌ، ثم فتنة السراء دَخَنُها من تحت قَدَمَيْ رَجُلٍ من أهل بـيتي يزعم أنه مني وليس مني، وإنما أوليائي المتقون**»، قال الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في «شرح الإشاعة» للبرزنجي عند هذا الحديث: وقوله: «**ثم فتنة السرّاء**»: قال في «حجة الله» (٣: ١٥٩): هو تغلب المختار أو خروج أبـي مسلم الخراساني لبني العباس، وفي «بذل المجهود» (٥: ٨٩): على فتنة شريف مكة سنة ١٣٣٤ هـ، قال في الحاشية: قال الإمام السَّهَارَنْفُوري رحمه الله: والذي يظهر لي أنها هي الفتنة التي حدثت في رمضان سنة ألف وثلاث مئة وأربع وثلاثين، ومنشؤها أنَّ الشريف حسين بن علي كان في زمن حكومة الأتراك وحكومة النصرانية فلحق بالحكومة النصرانية سراً ووافق معهم على حرب الأتراك، فقتل الأتراك الذين كانوا في مكة المكرمة وَسَبَى نساءهم، ثم تولى الحكومة بنفسه وسمَّى نفسه «ملكَ الحجاز»، وبقيت حكومته قريباً من عشر سنين، ثم اضمحل أمره واصطلح الناس على حكومة ابنه علي بن الحسين، ولم ينتظم له أمر، فبقي كوَرِكٍ على ضِلْعٍ، وإنما سمي هذه الفتنة فتنة السراء؛ لأن مبناها وأسباب حديثها كان في السر، فإن الحكومة النصرانية أحالته إليها وأرسلت إليه من الجنيهات ألوفاً في السر ليبغي على حكومة الإسلام وينحرف عنها، فقسم من هذه الجنيهات في البدو وتوافق معهم على قتال الأتراك المسلمين وكل ذلك في السر، واتفق أن قائد الأتراك الذي كان بمكة أُخبر بشيء من تلك الفتنة فسأل الشريف عنها فحلف له عند الكعبة أنه لا أصل لها، حتى اطمأن قائد الأتراك، ثم وقع ما وقع»[1].

قلت والله أعلم: وعلى هذا التعليل الذي فسره الشيخ السهارنفوري رحمه الله يكون أيضاً معنى فتنة «**الأحلاس**»: مرحلة انهيار الدولة العثمانية وما طرأ في أخرياتها من مؤامرات غير

(١) «الإشاعة» ص٣٩٧.

واضحة ولا معلومة، لأنها سبقت فتنة السراء التي ذكرها الشارح، وبينهما تلازم زمني، فالأقرب على هذا المعنى المشار إليه أن «**فتنة الأحلاس**» -وفي اللغة: الحلس ما يبسط تحت الثياب إشارة إلى الخفا والتمويه- هي تلك المرحلة الحرجة التي تحركت فيها قوى الاستعمار الأوروبـي بُعيْدَ ظهور الثورة الصناعية لتعمل على الاستبداد المبَطَّن على ما سمي بتَرِكَةِ الرجلِ المريض.

ففتنة الأحلاس شملت العالَمَيْنِ العربـي والإسلامي بمؤامرة الدول الأوربـية عليها بأسلوب مبَطَّنٍ وخفي.

وفتنةُ السراء تجاوبَ حكام المسلمين فيها سرّاً مع الدول الأوروبـية للقضاءِ على قرار الحكم، واستتباعِ تهوُّكَاتِ اليهود والنصارى في المطالبة بالقوميات والحريات وغيرها، وما جرى بعدها من الحروب العالمية والمؤدية إلى تغيير خريطة العالم العربـي والإسلامي وظهور القوى الجديدة في العالم.

قال الناظم:

وَجَـاءَ عَهْـدُ (فِتْنَـةِ السَّـرَّاءِ) كَمَا أَتَى عَنْ صَاحِبِ الإِسْـرَاءِ
تَآمَـرَ الغَـرْبُ مَعَ الشَّـرْقِ سَـوَا ضِـدَّ الهِـلَالِ بِطَرِيْـقِ الإِلتِـوَا

(١)تشير الأبـيات إلى فتنة السرّاء التي أشرنا إليها سلفاً، وأنها المرحلة التي خطط فيها المستعمرون مع زعماء الدول العربـية ومشايخ العشائر بمعاهدات سرّية تفصل العلاقة بـين هذه الدول وقرار دولة الخلافة العثمانية.

وقد تميزت هذه المرحلة مع سابقتها بما يلي:

---

(١) الهلال: هو الشعار العالمي لدولة الخلافة، كما أن الصليب هو الشعار العالمي للمسيحية.

أ) فتنة الأحلاس:

١- العمل السرّي المُبَطَّن من الدول الأوربـية ضد قرار دولة الإسلام المتمثل في تركيا.

٢- إثارة العرقيات والقوميات، وبدء نشاط يهود الدُّونمة في تركيا والعالم.

٣- إنشاء الجمعيات السرية والعلنية والأحزاب السياسية.

٤- بداية الأطماع التوسعية في البلاد العربـية والإسلامية بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، وظهور مرحلة الثورة الصناعية.

٥- تحرك العصبـية الصهيونية ضمن هذه الفتنة لإيجاد وطن قومي لليهود عبر المؤامرات والدسائس.

٦- ظهور الحركة الماسونية وتحريك أتباعها في العَالَمَيْنِ الإسلامي والأوروبـي الشرقي والغربـي.

ب) فتنة السراء:

١- استجابة حملة القرار العربي والإسلامي لسياسة القوميات والتَّخلي عن دولة القرار الواحد دولة الخلافة.

٢- بدء المعاهدات السرية بـين الدول الأوربـيةِ الغازِيَةِ، ومشايخ وسلاطين البلاد العربـية والإسلامية لنقض العلاقة بـين الدولة العثمانية وهذه الدويلات بالمعاهدات المتنوعة.

٣- اللقاءات السرية بـين زعماء الدول والأحزاب والجمعيات العربـية والإسلامية مع الدول الغربـية.

٤- تَأَثُّرُ المفكرين والقادة العسكريين والمثقفين بالحياة الغربـية والعمل المُبَطَّنِ من العائدين

على تطبيق نماذج الغرب في الأوطان العربية والإسلامية[1].

٥- نشاط الحركة الصهيونية وعقد المؤتمرات المتتالية والمؤلفات ذات الصلة المباشرة بالحرب ضد الإسلام[2] واستقطاع أرض فلسطين للقومية اليهودية والعمل على تحقيق ذلك بشتى السبل والأساليب.

قال الناظم:

وَآخِرُ الحُكَّامِ رَمْزاً وَشِعَارْ عَبْدُ الحَمِيدِ كَانَ مَأْمُونَ القَرَارْ
حَتَّى أُزِيحَ بِالسِّلَاحِ وَالجُنُودْ لمّا أَبَى مَنْحَ الأَرَاضِي لِليَهُودْ

تشير الأبيات إلى آخِرِ خُلفَاءِ الدَّولة العَليَّة السلطان «**عبد الحميد**» الثاني، وهو السلطان المنقذُ للدولة العثمانية ولقرار الخلافة في العالم العربي والإسلامي، رَغْمَ ما أحاط به من المؤامرات والخديعة، وما كانت عليه الدولة من الضعف والإحباط والديون الكبيرة[3].

---

(١) كتب هرتزل لعبد الحميد الثاني في هذا الشأن يقول: لي الشرف أن أقدم الاقتراح التالي: إني أدرك الصعوبة التي تواجه حكومتكُم بسبب ذهاب شباب تركيا لتلقي العلم في الخارج وما يتعرضون له من ضياع، وبخاصة في تأثرهم بالأفكار الثورية، إننا معشر اليهود نلعب دوراً هاماً في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم، وبهذا نستطيع أن نقيم جامعة في إمبراطوريتكم ولتكن في القدس مثلاً، وبهذا نخدم العلم والطلاب ونخدمكم أيضاً. اهـ ص٣٩ «اليهود في الوطن العربي» لداود عبدالغفور.

(٢) عقد في حياة هرتزل ستة مؤتمرات صهيونية كان آخرها مؤتمر عام ١٩٠٣م وعام ١٩٠٤م، توفي هرتزل ونقل رفاته إلى فلسطين عام ١٩٤٩ م بعد احتلال فلسطين، ودفن على جبل في القدس سمي باسمه «جبل هرتزل».

(٣) كان السلطان عبدالحميد السلطان الرابع والثلاثين من سلاطين الدولة العثمانية، تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، إذ ولد في ١٦ شعبان عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢م) وتربى على يد زوجة أبيه بعد وفاة أمه وهو في العاشرة من عمره، وأحسنت زوجة أبيه تربيته وتأثر عبدالحميد بها وأعجب بوقارها وتدينها، كما تلقى صنوف التعليم في القصر السلطاني وتعلم اللغات العربية والفارسية، كما درس التاريخ ونظم الشعر باللغة التركية العثمانية.

وكان يميل إلى الاهتمام بالسلاح واستخدامه ورياضاته، واعتنى بالمطالعة والاطلاع على ما تكتبه المجلات والصحف في عصره، وتزوج زوجة واحدة وعاش في بساطة وتقشف، وكان يميل إلى النجارة، واتخذ لنفسه ورشة نجارة في قصره، وعاصر مراحل التحولات على يد سلاطين عصره، ومنهم السلطان عبدالعزيز ومراد.

وفي ١٨ شعبان ١٢٩٣هـ تقلد السلطان عبدالحميد الحكم وكانت الدولة مضطربة ومثقلة بالديون وبخزانة مالية مفلسة وأطماع عالمية محيطة ببلاده ومؤامرات سياسية لاقتسام ما يسمى بتركة الرجل المريض، وهي مقاطعات ودويلات وإمارات الدولة العثمانية المترامية إبان ضعفها.

وأول ما اتخذه عبدالحميد من قرارات حاسمة تحجيم نفوذ العديد من الوزراء والكبراء والقادة، وخاصة بعد أن تسبب بعضهم في الزج بتركيا في حروب خاسرة مع روسيا سنة ١٨٧٧-١٨٧٨م، وكانت نتيجة هذه الحرب اكتساح الجيوش الروسية للأراضي التابعة للدولة العثمانية، ووصلت القوات الروسية إلى ضاحية العاصمة العثمانية (إستانبول) وأجبرت الدولة العثمانية على توقيع معاهدة (إياستفانوس) في مارس ١٨٧٨م بين الدولة العثمانية والروس، ودفع تعويضات الحرب الباهظة واقتطاع مساحة واسعة من الدولة العثمانية سميت بعدها بالمملكة البلغارية، ولهذا عطل عبدالحميد المجلس البرلماني العثماني ورفض التوقيع على هذه المعاهدة ونشط عبدالحميد مع الدول الأوروبية للضغط على روسيا لإيقاف تنفيذ بنود المعاهدة حتى نجح في تخفيف وطأة المعاهدة وأثرها.

وشهد عبدالحميد تداعيات في جسد الدولة ، ومن أخطرها ظهور حزب تركيا الفتاة أو ما تسمى بجمعية الاتحاد والترقي، وفيها جملة من يهود الدونمة الذين أسلموا صوريا وتغلغلوا في مواقع النفوذ في الدولة، وشهد تمردات الأرمن ومحاولتهم اغتياله.

وأمام ذلك كله قام السلطان بإجراءات عديدة لإعادة الثقة بموقع القرار في داخل تركيا وفي العالمين العربي والإسلامي، وقام بعدة رحلات إلى مصر وأوروبا وخرج من هذه الرحلات بانطباعات مهمة عرف فيها مواقف وأحوال تلك الدول وكيف يجب الاستفادة منها فيما لديها من التقدم العلمي، ولذلك اهتم بإدخال المخترعات العصرية في دولته، وركز على النواحي التعليمية والصناعية والعسكرية والاتصالات وغيرها من الوسائل إلا أنه وقف ضد الامتداد الفكري للغرب في بلاده.

وكان اليهود هم الأعداء الطبيعيون للسلطان عبدالحميد، ووصفوه بوصوف سيئة كما هو في وصف هرتزل حيث قال: عبدالحميد سلطان ماكر خبيث جدا ولا يثق بأحد، وقال أيضا: إنني أفقد الأمل في تحقيق

أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا تحقيق أمانيهم في (الأرض الموعودة) طالما كان السلطان عبدالحميد قائما في الحكم مستمرا فيه، وكان موقف اليهود ضد عبدالحميد نتيجة لمواقفه الثابتة من عدم تحقيق مطالبهم في فلسطين.

كما اعتنى عبدالحميد بالتربية والتعليم وطور المدارس السلطانية وأسس المدرسة التجارية الحميدية وأكاديمية الفنون والمدرسة الحربية، وافتتح مدارس أخرى للمالية والجمارك والشرطة، وزاد عدد مدارس المعلمين، وطور المناهج الدراسية وفتح الأبواب للنشر ووسائله وللصحافة، وأصدر قرارا بمنع مظاهر الإسراف في الدولة عموما وفي القصر الحاكم خصوصا، واستمال العديد من أعضاء المعارضة في منظمات الاتحاد والترقي وغيرها إلى المناصب الحكومية، وعفا عن البعض حتى شتت شملهم وأضعف شوكتهم وتتبع دعاة الفكر القومي وطارد أصحابه ورصد حركاتهم حتى أوقف نشاطهم المشبوه، كما جهز الأساطيل الحربية لمحاربة الدول الاستعمارية العابثة بشواطئ الدولة العثمانية كما هو الحال في الأطماع البريطانية في اليمن والخليج العربي والأطماع الروسية والإيطالية والفرنسية والألمانية واليونانية، وأقام التدابير اللازمة أمام هذه الأطماع كي يستفيد من العلاقة مع بعض هذه الدول دون الحاجة لتحقيق مآربها التوسعية، وسعى بجد واجتهاد لإقامة ما يسمى بالجامعة الإسلامية كتحصين سياسي واجتماعي أمام المد القومي والاستعماري العالمي، وأعاد للمسلمين في العالمين العربي والإسلامي الثقة في القيادة الإسلامية الحكيمة، فهرولت الوفود الإسلامية من مختلف بقاع الأرض لتهنئته بما تهيأ على يده من الانتصارات وخاصة في النزاع العثماني اليوناني وانتصاره في الحرب عليهم، وجمع السوريون التبرعات لتمويل الحرب وكونوا لجان الهلال الأحمر لمعالجة الجرحى ومواساة أهلها وعمت البهجة في مسلمي أفريقيا والهند وغيرها من بلاد العالم.

وكل هذا ساعد الخليفة عبدالحميد على مخالفة أساليب سلفه المرتبطين بأوروبا ارتباطا أعمى، وعمل على إيجاد مبدأ (الاتجاه إلى داخل الأمة لإصلاح الدولة) عوضا عن الاتجاه إلى الخارج للإصلاح، وبهذه الجامعة الإسلامية عمل على تقريب وجهة نظر المسلمين، وتبادلت الدول الدعاة والمفكرين من كافة الأجناس واستفاد البعض من البعض الآخر، ونشر في أرجاء العالم الإسلامي أسباب التواصل كالمراكز الإسلامية في الداخل والخارج وطبع الكتب الإسلامية واتخاذ اللغة العربية لغة الدولة لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية، واعتنى بالمساجد والجوامع وعمل على ترميمها وإصلاحها، واستمال زعماء القبائل العربية وأنشأ مدرسة خاصة في عاصمة الخلافة لتعليم أولاد رؤساء العشائر والقبائل وتدريبهم على الإدارة،

كما استمال شيوخ الطرق الصوفية وتأثر بالمنهج الذوقي الصوفي، واستفاد من الصحافة الإسلامية في الدعاية، وقام على تطوير النهضة العلمية والتقنية في الدولة، وأنشا معهدا لتدريب الوعاظ والمرشدين، كما اعتنى بالدول ذات الأقلية المسلمة كالصين وغيرها واهتم بخدمة الحرمين الشريفين وتعميرهما.

واعتنى بمشروع خط سكة حديد الحجاز ليربط بين العاصمة استانبول ويربط أيضا دمشق بالمدينة المنورة، وقد خدم هذا الخط الحديدي حجاج تركيا ومصر والشام وغيرهم، كما أقام خطا حديديا بين استانبول وبغداد،وعمل أيضا على تقليص سلطات المخالفين لحكمه والحالمين بالثورة أو الانفصال، وكان منهم شريف مكة الذي كانت له اتصالات خفية مع بريطانيا ووقع في شباكهم ووعودهم الزائفة حتى إن السلطان عبدالحميد لما شعر بذلك وخشي من تصرفاته عينه عضوا في مجلس شورى الدولة في إستانبول ليمنعه من العودة إلى مكة، وقال السلطان في بعض تعليقاته عن الشريف حسين: إن الشريف حسينا لا يحبنا، إنه الآن ساكن وهادئ لكن الله يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غدا.اهـ وبهذا الحجز الذي صنعه عبدالحميد تأخر قيام الثورة العربية إلى ما بعد سقوط عبدالحميد الثاني على يد الاتحاديين، ولما حكم الاتحاديون الدولة العثمانية أعادوا الشريف حسينا إلى مكة ومن هناك قام بثورته وحدث بذلك الانفصال عن العثمانيين والعرب. اهـ.

كما واجه عبدالحميد الثاني حملات واسعة من عصابات اليهود ومفكريهم، وهم الذين استغلوا الصحافة المحلية والخارجية، وعلى رأسهم اليهودي (ثيودور هرتزل) الذي استطاع جمع التأييد الأوروبي للمسألة اليهودية وجعل منها قوة للضغط على عبدالحميد الثاني تمهيدا لمقابلته والتفاوض معه في شأن فلسطين، ولما قابله وتفاوض معه كان هرتزل يطالب بتسهيلات كبيرة لليهود مقابل خدمات وتسهيلات للدولة العثمانية وحل مشاكلها المالية؛ إلا أن عبدالحميد الثاني أغلق الباب على الحلم اليهودي ولم يسمح لهم بشيء مما طلبوه على أن يعيش اليهود مثل غيرهم من الجنسيات الأخرى في المقاطعات والبلاد الإسلامية، ولما أسقط في يد هرتزل أخذ يعمل مع اليهود على تشويه سمعة الخليفة وتدعيم أعداء السلطان والمتمردون على الحكم وتجنيد الصحافة والإعلام في الداخل والخارج لهذا الغرض.

وتحرك (القوميون والماسونيون والعلمانيون ودعاة الإنسانية الأوروبية والعقلانيون الوضعيون «العلمنة») ضد عبدالحميد الثاني وسياسته الإسلامية ، واستفادوا من بعض العلماء المناوئين لعبدالحميد من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد رشيد رضا ومجدي عاكف، وقد منع السلطان مجلة المنار من الدخول إلى البلاد الخاضعة بصورة مباشرة له، وكان للسيد محمد رشيد رضا موقف من بعض الطرق الصوفية ونقد بعض

وقد كانت فتنة الأحلاس وفتنة السراء إذا صحّ التفسير تدور حول سياسة الأطماع العالمية، وتفكيك الدولة العثمانية، والإحاطة بها وتفكيك شملها واقتسام ثرواتها وحدودها. كتب الدكتور عبد الودود شلبـي في كتابه «أفيقوا أيُّها المسلمون» ص١٤ ما مثاله:

وقد كان القرن التاسع عشر ولا ريب أسوأَ من كل القرون التي تقدمته، لأنه القرن الذي نبعت فيه «المسألة الشرقية»[1] من بقايا الحروب الصليبـية، وكانت المسألة الشرقية تمخضت

أساليب التصوف مما أدى إلى المشاحنة بينه وبين الشيخ أبي الهدى الصيادي الذي كان مقربا من السلطان عبدالحميد.

وأخذ محمد رشيد رضا يدعو إلى إصلاح الدولة العثمانية ومحاربة ما سماه بالاستبداد الفردي، وكان محمد رشيد رضا يرى ضرورة وجود دولة عربية منفصلة عن دولة الخلافة العثمانية ويقول: إنها مصلحة العرب السياسية أن يكون لهم دولة مستقلة. اهـ. بل وامتدح جمعية تركيا الفتاة وسمح في مصر بانتشار عمل عمل الجمعية ودعمها، وكان يؤيد ويمتدح الزيدية في اليمن لأنهم قاتلوا العثمانيين ولم يخضعوا لهم مما اضطر الدولة العثمانية إلى إقامة الصلح مع الزيدية وأقروا الإمام على حكمه وإمامته.

ومما يؤسف له أن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي كانوا تحت تأثير الألمان وخاصة العسكريون منهم، ويخضع الجناح المدني في الجمعية للتأثير الماسوني، ولهذا فقد نشط هؤلاء في صفوف الجيش والمثقفين ضد السلطان وحكمه واستخدموا الدين لمحاربة السلطان وافتروا عليه باسم الدين ، وافتعلت قوى الاتحاد والترقي جملة من الإشكالات لتغيير الأوضاع في الدولة، ومنها تمرد الأرمن على المسلمين مما تمخض عن فتنة بين المسلمين والأرمن وبعد أيام قتل فيها من العثمانيين قرابة ألفي فرد.

وخلالها دبرت اغتيالات أخرى من بعض الجنود ضد ضباطهم وأوعزوا أن هذه العملية من فعل عبدالحميد الثاني، ولهذا قامت عناصر الجيش بالزحف على إستانبول لإجبار السلطان على التنازل، وأخرج مع جملة من أسرته وعائلته إلى سلانيك، ولم يسمحوا له بأخذ شيء من متاعه، وسيطر الاتحاديون على القصر وأعلن إسقاط الخليفة عبدالحميد الثاني في ٢٧ نيسان ١٩٠٩م، وفي سلانيك ظل عبدالحميد ومن معه تحت الحراسة المشددة حتى وفاته في ١٠ فبراير ١٩١٨ م، قضى فيها ثمانية سنوات وتسعة أشهر وسبعة وعشرين يوما في السجن رحمه الله.

(١) كانت المسألة الشرقية تعني أولَّ الأمر تخليص الممالك المسيحية من أيدي الدولة العثمانية، وفي مرحلة ثانية

عن دور آخر إضافة إلى دور الحروب الصليبية، وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على تركة الرجل المريض[1]، وتبادل الأعضاء عن كل طرف متفق عليه يقع في قبضة الطامعين فيه من المتنازعين على التركة وصاحبها على قيد الحياة.

والدولة العثمانية كان لها دور لا يُسْتَهَان به في تاريخ القرار الإسلامي، كتب أنور الجندي في كتابه «الإسلام والغرب»: ولا ريب أنَّ الدولة العثمانية هي القوة الإسلامية التي نشأت بعد الحروب الصليبية وحَمَت العالم الإسلامي من الغزو الغربي مدة خمسة قرون كاملة [2].

ويعزو بعض الباحثين نجاح الدولة العثمانية كون تشكيلها في جوهره كان (حربياً)[3]، وكانت جيوش الدولة تخوض الحرب بحماسة دينية شديدة، وكانت عبارتهم المشهورة: «**إما غازي وإما شهيد**»[4]؛ ولكن هذه المبادئ والمواقف تلاشى أمرها في نهاية الأمر مع اضطراب الدولة إلى مجاراةِ الطوائف المتنوعة، والسماحِ لها بحُرية النشر وإنشاء المدارس الخاصة لكل ذي قوميةٍ وجنسٍ من الكفار والمسيحيين دون ضوابط، وأيضاً استعانةِ السلطان محمود باشا في مرحلة خلافته بالعقل الأوروبي في المناهج تحت شعار أثبتَ فَشَلَه «إن الطريق الوحيد لمحاربة الغرب هي استعمال أسلحته»[5]، وَفَتْحِهِ أيضاً بابَ خطةِ إصلاح الجيش طبقاً للنظام الأوروبي عام ١٨٢١م مما فتح الطريق أمام الشباب العثماني أن يقع فريسةَ القُوَى التغريبية

أصبحت تقسيمَ الدولة العثمانية والدول الإسلامية التابعة لها من قبل الدول الأوربية. اهـ «أيها المسلمون أفيقوا» ص١٤.

(١) اصطلاح أطلقته الدول الأوروبية على الدولة العثمانية في مرحلتها الأخيرة.

(٢) «الإسلام والغرب» ص١٢٦.

(٣) المصدر السابق ص١٣٢.

(٤) المصدر السابق ص١٣٣.

(٥) المصدر السابق ص١٤٦.

الأوروبـية تحت شعارات الإخاء والمساواة والحرية وما إليها[1].

وقد أتاحت هذه الفرصُ الِانفتاحَ الثقافيَّ الغربـي، وقيامَ الجمعياتِ السرية والمحافل الماسونية تحت نفوذ الامتيازات[2]، ولما تنبه السلطان عبدالحميد إلى هذا المخطط الرهيب كان الوقت متأخراً، فالذين سُمُّوا بالأَحْرَارِ قد نَمُّوْا نفوذهم في داخل الجيش[3]، وأصبحوا خطراً على الدولة له مقوماته التالية:

١- يهود الدّونمة في سالونيك ومحافلهم الماسونية.

٢- الإرساليات التبشيرية في فروعها المختلفة وما تحتوي من شباب المسلمين والعرب.

٣- جمعية الاتحاد والترقي واحتواء محافلها الماسونية للأقليات الأجنبـية وتعاونها الداخلي والخارجي.

٤- مشروع هرتزل للبحث عن وطن قومي لليهود.

وتكاد هذه المقومات تشير إلى ما أثمرته «فتنة الأحلاس» المذكورة في الحديث والتي مَهَّدَتْ **«لفتنة السراء»** اللاحقة.

وسمح بحرية المطبوعات، وبرز دور جمعية الاتحاد والترقي التي لعبت دوراً خطيراً في محاربة قرار الخلافة وتغريب الدولة العثمانية، كما برز دور هرتزل في المطالبة بوطنٍ قوميٍّ لليهود، ورفض الخليفةُ طَلَبَهُ وَحَذَّرَهُ من ذلك، فعمل في السر على الإطاحةِ بالخليفة، وكانت مدة حكم السلطان عبد الحميد ثلاثاً وثلاثين سنةً قدم خلالها خدمات جليلة للإسلام والمسلمين.

وفي ٢٧ إبريل ١٩٠٩م أُجْبِرَ السلطانُ عبدُالحميد على التنازُل، وَنُقِلَ إلى ولاية سلانيك مع

---

(١) المصدر السابق ص١٤٧.

(٢) المصدر السابق ص١٤٧.

(٣) «الإسلام والغرب» ص١٤٧.

أسرته وبعض مرافقيه ثم نُقِلَ إلى أحد قصور إستانبول، حيث كَتَبَ هناك مُذَكِّرَاتِهِ قَبْلَ وفاته في ١٠ شباط ١٩١٨م، واعتبرَ اليهودُ والماسونيون يومَ وفاته عيداً لهم ساروا فيه بمظاهرةٍ كبـيرةٍ في مدينة (سلانيك) وطبعوا صور المظاهرات في بطاقات بريدية. اهـ.

وَبَعْـدَهُ تَسَـلَّطَ الأَعْـدَاءُ وَحَكَمُـوْا العَالَمَ كَيْفَ شَـاؤُوا
وَجَاءَنَـا عَهْـدُ الغُثَـاءِ وَالوَهَـنْ عَهْدُ السُّقُوطِ فِي مُضِلَّاتِ الفِتَنْ

يشير الناظم إلى ما كسبه العالم الإسلامي والعربـي من الإطاحة بالسلطان عبدالحميد، حيث سُلِّم الحُكم من بعده إلى شقيقه (محمود رشاد) وتسمّى باسم السلطان محمد الخامس، وكان ضعيفَ الشَّخصيةِ إذ كان لا يملِكُ ولا يحكم، وتسلم الحكمَ أعضاءُ الاتحادِ والترقي، وبدأت مرحلةٌ جديدةٌ من الخداع والقرارات الكافرة، ووقعت فوضى داخلية تقلبت فيها الوزارة، وُعُقِدَ مؤتمر لوزان عام ١٩٢١م حضره وفد مصطفى أتاتورك(١)، وضع الوفد الإنجليزي أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا:

١- إعلان إلغاء الخلافة الإسلامية.

٢- طرد الخليفة خارج الحدود.

---

(١) هو مصطفى كمال أتاتورك، وُلدَ سنة ١٢٩٦هـ بتركيا، ونشأ مُشتَّتَ العلاقةِ الحياتيَّةِ، ودرس في المدارس الحربـية، وتخرج من الكلية الحربـية برتبة رائد، كوّن جمعية الوطن والحرية في الخارج، ثم انضم مع جمعيته إلى حزب الاتحاد والترقي، وكان مستهتراً بالقيم مدمناً للخمر، ترقى في مناصب عسكرية عديدة أهمها: نائباً لقيادة الجيش الثاني المرابط في شرق تركيا، عند نهاية الحرب العالمية عيّن مفتشاً عاماً للجيوش، وكان له دور في مساومة الحلفاء لإنجاح طموحاتهم مقابل الوصول إلى الحكم، وجرت بـينه وبـين السلطان عبدالحميد مناوشات عديدة حتى تمكن مع يهود الدونمة من تحريك الجيش ضد الخليفة وعزله، ثم القيام بالتنازلات المتتالية للحلفاء للسيطرة على مقدرات الدولة وحدودها والزجِّ بالدولة في حروب خاسرة، توفي مصطفى أتاتورك بعد حكم رئاسي استمر ١٥ عاماً، وكانت وفاته عام ١٩٣٨م. راجع في ذلك «البيان والإشارة في ما أصاب الأمة من هزائم السقوف المنهارة» مطبوع.

٣- إعلان علمانية الدولة.

٤- مصادرة أملاك بني عثمان.

ومنذ تلك اللحظة والدولة العثمانية تحت قبضة العلمانية ويهود الدونمة، وكلاهما يؤدي دوراً هاماً في إنجاح اللعبة.

تَقَاسَمَ الكُفَّارُ أَرْضَ المُسْلِمِينْ وَاسْتَثْمَرُوْا حُدُودَهُمْ بِضْعَ سِنِينْ
وَطَبَّعُوْا البِلَادَ بِالتَّقْسِيمِ وَجهَّلُوا الأَجْيَالَ بِالتَّعْتِيمِ
وَأَوْغَلُوا فِي نَهْبِ مَا فِي القَصْعَةِ وَأَبْدَعُوْا فِي لُعْبَةِ (القَوْمِيَّةِ)

يشير الناظم إلى ما أثمرت عنه فتنة الأحلاس وما صنعته بعدها فتنة السراء من خيانات مبطَّنَةٍ أَودت بالخلافة الشرعية، وبدأ عهد الطورانية القومية، القائمة على إثارة العصبية لدى العرب من جهة والأتراك وبقية الأمم من جهة أخرى، حتى انفصلت كثير من البلدان عن دولة القرار المنهارة.

وارتكز محور الانقسام والتجزؤ بثورة صربيا والبلقان والبلغار بحجة القوميات ضد الدولة الإسلامية، وإنشاءِ الدول الأوروبية حِلفاً دفاعياً مشتركاً لمجابهة الدولة العثمانية، ثم نشوب حرب بين روسيا وتركيا أدى إلى هزيمة تركيا وتوقيع معاهداتٍ مجحِفَةٍ ضد الدولة العثمانية، حصلت بموجبها الدول الأوروبية على نصيب من أراضي الدولة العثمانية.

وفي هذه الأثناء انتهزت إيطاليا فرصة انشغال الدولة العثمانية بمشاكلها الداخلية، فهاجمت ليبيا على حين غرة بمساعدةِ فرنسا، واحتلت طرابلس وبرقة رَغْمَ مقاومة الشعب الليبي، واحتلت فرنسا أرض الجزائر وتونس مُدَّعِيَةً أنها تدافع عنها عام ١٢٩٩هـ.

واحتلت بريطانيا مصرَ عام ١٢٩٩هـ ثم السودان، وتقاسمت بريطانيا شرق إفريقيا مع فرنسا وإيطاليا والحبشة.

وكانت هذه الحروب بدءَ اشتعال الحرب العالمية الأولى وَوَقُودَها، وهي التي انتشر أوارها في العالم كله، وجاءت أثناء ذلك ثورةُ البلاشفة في روسيا عام ١٩١٧م عندما وصل الشيوعيون محل القياصرة، وقاوم المسلمون الروسُ هذه الثَّورةُ أعواماً طويلةً، حتى لَمَّا تم للبلاشفة السيطرة على المناطق فرقوها إلى قومياتٍ وَأَسمَوْهَا جمهورياتٍ، وأُعْدِمَ زعماءُ المسلمين وأُحرِقَت ديارُهُم وَهُدِّمَتِ المساجدُ وَحُوِّل بعضُها إلى نوادٍ ليليةٍ، وَمُنِعَتِ الجمعةُ والسفرُ إلى الحجِّ، وأُغْلقَت مدارسُ القرآن والتعليم الشرعي.

وانتهتِ الحربُ العالميةُ الأولى بخسارةِ الدولة العثمانية الصُّورية كثيراً من أراضيها[1]، وبدأ العمل على تهيئةِ مصطفى كمال أتاتورك لإعلانِ الدولةِ العلمانيةِ بديلاً عنِ الإسلامِ، ومَالَ إليه الحُلفاء، ودعموه في كل مشاريعه الداخلية، ودعت بريطانيا إلى مؤتمر لندن لحلِّ المسائل الشرقية حضره مندوبونَ من كافة الأطراف، ورجع المؤتمر دون اتفاق، وتحرك مصطفى أتاتورك لقلب الحكومة في أنقرة مراتٍ عديدةٍ حتى كان آخرُهَا الحكومَةَ التي قررت إلغاء السلطنة وإعلان الجمهورية في ٢٠ ربيع الأول ١٣٤٢هـ ٣٠ تشرين الأول ١٩٢٣م، وَانتُخِبَ مصطفى أتاتورك رئيساً حينها بالإجماع وهو الذي وقع الصُّلحَ مع الحلفاء، وأصدر مرسومات علمانية الدولة، كما تخلى أتاتورك عن جملةٍ من أراضي تركيا وسواحلِها ومَضَايِقِهَا للحلفاء، وأعلن الإجراءات التالية:

١- يُمْنَعُ استعمالُ الطُّربوش التركي رمزِ الخلافة.

٢- إلغاء حجاب المرأة.

٣- تحويل العطلة من الجمعة إلى الأحد.

---

(١) عُبِّر هنا بالدولة العثمانية الصُّورية إشارة إلى أن الحكم الفعلي بعد تنحية عبد الحميد الثاني لم يعد حكماً إسلامياً، وإنما كانت دولة إسلامية صورية، والحقيقة أن الأمر كان بيد يهود الدونمة وأعضاء حزب الاتحاد والترقي، وهم الذين هيؤوا الدولة للمرحلة الغثائية، وبهم بدأ الصِّرَاع بين القوميات على مدى السنوات العِجاف التي شهدت الحرب.

٤- تحويل الأذان من العربـية إلى التركية.

٥- منع التعامل بالأبجدية العربـية واستبدالها بالإنجليزية.

٦- إلغاء القوانين الشرعية، وإقامة الدستور المدني.

٧- تعميق مفهوم الطورانية، وتشريك الوظائف والامتيازات.

ومن ثمرات فتنة السراء قيام الحرب العالمية الثانية في ١ أيلول ١٩٣٩م، وكانت تركيا في هذه الحرب معزولةً عن جبهاتِ القتال، وتشهد التحول الداخلي في مُؤَسَّسَاتِهَا، وفي هذه الحرب عمل الحلفاء على ما يلي:

١- تقسيم وتجزئة دولة الخلافة رسمياً، ورسم خرائط مناطقية جديدة.

٢- إعطاء اليهود أرض قومية في فلسطين والاعتراف بها.

٣- تثبـيت السياسة العلمانية في تركيا.

وقد نشط الإسلاميون في تركيا لمحاربة هذه التقسيمات، وظهرَ حزبُ السلامةِ الوطني وغيرُه، ولكنَّ الغربَ عَدَّدَ الأحزابَ وكَرَّرَ الانقلاباتِ في تركيا حتى ثَبَّتَ سياسةَ «فَرِّقْ تَسُدْ»، وكوَّن تكتُّلاتٍ حزبـيةً وتجمُّعاتٍ سياسيةً بلغت أَحَدَ عَشَرَ حزباً وتَجَمُّعَاً أسهموا في الإغراب بسياسة الأُمَّةِ إلى أُتون الصراع والسياسة الغربـية.

لقد أصيب الإسلامُ والمسلمون في أعز مُقَدَّرَاتِهِم الشرعية وحقوقِهِم الإسلامية منذ سقوطِ دولةِ القَرَارِ وسقوط قرار الدولة، ومنذ ذلك الحين وهم يَتَرَوَّضُوْنَ على قَبُولِ سِيَاسَةِ التَّطوِيعِ والتَّطبِـيعِ مرحلةً بعد مرحلةٍ وعصراً بعد عصر، وفي ذلك تحقيق ما قد أخبر عنه من لا ينطق عن الهوى ﷺ، وهو الذي عَاشَ هذه المراحلَ وَحَدَّد عَلَامَاتِها وَفَنَّدَ هويَّتَهَا وهويَّةَ شُعُوبِها ومواقفَ حُكَّامَها وعُلَمائِها.

عَهْدُ فِتْنَةِ الدُّهَيْمَاءِ ومَا رَافَقهَا مِنْ التَّحَوُّلاتِ الغُثَائِيَّةِ

وجَاءنَا عَصْرُ الدُّهَيْمَاءِ الَّتِي أَخْبَرَ عَنَهَا سَيِّدُ الرِّسَالَةِ
تَلْطِمُ كُلَّ حَاضِرٍ وبَادِيْ وتَدْخُلُ البَيْتَ مَعَ البَوَادِيْ
وَهْيَ الَّتِيْ تَعْبَثُ بِالتَّدَيُّنِ وَتَنْسِفُ الإِسْلَامَ بِالتَّلَوُّنِ

يشير الناظم إلى مرحلة الغثائية التي جاءت إلى الحياة بعد فِتْنَتَي الأَحلاسِ والسَّرَّاءِ، وكانت كلُّ واحدةٍ منها تهيئةً لظهور الأخرى، فبمقدار ما حصل من التحولات العالمية والمحلية في مرحلة الأحلاس، فقد حصل أيضاً في مرحلة السراء محلياً وعالمياً ما أغرب بالسفينة عن جادَّةِ الطريق، وأدخل العالم العربي والإسلامي إلى مرحلة الغثاء وما فيها من الفتن المتنوعة.

والمعتقد -والله أعلم- أن فتنة الدهيماء -وهي مرحلة الاستعمار- جزء من تحولات مرحلة الغثائية التي يغلب فيها على المسلمين «**الوَهَنُ وَحُبُّ الدُّنيا وكَراهِيةُ المَوت**».

وإليها تشير الأحاديث الواردة في علامات الساعة، ومنها:

١- «**كيف بك يا ثوبانُ إذا تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه؟**»

قال ثوبان: بأبـي أنت وأمي يا رسول الله.. أَمِن قِلَّةٍ بنا؟

قال: «**لا.. أنتم يومئذٍ كثير، ولكن يُلقى في قلوبكم الوَهَنُ**».

قال: وما الوَهَنُ يا رسول الله؟

قال: «**حُبُّكم للدُّنيا، وكراهيتُكم للقِتال**».

٢- «**يُوشَكُ أن تَدَاعَى عليكمُ الأُمَمُ كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ على قصعتها**».

قال: قلنا: أَمِن قلة بنا يومئذ؟

قال: «**أنتم يومئذٍ كثير، ولكن تكونون كغثاء السيل، تُنـزعُ المهابة من قلوب عدوكم، ويُجْعَلُ في قلوبكم الوَهَنُ**».

قال: قلنا: وما الوَهَن؟

قال: «**حبُّكُم الدنيا، وكراهيةُ الموت**»(١).

وتكاد تكون هذه الأحاديث النبوية تنطبق على هذه المرحلة الخطيرة من حياة الأمة، وقد برزت هذه المرحلة بالمظاهر التالية:

١- سقوط دولة الخلافة، وإعلان علمانية الدولة.

٢- تقسيم تركة الرجل المريض بـين الدول الغازيَةِ.

٣- ظهور النظام الشيوعي.

٤- ظهور الأمم المتحدة كسقفٍ عالميٍّ بـيد الاستعمار.

٥- غرس إسرائيل في الوطن العربـي.

٦- تغيير أنظمة الحكم داخل الأوطان العربـية.

٧- ترسيم خرائط الحدود وربط الأنظمة بالسياسة الغربـية.

٨- نشوء الصراع الداخلي بالانقسامات والأحزاب والتكتلات الدينية والدنيوية والأطماع.

قال الناظم:

وَيَحْكُـمُ اليَهُـودُ كُلَّ العَالَــمِ ... دِيْنـاً وَدُنيَا فِـي النِّظَـامِ العَالَمِي

إشارة من الناظم إلى الخطوط البعيدة التي يرسمها الكافر ضد الإسلام وأوطان المسلمين، فالسياسة اليهودية هي المؤثرة في مسيرة التحول ولأجلها تتحرك الدول والمنظمات، وبها تتشكل ولاءاتُ المستقبل، ومن داخلها وُضِعَتِ الخطوطُ المستقبلية لكل الفِتن الساحقة الماحقة.

---

(١) رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» بنحوه وإسناد أحمد جيد، «مجمع الزوائد» (٣: ٣١٨).

وَالجَـوْرُ يَـزْدَادُ مَـعَ التَّكَالُـبِ   عَلَى الحُطَامِ وَالسَّـلَامِ الكَاذِبِ

يشير الناظم إلى نماذج من علامات الساعة في مرحلة الغثائية، وهو «**الجور والتكالب**» على «**الحطام**» والكلام كذباً وزوراً وبهتاناً عن السلام، تحقيقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «**يكون أُمَرَاءُ جَورَةٌ، ووُزَراءُ فَسَقَةٌ، وأُمَناءُ خَونَة، وإمارةُ النِّساء، ومشاورةُ الإماء، وصعودُ الصبيانِ المنابرَ**»[1].

وروى أحمد والبخاري والحاكم عن ابن مسعود: «**إنَّ بـين يَدَيْ السَّاعَةِ تسليمَ الخاصّة**[2]**، وَفُشُوَّ التجارَةِ حتى تُعينَ المرأةُ زوجَها على التِّجارَةِ، وَقَطْعَ الأَرْحَامِ، وَفُشُوَّ القَلَمِ، وَظُهُوْرَ شَهَادَةِ الزُّور، وكتمانَ شهادة الحق**»[3].

وَالهَـرْجُ وَالمَـرْجُ مَـعَ الجَهَالَةِ   وَسُـلْطَةُ التُّحُـوتِ وَالحُثَالَـةِ

نَقْـضٌ وَقَبْـضٌ وَاتِّبَـاعٌ لِلعِـدَا   كَـذَا غِنَـاءٌ وَخَنَـاءٌ وَاعْتِـدَا

من مظاهر مرحلة الغثاء كثرة الهَرْج والمرج، «والهَرْجُ» كثرة القتل وإراقة الدماء، «**والمَرْج**» كثرة الخوض في الباطل، يشير إلى ذلك حديثُ خالدِ بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبـي ﷺ، قال: «**يا خالد.. ستكون بعدي أحداثٌ وفِتَنٌ وفُرقَةٌ واختلافٌ، فإذا كان ذلك فإذا استطعت أن تكون عبدالله المقتول لا القاتل فافعل**»[4].

---

(١) «الإشاعة» ص١٧٢ عن سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أي: السلام على من تعرفه فقط.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨: ٢١١) عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّة وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَها عَلَى التِّجَارَةِ وَقَطْعَ الْأَرْحَامِ وَشَهَادَةَ الزُّورِ وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ وَظُهُورَ الْقَلَم**»، وكذا أخرجه أحمد في مسنده عن طارق بن شهاب.

(٤) رواه أحمد وابن أبـي شيبة ونعيم بن حماد في الفتن، والطبراني والحاكم عن خالد بن عرفطة. انظر «الإشاعة» ص١٨٦، وورد في الحديث عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «العبادةُ في الهرجِ

وروى الطبراني في الأوسط من حديث أبـي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بـيده لا تقوم الساعة حتى يظهرَ الفُحشُ والبُخلُ، وَيُخَوَّنَ الأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنَ الخَائِنُ، وَتَهْلِكَ الوُعُول، وتظهرَ التُّحُوت. قالوا: يا رسول الله.. وما الوعولُ وما التُّحوت؟ قال: الوعول: وجوهُ الناس وأشرافُهم، والتُّحُوتُ: الذين كانوا تحتَ أقدام الناس لا يُعلَمُ بهم**»[1].

وأما «**النَّقضُ**» فَدليله في مرحلة الغُثاء والوَهَن قول رسول الله ﷺ: «**لتنقضنَّ عُرى الإسلام عُرْوَةً عُرْوَةً، كُلَّما نقضت عروةٌ تمسَّكَ الناس بالتي تليها، أَوَّلُهنَّ نقضاً الحكم، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاة، وَرُبَّ مُصَلٍّ لا أَمَانَةَ لَهُ**»[2].

وَأَمَّا دَلِيْلُ «**القبض**» قوله ﷺ: «**يأتي على الناس زمان يُقبضُ فيه العِلم، وَيَكْثُرُ الجَهْلُ**» وحديث: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[3].

وحديث رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبـي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُقْبَضُ العلماءُ ويُقبضُ العِلمُ منهم، فينشأُ أحداثٌ ينـزو بعضُهُمْ عَلى بَعض نـزو العير على العير، يكون الشيخ فيهم مستضعفاً**».

مَعَ انتكاسـاتٍ على كُلِّ مجالْ　　　كَـذَا غُثَـاءٌ أُمَمِـيٌّ وَابْتِـذَالْ

يشير الناظم إلى ما يحل بالمسلمين في مرحلة الاستعمار والاستهتار من الانتكاس في الثقافة والاقتصاد والإعلام والسياسة والتربـية والتعليم وغيرها من مقومات الحياة حتى يبلغ الأمر إلى

كهجرةٍ إِلَيَّ» رواه مسلم والترمذي، وعن أبـي موسى الأشعري رَضِيَاللَّهُعَنْهُ: «**إنّ بـين يدي الساعةِ أياماً ينـزلُ فيها الجهلُ، ويُرفع فيها العلمُ، ويَكْثُرُ فيها المرجُ والهرجُ**» رواه البخاري.

(١) ورواه الحاكم عن أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ. انظر «كنز العمال» (١٤: ٢٤٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري في باب العلم.

استتباع غثاء الأمم الأخرى، فيصيرُ هذا الغثاء لدى المسلمين حسناً وتقدماً وحضارة وتطوراً، وقد أشار ﷺ إلى ذلك بقوله: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم شبراً بِشِبْرٍ وَذِرَاعَاً بِذِرَاعٍ حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**»، قيل: يا رسول الله.. اليهود والنصارى؟ قال: «**فَمَن؟**»[1].

ومِثْلُهَا ثَلَاثُ أَشْيَاءٍ تَعِزْ ... مَالٌ حَلالٌ وأخٌ في اللَّهِ عَزّ

ونُدْرَةُ العِلْمِ المُفِيْدِ الُمسْتَنِدْ ... مِنْ غَيْرِ عِلْمِ الخَدَمَاتِ الُمسْتَبِدْ

يشير الناظم إلى صورةٍ من صور الغثائية في الأمة، وهي نُدْرَةُ ثَلَاثَةِ أشياء: درهمٌ من حلالٍ، وأخٌ في الله، وعلمٌ مستفادٌ، وقد ورد ذلك في حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَقومُ السَّاعة حتى يُعِزَّ اللهُ عَزَّ وجل فيه ثلاثةً: درهماً من حَلال، وعِلماً مُستفاداً، وأَخاً في الله**»[2].

وعن أبـي داود وابن ماجه والحاكم من حديث أبـي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْهُمْ إلا أَكَلَ الرِّبَا، فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ**»[3].

وفي هذه الأحاديث إشارةٌ واضحةٌ إلى الانحرافِ الاقتصادي، وسيادةِ الشُّبُهَات والحرام في المجتمعات الإسلامية، وذلك واضحٌ كلَّ الوضوحِ من خلال النظر إلى سياسة المال ورجال الأعمال المرتبطين طَوعاً وكَرهاً إلى السُّوقِ العَالمية والمصرفية اليهودية البنكية.

قال الناظم:

صِنْفَانِ أهلُ النَّارِ فِي بَعْضِ الطَّرِيقْ ... مِنْ حَامِلِي الأَسْوَاطِ فِي كُلِّ مَضِيقْ

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ**».

(٢) رواه الديلمي.

(٣) عن «الاختراعات العصرية» للغماري ص٣٧.

وَمِثلُهُـنَّ الكَاسِـيَاتُ العَارِيَـاتْ مِـنْ فَتَيَـاتِ المُسْـلِمِيْنَ المَائِـلَاتْ

إشارة من الناظم إلى انفلات أمور العامة، مما يلزم المسلمين اتخاذ الشُّرَط التي تُعَذِّبُ النَّاس وتحمل السياط كأذناب البقر، تضرب بها الناس في تفريق المظاهرات، وحماية الحكام في المناسبات، واحتواء المسيرات، وما ماثلها من صنوف العذاب والتعذيب في المعتقلات، والصنف الثاني النساء «**الكاسيات**» في ظاهر الأمر، «**العاريات**» في حقيقة الحال عن الأدب والأخلاق، والعاريات أيضاً بضيق اللباس الذي يصف العورة وَيُحَجِّمُهَا وَكأَنَّها ليست لابسة ثوباً.

وهذا كله يصل إلى الأمة بسبب الاستتباع لغثائية الأنظمة الكافرة وقوة تأثيرها على المسلمين بالوسائل الإعلامية وغيرها، وشاهد ذلك حديث: «**صنفانِ من أهل النار لم أرهما: رجالٌ معهم سياط مثل أذناب البقر يقفون على أفواه السكك يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤوسهن مثل أسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسافة كذا وكذا**»[1].

أَصَابَهُـمْ فِـي الدِّيـنِ داءُ الأُمَـمِ حَالِقَـةُ الدِّيـنِ دَمَـارُ المُسْـلِمِ
مَـعَ اتِّبَـاعٍ لِلنَّصَـارَىْ وَاليَهُـودْ فِـي كُلِّ شَـيءٍ مِن قِيَـامٍ وَقُعودْ
تَقْلِيْـدِ مَـا هُـمْ فِيْـهِ مِـنْ تَـرَذُّلِ وَمِـنْ وُهُـومٍ وَانْفِتَـاحٍ مُشْـكِلِ

يشير الناظم إلى ما تحدث عنه من لا ينطق عن الهوى ﷺ في شأن «**داء الأمم**» الذي يحل بالمسلمين في مرحلة الغثاء والوهن، وهو الأمراض الاجتماعية الكافرة المعبر عن بعضها في الحديث من قوله ﷺ: «**أصابكم دَاءُ الأُمَمِ، لا أقول: (حَالِقَةَ الشعر)؛ ولكنها (حَالِقَةُ الدِّينِ):**

(١) رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

البغضاء والحسد»[1].

ومن هذا الداء رغبة الأجيال رجالاً ونساءً وكباراً وصغاراً في تقليد الأعداء على غيرِ وعيٍ أو تمييزٍ، حتى وَصَفَ النَّبـيُّ ﷺ ذلك بقوله فيما رواه البزار والحاكم من حديث ابن عباس: «**لتركبُنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو أن أحدهم دخل جُحَر ضَبٍّ لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه بالطريق لفعلتم**»[2]، وهذا ما يعبر عنه بالتقليد الأعمى.

وَالأَخْـذِ بِالعِلْـمِ الحَدِيْـثِ كَبَدِيلْ عَنْ دَعْوَةِ الإِسْلَامِ وَالشَّرعِ الجَلِيلْ

يشير الناظم إلى استحسانات الأجيال المسلمة في عصر الغثائية إلى دعوات العلم الحديث ودراسته بديلاً عن الإسلام وشرائعه العادلة، بحيث يصير الدين والشريعة نقصاً وعاراً، وتعلم النظريات الغربـية تقدماً وتطوراً، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ في ما رواه أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**لا تَقوم السَّاعَةُ حَتى يُجعلَ كتابُ الله عَاراً، وَيكونَ الإسلامُ غَريباً، وَتَبْدُو الشَّحنَاء بـين النَّاس، وحَتَى يُقْبَضَ العِلمُ، ويَهرَمَ الزَّمَانُ، وينْقُصَ عُمْرُ البَشَرِ، وَتَنْقُصَ السُّنُون والثَّمرات، يُؤتَمَن التُّهماء، وُيتَّهم الأُمناء، ويُصدق الكَاذب، ويُكذب الصَادق، ويَكْثر الهَرْجُ وهو القَتْل**» الخ...[3].

وَمِثْـلِ مَـا قَدْ صَـحَّ فِـي عَيْـنِ الأَثَرْ لَا الشِّرْكَ أَخْشَى إِنَّمَا أَخْشى الضَّرَرْ

---

(١) رواه أحمد بلفظ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعَرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»، دب إليكم: سار إليكم، مسند أحمد (٣: ٣٤٧).

(٢) «السنة» (١: ٣١) لمحمد بن نصر المروزي .

(٣) رواه الطبراني في «الكبـير» ، راجع «كشف الأقنعة عن الوجوه الغثائية المقنعة» للمؤلف ص٩٧.

مِـنْ زَهْـرَةِ الدُّنْيَـا مَـعَ التَّنَافُـسِ قَـدْ أَهْلَكَـتْ مَمَالِـكَ الطَّنَافِـسِ

تشير الأبيات إلى ما حَذَّر منه ﷺ في خطورة التنافس على حُطَام الدنيا، وأنه لا يخشى من خطر الشِّرك في هذه الأمة، إنما الذي يخشاه عليها الدنيا والتنافس فيها، ففي الحديث: «**إني لستُ أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكنّي أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فَتَهْلِكُوا كَما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»[1] وحديث: «**وإني قد أُعْطِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأَرض وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخاف عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها** [2]»، وفي رواية: «**لستُ أخشى عليكم الفقر..**»[3]، وهذه الظاهرة قد برزت جليَّة في عصر الغثائيَّة بحيث صارت علاقةُ الدنيا وقطيعةُ التَّشريكِ والتبديع صفتان متلازمتان.

فالرسول ﷺ عندما أشار إلى اطمئنانه حول الخوف على الأمة من الشرك ؛ إنما يبعث برسالة إلى مستقبل الزمان لمن يمتطي الشُّبهة والحرام، ويملك أسباب الدنيا، وهي أنَّ الوسيلة المتخذةَ في هذه المرحلة من الخوف أو القلق الصوري على الأمة من الوقوع في الشرك باطلةٌ من أساسه، وإنما حقيقة الأمر عند التمحيص لا يتعدى المنافسة على الحكم والمظهر والجاه والتملك.

وقد كشف الله لنبيـه ما سيصل إليه حال الأمة في هذه المرحلة الخطيرة، ولَبـَى رسول الله نداءَ الأمة المتهمة عند بعض الفئات، وأبرز الحقيقة الناصعة.

ولكن ومع هذا البـيان النبوي فهناك من يستغرب نفيَ الرسول مادة الشرك عن الأمة مع وجود بعض الظواهر المشيرة إليه لدى بعض المسلمين، والجواب الحاسم: أن الظواهر القائمة لدى بعض المسلمين ليست شركاً، وإنما هي حالة من حالتين: إمَّا إفراط أو تفريط،

---

(١) «منتخب الصحيحين» ص٧١ ، رواه مسلم عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) المصدر السابق ص ٧٠ ، رواه أحمد وابن ماجة من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وكلا النقيضين عِلة في توجُّهِ الأمة المحمدية، وللإفراط والتفريط معالجاتٌ شرعية، وَأَهَمُّهَا نشر الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي مدرسة الإسلام من الوسائل ما يغني الصادق عن تكفير الأمة، إلَّا أننا نعتقد أنَّ كلا النَّقيضينِ إذا برزا في شرائح المجتمع وصار لهما مَنْ يُغَذِّيْهِمَا فهناك عِلةٌ أخرى أكبر من الإفراط أو التفريط، وهي السياسة، ولنا مع السياسة وأربَابِها عَودٌ قريب.

وَمِثْلُـهُ الدِّينَـارُ صِنْـوُ الدِّرْهَـمِ	مَعْبُودُ أَهْلِ العَصرْ عِجْلُ المُسْلِمِ
أَحَدُهُـمْ يَبِـيْـعُ دِينَـاً بِعَـرَضْ	فَـانٍ قَليـلٍ لَا يَفِـيءُ بِالغَـرَضْ

من ظواهر مرحلة الغثاء والوهن ذاتِ العلاقة بعلامات الساعة ظهورُ الوباء العام وهو حبُّ الدنيا، وهو يضارع ما سبق ذكره في شأن السياسة، فكلاهما يمثل وجهين لعملةٍ واحدةٍ، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ، والحبُّ الجَمُّ يعني الإفراط المُطلق في التَّعلق بها حتى يؤدي ذلك إلى انفراط ثوابت أخرى، وهذا ما سماه النبـي ﷺ بعبادة العِجْل، أو ما يفسر بـ(صنمية المادة)، وتكاد هذه الشؤون تَتَّخِذُ منحىً حساساً وخطيراً لكون المرحلة قد خرجت عن الضوابط الإسلامية الأولى.

فعبادة العجل وصنمية المادة وبيع الدين بالدنيا ظواهر خطيرة تنشأ في أجيال المسلمين بفعل فاعل، ويبدأ بروزها بوضوح مع مرحلة الغثائية.

وسِمَتُهَا نقضُ قرارِ الإسلام المعبَّر عنه بالخلافَةِ وانتقاله إلى الكافر المعبر عنه بالعدو، وتبدأ المراحل المُعادية للمبادئ الإسلامية الشرعية لتنشئَ جيلَ الغُثائية من داخل البرامج القاصرة والمنهجية الكافرة عصراً بعد آخر، وعلى مدى سنواتٍ طويلة سماها النبـي ﷺ بـ«**السُنون الخداعة**» ، والخِداع مَكْرٌ وحِيَلٌ وَتَسْيِيْسٌ، ومن ظواهرها حُبُّ الدُّنيا والفَنَاء في سبيلها، وفي هذا يقول ﷺ: «**يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع أحدهم**

-وفي رواية: يبـيع قوم - دينهم بعرض من الدنيا قليل، المتمسك على دينه كالقابض على الجمر» وفي رواية: «**كالقابض على الشوك**» (١).

وقد ظهرت هاتان الصفتان في أمة الإسلام بشكل واضح في محورين:

❊ الاقتصاد والسياسة

❊ الاعتقاد والحقوق المتبادلة

وقد أبرز الرسول ﷺ هذه الأحوال في جملةٍ من أحاديث، منها:

٭ «يأتي على الناس زمانٌ هَمُّهُم بطونُهم، وشرفُهُم متاعُهُم، وقبلتُهُم نساؤُهُم، ودينُهُم دراهِمُهُم ودنانيرُهُم، أولئك شرار الخلق عند الله» (٢).

٭ «يأتي على الناس زمان عضوض يَعَضُّ المُوسِرُ عَلى مَا في يَدِه» (٣).

٭ «يأتي زمان لا يَسْلَمُ لذي دِينٍ دينُه إلا من فر من شاهق إلى شاهق أو من جحر إلى جحر كالثعلب يفر بأشباله، وذلك في آخر الزمان إذا لم تُنَل المعيشة إلا بمعصية الله، فإذا كان كذلك حلت الغُربة، يكون في ذلك الزمان هَلاك الرجل على يد أبويه إن كان له أبوان، وإلا فعلى يد زوجته وأولاده، وإلا فعلى يد الأهل والأقارب والجيران، يعيرونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يُطيق حتى يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها» (٤).

٭ «إذا كثر خطباؤكم ومنابركم، وركن علماؤكم إلى ولاتكم، فأحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأَفْتَوْهم بما يشتهون» (٥).

---

(١) رواه أحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (١٨: ٢٥٥).

(٢) رواه السلمي عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أحمد عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «السنن» عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، «كنز العمال» (١١: ١٥٤).

(٥) رواه الديلمي عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

* «**إذا تعلم علماؤكم ليجلبوا به دنانيركم ودراهمكم، واتخذتم القرآن تجارة**»[1].

وكأنِّي بهذه الأحاديث وأمثالها تروي قصة المراحل التي نعيشها بوضوحٍ وصراحةٍ في التَّشخيص أكثر من تشخيص أحاديث العلماء والمفكرين والساسة.

يَسُـودُ فِـي العَالَـمِ مِنْهَـاجُ الرِّبَـا وَخَلْفُـهُ الكُفَّـارُ يَحْمُـونَ الوَبَـا
يَدْخُـلُ بَـيْـتَ فَاسِـقٍ وَمُؤْمِـنِ مِـنْ مُكْثِـرٍ أَوْ كَالغُبَـارِ الهَيِّـنِ

إشارة في الأبـيات إلى انتكاس العالم الإسلامي والعربـي من سياسة الاقتصاد الشرعي إلى سيادة الاقتصاد الربوي الكافر، حيث مَهَّدَ الكافر بعد امتلاك القرار إلى إدخال سياسة البنوك والمصارف الربوية إلى كل بلاد، وشَجَّع على الاستثمار الربوي، وما أسماه بالتسهيلات الاقتصادية، وقد عَاشَ النبـي ﷺ هذه المرحلة وكَشَفَ زَيْفَهَا وزَيَفَ سُقوفها العلمية والسياسية والاقتصادية، فقال فيما رواه أبو داود وابن ماجة والحاكم من حديث أبـي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتينَّ على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا أكل الرِّبا، فمن لم يأكله أصابه من غُباره**»، وفي رواية أخرى: «**سيأتي على الناس زمان يأكلون فيه كلّهم الرِّبا**»، فقلنا: يا رسول الله: كلهم؟ «**قال: نعم، ومن لم يأكله أصابه من غباره**».

يُصَـدَّقُ الـكَاذِبُ فـي المَحَافِـلِ يُؤَمَّـنُ الخَـؤُونُ ذو الرَّذَائِـلِ
يُهَـانُ أَهْـلُ العِلْـمِ وَالتَّدَيُّـنِ وَيُرْفَـعُ الفَاسِـقُ ذُوْ التَّلَـوُّنِ

ومن ظواهر مرحلة الغثاء والوهن انقلاب القِيم والأخلاق؛ لكثرة التأثر بالكفر والكافر، وما يفرزه في الواقع الاجتماعي من سمومِهِ ونفثاتِ طباعِهِ بسياسةِ الاستعمار وما يليه من الاستهتار والاستثمار، واللعب بعقول الأجيال في المدارس والجامعات والإعلام والثقافة والفنون وغيرها من أحابـيل الانحلال والضلال المُسَيَّسِ، حَتَّى يبرزَ بوضوحٍ تصديق الكاذب

---

(١) رواه الديلمي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَلَناً، وَيُكَذَّبُ الصَّادقُ جِهَاراً، وَيُؤْتَمَنُ الخَائِنُ على الأموال والأعراض والعلم، وَيُخَوَّنُ الأمين ويُحَاصَرُ ويُعْزَلُ.

قال ﷺ واصفاً هذه الحال: «**من أشراط الساعة الفُحش والتَّفحش وقَطيعةُ الرَّحم وتَخْوين الأمين وائتمان الخَائن**»[١].

وقوله: «**يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر**»[٢]، كناية عن عدم المساعدة وعدم التعاون على الدين[٣].

وقوله: «**يكون في آخر الزمان عُبّادٌ جُهّالٌ وقُرّاءُ فَسَقَة**»[٤]، والعباد الجهال الزمر والجماعات الكثيرة من عباد الله الغيورين على الديانة ولكن من غير وعيٍ ولا علمٍ ولا تَعَرُّفٍ على دخائل العدو وحيله المنتشرة في الحياة الاجتماعية؛ بل ربما كان العابد الزاهد أحد عمال مؤسسات الحرام والشبهة والإفساد ومساعداً على إنجاح عمل هذه المؤسسات التي تعمل على هدم دينه وهو لا يعلم من الأمر شيئاً.

وأما القراء الفسقة فالعشرات من المثقفين وطلاب المعرفة وحملة الشهادات القادرين على التحليل والتعليل للأمور والمطلعين على الكثير من ثقافة الإسلام والإعلام؛ ولكن ظواهر سلوكهم لا تمت إلى الإسلام بصلة، يقعون في الحرام والشبهة والإثم من كل نوع وصورة، ولا يتورعون عن ذلك علنا وجهارا والعياذ بالله.

وقوله: «**إن من أعلام الساعة وأشراطها أن يكون المؤمنُ في القبـيلة أَذَلَّ من النقد**»[٥]، والنقد:

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه الترمذي عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: «**يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر**».

(٣) «الإشاعة» ص١٥٣.

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) المصدر السابق ص١٥٥، رواه الطبراني من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

صغار الغنم، وهذه ظاهرة ملاحظة في العائلات والأسر، فترى الصالح فيهم أكثر عزلة وضعفا وصمتا، وربما ارتفعت أصداء الفتيات المثقفات بالجدل والحوار في مجالس العائلة والصالح مضطر أمام هذا الإسفاف أن يسكت ويبتعد أو يسحب من لغط العائلات وأحاديثهم المنكرة، سواء في للدين أو في تعليل شغفهم بالدنيا والاندفاع في تبرير حاجتهم إليها.

وَأَسْعَدُ النَّاسِ عَلَى الدُّنْيَا لُكَعْ ... يَهِمُّهُ الدُّنْيَا وَكَمْ مِنْهَا جَمَعْ
يُهَانُ أَهْلُ العِلْمِ وَالتَّدَيُّنِ ... وَيُرْفَعُ الفَاسِقُ ذُوْ التَّلَوُّنِ

«**لا تقومُ السَّاعة حتى يكون أسعدَ النَّاسِ بالدُّنيا لُكَعُ ابنُ لُكَع**»[1]، واللُّكَعُ: العبدُ أو الأحمقُ أو اللئيمُ، أي: حتى يكون اللئام والحمقاء والعبيد رؤساء الناس.

يَصِيرُ دِينُ اللهِ عَارًا وَتُهَمْ ... وَسَبَبًا لِلمَالِ وَالجَاهِ الأَعَمْ
وَيَكْثُرُ القُرَّاءُ لِلقُرْآنِ ... عَلَامَةٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ
مُنْحِصَراً فِي نَغْمَةِ الحَنَاجِرِ ... دعايَةً لِسِلْعَةِ المَتَاجِرِ

ومن ظواهر الغُثاء والوَهَن في هذه المرحلة أن يُعَيَّرَ المؤمن بالدِّين والتدين، ويكون التدين والديانة تُهْمَةً، وهذه ظاهِرَةٌ عَرَفَهَا العالم العربي والإسلامي في مرحلتين:

الأولى: مرحلة الاستعمار مع شيءٍ مِن الحذر والتَّلَطُّفِ، فيسمى المتدين مُتَحَجِّرَاً متخلفاً منغلقاً، وعمل الكافر على اصطفاء وتقريب المتحررين من الديانة أو ما يسمونه بالتعصب الديني وحجز العلماء من المدارس ومواقع التأثير التربوي والتعليمي حتى تخرج جيل الوهن والغثاء.

والثانية: مرحلة الاستهتار، وفيها كشف الكافر اللثام عن خبث نيته وفعله ضد الدين

(١) رواه أحمد والترمذي عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن علي كرم الله وجهه.

والديانة، وبلغت التُّهمة في هذه المرحلة أَوجَها . فَالمتدينُ كَهَنُوتٌ، وعنصر فاسد، وَتَرَدَّدَ على ألسنةِ الأَحرارِ والثُّوارِ الجَهَلَةِ شِعَارُ المرحلة: «سَحْق الكَهْنُوت وَاجِب». والكهنوت في قاموس الجهلة بالدين كل مصل وزاهد وعالم.

وفي جانبٍ آخر وبلدٍ أخرى وحدودٍ إسلاميةٍ متجاورةٍ ترى فيها الغُثاء بصورة أخرى بحيث يكون الدِّين والتدين على المنهج الإعلامي المرسوم سبباً في الثراء والنفوذ والاستعلاء، لأَنَّ كِلَا النَّقيضين: المُلْحِد الفاجر والمتدِّين القاصر يُحارِبَانِ هدفاً واحداً، ويواليان كفراً واحداً، وإن تعددت المسمَّيَاتُ، ومن مظاهرِ هذه المرحلة كما أشار الناظم كثرةُ القراء للقرآن، وانحصار المعرفة في اللحن، وتحسين الأصوات به ليصير مصدرا للفخر والعزة والتفاخر لا للمعالجة والتآزر.

وإلى هذا يشير ﷺ فيقول: «**مما أخافه عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك**» ، قال: قلت يا نبـي الله.. أيهما أولى بالشرك الرامي أو الرَّمِيّ؟ قال: «**الرامي**»[1].

من حديث أبـي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ، قال: «**إن بعدي من أمتي قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يقتلون أهل الإسلام وَيَدَعُوْنَ أَهْلَ الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم في الرمية لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[2]، وأما قول الناظم عن القرآن في آخر الزمان: «دعاية لسلعة المتاجر» إشارة إلى ما ورد في الحديث: «**واتخذتم القرآن تجارة**»[3].

وقد رأينا في عصرنا من يطبع القرآن للدعاية الإعلامية ويتخذ بعض الآيات للاستفادة منها

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: إسناده جيد، انظر «السنة والبدعة» للشيخ عبد الله محفوظ الحداد ص١٩.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد، نقلاً عن «الاختراعات العصرية» للغماري ص٧٧.

(٣) الحديث رواه الديلمي عن علي، راجع «الإشاعة» ص١٦١.

في ترويج البضاعة والمواقف، وهناك مؤسسات كبرى قائمة على ترويج القرآن في سوق العرض والطلب لجلب الأرباح من بيع الأشرطة والأجهزة وأصوات القراء طلبا للمال والثراء.

رُوَيْبِضَـاتُ العَصْـرِ وَالحُثَالَـةِ هُـمْ خُطَبَـاءُ الدِّيْـنِ وَالرِّسَـالَةِ
مِـنْ كُلِّ غِـرٍّ جَعْضَـرِيٍّ زَنِـمِ مُبَطَّـنِ الحِقْـدِ سَـلِيْطٍ نَهِـمِ

يشير الناظم إلى ظاهرةٍ أخرى من ظواهر مرحلة الغثاء والوهن تدور في المجتمعات والأنظمة المتحدثة باسم الدين، وهذه الظاهرة تخدم سياسة الكفر، وتمهد للدجال، وهي ظاهرة الرويبضات التي عبر عنها ﷺ في آخر الزمان كقوله: «**وَيُؤْتَمَنُ الخَائِنُ وَيُخَوَّنُ الأمينُ ويتكلم الرُّوَيبضة**». قالوا: وما الرويبضة؟ قال: «**يتكلم في الناس من لم يكن يتكلم، وينكر الحق تسعة أعشارهم**»[(١)]، وفي رواية: قالوا: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: «**التَّافِهُ يُدِيْرُ شؤون العامَّةِ**»، وفي رواية: «**الفاسق يتكلم في شؤون العامة**»، وفي رواية: «**الفويسق يتكلم في شؤون العامة**»، وفي رواية: «**السفيه**»، وفي رواية: «**الوضيع من الناس**»[(٢)].

والغر: الجاهل غير المجرب، والجعضري: الجبار المتعجرف، والزنم الكذاب، والسليط كثير الكلام، يقال: سليط اللسان، أي: لا يضبط مقاله بالفحش، وهذه كلها ظواهر مرحلتنا المعاصرة وشواهد كثيرة ومثيرة.

---

(١) المصدر السابق ص١٦٩، والحديث عن سلمان.

(٢) «عقيدة المسيخ» لسعيد أيوب ص١٥١، ويتابع في بقية الصفحات شرح الكلمات في البيت: الغر، الجعضري، الزنم... إلخ.

غُثَائية الحُكْم والسِياسَة

لَتُنْقَضَـنَّ قَـالَ خَيـرُ النَّـاسِ مِنَ العُرَى فِي الدِّيْنِ وَالإِحْسَاسِ

عَلَـى المَـدَى عُرْوَتُنَـا الوَثِيقَـةْ نَقْضَـاً بِنَقْـضٍ فَافْهَـمِ الحَقِيْقَـةْ

يشير الناظم إلى أخطر ظواهر مرحلة الغثائية، وهي نقض القرار وسقوط دولته، وَأَنَّ للإسلام رأياً ثابتاً وموقفاً عالمياً من هذا التحول السياسي، ولا يُعالج الإسلام القضية بما يعتقده البعض من قوة الدولة أو ضعفِهَا الْمُجَرَّدِ، بل إن التعليلَ الشَّرعيَّ أعمُّ من النظر في سقوط الدولة لمجرد الضَّعْفِ، وإنما هناك عوامل هامة تربط أول الزمان بآخره، وأحداث آخره بما سبق التنبؤ عنها في أوله، وشاهدُ ذلك قوله ﷺ: «**بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتينِ**»(١)، فَكَأَنَّه عليه الصّلاة والسّلام قد جعل المراحل المتقلبة من عصره إلى قيام الساعة تحت مجهره الشرعي ودعوته الشاملة، فما يحدث من حادثٍ في مستوى القَرار إلَّا وهو ﷺ يُفَنِّدُ هَوِيَّتَهُ وهويةَ علاقته بالإسلام أو بالكفر إن كان قراراً منحرفاً عن الجادة، منذ بروز ذاته وتعبـيره عن ذلك بقوله ﷺ، حتى تأتي الساعة بعلاماتها فيما عَبَّـر عنه بلفظ «**والسَّاعة كهاتين**» زماناً ومكاناً، ومن هذا المنطلق يشير ﷺ إلى موقفه من مرحلة نقض القرار العالمي الشامل، وما يلحق من نواقض خطيرة في مسيرة الأمة الإسلامية بعمومها.

وقد أشارت الأبـيات إلى مدلول الحديث: «**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلَام عُرْوَةً عُرْوَةً، كُلَّما نقضت عُروةٌ تَمَسَّكَ النَّاس بالتي تَليها، أَوَّلُهنَّ نقضاً الحُكمُ وآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ، وَرُبَّ مُصَلٍّ لا أَمَانَةَ لَهُ**»(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وهذا الحديث الشريف أعظم شاهد على معايشة الرسول ﷺ للأحداث الجارية في مستوى القرار والسياسة عند نقض العُرى عالمياً، كما كان مُعَايشاً لها خلال مراحل الفِتن داخل الخيمة الإسلامية من قبل، فقوله ﷺ: «**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإسلام**» إشارةٌ إلى تفكك عرى الدين والشرع بأَيْدٍ مُتَنَوِّعَةٍ غير مرئية، لأن الفعل -كما هو ملاحظ- مبنيٌّ للمجهول «**لَتُنْقَضَنَّ عُرى الإسلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً**»، وكأنَّها في الأصل عُرى منتظمة كحَبَّاتِ المسبَحَةِ، فَبَدَأَ النَّقضُ لها من مستوى القرار: «**أولهنُّ نقضاً الحكم**»، وبنقض الحكم وسقوط دولته يبدأ العمل الخفي والظاهر بصورٍ شَتَّى على ملاحَقَةِ بقيَّة عُرى الإسلام، والنَّاس في المجتمعات الإسلامية لا يستطيعون إعادة ما نقضه الفاعلون، لأنهم تحت قرار فاعلٍ وسُلْطَةٍ خارجية مهيمنة، فيلتزمون ما بعدها محافظين عليها ما استطاعوا، حتى يتم نقض العرى متتابعة.

«**أوَّلهنَّ نَقْضَاً الحكم، وآخرهنَّ الصَّلَاة**»، والحكم أعلى سقفٍ هَامٍّ في حياة الأمة، والصلاة أطول شِرْعَةٍ يَتَعَبَّدُ الناس بها مولاهم عبر العصور، حتى يقعَ الفساد المتلاحق في المصلي ذاته «**وَرُبَّ مُصلٍّ لا أمانة له**».

وهذا الحديث الهام يضع القيادات الحاكمة في قفص الاتهام، ويشير بالإصبع إلى موقع الفساد والتعفن في مسيرة الحياة، خلافاً لما يفعله الحكام والسياسيون اليوم من إلهاء العوام والشرائح الاجتماعية بالمتناقضات والصِّراع الطَّبقي والسياسي والاعتقادي، ليحجبوا خطر التُّهمة عن أنفسهم، وهم يصنعون المستقبل الدَّجَالِـي في العالم مع الشَّيطان وأعوانه بعلمٍ أو بغير علم.

فَعِنْدَمَا تُنْتَقَضُ الثَّوَابِتُ ... تَمَسَّكَ النَّاسُ وَهَذَا ثَابِتُ
إِذْ لَا يُهِمُّ الحَاكِمَ المَفْتُونَا ... بِحِكْمِهِ دِيْنَاً غَدَا مَطْعُونَا
وَأَوَّلُ النَّقْضِ جَرَى فِي الحُكْمِ ... وَالآخِرُ الصَّلَاةُ دُوْنَ فَهْمِ

إِذْ لَا ائْتِمَانَ فِي المُصَلِّي آنَذَاكْ وَلَا أَمَانَ مِنْهُ عِنْدَ الارْتِبَاكْ

وَكَمْ مُّصَلٍّ مَا لَهُ أَمَانَةْ يَشُوبُهُ الشَّكُّ كَذا الخِيَانَةْ

يشير الناظم إلى مدلولات حديث النقض للعرى، وقد أشارت جملة من أحاديث المصطفى ﷺ إلى معنى ذلك، فيقول ﷺ: «**لا تَبْكُوا عَلى الدِّينِ إِذَا وَلِيَهُ أَهْلُهُ وَلَكِنْ ابْكُوا عَلَيْهِ إِذَا وَلِيَهُ غَيْرُ أَهْلِهِ**»[1]. وهذه إشارة إلى موقع قرار الديانة وخطورة امتلاك القرار قِبَل غير أهله.

يَسُودُ في القبائلِ المنافقونْ والسوقِ تُجّارُ الزمانِ المفسدونْ

وروى الطبراني عن ابن مسعود قوله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يَسُودَ كُلَّ قَبِيلَةٍ مُنَافِقُوهَا، وَكُلَّ سُوقٍ فُجَّارُهَا**»[2]. وفيه إشارة إلى قرار الأسرة والقبيلة وقرار الاقتصاد والمعاملات وخطورة انتقال القرار من أهله المعتبرين إلى سماسرة الأسواق ودجاجلة الأخلاق، وهذا أيضاً من مظاهر الغثائية، وقد سبق إيراد هذا الحديث الشاهد على هذا المظهر، وكلا الحالتين رَمزٌ لمرحلةِ الغُثَائِيَّةِ التي تُخَوِّلُ للكافِرِ وأتباعِهِ أن يتجنبوا وجود الصالح في سيادة القبائل أو تسيير أمورها، وكذلك في مسيرة الاقتصاد، ويأتي هذا في مرحلة يكون فيه المنافقون على مستوىً عالميٍّ من العلمِ النظري في الاقتصاد والسياسة وقضايا الحكم، كما يكون المفسدون من التُّجار والفجَّار هم محركو الأسواق وحملة الأرصدة المالية، فيكون لهم الرأي والكلمة الفاصلة.

وفي إطار الحكم والحاكمية الغثائية يشير ﷺ إلى ظهور المؤسسات القائمة على الهَمْز واللَمز والغَمْز والوقِيعَةِ والتَربُّصِ والتَّجسُّسِ وغيرها، فيقول عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ من أعلامِ السَّاعَةِ**

---

(١) رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و «الأوسط» ، وفيه كثير بن زيد وثقه أحمد وغيره وضعفه النسائي.

(٢) أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود.

وأشراطها أن تكثر الشرط والهمَّازون والغمَّازون واللمَّازون، وأن يكثر أولاد الزِّنا»[1].

وقوله في المنظومة: «**لا ائتمان في المصلي**» إشارة إلى الحديث: «**وَرُبَّ مُصَلٍّ لا أَمَانَةَ لَهُ**» حيث تبقى الصلاة في الناس مجردَ عَادَةٍ أو إسقَاطاً للواجبِ المكلَّفِ بِهِ وَلَيسَ عِلاجاً وَتَهذِيباً وإصلاحاً كما هي وظيفتُها الأَسَاسِيَّة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾.

وهذا النَّمُوذَجُ في المصَلِّينَ مُسْتَشْرٍ وَظَاهِرٌ في مرحلتنا المعاصرة، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تتناكر القلوب، وتختلف الأقاويل، ويختلف الأَخَوانِ من الأب والأم في الدين**»[2].

وفي بعض المعاني عن قوله: «**ورُبَّ مُصلٍّ لا أمانة له**»: أي لا يؤدي الصلاة على وجهها الشرعي، ويؤيد هذا المعنى قوله ﷺ: «**من اقتراب الساعة أن تُصَلِّيَ خمسون نَفْسٌ لا يقبلُ لِأَحَدِهِمْ صَلَاةٌ**»[3]، ومعناه: أنهم لا يأتون بشروطها وأركانها، فلا تصح لأحدهم صلاة فلا يقبل منهم.

وَيُقْبَضُ العَالِمُ ثُمَّ لَنْ تَجِدْ غَيْرَ فَتَاوَى الرُّؤَسَاءِ تَسْتَبِدْ

مَنْ يُسْأَلُونَ فيُجِيبُوا فِي عَجَلْ بِغَيرِ عِلْمٍ فيُضِلُّوا مَنْ سَأَلْ

إشارة إلى ما سبق من حديث النقض للعلم وقبض العلماء آخر الزمان، وهي إحدى ظواهر المرحلة الغثائية وثمرة من ثمرات تسييسِ الدَّعوةِ الإسلامية التي تجاوزت هذا المدلول من قبض العلماء.

وقد فَسَّر العلماء القبض بمعانٍ عديدة، فمنه القبضُ عليهِم وسجنُهُم، ومنه القَبْضُ أي

---

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود.

(٢) المصدر السابق ص١٦٢، رواه الديلمي عن حذيفة بن اليمان.

(٣) «كتاب الفتن» عن ابن مسعود.

الاِنْقِبَاضُ النَّفسيُّ مِمَّا يَشهدونه في الواقع من الجرأةِ والتَّسييسِ للدِّينِ فيعتزلونَ الواقعَ، ويظهر علماء المؤسسات الذين يكونون رؤوساً أو رؤساءَ يُفتون فَيَفْتِنُونَ وَيُفْتَنُونَ في ذلك.

وهذه ظاهرةٌ خطيرةٌ تشمل المجتمع الإسلامي في هذه المرحلة المسيَّسةِ، وَفيهَا لا يُستحيا من العالِـمِ الحَقِّ، ولا يُتَّبَعُ العَالِـمُ الصَّادِق، يقول فيها ﷺ: «**يأتي على الناس زمان لا يُتَّبَعُ فيه العالِـمُ، ولا يُستحيا فيه من الحليم، ولا يُوَقَّرُ فيه الكبيرُ، ولا يُرحَمُ الصَّغيرُ، يَقتُلُ بعضهُم بعضَاً على الدنيا، قلوبُهُم قُلُوبُ الأَعَاجِمِ، وألسنتُهُم ألسنةُ العَرَبِ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، يمشي الصالح فيهم مستخفياً، أولئك شرار خلق الله، لا ينظر الله إليهم يوم القيامة**»[1].

وفي هذا الجو المُعَتَّم من العلم والدِّين تبرز ظواهرُ المعرفةِ الهَشَّةِ بِوُجُوْدِ مظاهر القرآن والسنة، ووجود رموز العلم والعلماء الذين يصفهم الحديث بوصف حالهم: «**لا تذهب الأيام والليالي حتى يَخْلَقَ القرآنُ في صدور هذه الأمَّة كما تَخْلَقُ الثياب، ويكون ما سِواه أعجب لهم، يكون أمرهم طَمَعاً كُلُّه لا يخالِطَهُ خَوْفٌ، إن قَصَّرَ في حقِّ الله تعالى مَنَّتْهُ نفسُه الأماني، وإن تجاوز إلى ما نهى الله عنه قال: أرجو أن يَتَجاوَزَ اللهُ عَنِّي، يَلبَسُونَ جلودَ الضَّأنِ على قُلُوبِ الذِّئَاب، أفضلُهُم في نفسِهِ المُدَاهِنُ الَّذيْ لا يأمر بالحَقِّ ولا ينهى عن المنكر**»[2].

وَخُطَبَـاءُ الدِّيْـنِ يُلْقُـوْنَ الكَذِبْ وَيُلْزِمُـوْنَ النَّـاسَ فِقْهَـاً مُغْتَـرِبْ

إشارة إلى قولِهِ ﷺ عن مظاهر الغُثَاء والوَهَن في المَنَابر من قولِهِ في حديثٍ طَوِيْلٍ: «... **وتقوم الخطباء بالكذب، فيجعلون حقِّي لشرار أمتي، فمن صدقهم بذلك ورضي به لم يرح**

---

(١) المصدر السابق ص١٦٦ ، رواه الديلمي عن علي كرم الله وجهه.

(٢) في «الحلية» لأبي نعيم عن معقل بن يسار.

رائحة الجنة»[1].

وهؤلاء الخطباء هم الذين يُزَيِّنُوْنَ للناس أوضاعَ الانحرافِ ويدافعونَ عنِ الظَّلَمَةِ بأساليبَ ملتويةٍ طلَباً للوَظيفةِ والمُرَتَّبِ والمَقَام لَدَى هؤلاء، وقد وصفهم النبيُّ ﷺ: «**لا تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُوْنَ بِأَلْسِنَتِهِم كَما تَأْكُلُ البَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا**»[2].

قال في «الإشاعة» ص١٦٢: ومعناه: يمدحون الناس ويُظهِرُونَ حُجَّتَهُمْ نِفَاقَاً، وَيُطْرُونَهُم ويمدحون أنفسَهُم حتى يتسولوا إلى أخذ الأموال منهم.

وزُخْرِفَتْ مَسَاجِدُ الصَّلاةِ مَعَ خَرابِ القلبِ والنِّيَّاتِ

وهذا المظهر بارزٌ في هذه المرحلة الغثائية، وبصورة متميزة، فحتى القُرى والبوادي التي ظهرت فيها المساجد المتعددة والجديدة ذات الطابع الزخرفي والفن العمراني المتميز تجدها تحوي شعوباً ومصلِّينَ خَرِبَتْ قلوبهم بالدنيا واختلفت في الدين، وهذا ما أشار إليه المصطفى ﷺ في حديث أبي الدرداء: «**إِذَا زَخْرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ، وَحَلَّيْتُم مَصَاحِفَكُم فَالدَّمَارُ عَلَيْكُم**»[3].

وفي رواية أخرى: «**فعند ذلك تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائسُ والبِيَعُ، وتطول المنابر وتكثر الصفوف مع قلوب متباغضة وألسن مختلفة وأهواء جمة**»[4].

وفي بعض القرى من بلاد المسلمين تجد المساجد الثلاثة والمساجد الأربعة في القرية الصغيرة التي لا يتجاوز عدد أهلها مئتي فرد إلا أن كل فئة من هؤلاء لهم مسجدهم الخاص وإمامهم

---

(١) المصدر السابق ص١٦٢، رواه بن أبي الدنيا، والطبراني وأبو نصر السجزي في «الإبانة» وابن عساكر عن أبي موسى، ولا بأس بسنده، «كنز العمال» (١٤ : ٢٤٥).

(٢) المصدر السابق، رواه أحمد عن سعد بن أبي وقاص.

(٣) المصدر السابق ص١٦٧، رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن أبي الدرداء، ووقفه ابن المبارك في الزهد.

(٤) المصدر السابق ص١٦٩.

ومذهبهم مما يزيد الواقع اضطرابا وقلقا على غير عمق في الديانة.

وفي هذا المعنى حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد**»[1].

وحديث: «**إذا ساء عمل الأمة زينوا مساجدهم**»[2]، وحديث ابن عباس: «**ما كثرت ذنوب قوم إلا زخرفت مساجدها، وما زخرفت مساجدها إلا عند خروج الدجال**»[3].

وهذه الظاهرة عن المساجد تلحقها ظواهر عديدة تشير إلى هبوط الإيمان، وسوء علاقة المصلين بالديانة مع التزام الحضور للصلاة وكثرة الصفوف، وفسّر هذه الظواهر قوله ﷺ: «**ويكثر ولد الزنى، وتفشوا الغيبة، ويعظم رَبّ المال، وترتفع الأصوات في المساجد، ويظهر أهل المنكر، ويظهر البناء**»[4]. ومن الظواهر أيضاً ما قال عنه ﷺ: «**يأتي على الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم في أمر دنياهم، فلا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة**»[5].

ومن هذه الظواهر: «**وحتَّى تُتَّخذَ المساجِدُ طُرُقاً فَلا يُسْجَدُ للهِ فِيهَا**»[6]، وهذه الظاهرة ملاحَظَةٌ في كثيرٍ من بلاد المسلمين، وهي اتخاذ المسجد للعبور من شارع إلى غيره، وليس ببعيدٍ أيضاً أن يحمل المعنى على ما يفعله بعض الجهلاء من أصحاب الطرق -هدانا الله وإيَّاهُمْ- حيث يَسْمُرُون ويُنْشِدُون في بعض المساجد حتى الفجر لمناسبةٍ ما؛ ولكنهم لا يعمرون هذه

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود من حديث أنس ، انظر «السنن الواردة في الفتن» لأبي عمرو الداني ص١٩٥ طبعة بيت الأفكار الدولية.

(٢) أخرجه البيهقي في باب الصلاة .

(٣) المصدر السابق ص١٩٦.

(٤) «الإشاعة» ص١٦٧.

(٥) رواه البيهقي عن الحسن مرسلاً، المصدر السابق ص١٦٥.

(٦) أخرجه الطبراني عن ابن مسعود ، المصدر السابق ص١٦٤، «فاتخذوا المساجد طُرُقاً» أي: لما أَلِفَتْهُ الطرق من ذكر أو حلقات إنشاد وغيره.

المساجد بالعبادة، بل ربما أخروا صلاةَ الفجرِ لِسَهَرِهِمْ وسمرهم في المسجد ذاتِهِ، وهذه ظاهرةٌ قبيحةٌ وإن كان فاعلُهَا محباً للخير والدِّين.

وهناك في بعض بلاد المسلمين تُتخذ المساجد طرقاً للسير فيها والتفرج على زخارف البناء ومظاهر النقوش، وقد يتردد عليها سُوَّاح أجانب ونساء حُيَّض.. ولهم من أبناء المسلمين أدلاء ومتخصصون في تشجيع ظاهرةِ السياحة.

وَيَكْتَفِي الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ كَذَا النِّسَاءُ فِي الخَنَا البَطَّالِ

وهذه أيضاً إحدى ظواهر المرحلة الغثائية وشمولها حتى تدخل بلاد المسلمين، ويحصلَ الشُّذُوذُ الجِنسيُّ لدى الرجال والنساء، ويتفشى هذا الدمار بين الأبناء والبنات حتى يبلغَ في بعضِ البلدان إلى اتخاذ النوادي الخاصة بهذه المفاسد، كما عبَّر عنه القرآن في ذم قوم لوط: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ وقد انتقل هذا الوباء إلى بلاد المسلمين من أوروبا، وكثرة المترددين إليها من المسلمين.

وفي هذا المعنى ثلاثة نماذج أشارت إليها الأحاديث من تحولات الأخلاق:

الأول: اكتفاء الرجال بالرجال، والنساء بالنساء.

الثاني: يُتغاير على الغلمان كما يتغاير على المرأة.

الثالث: نكاح المرأة في دبرها.

وكل هذه الظواهر الاجتماعية دلالة على مدى التأثر بالانحراف القادم من بلاد الكفر وضعف القيم الداعية إلى العفة والنزاهة.

قال ﷺ: «إذا استغنى النساء بالنساء، والرجال بالرجال، فبشرهم بريح حمراء تخرج من قبل المشرق فيُمسخ بعضُهم ويُخسف ببعض، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»[1].

---

(١) رواه الديلمي عن أنس، المصدر السابق ص١٥٧.

وحديث الطبراني: «**إن من أعلام الساعة وأشراطها أن يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء**»[1]، وحديث: «**لا تقوم الساعة حتى يُتغايَر على الغلام كما يُتغاير على المرأة**»[2].

ومنها أن تكون في آخر الأمة عند اقتراب الساعة أشياء منها: «**نكاح الرجل امرأته في دبرها أو أمته في دبرها**» ، وذلك مما حَرَّم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله[3].

وفي بعض معاني هذا الحديث انتشار الفتوى الخاطئة في هذا المعنى وترويج بعض الفئات حلية هذه الانحرافات والطعن في فتاوى العفة والشرف الشرعي.

وَتَظْهَـرُ المَعَـازِفُ المحَظُـورَةْ   وَتُشْـرَبُ الخَمْـرُ بِـكُلِّ صُـورَةْ

وفي هذا البـيت إشارة لمظاهر الغثائية فيما يسمى بالفنون والإبداعات، فالغالب على بلاد المسلمين في هذه المرحلة كثرة الفنانين والفنانات، وكثرة الحفلات الغنائية والرقص والموسيقى والمعاهد الخاصة بهذه الفنون تبعاً لما جاء به الغرب.

وقد نبَّه النبـي ﷺ إلى أن هذه الظاهرة علامةٌ من علامات الساعة في مرحلة الغثاء والوَهَن، وَأنَّها ليست مَطْلَباً شريفاً، وقد يعتقد البعض أنَّ هذا مُخالِفٌ لما هو معروف في عهد العباسيين والأمويين ومن جاء من بعدهم، حيث كان لهم اعتناء بالفن وشيء من الرقص والمنادمة، والصحيح أن هذه العصور وإن كانت أقرب إلى عصر الإسلام الأول من حيث الزمن؛ ولكنها تعبر أيضاً عن نموذجٍ من علامات الساعة وتعتبر من وجهة نظر الإسلام لوناً من ألوان الجُنوح في جوانب التساهل في الغِناء والمَجُون، وليست حجةً عَلَى الإسلام وإنما يُحتَجُّ بالإسلام عليها من خلال ما ثبت عن رسول الله ﷺ قوله: «**واتُّخِذَتِ القيناتُ والمعازفُ**»، وفي حديث آخر

---

(١) رواه الطبراني من حديث ابن مسعود ، المصدر السابق ص١٥٥ .

(٢) رواه الديلمي عن أبـي هريرة، المصدر السابق ص١٦٣ .

(٣) المصدر السابق ص١٦٤ .

عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وزُخْرِفَتِ المساجِدُ، وَطُوِّلَتِ المَنَابرُ، وفَسَدَتِ القُلُوبُ، واتخذوا القينات، واستُحِلَّتِ المعازِفُ**»[1]، وقوله: «**واستُحلت**» إشارة إلى استحلال ما كان حراماً إما بفتاوى العلماء وإما بالجرأة والكذب على الله ورسوله.

وأما شرب الخمر فهو أيضاً من ظواهر مرحلة الغثائية، وانهمك فيها المئاتُ من أهل الإسلام، وظاهرتها مقرونة بنقض عرى كثيرة أدت إلى شرب الخمر وتسميتها بغير اسمها، حتى فتح لها في العديد من عواصم بلاد المسلمين المصانع والمستودعات الكبيرة لتلبية حاجة السوق، وقد أشارت بعضُ الروايات إلى ظاهرة شرب الخمور إطلاقاً دون تعيين مكان، وفي أحاديث أخرى: «**وشربت الخمور في الطرق**» وكأنّها إشارة إلى الحوانيت والبارات الخاصة وإلى شرب المارَّة والمتسَكِّعِيْنَ في الطُّرُقَاتِ لها حيث لا يَخْشَوْنَ رَقِيبَاً عَلَيهِم، وفي رواية: «**وشربتم الخمور في ناديكم**»[2]، وفي رواية أخرى: «**إذا استحَلَّتْ هَذِهِ الأُمَّة الخَمْرَ بِالنَّبِيْذِ**» [3] أي: يَشربونَها وَيسمونها النبيذ يتحيلون على الله في تغيير اسمها، وحديث الطبراني: «**إن من أعلام الساعة وأشراطها أن تظهَرَ المعازفُ وَتُشْرَبَ الخمورُ**»[4].

وَشُرْطَةٌ لِضَبْطِ أَحْوَالِ المُدُنْ ... مِنْ كُلِّ غَمَّازٍ وَهَمَّازٍ لَسِنْ

وقد سبق تناول هذا المعنى في شرح حديث «**صنفان من أهل النار**».

لَا يَسْلَمُ الدِّينُ سِوَىٰ لِهَارِبِ ... مِنْ شَاهِقٍ لِشَاهِقٍ مُجَانِبِ

مَوَاقِعَ الحَيَاةِ وَالحَضَارَةْ ... كَثَعْلَبٍ يَفِرُّ لِلمَغَارَةْ

---

(١) من حديثٍ طويلٍ رواه الترمذي، وأورده صاحب «الإشاعة» ص١٧٧.

(٢) رواه الديلمي عن ابن مسعود.

(٣) رواه الديلمي عن حذيفة بن اليمان.

(٤) المصدر السابق ص١٥٥.

تشير الأبـيات إلى ما ذكره ﷺ من اختلاط الأمور في عصر الغثاء حتى يضطر الراغب في حفظ الدين من مضلات الفتن أن يبحث عن ملجأ أو معاذ يلجأ بدينه إليه.

قال ﷺ: «**يأتي على الناس زمان لا يسلم لِذيْ دِيْنٍ دِيْنُهُ إلا مَنْ فَـرَّ مِنْ شَاهِقٍ إلى شَاهِقٍ، أو من جُحْرٍ إلى جُحْرٍ، كَالثَّعلَبِ يفر بأشبالِهِ.. وذلك في آخِرِ الزَّمانِ إذا لم تُنَلْ المَعِيْشَةُ إلا بِمعصيةِ الله**»[1].

وحديث أبو نعيم عن عمر: «**سَيصيبُ أمَّتي في آخرِ الزَّمَانِ بَلَاءٌ شديدٌ لا يَنْجُو منهُ إلا رَجُلٌ عَرَفَ دينَ الله فَجَاهَدَ عَلَيهِ بلسانِهِ وقلبِهِ، فذَلك الَّذي سبقت له السَّوابِقُ، وَرَجُلٌ عرف دينَ الله فَصَّدَقَ به**»[2].

وَمَـنْ عَـاشَ يَعِـشْ فِـي الـنَّـاسِ مُسْـتَرَابْ ... وَيَقْتُلُـوْهُ خَنقَـاً قَتْـلَ الـكِلَابْ

يشير الناظم لمن حاول التعايش من الصالحين مع الناس في عواصمهم وأسواقهم وأسباب تطور حضاراتهم، فإنه يعيش في قلق وحذر لما يدور حوله من التهم والشكوك، بل قد يؤدي ذلك في بعض الأحوال والاضطرابات إلى أن يقتلوه حنقاً كما تقتل الكلاب.

وهذه الظاهرة قد لوحظت في بعض البلاد التي غزتها الغثائية الشرقية إبَّان مرحلة الصراع بـين القُوَّتين العالميتين الغربـية والشرقية، فقد جعلت تلك القوى لها من المعاذير والسياسة ما تستأصِلُ به العلماء والصالحين من خلال تلك التُّهم والشكوك، حتى بلغ الأمر إلى سحل العلماء وقتلهم في شوارع المدن، وحينا بإصدار تهم سياسيةٍ كالحزبـيةِ أو العمالةِ للقوى الأجنبـية لتبرير قتلِ العالمِ أو الصَّالح، ويؤيد هذه الظواهر وحدوثها في الأمة قوله ﷺ: «**يأتي عَلى النَّاسِ زَمَانٌ**

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في «السنن» عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، «كنز العمال» (١١: ١٥٤).

(٢) المصدر السابق ص١٦٥.

يُقْتَلُ فِيْهِ العُلَمَاءُ كَما تُقْتَلُ الكِلاَبُ، فَيَالَيْتَ العُلَماءَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ تَحَامَقُوا» [1].

وحديث: «**يَأْتِي عَلى النَّاسِ زَمَانٌ يَسْتَخْفِي المُؤْمِنُ فِيْهِمْ كَما يَسْتَخْفِي المُنَافِقُ فِيْكُم**»[2].

قال الناظم:

هَـمُّ الشُّـعُوبِ مَـأْكَلُ البُطُـوْنِ ... وَالشَّـرَفُ المَعْدُوْدُ فِي المَاعُونِ

وَالدِّيْـنُ فِـي الدِّرْهَـمِ وَالدِّيْنَـارِ ... هَـذَا الَّـذِيْ جَـاءَ عَـنِ المُخْتَـارِ

إشارةٌ إلى ما أخبر عنه ﷺ من ظواهر مرحلة الغُثاء والوَهَن التي تُصيب شعوب المِلَّة في قوله عليه الصلاة والسلام: «**يأتي على الناس زمانٌ هَمُّهُم بُطُوْنُهُمْ، وَشَرَفُهُم مَتَاعُهُم، وَقِبْلَتُهُم نِسَاؤُهُم، وَدِيْنُهُمْ دَرَاهِمُهُم وَدَنَانِيْرُهُم، أُوْلَئِكَ شَرُّ الخَلْقِ لا خَلَاقَ لَهم عِنْدَ الله**» [3].

وقد برزت هذه الظاهرة في بعض البلاد الإسلامية وهي تمني عودة الحكم الشيوعي الاشتراكي فيها لأن تلكم المرحلة كانت أسعار الأغذية أقل مما هي عليه الآن، معتقدين أن رخص الأسعار مرهون بالنظام الاشتراكي فيتمنى أحدهم عودته لا خوفا على دين ولا خلق وإنما رغبة في حصول طعامه وشرابه ولو على إهانة دينه وملته.

تَخْتَلِـفُ الأَقْـوَالُ وَالقُلُـوْبُ ... وَيَكْثُـرُ العِصْيَـانُ وَالذُّنُـوبُ

يَخْتَلِـفُ الإِخْـوَانُ فِـي الدِّيانَـةْ ... وَيُرْفَـعُ الإِيْمَـانُ وَالأَمَانَـةْ

يشير الناظم إلى ما يبرز جلياً من التداعيات الأخلاقية في الحياة الاجتماعية إبان المرحلة الغثائية، هدماً لما جاء به خير البرية من الأخلاق والقيم والآداب النبوية، وإلى ذلك أشار ﷺ في حَدِيْثِهِ الذي رواه الديلمي «**لا تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى تَتَنَاكَرَ القُلُوبُ وَتَخْتَلِفَ الأَقَاوِيْلُ وَيَخْتَلِفَ الأَخَوَانِ مِنَ الأَبِ**

---

(١) المصدر السابق، رواه الديلمي عن ابن عباس.

(٢) المصدر السابق، رواه ابن السني عن جابر رضي الله عنه. «كنز العمال» (١١: ١٧٦).

(٣) رواه السلمي عن علي رضي الله تعالى عنه، «كنز العمال» (١١: ١٩٢).

وَالأَمِّ فِي الدِّيْنِ»[1]، وقال عن الأمانة ورفعها ما ورد في البخاري من حديث حذيفة: «**قال ويصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أَحَدٌ يؤدي الأَمَانَةَ، فَيُقَال: إِنَّ في بني فُلَان رَجُلًا أميناً، ويقال للرَّجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**»[2].

ولوحظ مثل هذا فيما يسمى بالانتخابات والصراع عليها حيث ينتفي لدى الكثير مفهوم الأمانة بمعناها الصحيح حتى يذهبون في مناطق شتى باحثين عن رجل أمين يرشح.

وهذه الظواهر قد برزت في الحياة الاجتماعية بما لا يدع مجالاً للشكِّ أنه المقصود في الأحاديث الشريفة، فنسأل الله العفو والعافية واللطف فيما تجري به المقادير.

يُبَاشِرُ المُسْلِمُ قَتْلَ المُسْلِمِ ... بِشُبْهَةٍ تُودِي إِلَى سَفْكِ الدَّمِ
وَتَنْطَوِيْ الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ... مُسْرِعَةً فِي الطَّيِّ وَالتَّوَالِي

يشير الناظم إلى إحدى ظواهر التَّغَيُّر في مستوى الزَّمَان وتحولاته، بحيث يحصل بين المسلمين «سَفْك دِماء» مع أن الرسالة المحمدية قد أعطت قيمةً ومكانةً لدم المسلم، فقد ورد في الصحيح قوله في يوم النحر وهو يخطب: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُم وَأَمْوَالَكُم وَأَعْرَاضَكُم وَأَبْشَارَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكِمْ هَذَا فِي شَهْرِكَم هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا.. أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟**»، قلنا: نعم، قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَد**».. إلى أن قال: «**لا تَرْجِعُوْا بَعْدِيْ كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُم رِقَابَ بَعْض**»[3]، وهذا الأمر بارز في نماذج القتل في الثأرات والصراعات الحزبية والفكرية والاغتيالات.

وأما «**طَيُّ الأَيَّامِ وَاللَّيَالِي**» فظاهرة تبرز في أُخْرَيَاتِ الزَّمَانِ تحقيقاً، لقوله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ**

---

(١) رواه الديلمي عن حذيفة، «كنز العمال» (١٤: ٤٩)، و «الإشاعة» ص١٦٢.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والبيهقي من حديث حذيفة بن اليمان، راجع «فتح الباري» (١٣: ٤٢) كتاب الفتن، طبعة دار الفرات، و «كنز العمال» (٣: ٦٠).

(٣) المصدر السابق.

حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ فَتَكُونَ السَّنَةُ كَشَهْرٍ وَالشَّهْرُ كَالجُمْعَةِ وَالجُمْعَةُ كَاليَوْمِ وَيَكُوْنُ اليَوْمُ كَسَاعَةٍ وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَاحتِرَاقِ السَّعْفَةِ»[1]. قال شارح الحديث: والحقُّ أن المراد نـزع البركة من كل شيء حتى من الزمان[2]، وقيل: قصر الأعمار بالنسبة إلى كل طبقة، وقيل: تقارب أحوالهم في الشر والفساد والجهل.

ويبدو أن تقدم الحياةِ العلمية وَطَيَّ المسافة الزمنية بالوسائل الحديثة يبدي معنى من معاني التقارب المشار إليه في الحديث والله أعلم.

وَكَثْـرَةُ الحُـرُوْبِ وَالمَلَاحِـمِ بَـيْنَ الجُيُوْشِ فِي المُحِيطِ العَالَمِي

من مظاهر التحولات في المرحلة الغثائية «**كثرة الحروب والملاحم بـين الجيوش**»، وأعتقد أن هذه الحروب لا تتحدد بالغثائية كمرحلة، وإن كانت في هذه المرحلة أشد فَتْكاً وضَرَاوةً لاستخدام الوسائل المتطورة في الحروب، فالحرب العالمية الأولى والثانية وما جرى بعدها من حروبٍ إقليميةٍ لها صِلةٌ بأطماع الدول العالمية تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الإشارات النبوية عن فتن وحروب وملاحم آخر الزمان، كحرب فِيْتنَام وحرب الخليج وحرب أفغانستان وحرب الشيشان وغيرها.

وَآخِـرُ الأَمْـرِ حِصَارٌ فِـي العِرَاقْ كَذَاكَ فِي الشَّـامِ وَمِصْرَ لا يطاقْ

فيه إشارة لعظمة التَّنَبُّؤَاتِ النَّبويةِ عن مستقبل الزمان، فالحصار في العراق قد امتد أثره إلى ساعتنا هذه؛ وكأنَّه المعنيُّ بحديثٍ رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبدالله الأنصاري رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، قال: «**يُوشكُ أهلُ العِراق أن لا يُجبَى إليهم قَفِيْزٌ وَلا دِرْهَمٌ**»، قلنا: من أين ذلك ؟ قال: «**من قِبَلِ العَجَمِ، يَمْنَعُوْنَ ذَاكَ**»، ثم قال: «**يُوشك أهل الشام أن لا يُجبى إليهم دينارٌ ولا مُدى**»، قلنا: من

(١) أخرجه أحمد في مسنده وأبو نعيم في «الحلية» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المصدر السابق (١٣: ١٩) كتاب الفتن.

أين ذاك ؟ قال: «**مِنْ قِبَلِ الرُّوْمِ**»، **ثمَّ سَكَتَ هُنَيْهَةً**[1]، وللحديث بقية.

والحديثُ آيةٌ من آياتِ الله في إعجاز النبوة، وقد أبرزت لنا وقائع الأحوال نموذجاً مما أشار إليه الحديث، وهو حِصارُ العراق، وما من شكٍّ أن ما ذكره ﷺ كَائِنٌ لَا مَحَالَة، وَكَيْنُوْنَتُهُ علامةٌ وملحظ، وقد أتمَّ ﷺ الحديث بعد سكوته هنيهة، فقال: «**ثُمَّ يَخْرج رَجلٌ من أهلِ بَـيتي يَمْلَؤُهَا عَدْلاً كما مُلِئَتْ جَوْرَاً...**» وفي رواية أبـي هريرة في صحيح مسلم أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**مُنِعَتِ العراقُ درهَمها وَقَفِيْزَهَا، وَمَنَعَتِ الشَّامُ مُديَّها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم،** ثم قال: **شهد على ذلك لحم أبـي هريرة ودمه..**» قال الإمام النووي في شرحه: والأشهرُ أنَّ مَعنَاهُ أَنَّ العَجَمَ وَالرُّومَ سيتولون على البلاد في آخر الزمان فيمنعون حصول ذلك للمسلمين. وأما قوله ﷺ: «**وعُدْتُمْ من حيث بَدَأْتُمْ**» فهو بمعنى الحديث الآخر «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ**»[2].

قال صاحب كتاب «هرمجدون.. آخر بـيان يا أمة الإسلام..» ص١٣ عن الهنيهة أو البرهة التي وردت في الحديث: «**ثم سكت هنيهة**»: هي الفترة الزمنية الطويلة، فالهُنَيْهَةُ تمتد آحاد السنوات، أَمَّا البرهةُ فقد تكونُ آحَادَ السَّنَوَاتِ وَقَد تَمتَدُّ إِلَى عَشَراتِهَا.

تَقَـارُبُ الأَسْـوَاقِ فِـي العَوَاصِـمِ وَقِلَّـةٌ فِـي الرِّبْـحِ وَالمَغَانِـمِ

إشارة إلى ما قد لوحظ اليوم بالعَيان من علامات الوَهَن والغُثَاء في العواصم العربـية والإسلامية، فقد فتحت التسهيلات التجارية ذات الارتباط بالرِّبا والشُّبهة، وصارت هي المثال الأوحد في أغلب المعاملات الدولية، وترتب على هذا الانفتاح الاقتصادي زيادة في الأسواقِ والمَعَارِضِ وتقاربها في الموقع الواحد والشارع الواحد؛ بل بلغ ببعض البلاد أن يكون

---

(١) شرح صحيح مسلم (٦ : ٣٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٢) شرح صحيح مسلم (١٦ : ٣٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

الشارعُ كُلُّهُ من صنف واحد للبضاعة، مع شكوى الجميع من قلة الربح وسوء الدخل وكثرة المصاريف، قال ﷺ: «**مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ تَقَارُبُ الأَسْوَاقِ**»، قلت: ما تقارب الأسواق؟ قال: «**أَنْ يَشْكُو النَّاسُ بَعْضَهُم إلى بَعْضٍ قِلَّةَ الإِصَابَةِ**» أي: الربح [١] ومن حديث سلمان: «**وَتُشَارِكُ المَرْأَةُ زَوْجَهَا في التِّجَارِةِ، وَتَتَقَارَبُ الأَسْوَاقُ**» قال: ما تقاربها ؟ قال: «**كَسَادُهَا وَقِلَّةُ أَرْبَاحِهَا**» [٢].وحديث آخر: «**وَأَرَى قَوْمَاً يَذُمُّونَ اللهَ تَعَالى، وَمَذَمَّتُهُمْ إِيَّاهُ أَنْ يَشْكُوهُ، وَذَلِكَ عِنْدَ تَقَارُبِ الأَسْوَاقِ**»، قال: وما تقارب الأسواق ؟ قال: «**عِنْدَ كَسَادِهَا، كُلٌّ يَقُولُ: مَا أَبِيْعُ وَلا أَشْتَرِيْ وَلا أَرْبَحُ، وَلا رَازِقَ إلا اللهُ تَعَالى**» [٣] وعن سلمان حديث: «**حَتَّى يَبْلُغَ إِلى أَطْرَافِ الأَرْضِ فَلا يَجِدُ رِبْحَاً**» [٤].

تُشَـارِكُ المَـرْأَةُ فِـي التِّجَـارَةِ   وَفِـي القَضَـاءِ وَكَـذَا الـوَزَارَةِ

إشارة إلى ما ورد في حديث ابن مسعود فيما رواه أحمد والبخاري والحاكم «**إن بين يدي الساعة تسليمَ الخاصَّةِ، وفُشُوَّ التِّجَارَة، حتى تُعينَ المَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلى التِّجَارَةِ**» [٥]، وفي حديث آخر: «**وتكون المخاطبة للنساء**» [٦]، وفي حديث آخر: «**وأمارة النساء**» [٧].

وَتَرْكَـبُ البِـرْذَوْنَ وَالسُّـرُوْجَا   تُقَلِّـدُ الكُفَّـارَ وَالعُلُوْجَـا

إشارةٌ إلى تَحَرُّرِ المرأة كما يقال «**عن الجدران الأربعة**» كظاهرة من ظواهر مرحلة الغثائية، وتركب

(١) «الإشاعة» ص١٦٧.

(٢) المصدر السابق ص١٧٠.

(٣) المصدر السابق ص١٧٤.

(٤) رواه الطبراني عن ابن مسعود.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) المصدر السابق ص١٦٩.

(٧) المصدر السابق ص١٦٩.

ما يركبه الرجل من الوسائل، وقد سمى النبيُّ المراكيبَ بثلاثة أَسْمَاءَ «**السُّرُوج العِظَام**» / **البَرَاذِيْن**/ **المَيَاثِر**، كما هو في نصوص الأحاديث، منها قوله: «**وَرَكِبَ النِّسَاءُ البَـرَاذِينَ**»[1]، «**وَتَرْكَبُ ذَوَاتُ الفُرُوْجِ السُّرُوجَ**»[2]، وهو إشارة إلى السيارات والعربات الفاخرة.

وحول إمارة النِّساء حديث: «**لَيَأتِيَنَّ عَلى النَّاسِ زَمَانٌ فِيهِ اسْتِشَارَةُ الإِمَاءِ، وَسُلْطَانُ النِّسَاءِ، وَإِمَارَةُ السُّفَهَاءِ**»[3]. وهذه كلها ظواهر يؤيدها سير المرحلة وما يروج له الساسة والقادة المعاصرون.

وَالزُّعَمَـاءُ حَجُّهُـمْ لِلنُّـزْهَـةِ وَالعُلَمَـاءُ لِلرِّيَـا وَالسُّـمْعَةِ

إشارة إلى تأثر مظاهر العبادة بالغثائية والوَهَن حتى يكونَ الحَجُّ الشَّرعيُّ موسماً لغير مقصده، فيحج الحكامُ لِلنُّـزهَةِ لما يحملونَهُ معهم من وسائل الراحة والترفيه، وينالوه في المَنَاسِكِ من الاحترام والتَّعظيم والتسهيل، فلا يتعرضون لما يتعرض له الحُجَّاجُ من الإنهاكِ والتَّعَبِ وَحَرِّ الشَّمْسِ وَوَطْأَةِ الزِّحَام، ويكون حجُّ الأواسط من الناس للتجارة[4]، وعلماؤهم للرياء والسمعة، أي: طلباً للمكانَةِ بـين الناس وإظهارَ الجَاهِ وَالمَقَام والشُّهْرَةِ، ويكون حجُّ الفُقَرَاءِ للمَسْأَلة، وهذا مُشَاهَدٌ في كثيرٍ من أحوال العصر، ويؤيد ذلك أحاديثُ في الموضوع منها: «**يَحجُّ أمراء الناس لهواً وتَنَـزُّهَاً، وَأَوسَاطُ النَّاسِ لِلتِّجَارَة، وَفُقَرَاءُ النَّاسِ لِلمَسْأَلَة، وَقُرَّاءُ النَّاسِ للرياء وَالسُّمْعَة**»[5]. وفي رواية: «**يَحجُّ أُمَراءُ أُمَّتي للنُّـزهةِ، وأواسطهم للتِجارة، وعلماؤهم للرِّياء والسُمعة،**

---

(١) رواه الديلمي من حديث طويل للإمام علي رضي الله عنه، «كنز العمال» (١٤: ٥٧٣).

(٢) من حديث سلمان عن «الإشاعة» ص١٧٤.

(٣) رواه ابن المنادي عن علي كرم الله وجهه، «الإشاعة» ص١٦٤.

(٤) أي: للاستفادة من ظروف الحج وكثرة الناس في سوق العرض والطلب ،مما يشغل أواسط الناس –وهم سماسرة التجارة– بـين المستوردين والمستهلكين.

(٥) «الإشاعة» ص١٧٣ عن سلمان.

وفقراؤهم للمَسألةِ، أُولئكَ شِرارُ الخَلْقِ عِنْد الله»[1].

ويَكْثُـرُ الطَّـلَاقُ وَالخَنَـاءُ ... وَيَظْهَـرُ الهَـلَاكُ وَالوَبَـاءُ

إشارة إلى ظاهرة الطلاق التي تغزو الأسرة المسلمة في المرحلة الغثائية، وأن هذه الظاهرة تكثر حتى يكون الغضب الإلهي بالأمراض والأوبئةِ الفَتَّاكَةِ، وهذه الأوبئة قد بَرَزَ في عصرنا خَطَرُهَا وهي تَفْتِك بالناس في كثيرٍ من بلاد العالم كالإيدْز والزُّهْرِيِّ وَسَارس الذي ظَهَر جديداً وغيرها، ونسأل الله السلامة.

إِمَاتَـةُ الصَّـلَاةِ عَـنْ أَوْقَاتِهـا ... وَكَثْـرَةُ العُقُـوْقِ فِـي سَـاحَتِهَا

إشارة إلى ما ذكره ﷺ من ظاهرة التَّهاون بالصَّلاة في آخرِ الزَّمانِ، وأنَّ من نماذج ذلك تأخيرها عن وقتها حتى يكاد أن يخرج، قال ﷺ: «**إذا رأيتم النَّاس أَمَاتُوا الصَّلاة، وأضاعوا الأمانة، وأكلوا الرِّبا إلخ الحديث... فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات**»[2].

وأما العُقوق فظاهرةٌ منتشرة، وأخبر ﷺ عن فُشُوِّهِ في مرحلة الغثاء لانعدام المُرَبِّينَ والمُعَلِّمِينَ، فقال: «**وَأَطَاعَ الرَّجُلُ امرأَتَهُ وَعَقَّ أُمَّهُ وَقَرَّبَ صَدِيْقَهُ**»[3]. وفي رواية: «**وَعَقَّ الرَّجُلُ أَبَاهُ، وَجَفَا أُمَّهُ، وَبَرَّ صَدِيْقَهُ، وَأَطَاعَ امْرَأَتَهُ**»، وفي رواية: «**إِذَا ظَهَرَ القَوْلُ، وَخُزِنَ العَمَلُ، وائتلفت الأَلْسُنُ، وَاخْتَلَفَتِ القُلُوبُ، وَقَطَعَ كُلُّ ذِيْ رَحِمٍ رَحِمَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**»[4].

---

(١) رواه الديلمي عن أنس رضي الله عنه.

(٢) المصدر السابق ص١٧٥.

(٣) المصدر السابق ص١٧٧ من حديث طويل.

(٤) رواه أحمد وابن أبـي حاتم عن سلمان موقوفاً ، المصدر السابق. والمقصود بخزن العمل تركه، وبائتلاف الألسن ما يسمى اليوم بالنفاق الاجتماعي والمجاملات المبنية على المصالح.

تَطَـاوُلٌ يَظْهَـرُ فـِي البُنْيَـانِ وَالحُكْمُ إِرْثٌ فِي بَنِيْ السُّـلْطَانِ

ومن ظواهر الساعة على مدى تحولات الأزمنة ظاهرة التطاول في البنيان، وهي المُفَاخَرَةُ والمُنَافَسَةُ في الحُصُونِ الناطحة للسحاب -كما تُسمى-، أو ما هو الآن بارز في بعض الدول العربيـة من بناء الأبراج الكبرى التي يبلغ بعضها إلى عشرات الأدوار طولاً رأسياً كما هو الحال لدى الكفار في عواصمهم، وكان الأولى لأولئك العرب أن يوسعوا مساحة الإعمار الأفقي في الصحراء لما فيه النفع للأمة جميعاً.

ومن مظاهر الساعة وعلاماتها توارث الحكم كحقٍّ أُسري بعيداً عن مَقْصَد الإسلام في وضع الرجل المناسب، وهذا الشأن قد استشرى كثيراً في العصرين الأموي والعباسي، واستشرى الآن في المرحلة الغثائية في بعض الدول والممالك، وفي ذلك يقول ﷺ : «**وصارتْ الإمارة مواريث**»[1].

ولَعِـبٌ بالمَيْسِـرِ الحَـرَامِ وَالضَّـرْبُ بِالمِزْمَـارِ لِلأَنْغَـامِ

إشارة إلى بعض مظاهر علامات الساعة عند ضعف الأمر في المسلمين وما يترتب على هذا الضعف من تجاوز للشريعة بظهور القمار وتداول اللعب به دون رادع ولا مانع، وقد حصل هذا في بعض عواصم العرب والمسلمين الآن، وَفُتِحَتْ بُـيُوتُ القِمارِ تحت رعاية الأنظمة والدول، وصارت عائداتُ هذه البـيوت جزءاً لا يتجزأ من الدخل القومي للدول شأنه شأن حركة البنوك الحرام.

ومثله «**الضربُ**» على آلة المزمار وغيرها من الآلات المصرح بحرمتها، «**والمزمار**»: آلَةٌ مُوْسِيْقِيَّةٌ شَعْبِـيَّةٌ عُرِفَتْ قَبل الإسلام وَحَرَّمَهَا الإسلامُ، كما حرَّم ألواناً من المعازف الأخرى ورد ذكرُها في العلامات من مثل قوله ﷺ: «**ولعبتم المَيْسرَ، وَضَرَبْتُم الكَبر والتعزفة والمزامير**»[2].

---

(١) المصدر السابق ص١٧٧ من حديث سلمان، وفيه قال: وأول من أحدث هذا بنو أمية.

(٢) رواه الديلمي من حديث طويل عن علي كرم الله وجه ، «كنز العمال» (١٤: ٥٧٤)، المصدر السابق

وفي هذه المسألة خِلَافٌ بَيْنَ العُلَمَاءِ يمكن العَودُ إليهِ في مَظَانِّه مِن كتب العلم، حيث نعتني هنا بشأن العَلَامة كظَاهِرَةٍ وليس كفَتْوَى، وأصل الجرأة التي حصلت في تاريخ التحولات كانت بسبب التَّسَاهُلِ في الفتاوى إضافةً إلى وجود الحماية الكافرة والرضا المُبَطَّن من قادة بعض الأنظمة التي برزت في المراحل المتقلبة، حيث تحوَّلت مسألة التحريم للميسر والمزامير وغيرها إلى جانب معرفي وأدبي يسمى «**بالفُنُونِ**»، وصار لهذه الفنون أساتذةٌ وَمُتَخَصِّصُوْنَ وَمَعَاهِدُ وَمَدَارِسُ يتعلم فيها المُولَعُونَ بهذه الفنون، ويَتَفَقَّهُون في ضَرْب الآلات، وينالون عليها الجوائز والأوسمة والشهادات، ولم تعرف الأمة العربية والإسلامية مثل هذا الانحراف المُعْلَن وبصورة رسمية إلَّا بعد أن ظهرت مرحلة الغثائية بسُقُوطِ دولة الخلافة، وتقسيم العَالَم العربي والإسلامي تَرِكَةً للدول الغازية والمستعمرة.

وَقَدْ أَشَارَ الْمُصْطَفَى لِلمَشْرِقِ وَقَالَ: مِنْهَا فِتْنَةُ المُنطَلَقِ
يُشِيرُ مَا يَأْتِي مِنَ الصِّرَاعِ وَفِتْنَةِ الشَّيْطَانِ وَالأَطْمَاعِ

يشير الناظم إلى الربط بين انتقاض العُرى في العالمين العربي والإسلامي في مرحلة فتنة الأحلاس والسراء، وبين ما سَمَّاه الرسول ﷺ بفتنة الدهيماء، «**لا تَدَعُ أَحَدًا مِنَ هذه الأُمَّةِ إلا لَطَمَتْهُ... حتَّى يَصِيْرَ النَّاسُ فُسْطَاطَيْنِ**»، رواه أحمد وأبو داود والحاكم من حديث ابن عمر، انظر «الإشاعة» ص٣٩٨.

وَكَأَنِّي بمدلول هذه الفتنة -حسب اعتقادي- من خلال استقراء المراحل ومقارنتها بالأحاديث - والله أعلم-: أنها ترتبط بمرحلة «**فِتْنَة قَرْنِ الشَّيطان**» التي قال فيها ﷺ وهو يشير إلى المشرق: «**هَاهَنا أَرْضُ الفِتَنِ**»[1] وأشار إلى المشرق، يعني حيث يَطْلَعُ قَرْنُ الشَّيطَانِ، وفي

ص١٨٢.

(١) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود كتاب الفتن، رقم الحديث (٢٢٦٨)، وقال: حسن صحيح.

رواية شعيب: «**أَلا إِنَّ الفِتْنَةَ هَاهُنَا**»[1] يشير إلى المشرق حيثُ يَطلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ[2].

قلت: وفتنة الدُّهيماء إنْ صَحَّ هذا الفهم هي مرحلة الصِّراع المَدْعُوم من القُوى العالمية بُعيد مرحلة الاستعمار داخل البلاد العربية والإسلامية، والتي تميَّزت بالثورات والانقلابات ضد الهياكل السلطوية القديمة، وكذلك الحرب الفكرية ضد كلٍ مِنَ المَذْهَبِيَّةِ والتَّصَوُّفِ وآلِ البيتِ، وكان وَقُودُهَا (**الدَّهْمَاءُ**)، وتصغيرها (الدُّهَيْمَاء).

وَالدَّهْمَاءُ: عامة الناس، وهم من استخدمتهم القوى العالميةُ وَسَمَاسِرَتُهَا مِنَ «**الطبقات الاجتماعية**» لحرب المدارس والهياكل التقليدية[3].

والمعلوم أن لفظة «**الدُّهيماء**» مرحلة خطيرة ولو أَنَّ تنفيذها جاء على يد بعض أبناء الأسر الصالحة، كما هو في بعض البلاد التي قَادَ ثَورَاتِهَا وانقلَابَاتِهَا شَخْصِيَّاتٌ ذَاتُ اعتِبَارٍ اجْتِمَاعِيٍّ مُعَيَّنٍ كانت لهم مواقف ضد سلبيات الهياكل الحاكمة، أو لهم مواقف حركية تتلاءم مع التحولات الجديدة، ورغبات في تحديث الأساليب والوسائل سواء في مستوى العلم أو مستوى الحكم، لأنها كانت «**مرحلة نَقْضٍ للعُرى**»، وهذه المرحلة شملت بُلْدَاناً عديدة من بلاد الإسلام قام الغرب بتطويعِها وتطبيعِها لتتلاءم مع سياسة الاستعمار وسياسة التجزئة، بل وتتلاءم أيضاً مع تبني السياسة الإقليمية بجذورها المصطنعة بديلاً عن الجذور الإسلاميّة التقليدية وتقسيماتها الإداريّة المنهارة، ومنها ما عمل الكافر على تحقيقه من سياسة التريك والتعريب.

---

(١) أخرجه مسلم عن ابن عمر، كتاب الايمان، باب تفاضل أهل الايمان برقم (٤٨).

(٢) «فتح الباري» (١٣: ٥٠) كتاب الفتن.

(٣) يستغرب البعض أن يعبَّرَ عَن الصِّراعِ بأنه استخدامُ القوى العالمية لحرب المدارس التقليدية، والمقصود هنا بالاستخدام إطلاق اليد وتوفير المناخ السياسي والاقتصادي والعسكري أحياناً، وعدم الاعتراض على ما تضعه القوى المتعارضة ضد بعضها البعض مادام الصراع يحقق شقة الخلاف بين المسلمين ويسهم في استثمار الكافر لأبعاد الصراع.

ونشأت الكراهية لدى العرب الأتراك وكذلك العكس ومُورِسَت الصِّرَاعَاتُ الطَّبَقِيَّةُ والاجتماعية في هذه المرحلةِ بِتَسْيِيسٍ وَاسِعٍ من حكَّامِ دَارِ الخِلَافَةِ المُتَلَبِّسِينَ بِالإسلام.

فَقَالَ طَـهَ: هَاهُنَا مِنْ نَجْدِنَا   يَطْلُعُ حَقّاً قَرْنُ شَيْطَانِ الأَنَا

زَلَازِلٌ وَفِتَنٌ طُولَ الزَّمَنْ   وَتِسْعَةُ الأَعْشَارِ كُفْرٌ وَإِحَنْ

تشير الأبيات إلى جملةٍ من الأحاديث التي تناولت أحاديث المشرق حيث يطلع قرن الشيطان، ومنها قوله: «**اللَّهمَّ بارك لنا في شَامِنا وبارك لنا في يمننا**»، قالوا: وفي نجدنا... وفي الثالثة أو الرابعة قال: «**بها الزلازل والفتن، ومنها يطلع قرن الشيطان**»[1]. قال الخطابي: القرنُ الأمَّةُ من الناس يَحْدُثُون بعد فَنَاءِ آخَرِين، وَكَانَ أهلُ المشرق يومئذ أهلَ كفر، فأخبر ﷺ أنَّ الفتنة تكون من تلك الناحية، وأصل النَّجْدِ: ما ارتفع من الأرض، وهو خلاف الغَوْرِ، فإنه ما انخفض منها، وتهامة كلها من الغور، ومكة من تهامة. ص٥١ «فتح الباري».

قلت والله أعلم: قوله ﷺ: «**نَجْدِنَا**»، قال: «**بِهَا الزَّلَازِلُ وَالفِتَنُ، وَمِنهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ**»، فيه ملحظٌ هامٌّ لمرحلةٍ من مراحلِ الدُّهَيْماءِ «**الَّتِيْ لا تَدَعُ أَحَداً إلا لَطَمَتْهُ**».

فَنَجْدُ العراق على ما ذكره الخطابي أحد المعاني بلا شكّ، وكذلك ما ذكره بعضهم من أن نجداً موضعٌ مخصوصٌ تَوَهمٌ؛ بل إنَّ كُلَّ شيء ارتفع بالنسبة إلى ما يليه يسمى نجداً والمنخفض غوراً.. ولا بأس في الاستدلال عند الحاجة بهذه المعاني إذ هي قياسية لزمانها.

ومعنى قول الناظم: «**قرن شيطان الأنا**» إشارةٌ إلى المدرسة الأَنَوِيَّةِ التي وَضَع الشيطان مَبْدَأَها عند قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، وهي المدرسة المُعادلة للمدرسة الأبوية التي رسمها آدم عليه السلام بأمر مولاه ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾.

والمدرسةُ الأَنَوِيَّةُ الإِبْلِيْسِيَّةُ من مبادئها: البتر والإقصاء واجتثاث الآخرين، وقد برزت هذه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه وأحمد في مسنده والنسائي في سننه عن ابن عمر.

المعاني جليةً في وسائل الدعوة الممتدة من هذه المنطقة وخاصة في مرحلة امتدادها ، كما أن من وسائلها: القسم بالله كذباً وبهتاناً كما أقسم إبليس لآدم وحواء بالنصيحة الكاذبة ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾، وقد كان هذا أحد أساليب المدارس الأنوية كلها في مرحلة الدُّهيماء التي عبَّر عنها ﷺ، ويبدو أنَّ فتنة الدهيماء قد جمعت ثلاث مراحل خطيرة في أرجاء العالم العربـي والإسلامي:

١) **مرحلة الاستعمار**، وبدأت بعد انتهاء مرحلة السَّراء، ونجاح الحرب العالمية الأولى والثانية في تفكيك حدود العالم العربـي والإسلامي، ومن مظاهرها:

١- بروز المدرسة الشيوعيَّة الأَنَوِيَّةِ بالثورة البَلْشَفِية.

٢- إقامة الكيان الصهيوني الأنوي.

٣- بروز الأمم المتحدة كغطاء عالَمي أَنَوِي.

٤- تقسيم العالمين العربـي والإسلامي إلى دويلاتٍ قوميةٍ وحدودٍ متنازع عليها.

٥- دعم البرنامج القبلي في جزيرة العرب لنقض عرى المدارس التقليدية (المذهبـية وآل البـيت والصوفية) ذات العلاقة بالقرار الإسلامي على عهد الخلافة.

٢) **مرحلة الاستهتار، ومن مظاهرها:**

١- شَطْرُ العَالَم العربـي والإسلامي إلى: رأس مالي - شيوعي الحَادِي.

٢- الدفع بالانقلابات والثورات الشعبـية.

٣- تشكيل الأحزاب السياسية.

٤- دعم الاقتصاد الربوي العالمي وفتح مصارفه في العالم.

٥- إشعال الصِّراع الطَّبقي والاعتقادي في بعض البلاد العربـية والإسلامية.

٣) **مرحلة الاستثمار، ومن مظاهرها:**

١- إعادة تشكيل النظام العالمي المُوَحَّدِ وإسقاط النظام الشيوعي العالمي.

٢- إحلالُ الصِّراعِ الاعتقاديِّ المسيَّسِ بديلاً عن العِدَاءِ الطَّبَقيِّ الشُّيوعي تحت مسمى «الصحوة».

٣- توحيد القوى الاقتصادية العالمية تحت سياسة العولمة.

٤- اجتثاث القوى الحركية المسيَّسَةِ - إسلاميةً أو غيرَ إسلامية - وَتَطْبيعُ العَالمينِ العربي والإسلامي بمرحلةِ العَوْلَمَةِ ذَاتِ القُطبِ الوَاحِدِ[1].

---

(١) ربما لا تروق هذه التحليلات المطروحة هنا لبعض الباحثين والعلماء المهتمين بعلامات الساعة وتناول الملاحم والفتن، وخاصة أن هذه التحليلات لا تملك الدليل القطعي في مطابقتها لشرح الواقع المتحدث عنه، والحقيقة التي وددت طرحها هنا أنني أقدمت على هذا التحليل ولم أعتبره جزماً قاطعاً، ولكنِّي اعتبرت الاستنتاجات المشار إليها إحدى الاحتمالات القريبة من مطابقة الواقع، فإن صح ذلك ففضلٌ من الله، وإن لم يصح فالحق ما عبَّر عنه من لا ينطق عن الهوى ﷺ.

الفِتْنةُ الرَّابِعة: العَمْيَاء البَكْمَاء الصَّمَاء

قال الناظم:

وَفِتْنَـةٌ رَابِعَـةٌ مُدَمِّـرَةْ يَسُـوْسُ أَمْـرَ الْمُسْـلِمِيْنَ الكَفَرَةْ
وَتَخْبِـطُ الجَزِيْـرَةَ الكَبِيْـرَةْ بِيَدِهَـا وَرِجْلِهَـا مُثِيْـرَةْ
رِيَـاحُ شَـرٍّ وَفُتُـوْنٍ وإِحَـنْ عَلَـى الحُطَـامِ وَالزِّمَـامِ وَالمِهَنْ
حَتَّـى يُهَـانَ الدِّيـنُ فـي قَـرَارِهِ وَيختَفِـي الصَّـادِقُ جَـوْفَ دارِهِ
يَسِـيرُ كُلُّ النَّـاسِ نَحْـوَ الجُحْـرِ مِـنْ رَافِـضٍ وَخَـادِمٍ لِلكُفْـرِ
كِلَاهُمَـا فِـي سَيْرِهِ قَـدِ الْتَـزَمْ لِسُـلْطَةِ الكُفَّـارِ مِـنْ غَيْـرِ نَـدَمْ
وَأَكْثَـرُ الخِدْمَـةِ لِلنِّسَـاءِ وَأَحْمَـقٍ مُـرَاوِغٍ مُرَائِـيْ
يَـا رَبِّ وَاحْفَظْنَـا وَكُنْ عَوْنَـاً لَنَا وَثَبِّـتِ الإِيْمَـانَ فِيْنَـا وَاهْدِنَـا

يشير الناظم إلى ما سماها النَّبيُّ ﷺ «**بالفتنة الرابعة**»: العمياء الصماء البكماء، وهذه الأوصاف وردت في أحاديث متفرقة أوردها أصحاب السنن وعلماء التأليف في الفتن، وقد حاولنا الجمع بينها للخروج بهذه الفائدة.

وهذه الأحاديث بمجموعها تبرز خطر هذه المرحلة التي تحددت من خلال استقراء الحوادث بالتحولات العالمية التي شهدتها الأمة تمهيداً لسياسة العولمة في العالم، وما ترتبت عليها من إجراءات ومواقف محلية وعالمية على مستويات كثيرة، كان المحرك والقابض على زمامها (الكافر) بلا منازع، وقد برزت مدلولاتها التي أشار النبي ﷺ بحصولها خطوة خطوة،

لا يعلم أحداً مداها ولا مدتها إلَّا الذي يعلم السر وأخفى، وقد بينت الأبيات بعض هذه الظواهر، وما خفي كان أعظم، ونسأل الله الحفظ والعَون.

ويبدو أن هذه المرحلة قد بدأت حسب الاستقراء للحوادث بالألفية الثانية (مرحلة العولمة) حيث ترتب على حدوثها مواقف جديدة إذا نظرنا إليها دون انفعالات وتأملنا ما ترتب عليها من مواقف داخل الأمَّة وخارجها، وخاصة أن من مظاهرها قوله ﷺ: «**يَؤولُ أَمْرُ الأُمَّةِ فيها إلى الكَافر**».

وأما أحاديث الفتنة الرابعة فهي:

١- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: -وذكر الفتنة الرابعة-: «**ولا يَنْجُو من شَرِّها إلا من دَعَا كدعاء الغَرق، أسعد أهلها كل تَقِي خَفِي، إذا ظَهَر لم يُعرفْ، وإن جلس لم يُفتقد، وأَشْقَى أهلها كُل خَطيبٍ مُصقع أو راكب مُوضع**»(١).

٢- عن أرطأة بن المنذر قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال في الفتنة الرابعة: «**تصيرون فيها إلى الكُفر، فالمؤمن يومئذٍ من يجلس في بيته، والكافر من سَلَّ سيفه وأهرق دم أخيه ودم جاره**»(٢).اهـ.

٣- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**الفتنة الرابعة عَمياء مُظلمة تَمور مَور البحر، لا يبقى بيت من العرب والعجم إلا ملأته ذلاً وخوفاً، تطيف بالشام وتغشى العراق وتخبط الجزيرة بيدها ورجلها، تَعْرك الأمة فيها عَرْك الأديم، ويشتد فيها البَلاء، حتى ينكر فيها المعروف ويعرف المنكر، لا يستطيع أحد أن يقول: مَهْ.. مَهْ.. ولا يرقعونها من ناحية إلا تفتقت من ناحية، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ولا ينجو منها إلا من دعا**

(١) «الفتن» لنعيم بن حماد (١: ٨٢).

(٢) «الفتن» لنعيم بن حماد (٢: ١٤٨).

كدعاء الغرق في البحر، تدوم اثني عشر عاماً، تنجلي حين تنجلي وقد انحسر الفرات عن جبل من ذهب، فيقتتلون عليها حتى تقتل من كل تسعة سبعة»[1]. اهـ

٤- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الفتنة الرابعة ثمانية عشر عاماً ثم تنجلي حين تنجلي وقد انحسر الفرات عن جبل من ذهب، تكبُّ عليه الأمة فيقتتل عليه من كل تسعة سبعة**»[2].

وهذه الأحاديث وغيرها على اختلاف صحتها وضعفها توجه العقل المسلم إلى خطورة ما يدور في المرحلة، شأنها شأن الأحاديث السالفة التي تناولت المراحل السابقة كالدهيماء وقبلها الأحلاس، ولأننا نحن الآن نعيش المرحلة الرابعة فالإفصاح المطلق عنها يدخل تحت ما عبر عنه أبوهريرة رضي الله عنه: لو بَثَثْتُهُ لَقُطِعَ مني هذا الحلقومُ. وفي هذا إشارة واضحة إلى السكوت والسكون، مع أن المتتبع بروية وحسن نظر لما تكلم عنه من لا ينطق عن الهوى يجد الصورة الجلية عن المرحلة وسيرها الإجباري نحو جحر الضب، ولأجل هذا وذلك لابد من التلميح دون التصريح، وفي التلميح غنية للمحفوظ بحفظ الله، وتتلخص خطورة المرحلة في أمور:

١- أنها ثمرة حتمية من انحدارات المرحلة السابقة.

٢- أن شعوب الأمة وموقع قرارها لا يملك فيه أحد من الأمر شيئا، يؤول أمر الأمة إلى الكافر.

٣- أن يعمل الجميع بوعي وبغير وعي على تنفيذ البرامج العالمية وتحت سمع وبصر العلماء والمتسبين والغيورين على الدين ولا يحركون ساكنا، لأنهم يشغلون الناس

---

(١) «الفتن» (١: ٢٣٠).

(٢) «الفتن» (١: ٣٣٦).

ويشغلون أنفسهم بما لا حاجة لهم به غير صرف النظر عن الخطر الداهم والعمل المشترك على تنفيذ المشروع القادم بوعي وبغير وعي.

٤- أن يبلغ الجهل المسيس بالأمة إلى الرضى بما عليه من مظاهر الديانة الصورية والتدين القائم على التحريش والصراع المذهبي والفئوي، وتفاخر كل مجموعة بما هي عليه، دون اكتشاف خطورة الضعف والوهن الذي سقط فيه الجميع والذي أدى ويؤدي إلى الفشل الذريع في مواقف الأمة.

٥- استغلال العدو المهيمن لكافة الظروف الملائمة لإسقاط الأمة في الاتجاه الإجباري نحو جحر الضب، سواء في مستوى الحكم أو العلم أو الاقتصاد أو التربية أو الإعلام أو الأخلاق أو أي شيء آخر، ومن لم يساهم في مسيرة العولمة يجب أن يخرج عن دائرة الحركة إلى السكون بكل معانيه.

نسأل الله الحفظ والسلامة.

المَواقِف الشَرعِية عِنْدَ ظُهُورِ الفِتن والتَّحوَّلات الغُثَائيَّة

بعد بسط مظاهر الفتن والتحولات حسبما تيسر لنا في هذه العُجَالة ووصلنا إلى مرحلة الغُثاء والوَهَن باعتبارها مرحلة تجمع الكثير من العلامات والشواهد التي نراها في حياتنا المعاصرة، وسيلحقها أيضاً مرحلة الدَّجال والمنتظر وغيرها.

ولكن هنا نضع فصلاً هاماً من فصول التَّحول، وهو ما يتضمن المواقف الشرعية التي أمرنا بها ﷺ عند هذه التحولات الخطيرة، فقد ثبت في السير أن كثيراً من أصحاب رسول الله ﷺ توقفوا عن كثير من الأمور لما قرؤوا أو سمعوا أو تذكروا شيئاً من العلامات.

قال الطبري: اختلف السَّلف، فحمل ذلك بعضهم على العموم، وهم من قعد عن الدخول في القتال بين المسلمين مطلقاً كسعد وابن عمر ومحمد بن مسلمة وأبي بكرة وآخرين، وتمسكوا بالظواهر المذكورة وغيرها، ثم اختلف هؤلاء، فقالت طائفة: بلزوم البيوت، وقالت طائفة: بالتحول عن بلد الفتن أصلاً.. الخ. وقد استطرد بعض أهل العلم في هذا الباب كثيراً مما لا حاجة لنا به وليبحث عنه من يريده في موقعه.

قال الطبري: والصَّواب أن يقال: إن الفتنة أصلها الابتلاء، وإنكار المنكر واجب لمن قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها.

وقيل: إن أحاديث النهي مخصوصة بآخر الزمان حيث يحصل التحقق أن المقاتلة إنما هي في طلب الملك، وقد وقع في حديث ابن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: «**أيام**

الهَرْج»، وقلتُ: ومتى؟ قال: «**حِين لا يَأْمَنُ الرَّجلُ جَليسَهُ**»[1].

إِذَا طَغَتْ عَلَائِمُ التَّحَوُّلِ ... وَفِتْنَةُ العِلْمِ بِغَيْرِ العَمَلِ
وَاسْتَحْكَمَ الشَّيْطَانُ فِي الشُّعُوبِ ... وَكَثُرَ الرَّانُ عَلَى القُلُوبِ
فَالمُصْطَفَى يُشِيرُ فِي بَيَانِهِ ... أَلَّا يَكُونَ المَرْءُ عَبْدَ رَانِهِ
وَلْيَطَّلِعْ عَلَى البَيَانِ النَّبَوِيْ ... فَالسِّرُّ فِي العِلْمِ الشَّرِيفِ الأَبَوِيْ
وَمُقْتَضَى الحُكْمِ التَّأَنِّي الدَّائِمُ ... إِذْ فِي التَّرَوِّيْ مَخْرَجٌ مُلَائِمُ
وَلْيَقْرَأِ العَلَائِمَ المُحَدَّدَهْ ... وَلْيَتَّخِذْ مِنْ بَعْدِهَا مَا اعْتَمَدَهْ
مِنْ بَعْدِ أَنْ يَسْأَلَ أَهْلَ الدِّيْنِ ... مِنْ كُلِّ حَبْرٍ ثَابِتِ اليَقِيْنِ
فَفِتْنَةُ الدِّيْنِ بَلَاءٌ وَضَرَرْ ... وَالبُعْدُ عَنْهَا وَاجِبٌ مَعَ الحَذَرْ

يشير الناظم إلى ما يجب على المسلم الخائف الوجل على نفسه أن يفعله أمام بروز علامات التحول في العصر الذي هو فيه، وخاصة إذا برزت علامات الفتن المشار إليها، والمطلوب من المسلم «**الإطلاع على البيان النبوي**»، والمقصود به التأمل الواعي في الأصلين الكتاب والسنة إذ إن في هذين الأصلين «**سر العلم الشريف الأبوي**»، ويقصد به سر الأخذ بالتسلسل العلمي، حيث إن كثيراً ممن يتحدث بهذه العلوم لا يمتلك سر الأسانيد الأبوية، فيكون في الغالب مزلة للشيطان رغم علمه ووعيه[2].

---

(١) «فتح الباري» (١٣: ٣٤-٣٥) كتاب الفتن.

(٢) أفضنا القول عن هذا المدلول الأبوي في كتابنا «الدلائل النبوية المعبرة عن شرف المدرسة الأبوية» مطبوع، وفيه تفصيل وافٍ عن الفرق بين المدرسة الأبوية المسندة والمدرسة الأنوية الأبليسية المبعدة.

نماذج الأحاديث المعبرة عن المواقف

عن الزبـير بن عدي قال: شكونا إلى أنس ما نلقاه من الحجاج، فقال: اصبروا.. «**إنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**» سمعته من نبـيكم ﷺ [١].

قال في «فتح الباري» (١٣: ٢٣) من كتاب الفتن عند شرح هذا الحديث: وقد ذكر الزبـير في الموفقيات من طريق مجالد عن الشعبـي قال: كان عمر فمن بعده إذا أخذوا العاصي أقاموه للناس ونـزعوا عمامته، فلما كان زياد ضرب في الجنايات بالسوط أو بالسياط، ثم زاد مصعب بن الزبـير حلق اللحية، فلما كان بشر بن مروان سَمَّر كَف الجاني بمسمار، فلما قدم الحجاج قال: هذا كله لعب، فقتل بالسيف.

قال ابن بطال: هذا الخبر من أعلام النبوة لإخباره ﷺ بفساد الأحوال، وقد استُشْكِلَ الإطلاقُ مع أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها، كعهد عمر بن عبدالعزيز، وهو بعد زمن الحجاج بوقت قصير، وقد حمله الحسن البصري على الأكثر الأغلب، فسئل عن وجود عمر بن عبدالعزيز بعد الحجاج، فقال: لابد للناس من تنفيس، وأجاب بعضهم: إن المراد بالتفضيل تفضيل مجموع العصر على العصر، فإن عصر الحجاج كان فيه كثير من الصحابة أحياء، وفي عصر عمر بن عبدالعزيز انقرضوا والزمان الذي فيه الصحابة خير من الزمان الذي بعده، لقوله ﷺ: «**خير القرون قرني**»[٢].

وقوله: «**أصحابـي أَمَنَةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابـي أتى أمتي ما يوعدون**» [٣].

---

(١) رواه البخاري والترمذي.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عمران بن حصين.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن أبي موسى.

وَأَوَّلُ الأَمْـرِ اصْطِبَـارٌ لِلبَـلا وَحُسْـنُ سَـيْرٍ فِي العِـدَاءِ وَالوَلا

يشير الناظم إلى أن أول مواقف المرء عند الفتن: الصبر على ما كتبه الله مع حسن المعاملة مع الناس حاكماً أو محكوماً محباً أو مبغضاً عدوّاً أو صديقاً، إذ إن أساس المعاملة الأدب مع قضاء الله وقدره في العباد، قال الله تعالى في سورة فصلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

ثـم اجتنـابُ الحمـلِ للسِّـلاحِ مـن غَيرِ حَـربٍ واضـحِ الكِفَاحِ

فحملُـه دون الجِهـادِ مَفْسَـدَةْ إلَّا لِـذِي أَمْـنٍ أَجَـادَ مَقْصِـدَهْ

تشير الأبـيات إلى إحدى أبواب الفتن التي يجب الابتعاد عنها بادئ ذي بدء، وهي «**حمل السلاح**»، وقد خصصت الأحاديث النبوية حيزاً كبـيراً لمعالجة هذه المسألة معالجة وافية، منها قوله ﷺ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**»[١].

وحديث همام عن أبـي هريرة، قال: سمعت أبا هريرة عن النبـي ﷺ، قال: «**لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينـزع في يديه فيقع في حفرة من النار**»[٢].

والحديث عن جابر أن رجلاً مَـرَّ في المسجد بأسهم قد بدا نصولها، فأمر أن يأخذ بنصولها لا يخدش مسلماً، وحديث أبـي بردة عن أبـي موسى عن النبـي ﷺ، قال: «**إذا مرّ أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نَبْلٌ فليمسك على نِصالها، أو قال: فليقبضْ بكَفِّهِ أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء**»[٣].

وفي الأحاديث إشارة واضحة إلى خطر استعمال السلاح في غير الجهاد وتثبيت الأمن،

---

(١) رواه البخاري عن عبدالله بن عمر.

(٢) رواه أحمد والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى.

سواء كان الحمل له في عصر الرسالة أو فيما تلاها من المراحل، وفي الحديث أيضاً إشارة إلى أن في حمل السلاح رعب على الناس سواء بقتالهم أو بتخويفهم، ولهذا عبر ﷺ، بقوله: «**من حمل علينا فليس منا**»، قال في «فتح الباري»: لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ويقاتل دونه، لا أن يرعبه بحمل السلاح عليه لإرادة قتله أو قتاله[1].

وقد انتشرت في المسلمين اليوم ظاهرة حمل السلاح دون حاجة ماسة له، وترتب على ذلك مفاسد كثيرة، ومنها تهديد الأحداث بعضهم لبعض، والعبث بالأسلحة النارية بقصد التعرف والتنظيف أو التجربة مما كان به حَتْف الكثير، وقد ورد في الحديث «**الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى لآخر بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه**»[2]، وحديث «**نهى رسول الله ﷺ أن يُتعاطى السيفُ مسلولاً**»[3]، وفي رواية: «**لعن الله من فعل هذا**»[4].

وَعِنْدَمَا يَعُمُّ أَمْرُ الفِتْنَةِ ... وَارْتَبَكَ النَّاسُ لِهَوْلِ المِحْنَةِ
فَلْيَسْتَعِذْ مَنْ فِيهِ عَقْلٌ بِمَعَاذْ ... أَوْ مَلْجَأٍ يَحْمِيهِ مِنْ شَرِّ اجْتِذَاذْ

تشير الأبيات إلى ما أمر به ﷺ عند اجتياح الفتن وصعوبة الوقوف أمامها، فالواجب على المسلم العاقل أن يبحث له عن ملجأ وعياذ، تحقيقاً لقوله ﷺ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ**

---

(١) «فتح الباري» (١٣: ٢٧) كتاب الفتن.

(٢) رواه أحمد في مسنده وأبي شيبة عن أبي هريرة، المصدر السابق (١٣: ٢٨) كتاب الفتن.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٦٨٥) والترمذي، برقم (٢١٦٤) كتاب الفتن وأبو داود برقم (٢٥٨٨) كتاب الجهاد وقال الترمذي: حسن غريب.

(٤) رواه أحمد والطبراني عن أبي بكرة، وفيه مبارك ابن فضالة وهو ثقة ولكنه مدلس، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح، وتمام الحديث: عن أبي بكرة قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يتعاطون سيفاً مسلولاً، فقال: «لعن الله من فعل هذا -أو: ليس قد نهيت عن هذا- ثم قال: إذا سَلَّ أحدكم سيفه فنظر إليه فأراد أن يناوله أخاه فليغمده ثم يناوله إياه». اهـ المصدر السابق.

مِنْ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ المَاشِي وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»[1].

قال في «الفتح» (١٣ : ٣٤): ووقع تفسيره عند مسلم في حديث أبـي بكرة، ولفظه: «**فإذا نـزلت فمن كان له إبل فليلحق بإبله..**» وذكر الغنم والأرض، قال رجل: يا رسول الله: أرأيتَ إن لم يكن له ؟ قال: «**يَعْمِدُ إلى سيفِه فيدق على حدِّه بحجر ثم لينجُ إن استطاع**» اهـ.

قال في «الإشاعة» تعليقاً على هذا الحديث: والمراد بالفتنة ما ينشأ عن الاختلاف في طلب الملك حيث لا يُعلم المحقُّ من المبطل.

ويؤيد معنى الاعتزال عن الخلق في الفتنة حديث حذيفة الذي رواه البخاري: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال: «**نعم وفيه دَخَنٌ**»، قلت: وما دخنه ؟ قال: «**قومٌ يَهْدُونَ بغير هَدْيِي تَعْرِفُ منهم وتُنْكِرُ**»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم، دعاةٌ على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا رسول الله صِفْهُمْ لنا، قال: «**هم من جَلْدَتِنا، ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت: فإذا لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتـزل تلك الفِرَقَ كلَّها ولو أن تعَض بأصلِ شجرةٍ حتى يُدركك الموتُ وأنت على ذلك**».

قال في «الإشاعة» في شرح الحديث عند قوله: «**وفيه دَخَن**»: الدخنُ: فساد القلب. ويشير المعنى إلى أن الخير الذي يجيء بعد الشر لا يكون خيراً خالصاً بل فيه كَدَر. وقوله: «**يهدون بهديي**» قال: وفي

(١) رواه البخاري وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، المصدر السابق (١٣ : ٣٣) كتاب الفتن.

رواية: «**يكون بعدي أئمة يهتدون بهُداي ولا يستنون بسنّتِي**»[1]. اهـ.

قلتُ: وفي هذه العبارة معنى عظيم لما يرد من الدخن على الأئمة، فالهدي النبوي فيهم وهو اتّباع الكتاب والسنة وخدمة ثمراتهما بحثاً وتصنيفاً ودراسة وتعليماً؛ ولكن السنة غير قائمة، والمقصود بالسنة -حسب ما أعتقد والله أعلم- أنها سنة المواقف، وهي مواقفه ﷺ وإنصافه من نفسه وعدم انتصافه من أضداده، وهي «**سنّة الأخلاق**».

وقوله: «**تَعْرِفُ منهم وتُنْكِر**» قال في حديث أم سلمة عند مسلم: «**فمن أنكر بَرِئَ ومن كَرِهَ سَلِمَ**»[2].

قوله: «**من جلدتنا**» إشارة إلى أنهم من العرب، وقوله: «**ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت: لم يفصح صاحب «الإشاعة» فيه بأمر، وأعتقد أن معنى قوله: «**يتكلمون بألسنتنا**» أي: يعبرون ويتحدثون عما نحن نريده ظاهراً، أي: يتكلمون بلسان رسول الله والشريعة وتنطق بذلك ألستنهم وأجهزة إعلامهم وفي الباطن هم مخالفون.

وَلَا يُشَـارِكْ أَحَـدَاً فِـي فِتْنَتِـهْ　　　أَوْ أَنْ يَكُـوْنَ فِـي حِمَـا بِطَانَتِـهْ

إشارة إلى قوله ﷺ: «**مَن كَثَّرَ سوادَ قومٍ فهو منهم، ومن رَضِيَ عمل قوم كان شريكَ مَن عَمِلَ به**»[3].

وَإِنْ بُلِيْـتَ فَعَلَيْـكَ بِالخَـوَاصْ　　　وَاتْرُكْ عَوَامَ النَّاسِ إِنْ شِـئْتَ الخَلَاصْ

يشير الناظم إلى ما يصيب الأمة في عصر الغُثاء والوَهَن من الضياع والشتات وسوء الاستتباع للأعداء، وكيف يكون موقف المؤمن الوجل؟! وإلى ذلك تشير الأحاديث

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان.

(٢) رواه مسلم وأحمد والترمذي من حديث أم سلمة، المصدر السابق (١٣: ٣٩).

(٣) رواه أبو يعلى عن ابن مسعود، المصدر السابق (١٣: ٤١).

من مثل ما رواه أبو هريرة في قوله: قال رسول الله ﷺ: «**كيف بكَ يا عبدالله بن عمرو إذا بقيتَ في حُثالةٍ من الناس وقد مرجت عهودُهم وأماناتهم واختلفوا فصاروا هكذا ؟**» وشَبَّك بين أصابعه، قال: فما تأمرني ؟ قال: «**عليك بخاصتك ودَعْ عنك عوامّهم**»، وفي رواية سهل ابن سعد قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس فيه عمرو بن العاص وأبناؤه، قال: وذكر الحديث وزاد: «**وإياكم والتلون في دين الله**»[1].

وفي معاني هذه الأحاديث إشارة واضحة إلى ضرورة الاعتزال عن مواقع الظهور والاختلاط بالعوام، ومظاهر الناس العامة وخاصة عند شمول الافتتان، ويقتصر المرء على الخواص، وهم الذين يطمئن إليهم المرء ويعلم استفادتهم منه وصدقهم معه، وخاصة في شأن الدين والعمل به.

وَلْيَعْتَزِلْ فِـي البَدْوِ أَوْ بَعْضِ القُرَى　　　كَمَـا أَتَى فِي النَّصِّ عَنْ خَيْرِ الوَرَى

يشير الناظم إلى ما يجب على المسلم فعله عند اشتباك الفتن، حيث ورد في الصحيح جملة من الأحاديث منها قوله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ مَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ**»[2].

والمعلوم أنّ الإسلام يحث على بقاء المسلم في حواضر الإسلام، واعتبر التعرب بعد الهجرة أي العودة إلى البداوة بعد السكنى في المدينة أو مكة من الكبائر على عهد صدر الإسلام، لحديث: «**من رجع بعد هجرته أعرابيـاً**»، وأخرج النسائي في حديث ابن مسعود «**لعن الله آكل الربا وموكله**» وفيه: «**والمرتد بعد هجرته أعرابيـاً**»، قال ابن الأثير في «النهاية»: كان من رجع بعد هجرته إلى موضعه من غير عذر يعدّونه كالمرتد.

---

(١) رواه الطبراني عن سهل بن سعد، المصدر السابق (١٣: ٤٣).

(٢) رواه البخاري وأحمد عن أبي سعيد الخدري ، المصدر السابق (١٣: ٤٤) كتاب الفتن.

وقد أخرج الطبراني من حديث جابر بن سمرة رفعه «**لعن الله من بدا بعد هجرته**» إلّا في الفتنة فإن البدو خير من المقام في الفتنة[1].

وقد أذن النبـي ﷺ لبعض الصحابة في البدو، ومنهم سلمة بن الأكوع، فقد ورد في البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه دخل على الحجاج فقال: يا ابن الأكوع.. ارتددتَ على عقبيك.. تعرّبت؟ قال: لا؛ ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو.

وفي رواية: قدم سلمة المدينة فلقيه بريدة بن الخصيب، فقال: ارتددتَ عن هجرتك؟! فقال: معاذ الله.. إن فيّ إذناً من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «**ابدوا يا أسلم**» القبيلة المشهورة التي منها سلمة وأبو برزة وبريدة المذكور، قالوا: إنا نخاف أن يقدح ذلك في هجرتنا، قال: «**أنتم مهاجرون حيث شئتم**»[2].

قال في «الفتح» عند قوله: «**يفر بدينه من الفتن**»: فمن يتحتم عليه المخالطة ممن كانت له قدرة على إزالة المنكر فيجب عليه، إما عيناً وإما كفاية بحسب الحال والإمكان، وممن يترجح من يغلب على ظنه أنه يسلم في نفسه إذا قام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وممن يستوي من يأمن على نفسه ولكنه يتحقق أنه لا يطاع، وهذا حيث لا تكون هناك فتنة عامة فإن وقعت الفتنة ترجحت العزلة لما ينشأ فيها غالباً من الوقوع في المحذور، وقد تقع العقوبة بأصحاب الفتنة، فمنهم من ليس من أهلها، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[3]. اهـ.

ويؤيد ذلك أيضاً ما رواه أبو داود والنسائي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله

---

(١) المصدر السابق (١٣ : ٤٥).

(٢) رواه أحمد عن سلمة، المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (١٣ : ٤٧).

عنهما، قال: قال النبـي ﷺ: «**كيف بِكَ إذا بقيت في حُثالة من الناس مَرْجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا وكانوا هكذا ؟**» وشَبَّكَ بـين أصابعه، قال: **فَبِمَ تأمرني؟** قال: «**الزم بـيتك وأهلك، وأَمْلُك عليك لسانك، وخُذْ ما تعرف ودَعْ ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودَعْ عنك أمر العَامّة**» [(١)].

وعن أبـي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ نحوه، وفي آخره: قالوا: بم تأمرنا ؟ قال: «**كونوا أحلاس بـيوتكم**» رواه الترمذي وابن ماجه.

وعن أبـي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال له رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر كيف أنت إذا كنتَ في حثالةٍ؟**» وشبك بـين أصابعه، قال: ما تأمرني يا رسول الله ؟ قال: «**اصبر.. اصبر.. اصبر.. خالقوا الناس بأخلاقهم وخالفوهم في أعمالهم**» [(٢)].

وفي هذا الحديث إشارة إلى مصانعة الواقع والصبر على أهله ما استطاع إلى ذلك سبـيلاً من غير تجاوز ولا افتئات أو مذلة أو إهانة أو نقص في الدين، وعن أبـي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقربوا الفتنة إذا حميت، ولا تَعَرَّضُوا لها إذا عَرَضَتْ، واضربوا أهلها إذا أقبلتْ**» [(٣)]، وفي هذا الحديث أيضاً إشارة إلى نموذج من نماذج التعامل مع التحولات، بحيث يستطيع العاقل المؤمن أن يتجنب الانخراط المباشر في رياح التغيير المدمرةِ حقائقَ الدين، وإذا ما اضطر إلى المواجهة عند إقبالها عليه فلا مخرج من حسن التصرف مع أهلها.. إما بالتجاوز أو الاشتباك، وللضرورة أحكام كما يقال.. وقد فسر حديث خالد بن عرفطة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبـي ﷺ، قال له: «**يا خالد إنها ستكون بعدي أحداث وفتن وفرقة واختلاف، فإذا كان ذلك فإن**

(١) سبق تخريجه، «الإشاعة» ص١٨٤.

(٢) رواه الحاكم والبـيهقي في الزهد، المصدر السابق ص١٨٥.

(٣) المصدر السابق ص١٨٥.

استطعت أن تكون عبد الله المقتول لا القاتل فافعل»[1].

وَخَيْـرُ حَـالٍ لِلفَتَـى إِحْسَـانُ ظَـنْ   فِيْمَـا اسْـتَطَاعَ مَـعَ إِحْيَـاءِ السُّـنَنْ

يشير الناظم إلى أن «**إحسان الظن**» بالناس فيما هو لازم فيه حُسن الظن ما استطاع الإنسان، «وإحياءه للسنن» أعمالاً صالحةً ومواقفَ أخلاقٍ مع البر والفاجر، وتجنبه للفتن ومضلاتها كل ذلك أمرٌ يفي بالنَّجاة في الحياتين، تحقيقاً لقوله ﷺ لأنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**يا بنيّ إن قَدَرْتَ على أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غشٌّ لأحد فافعل**»، ثم قال: «**يا بني وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة**»[2].

وفي سياق معنى الحديث إشارة لطيفة إلى حسن المعاملة وكمال الإعراض عن صراع الحياة الدنيا، إذ هي سبب كل فتنة وغش وكدورة.

وإحياء السنن بهذا المفهوم العالي يربط حقاً بين السنة والمواقف فيجعلها شيئاً واحداً فتصبح حقاً «سنة المواقف» هذه السنة التي لا تكون إلا من محبّ صادق لرسول الله ﷺ يليق به هذا المصير العظيم في الجنة مع رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه أحمد وابن أبـي شيبة ونعيم بن حماد والطبراني وغيرهم ، المصدر السابق ص١٨٦ .

(٢) رواه الترمذي ، المصدر السابق ص١٨٧ .

مَوْقِعُ الشّامِ واليَمَنِ مِن فِقْهِ التُّحَوُّلات

تناول بعض العلماء والباحين مسألة الأحاديث النبوية التي تناولت بعض المواقع الجغرافية في الكرة الأرضية ودورها في الفتن والملاحم سلبا وإيجابا، ومن هذه المواقع حاضرتا الشام واليمن، ويبدو من خلال الاستقراء والمتابعة للنصوص المتنوعة أن العلاقة بين الشام واليمن ترجع إلى ما يطرأ وما قد يطرأ من تحولات كونية ذات علاقة مباشرة باليقينيات الكبرى من العلامات والأشراط، فالشام كما ورد في الأحاديث: أرض المحشر والمنشر، واليمن أرض المدد والإسناد للإسلام في الماضي والمستقبل.

وقد أشارت كتب السير والتاريخ إلى وجود الجزيرة التي نشأ فيها الدجال وربى وتعلم على يد الجساسة (في البحر اليمن)، وأشار الحديث إلى معنى من ذلك عندما وصف تميم الداري خبر الدجال الموثق في الجزيرة فقال صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن طعن بمخصرته: «**ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل قبل المشرق ما هو**» وأوحى بيده إلى المشرق.اهـ.[١].

وتكمل حلقة الارتباط بين الشام واليمن والمشرق في أخريات الزمان من جهتين:

الأولى: ما ورد من أحاديث النار وظهورها في نواح من اليمن أو المشرق.

الثاني: ما ورد من أحاديث الحشر والاجتماع في أرض الشام.

والأمران يعبران عن هدف واحد، وهو ما عبر عنه الباحث محمد عصام الحسني في كتابه «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» بقوله: وليس المراد بالنار الحاشرة نار الآخرة ولا بالحشر النشر الذي بعد الموت إلى الحساب، وإنما هي نار تخرج في الدنيا قبل يوم القيامة أنذر النبي بخروجها

---

(١) مسند أحمد و «كنز العمال» .

وذكر كيفية ما تفعل، وإضافة الحشر إلى النار لكونها بتفجرها وتحريكها لهذه المحركات سواء كانت بترولية أو كهربائية أو غازية أو ذرية أو حجرية أو غيرها[1].

وقد تحددت النار في الخروج من المناطق التالية في اليمن:

١- حضرموت، «**ستخرج نار قبل يوم القيامة من بحر حضرموت تحشر الناس**» قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : «**عليكم بالشام**» وروي هذا الحديث بألفاظ مختلفة.

٢- اليمن بالعموم ، «**توشك نار تخرج من اليمن تسوق الناس إلى الشام ، تغدو معهم إذا غدوا وتقيل معهم إذا قالوا وتروح معهم إذا راحوا، فإذا سمعتُم بها فاخرجوا إلى الشام**» [2].

٣- المشرق، «**تخرج نار من المشرق وأخرى من المغرب يحشران الناس - بين أيديهم القردة - يسيران بالنهار ويكمنان بالليل حتى يجتمعا في جسر منبج**[3]» قال الشارح: الضمير في «يجتمعا» يعود على المحشورين بالنار وإخوانهم القردة الذين سبقوهم إلى أرض المحشر .اهـ. وقد كان اكتشاف النفط في القوقاز وهي من المشرق ثم في الولايات المتحدة وهي من المغرب، وقد دلت الأحاديث على نارين، وعسى أن ينكشف بفضل الله تعالى ومنحته أن النار هي هاتان الناران (النفط والكهرباء) ومشتقاتهما..

---

(١) «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» ص١٣٤.

(٢) المصدر السابق ص١٣٦.

(٣) قال ابن أبي جرادة في «بغية الطلب في تاريخ حلب»: قلت: وجسر منبج الآن تحت قلعة نجم و هي قلعة صغيرة على الفرات والجسر في ذيلها، و هي قلعة حسنة المنظر محمودة المخبر كان لها ربض صغير ومسجد لطيف فأقطعها الملك الظاهر بدر الدين ايدمر عتيقه عند موته و أخذ ولاية قلعة حلب منه .اهـ (١: ١١١)، وذكر في موضع آخر أن بين الجسر وبين حلب مسيرة يومين.

والله أعلم[1]. وأخرج أبونعيم في الحلية عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**لتقصدنكم نار هي اليوم خامدة في واد يقال لها (برهوت) تغشى الناس فيها عذاب أليم، تأكل الأنفس والأموال، تدور الدنيا كلها ثمانية أيام تطير كطير الريح والسحاب، حرها بالليل أشد من حرها بالنهار، ولها بين السماء والأرض دَوِيٌّ كدويِّ الرعد القاصف، هي من رؤوس الخلائق بالنهار أدنى من العرش**» ، قلت: يا رسول الله أسليمةٌ يومئذ على المؤمنين والمؤمنات؟ قال: «**وأين المؤمنون والمؤمنات يومئذٍ شرّ من الحُمُر يتسافدون كما تتسافد البهائم وليس فيهم رجل يقول: مَهْ.. مَهْ..**» أي: اُكْفُفْ..اُكْفُفْ.. قال الشارح: وهذه كناية عن الطائرات التي تكلف الأموال الباهظة .اهـ. ويبدو من سياق الحديث أن هذا سيكون في مستقبل الزمان ويظهر من بئر برهوت نوع من وقود الطائرات أو المركبات الجوية. وفي نص الحديث نوع من الإعجاز النبوي في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حرها بالليل أشد من حرها بالنهار**» قال الشارح: سألت العديد من الطيارين عن ذلك فلم يكن لهم علم حتى قدر لي الاجتماع بأحد المهرة منهم فسألته فاستمهلني الجواب ثم أرسل الجواب نقلا عن كتاب «طيران المدى والمدة» المترجم عن الروسية وهذا نصه:

١- تزداد كثافة الهواء كلما نقصت درجة الحرارة.

٢- بتناقص درجة الحرارة يقل استهلاك الوقود.

٣- إذا كانت درجة الحرارة على الارتفاع المطلوب تنقص بمقدار خمس درجات مئوية، ويقل استهلاك الوقود بنسبة ١٪ واحد بالمئة.

٤- إذا كانت درجة الحرارة نهارا على الأرض ٣٠ درجة فتتكون الحرارة نهارا

(١) المصدر السابق ص٤١.

على ارتفاع خمسة كيلومتر (-٥ , ٢) درجتين ونصف سالب، على اعتبار أن ارتفاع كل كيلومتر واحد تقل درجته بـ(٥ , ٦) ستة درجات ونصف عن الأرض.

٥- تكون الحرارة ليلا على ارتفاع خمسة كيلومترات أنقص بـ (٥ , ١٢) اثني عشرة ونصف درجة منها على الأرض.

بـين يَدَي الدَّجّال (الدَّجْل.. الدَّجَاجلَة.. الدَّجَّال..)

عن ابن ماجه قال: سمعت الطنافسي يقول: سمعت المُحاربـي يقول: «**يَنْبَغِي أَنْ يُدْفَعَ هَذَا الحَدِيثُ- يعني حديث الدَّجال- إِلى المُؤَدِّبِ حَتَّى يُعَلِّمَهُ الصِّبْيَانَ فِي الْكُتَّابِ**».

«الإشاعة» ص٢٨٦

عن عبدالله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ، قال: «**إن الدَّجال قَدْ أَكلَ ومَشْى في الأَسْواق**»،

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « **ألا أن الدَّجال قد أَكَل الطَّعام ومَشَى في الأَسْواق**».

أخرجه الطبراني في «المعجم»

«لأنَا لفتنة بعضكم أخوفُ عندي من فتنة الدّجّال، ولن ينجوَ أحدٌ مما قبلَها إلا نَجا منها، وما صُنعتْ فتنةٌ منذ كانت الدنيا صغيرةٌ ولا كبيرةٌ إلا لفتنةِ الدَّجّال»

ذكره في «مجمع الزوائد» وقال: رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح

«إذا تَشَهَّدَ أحدُكم فليستعذْ بالله من أربعٍ يقول: اللهمّ إني أعوذ بك من عذابِ جهنّم، ومن

عذاب القبر، ومن فتنةِ المحيا والممات، ومن شرِّ فِتْنَةِ المسيخِ الدَّجّال»

رواه مسلم

«ما بُعِثَ نَبِيٌّ إلا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الكَذّابَ»

رواه البخاري عن أنس

«لا تزالُ طائفةٌ من أمّتي يقاتلون على الحقِّ ظَاهِرِين على ناوَأَهُمْ حتّى يُقاتِلَ آخِرُهُمُ الدَّجّال»

أخرجه أبوداود في سننه والحاكم في مستدركه

بَـينَ يَدَيِ الدَّجَال

قال الناظم:

بَـيْـنِ يَـدِيْ الدَّجَّـالِ أَخْطَـارٌ كُثُـرْ   فـِي الدِّيْـنِ وَالدُّنْيَـا تَأَمَّـلْ وَاعْتَبِـرْ

إشارة إلى ذات المراحل التي سبق ذكرها، وأن بـينها وبـين مرحلة ظهور الدَّجال علاقة وطيدة، وخاصة ما تسمى (بفتنة الدُّهيماء) التي «**لا تدع أحداً إلاَّ لطمته، حَتى يصير الناس فسطاطين: إيمان لا نفاق فيه ونفاق لا إيمان فيه، فانتظروا الدجال من يومه أو غده**»[(١)].

ومع أن الأحاديث تشير إلى بدء زمن الفتنة الصانعة مرحلة الدَّجال بدءاً من عصر آدم إلَّا أن المسافة تتقارب جداً، وتتضح علائمها بعد مبعث رسول الله ﷺ لتتوجه قضية الدَّجال في إطارٍ واضحٍ ومتلاحق، وحصادُ هذا التلاحق تغيرات المراحل وتقلباتها ومجريات الأحداث داخلية وخارجية وقديمة وحديثة لتصب مجملها في تهيئة العالم لبروز فتنته الساحقة الماحقة والعياذ بالله.. ولا شك أن قضاء الله كائن ولا مرد منه؛ ولكن الديانة تقف من التحولات موقف الوعي والإيضاح والبيان والإفصاح، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

وهذا هو سرّ الرسالات، وسرّ إتباع الأنبياء لاكتساب الحصانة بعد توفيق الله ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

ولم يهتم رسول الله ﷺ بشيء بعد قضية التعبد وهداية الناس إليها اهتمامه بشأن الفِتن السالبةِ سرَّ هذا التعبد، وخاصة تلك الفتن الممهدة لفتنة المسيخ الدَّجال؛ ولكن هذا الاهتمام متلازم مع العلم بعلامات الساعة وربط البشرية بركنية هذه العلامات، إذ أشار ﷺ إلى أن

---

(١) المصدر السابق ص٣٩٨.

مشكلة المشاكل في قضية الدجال هي غياب الصِيغ الشرعية في الواقع الاجتماعي من خلال انحرافات علمية وعقيدية داخل الخيمة الإسلامية ذاتها، وتتراكم هذه الانحرافات مرحلة بعد مرحلة أخرى حتى يكون العالم بـين يدي الدجال كذاتٍ ومرحلة.

ومع تطور الانحراف تتطور أساليب التمويه والعماية في القلوب والعقول وتختلط الأوراق، لتحمل الجميع نحو قبول المرحلة الدَّجالية، والدخول إليها بحماسٍ وابتهاجٍ وحيوية، وفق البرنامج الدعائي للطابور الدَّجالي المَفْتُون، وهكذا تكون الفَاجِعة.

وفي ذلك يقول صلى الله عليه وآله وسلم : «**يأتي على الناس زمانٌ يَتَمَنَّوْنَ الدّجّالَ ممّا يَلْقَوْنَ من الفِتَن**»[1].

مِنْهَـا شُـمُوْلُ الدَّجْـلِ وَالدَّجَاجِلَهْ   مَـنْ يَزْرَعُـوْنَ فِي الـوَرَى مَشَـاتِلَهْ

وفي هذا البـيت كما يقولون (بـيت القصيد) وأنها مرحلة (ما بـين يدي الدَّجال)، ومن أخطر مظاهرها «**الدَّجْل**»، وهو الصيغة العقلانية لقلب موازين الحق إلى باطل، وقبول ذلك لدى الناس، وقلب موازين الباطل لتصبح حقاً مقبولاً أيضاً لدى الناس فيتعلمون أو يتضافرون على تحقيق هذا الانقلاب الفكري في ثلاثة قوى:

- الدجل، وهي مادة الفِكر المعدّة للتطبـيع.
- الدجاجلة، حَمَلَة الفِكر المَاسِخ سِلباً وإيجاباً ما بـين تسييس الدِّين[2]، أو علمنة الدِّين[3]

---

(١) ذكره السيوطي في «الجوامع» ونقله المتقي الهندي في «كنز العمال» ، وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن حذيفة قال: «**لا يخرج الدجال حتى يكون خروجه أشهى إلى المسلمين من شرب الماء على الظمأ**» فقال رجل: ولمَ؟ قال: «**من شدة البلاء والشر**» .

(٢) معنى تسييس الدين: إرضاخ الدين ورجاله لتنفيذ سياسة دينية معينة مضادة لأخرى مثلها.

(٣) معنى علمنة الدين: إضعاف منهج التدين كليا وترجيح العقلانية المجردة ضد الغيبـيات والخوارق وقوانين الشريعة، أو استبدال الديانة والتدين بالفكر المادي المجرد القائم على نظرية لا إله والكون مادة.

أو عولمته[1].

- الدَّجال، المخلوق المستثمر لكُل أشكال الانحراف في تاريخ الشعوب والمتحالف مع الشَّيطان لإنجاح برنامج الاحتناك في الأدمية.

وغالب أحداث مرحلة ما بين يدي الدجال قد وردت ضمن ما سمي «**بفِتنة الدَّهيماء التي لا تدع أحداً إلا لَطَمتْهُ**»، وآخر مراحلها المُفضَيَة إلى إعداد العقل الإنساني عموماً والإسلامي خصوصاً للهيمنة الفاجعة هي عند كون الناس في «خِفّةٍ مِن الدِّين»، والخِفة في الدين: مَنْهَجِيّةٌ إعلاميةٌ طَويلةُ المدَى بدأت قبيل مرحلة فِتنة الأَحْلَاس التي حددت عند بعض أهل العلم بانخراط يهود الدونمة وأشباههم في جسد الدولة الإسلامية، ورسم خطوط المؤامرات العلمانية للدول الكافرة، إبّان امتداد الدولة الإسلامية العثمانية رمز الخلافة ومصدر القرار المسلم، واستمرت خلال مرحلة فِتنة السَّراء التي طَوت الحُكام المسلمين والعرب في دوامة الحربين العالميتين الأولى والثانية، حتى رَسَخَتْ ثوابت مرحلة الدُّهيماء القائمة على رسم سياسة الاستعمار والاستهتار والاستثمار. وها نحن اليوم في آخر مرحلة الاستثمار أخطر مراحل فتنة الدُّهيماء التي لا تدع أحداً إلَّا لطمته، فاللطم له معانٍ جَمَّـة، ولا يأتي اللطم لهذا العدد الهائل من البشر والمسلمين في زمن معين وأيام قلائل، ولكنَّه تتابع في لَطمِ القُلوب والعُقول والوجوه بعدةِ وسائل، والوسائل هي آلة اللطم المؤثرة والتَاركة خَلْفَها بصمات اللاطم لا حقيقته.

وفِتنة الدُّهيماء: مرحلة التحوت والأسافل من الناس الذين يتبعون كل نَاعق، سَماهم النبي ﷺ: «**هَيْشَات الأَسْواق**»، وهؤلاء هم مطايا الحركة الماسخة أجيالاً بعد أجيال، بدأ تركيبهم العلمي والنفسي والعقلي والعاطفي والإيماني والدَّجالي مع بداية الغزو الاستعماري العالمي،

---

(١) عولمة الدين: تطبيعه ليخدم المصالح العالمية لعصبة الاستثمار في العالم.

ليتحقق فيهم مرحلة بعد مرحلة مدلول الخِفة في الدِّين و الإدبار من العلم، بدءاً من رموز الحكم والعلماء حملة الأمانة ولسان الشريعة وحماة التوحيد، ونهاية بطلاب المدارس والجامعات وجَحَافل النساء ذوات العلاقة المباشرة بفتنة الدَّجال، قال ﷺ: «**يَخرجُ الدَّجال في خِفْةٍ من الدِّين وإدبارٍ من العِلم فلا يَبْقَى أحدٌ يُحَاجُّه في أكثر الأرض، ويُذهلُ النَّاسُ في ذكره، وإن أكثر ما يَتْبَعُهُ الأعرابُ والنِّساء**»(١).

إذن فنحن في حاجة إلى النظر فيما بـين يدي الدجال بدقة وموضوعية، والدقة والموضوعية تشيران حسب استقرائنا للأحداث والله أعلم إلى أنها مرحلة الاستثمار بمسمياتها المألوفة في واقعنا الإعلامي:

* «**القطب الواحد**» النظام العالمي الموحد.. بكتلته السياسية والفكرية.
* الصَحْوة بعناصرها وأنظمتها ومجموعاتها الغثائية.
* العَولمة بمظاهرها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وبإمكان الباحث الحصيف أن يتعمق في متابعة هذه النقاط المجتمعة أزمتها بـيد «**قوة عالمية واحدة**» يَقْبع خلف جدرانها المصفحة «**المسيخ الدّجال**».

وبإمكان الباحث الحصيف أيضاً أن يتعمق في متابعة ظواهر العلامات التي تكلَّم بها من لا ينطق عن الهوى ﷺ ليفصح عن حقائق التردي المتعمد في أجيال الأمة المسلمة، ومن مثل قوله محذرّاً: «**لا تزال الأمة على شريعة حسنة ما لم تظهر فيهم ثلاث:**

٢) ما لـم يقبض منهم العلم.

٣) ويكثر فيهم ولد الخنث.

---

(١) هؤلاء هم وأشباههم حملة فكرِه وأطروحاتِه قبـيل ظهوره بما في أيديهم من مقدرات الحركة ومراكز التأثير في مرحلة «فتنة الدّهيماء» الطويلة، ثم يكتسح صنائعه ورموزه نظاماً بعد نظام ومجموعة خلف أخرى.

٤) **ويظهر فيهم السقارون.**

قالوا : وما السقارون ؟ قال : «**نُشُوء** -جمع نشء- **يكونون في آخر الزمان تكون تحيتهم بـينهم إذا تلاقوا التَّلاعن**»[1].

والتعمق المشار إليه في حديثنا هذا أن نرى كيف رسم المصطفى ﷺ صفة التردي في سياسة الدجل والأمة في غاية العَماية والغَفْلة.

فقبضُ العلم من المسلمين، قد جرى بأطروحات السياسة التعليمية الغربـية والشرقية في مؤسسات البلدان المستعمرة، وكَثُر في المجتمعات العربـية والإسلامية انتشار الخَنَاء والزِّنَا وأبنائه سرّاً وعَلناً، وتكونتْ لهم الملاجئ والدور الرَّاعية لهم المُفضية إلى استغلال عُقْدتهم النفسية للانتقام من البناء الأخلاقي في الأسرة المسلمة.

وأما ظهور «**السقارون**» فدلالةٌ عظيمةٌ من دلالات النبوة، حيث إن الكثير من أهل عصرنا يسمّون السيجارة (سقارة)، والسقارة من هذا المعنى أنها من يشرب التنباك، وخَصَّ السيجار منه لكثرة من يحمله في الطرقات والمواصلات والبـيوت حتى يصبح ظاهرة من ظواهر المجتمع العربـي والإسلامي له «**تُجَّارُه**» السقارون بمواقعه وشركاته ومسمياته وأسواقه ودعاياته وجوائزه ومواهبه.

وهذه الظاهرة غَزت بلاد الإسلام والمسلمين خلال (مرحلة الدُّهيماء)، وشُوهد بالعَيان تَلاعن المدخنين عند لقائهم ورفع أصواتهم بالتَّلاعن في الملاعب والشوارع والمؤسسات، مع اختلافٍ بسيط بـين مجتمع وآخر.

لقد كان حضور المصطفى ﷺ مرحلة الاستعمار واضحاً كما هو حضوره في سابق المراحل ولاحقها ؛ ولكن وقفات مع التحليل النبوي لظاهرة انعدام العلم من أهله، وكيف يكون

---

(١) رواه أحمد والطبراني والحاكم عن معاذ بن أنس، انظر «الإشاعة» ص١٦١.

ذلك؟

يكون ذلك فيما بين يدي الدجال، فنراه حاضراً يقول: «**إن من أشراط الساعة أن يُلتمس العلم عند الأصاغر**»(١).

ويستطرد شارح الحديث فيقول: ومعناه أن الأكابر(٢) من أولاد المهاجرين والأنصار، بل ومن قريش يشتغلون بطلب الدنيا والجاه، ويبقى الأصاغر من الموالي وأخلاط الناس هم الذين يتعلمون، فيطلب منهم الفتاوى في الواقعات.

وقد أشرنا سلفاً إلى الثلاثة المحاور ذات العلاقة بالانقلاب الفكري في هذه الأمة، وهي: الدجل، والدجاجلة، والدجال..

ويبدأ العمل على ترسيخ الفتنة من عهد آدم ونوح، وما من دجل إلَّا وله دجاجلة، لقوله ﷺ: «**ما من فتنة من عهد آدم إلا وهي تصنع -أو قال: تضع- لفتنة الدجال**»(٣)، ومن ثم حذّر الأنبياء أقوامهم من فتنته العظمى، فقد ورد في صحيح البخاري: «**ما من نبي إلا وقد أنذر**

---

(١) رواه الطبراني عن أبي أمية الجمحي.

(٢) لعل بعض القراء يتأففون من إيراده لفظتي «الأكابر والأصاغر»، ويرون في هذا التعبير فارقاً طبقياً، ولكني أعيد الجميع إلى المعلم الأكرم ﷺ الذي أمرنا بوضع كل إنسان في مرتبته من المعرفة والعلم، وفيها أكابر وفيها أصاغر؛ ولكنه سوى بين الجميع في التقوى وكرامتها وبين الحقوق والواجبات والمسؤوليات، وبين أن من علامات الساعة أن يتساوى العلماء بغير العلماء، والقرآن ينفي ذلك ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٣) قال الإمام أحمد في مسنده (٥: ٣٨٩) ثنا وهب بن جرير، ثنا أبي، قال: سمعت الأعمش، عن أبي وائل عن حذيفة، قال: ذُكر الدجال عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «**لأنا لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة الدجال، ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها، وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلا لفتنة الدجال**»، قال الحافظ نور الدين الهيثمي في «المجمع» (٧: ٣٣٨): رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح.

قومه الدَّجال» [1]، وعند أبي داود والترمذي عن أبي عبيدة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «**لم يكن نبي بعد نوح إلا وقد أنذر قومه الدَّجال**»، وعند أحمد: «**لقد أنذر نوح أمَّته والنبيون من بعده**».

ومع هذا الإنذار والتحذير من فتنة المسيخ الدجال وأثرها على العقل الإنساني فقد أخبر ﷺ أن في حوادث الأزمنة وسير قضاء الله وقدره عبر التاريخ ما هو أكبر من الدجال.

عن عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال..**» [2].

والفتنة الكبرى في مسيرة الدجال حتى ظهوره هي (قلب الحقائق) «**الدَّجْل**»، والدجال مشتق من الدجل، وهو الخلط واللبس والخدع، والعين مجبولة التأثر بما ترى، وكذلك بقية الجوارح، والتمويه يؤثر على العواطف والمبادئ والمواقف إلا من ثبّت الله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾، اللَّهم ثَبّتنا بقولِكِ الثَّابت في الحَياة الدنيا والآخرة. آمين.

والدجل ناجحُ التأثير والفَعَالية بعُصْبة الدجاجلة، والدجاجلة أفراد تتبعهم الأقوام والشعوب ولهم علاماتٌ ودلائل، وتبدأ ملامحهم في خيمتنا الإسلامية بوضوح من خلال مواقفهم التي رَصَدَها رسول الله ﷺ مقرونة بالفِتن، منها:

- فِتنٌ عامة غير محددة المكان والزمان، كقوله ﷺ: «**لست أخشى عليكم الدَّجال وإنما أَخْشَى عُلماء الفتنة**»، وعن ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**» [3].

---

(١) رواه الطبراني عن معاذ بن جبل، «كنز العمال» (١٤: ٢٣٣).

(٢) رواه مسلم ، «الإشاعة» ص ٢٥٦.

(٣) أخرجه الترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الأئمة والمضلين برقم (٢٢٢٩) وقال: حسن صحيح، المصدر السابق ص١٨٤.

- ومنها: فِتنٌ خَاصة محددة الزمان والمكان كان ﷺ يصفها، بقوله: «**إني أرى مواقع الفتن بين بيوتكم كمواقع القطر**»[1]، ويفصح عن هويتها في الفتنة التي صاحبت خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيقول ﷺ فيما يرويه حذيفة: «**أول الفتن قتل عثمان، وآخرها خروج الدجال**»، زاد ابن عساكر في روايته: «**والذي نفسي بيده ما من رجل في قلبه مثقال حبة من قتل عثمان إلا تبع الدجال إن أدركه، وإن لم يدركه آمن به في قبره**»[2].

ويتحدد في هذا الخطر موقع المنافقين ودورهم في السياسة الدجالية، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عثمان إنك ستلي الخلافة من بعدي، وسيريدك المنافقون على خلعها فلا تخلعها، وصم في ذلك اليوم تفطر عندي**»[3].

ومنذ تلك اللحظة ومعالم الدجاليّة منطلقة بوضوح على أيدي الدجاجلة «دجاجلة الحُكم، ودجاجلة العِلم..».

وكلا الطرفين أوضح علاماتهم وسِماتهم من لا ينطق عن الهوى ﷺ عبر مسيرة التاريخ، ومنهم الذين ادعوا النبوة، وقد أخبر النبي ﷺ عن الكذابين من أمته، واختلفت الأحاديث في تحديد العدد، ونحن هنا نرى أن الخطورة لا تكمن في العدد وإنما في هوية الأفكار التي يحملها هؤلاء المدَّعون للنبوة، وقد أشرنا في سابق الشرح إلى نموذج من هذه الفتنة الدَّجالية وهو «مُسيلمة الكذَّاب» حيث كانت فتنته المسيلميَّة من أخطر فِتن الكذابين في الإسلام.

وَمِثْلُهُ الثَّلَاثَةُ الدَّجَاجِلَةْ ... تَحْرِيْفُهُمْ يَدْخُلُ كُلَّ عَائِلَةْ

بِالمَالِ أَوْ بِالجَاهِ أَوْ بِالحُكْمِ ... يُسَارِعُوْنَ فِي انْتِقَاضِ العِلْمِ

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أسامة بن زيد.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه ابن عدي وابن عساكر ، المصدر السابق ص٣٩.

إشارة إلى ما ورد في الحديث النبوي عن الدجالين الثلاثة الذين يظهرون في فتنة الدُّهيماء، وقد جمعهم النبـي في عبارة واحد دلالة على ظهورهم في عصر واحد، وقد ظهروا وانتشرت فتنتهم في سائر الأقطار، كما أوضح وأبرز الجانب المضيء في المسيرة الربانيَّة النبويَّة الأبويَّة فيمن سَمّاهم: (الخُلفاء) «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»[1].

وأمَّا الدَّجال كذاتٍ فقد بالغت الأحاديث الشريفة في وصفه ووصف مرحلته وفتنته وعلاماته، وكان ﷺ مُهْتماً كل الاهتمام بكشف زَيفه وكَذبه وخطورة مسيرته في الخيمة الإسلامية، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفسِه**»[2].

(١) راجع هذا المدلول في أول المنظومة.

(٢) شرح مسلم (١٣ : ٦٥) كتاب الفتن ، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» عن عبدالرحمن نفير عن أبيه عن جده ، وقال: حديث صحيح الإسناد.

الدَّجّالُ صَاحِبُ الجَزِيرَة

وَفِـيْ الحَدِيْـثِ أَنَّ طَـهَ أَنْـذَرَا   خَفْضَـاً وَرَفْعَـاً فِيْـهِ حَتَّـى أَكْثَـرَا
قَالُـوْا ظَنَنَّـا أَنَّـهُ فِـي النَّخْـلِ   فَقَـالَ: إِنْ يّخْـرُجْ فَـذَاكَ شُـغْلِي
وَإِنْ أَتَـى فِـي لاَحِـقِ الزَّمَـانِ   فَـكُلُّ فَـرْدٍ لَيْـسَ فِـي أَمَـانِ
كُلُّ حَجِيْـجُ نَفْسِـهِ وَأَهْلِـهِ   وَالأَمْـرُ أَدْنَـى مِـنْ شِـرَاكِ نَعْلِـهِ

(١)يشير الناظم إلى ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم من تحريك مستوى القلق منه ﷺ في أصحابه كما ذكره النَّواس بن سَمعان في قوله: ذكر رسول الله ﷺ الدَّجال ذات غَداة، فخفَّض فيه ورفَّع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟»، قلنا:

---

(١) وقوله ﷺ: «**كُلُّ امْرِئٍ حجيجُ نفسه**» إشارة إلى ما يكون عند ظهور الدَّجال من تحولات الناس واستتباعهم للمصالح رجاء ما في يده، وفي ذلك روى نعيم بن حماد في الفتن عن عبيد بن عمر: «**ليصحبنَّ الدَّجال أقوام يقولون: (إنا لنصحبه وإنا لنعلم أنه لكافر، ولكنا نصحبه نأكل من طعامه ونرعى من الشجر)، فإذا نـزل غضب الله نـزل عليهم كلهم**» ، والأمر المطلوب شرعاً أمام الدجال عند ظهوره الوقوف بصلابة على نماذج وصور أخبر عنها ﷺ، منها:

١- أن يتفل في وجهه، لحديث أبـي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: «**فمن لقيه منكم فليتفل في وجهه**» رواه الطبراني.

٢- أن يثبت ويصبر، لحديث «**وليكثر من التسبيح والتهليل فإنه قوت المؤمن في ذلك القَحْط، وأن من ابتلي به فليثبت وليصبر، وإن رماه في النار فليغمض عينيه وليستعن بالله تكن عليه برداً وسلاماً**».

٣- أن يلتجئ إلى أحد الحرمين فإنه لا يدخلها أو إلى المسجد الأقصى أو إلى مسجد طور، ففي بعض الروايات أنه لا يدخله.

٤- أن يقرأ الآيات العشر من أول سورة الكهف، لحديث «**فمن ابتلي بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم**»، انظر «الإشاعة» ص٢٧٧.

يا رسول الله ذكرت الدَّجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غيرُ الدَّجال أخوفني عليكم.. وسَاق الحديث»(١).

وكأنّه ﷺ يعتبر معنى قوله: «**بعثتُ أنا والساعة كهاتين**»[٢] فيفصح لهم أن مرحلة الدجال لستُ أخشاهَا عليكم أنتم بقدر ما أخشى عليكم فتناً أخرى.. وكأنَّه يشير إلى ما حصل بعد ذلك من الفتن في عهود التحولات.

وَمُسْلِمٌ رَوَى حَدِيْثَ الدَّارِيْ — فِي قِصَّةِ الضَّيَاعِ فِي البِحَارِ
رَآهُ فِي كَهْفٍ عَلَى جَزِيْرَهْ — عَلَيْهِ أَغْلَالٌ فَلَمْ يُثِيْرَهْ
وَسَأَلَ الدَّارِيَّ عَنْ ظَوَاهِرِ — هَلْ كَانَ مَا كَانَ مِنَ المَظَاهِرِ؟
وَوَافَقَ الأَمْرَ لَدَىْ المُخْتَارِ — مَا كَانَ يَخشَاهُ مِنَ الأَقْدَارِ

تشير الأبيات إلى رواية الإمام مسلم عن الدَّجال من خبر تميم الدَّاري، وهي مبسوطة في كتب الحديث، وأهم ما يمكن التعيين له هنا ثوابت التفرد في الرواية، وهي:

١. قوله ﷺ لأصحابه: «**وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلا لِرَهْبَةٍ وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لأَنَّ تَمِيما الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيًّا فَجَاءَ وأَسْلَمَ وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِى كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ المَسِيخِ الدَّجَّالِ**».

٢. «**فدخلوا الجزيرة فَلَقِيَتْهُم دَابة أهلب**»، وفي رواية: «**فإذا أنا بامرأة تجرّ شعرها، قالوا: ويلكِ من أنت؟ قالت: أنا الجَساسة**»[٣].

٣. «**دخلنا الدير فإذا فيه أعظمُ إنسانٍ رأينا قَطُّ خَلقاً وأشدُّهُ وثَاقاً**».

(١) أخرجه مسلم وأحمد عن النواس بن سمعان، المصدر السابق (١٣: ٦٤) كتاب الفتن.
(٢) سبق تخريجه، المصدر السابق (١٦: ٨٩).
(٣) «كنز العمال» (١٤: ٦٠٥).

٤. قال: «أخبروني عن نخل بيسان هل تُثْمر؟ قلنا: نعم، قال: أما إنها توشك أن لا تثمر، قال: أخبروني عن بحيرة طَبَرية، هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرةُ الماء، قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عَين زُغَر، هل في العين ماء وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا: نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب».

٥. «إني مخبركم أني أَنَا المسيح وأني أوشك أن يُؤذَنَ لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض ولا أدعُ قريةً إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليّ كلتاهما».

٦. قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته: «ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو، وأوحى بيده إلى المشرق»(١).

قال الناظم:

وَقَدْ أَشَارَ الْمُصْطَفَى فِيمَا وَرَدْ عَنْ خَطَرِ الدَّجَّالِ فِي كُلِّ بَلَدْ
وَأَنَّ كُلَّ الأَنْبِيَاءِ حَذَّرُوْا مِنَ المَسِيْخِ لِلأَنَامِ أَنْذَرُوْا
وَأَنَّ مَا مِنْ فِتْنَةٍ وَآدَمُ يَعيشُ إِلَّا وَهْيَ مَسْخٌ قَادِمُ
تَؤَسِّسُ القَوَاعِدَ الخَطِيْرَةْ لِفِتْنَةٍ قَادِمَةٍ مُثِيْرَةْ
يَهْلِكُ فِيْهَا عَشَرَاتُ الأُمَمِ مَا بَيْنَ فِسْقٍ وَخَرَابِ آدَمِي

---

(١) جميعها رواه أحمد ومسلم عن فاطمة بنت قيس، اهـ «كنز العمال» (١٤: ٢٨٩) ثم قال: قال الشيخ جلال الدين السيوطي رضي الله عنه في قسم الأفعال: زاد الطبراني في آخر هذا الحديث: بل هو في بحر العراق، يخرج حين يخرج من بلدة يقال لها أصبهان من قرية من قراها يقال لها رستقاباد، ويخرج حين يخرج على مقدمته سبعون ألفا عليهم التيجان.. إلى آخر الحديث، وفي سياق الأحاديث إشارة إلى أن تعدد مواقعه التي يتحرك فيها، فحينا في بحر الشام وحينا في بحر اليمن.. وحينا قبل المشرق حيث أشار صلى الله عليه وآله وسلم.

فَمَـنْ نَجَـا بَـيْنَ يَدَيهـا وَاطْمَأَنْ　　نَجَا مِنَ الدَّجَالِ حَتَّى فِي الكَفَنْ
وَمَـنْ تَـرَدَّى فِي مَهَـاوِيْ وَعْدِهِ　　يُعَذِّبُـوْهُ لَـوْ يَكُـنْ فـيِ لَحـدِهِ

يشير الناظم في هذه الأبـيات إلى خطورة المسيخ الدَّجال ذاتاً وفكراً ومرحلةً، وقد سبق تناول شَتَى المواضيع عن ذلك، وبقي النظر في بعضها من مثل نجاة من نجا مما قبلها، قال ﷺ: «**لفتنة بعضكم أخوف عندي من فتنة المسيخ الدجال، ولن ينجو أحد من مثلها إلا نجا منها**»[1]، والحديث: «**لَو خَرجَ المسيخُ الدَّجالُ لآمنَ بِهِ قَومٌ في قُبُورِهِم**»[2].

وفي هذا الحديث إشارة واضحة إلى خطورة العذاب على كافة أعوان المرحلة الدَّجالية، فالإشكال ليس في خروج الدَّجال؛ ولكن الإشكال الأعظم في أثر فتنته ورؤيته الفكرية ومشاريعه العالمية في تاريخ المسيرة البشرية، وهي التي تسبق مرحلة ظهوره كذات، وهي مرحلة بروز دور الدجاجلة، ومنهم الذين ادعوا النبوة.. سواء كانت دعوى رسالة أم دعوة انحراف فكري ضد مسيرة الحق الشرعي، ويؤيد ذلك ما أورده صاحب «الفتح» في شرح البخاري عند حديث: «**وحتى يُبعث دجالون قريب من ثلاثين كلَّهم يَزْعُم أنه رسول الله..**»[3].

قال في الشرح: ويحتمل أن يكون الذين يدعون النبوة منهم ما ذكر من الثلاثين أو نحوها، وأن من زاد على العدد المذكور يكون كذاباً فقط لكن يدعو إلى الضلالة كغلاة الرافضة والباطنية وأهل الوحدة والحلولية وسائر الفِرق الدَّاعية إلى ما يعلم بالضرورة أنه خلاف ما جاء به محمد رسول الله ﷺ، ويؤيد أن في حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عند أحمد، «**فقال علي رضي الله عنه لعبد الله بن**

(١) رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح عن حذيفة بن اليمان، وتمام الحديث : «**وما صنعت فتنة منذ كانت الدنيا صغيرة ولا كبيرة إلّا لفتنة الدجال**» «مجمع الزوائد» (٧: ٣٣٥).
(٢) رواه ابن أبـي شيبة عن حذيفة بن اليمان.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة.

الْكَوَّاء: وإنك لمنهم» وابن الكواء لم يدعِ النبوّة وإنما كان يغلو في الرفض[1].

ويفهم من الأحاديث المتنوعة أن الدَّجال أحد النماذج الآتية:

١- شيطانٌ موثقٌ بسبعين حلقة في بعض جزائر اليمن، وهذا القول -كما قال الحافظ- لعل أصحابه تلقوه من بعض كتب أهل الكتاب.

٢- ابن صياد الذي احتار في أمره ﷺ ولم يؤمر بقتله، ويحلف بعض الصحابة أنه الدَّجال.

٣- صاحب الجساسة المحبوس في الجزيرة كما ذكره تميم الداري لرسول الله ﷺ.

٤- أحد ولد شق الكاهن أو شق الكاهن نفسه[2]، قال الحافظ: وهذا واهٍ جداً.

وغاية ما يجمع به بـين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال: أن الذي شاهده تميم موثقاً هو الدَّجال بعينه، وأن ابن صياد شَيْطَانٌ له ظَهَر في صورة الدَّجال في تلك المدة التي قدر الله تعالى خروجه فيها، والله أعلم. وقال بعضهم: هو قابيل بن آدم، وليس في هذا القول ما يصح.

٥- وهناك قول آخر ذكرته بعض المصادر الحديثة وهو أن السَّامري صاحب موسى هو الدَّجال بعينه، ودليل ذلك أن موسى لم يقدر عليه عندما دَعَا بني إسرائيل لعبادة العِجل بل قال له: ﴿**وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ**﴾، ولم يقتله إشارة إلى أن الدجال له موعد قادم يقتل فيه، كما قال ﷺ لعمر بن الخطاب «**إِنْ يَكُنْهُ فلن تُسَلَّطَ عليهِ**». وسنتناول هذه الرؤية بتفصيل لاحق.

وكل هذه الأقوال المتضاربة كما هي في النصوص لا شك أن وراءها حكمةٌ إلهيةٌ تتلاءم مع

---

(١) «فتح الباري» (١٣: ٩٣).

(٢) قال في «الإشاعة»: يقال: إن الدَّجال من ولد شِق الكاهن، وكانت أمه جنية عشقت أباه فأولدها شقاً، وكان الشيطان يعمل له العجائب، فأخذه سليمان عليه السلام فحبسه في جزيرة من الجزر؛ ولكن هذا القول واهٍ لا يعتمد عليه.

الحدث ذاته، وأن اختلاف الأقوال جزءٌ من التَّمويه الشرعي الذي يُخفي به الله مَعَالـم الحَدث ويصعب به التمييز حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ولهذا فإن الجدل في هذه المسائل لا يخدم الهدف المرجو من ذكر الآية بقدر ما يظلم القلب ويشوش صفاء الذهن، ويزيد في ضبابية الإفصاح، والشأنُ كل الشأن في الإيمان بالحدث ووقوعه في الساعة التي هيأها الله لها وبالصورة التي وضعها الله في عجائب مخلوقاته.

والمتأمل لهذا الإغراب في وصف الأحداث العِظام يرى الإغراب يشمل أغلب آيات الساعة كالمهدي المنتظر ويأجوج ومأجوج والدابة وغيرها، فالعقلُ الإنساني لا يملك القول الفصل وإنما يمتلك عَرْض النصوص وفق حدود المعقول والمنقول والعلم بيدِ الله ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾، وأهم ما نحن بصدد بعد عرض النصوص أن نعلم خطورة المراحل التي تهيء لمرحلة ظهور الدجال وكشف ملابساتها وتبين ثغراتها لخطورة الوقوع فيها.

قال الناظم: (١)

ثُمَّ اسْتَعَاذَ المُصْطَفَى وَحَذَّرَا	مِنْ غَضْبَةٍ تُزْعِجُهُ فَيَظْهَرَا
بِأَيِّ شَكْلٍ فَهْوَ مَقْدُوْرٌ قُدِرْ	يَأْتِي عَلَى وَعْدٍ مِنَ اللهِ ذُكِرْ

إشارة إلى ظهور الدَّجال واكتساحه العالم في غضبة يَغْضَبُها، وهنا مَلْحَظٌ هام أشرنا إليه سلفاً، وهو ظهور المسيخ الدَّجال، فالظهورُ المشار إليه غير متصلٍ بدوام آثار فتنته العالمية

---

(١) ظهور الدَّجال يأتي متأخراً عن ظهور الإمام المهدي، وقد بينت ذلك دلالات الأحاديث النبوية ؛ ولكن سياق الفِتن المتلاحق منذ عهد آدم إلى فَناء الدَّجال تجعل مرحلة المهدي مرحلة تنفّسٍ بين مسيرات الفِتن؛ بل وتكون هي الهُنَيهة الأخيرة لغضبته التي يغضبها فيخرج.

وقد أشار بعض العلماء إلى أن سبب غضبته هي عودة الخلافة الإسلامية إلى العالم وسقوط القسطنطينية ثم سقوط دول العالم بأيدي المسلمين شيئا فشيئا، فعندها يكشر الدجال عن أنيابه وما علم أن ظهوره فيه نهايته.اهـ «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» ص١٢٣.

التاريخية؛ بل إن «الهنيهة» التي يظهر بعدها الإمام المنتظر يملأ الأرض عَدْلاً كما مُلئت جَوراً تقطع تماماً بين ظواهر الفتن المتلاحقة وبين ما يأتي من ظهور المسيخ الدَّجال، وكأنّي بهذه الفترة القصيرة في عُمر الدنيا لا تتجاوز المتنفس للناس كما هو في عصر عمر بن عبدالعزيز الذي أُقيم فيه العَدل مدى سنتين فقط أو قريباً منها وعاد تيار الملك المعضوض، ولهذا كان تناولنا للدجال والدجل وكذلك الدجاجلة قبل تناولنا الموضوع المتنظر لعالمية فتنة الدجال وطول استمرارها، حتى صارت قاعدة الحركة في بعض أزمنة التَّحوُّلات.

ويشير الناظم إلى هذه الغَضْبَة التي يغضبها الدَّجال نتيجة مراقبته ما يَدور في العالـم من انتصارات للإسلام على يد الإمام المهدي وجيوشه، فيبدأ طُوفانُهُ العَارم أربعين يوماً تنشط فيها خلاياه الدَّجالية الكافرة، وتَبْرُزُ فيها على سطح المدن والقرى عفونة التيارات والجماعات التي كان وجودها في العالم على نزغات مدرسته المنحرفة، وتَهبُّ العقليات المركبة من زخم الصراع والنـزاع والطبقية والعرقية لتُساند حُريَّة المنطلقات الدَّجالية حاملة لواء البرنامج العالمي لحرية الإنسان المسوخ، وتبدأ المعارك -كما سيأتي لاحقاً في حديثنا- عن الإمام المنتظر وملاحمه، وظهور عيسى عليه السلام وكيف ينتهي الدَّجال علي يديه.

فَمَـنْ رَآهُ أَوْ أَتَـاهُ فَلْيُشِـرْ ... عَلَيْـهِ بِالآيَـاتِ يَنْجُـوْ وَيَفِـرْ
مِنْ سُـوْرَةِ الكَهْـفِ فَفِيْهَا مَأْمَنُهْ ... وَالحِفْظُ مِنْ مَوْلَايَ حَقَّاً تَضْمَنُهْ
وَانْظُرْ عَجِيْبَ مَا تَرَىْ مِنْ حِيَلِهْ ... وَمَـا يَسُـوْدُ مِـنْ فَسَـادِ عَمَلِـهْ
وَكَمْ سِـنِينَ فِي الـوَرَىْ خَدَّاعَةْ ... شِـعَارُهَا التَّزْيِيْـفُ وَالخَلَاعَـةْ

يشير الناظم إلى ما يفعله الدجال مع ظهوره من التمويهات والإغراءات وانفعالات الظواهر كما ورد في الحديث من أن الدجال يبعث معه من الشبهات ويفيض عليها من التمويهات ما يسلب ذوي العقول عقولهم، ويخطف من ذوي الأبصار أبصارهم، ويكون الصعود في المعارج

التي يتوصل بها إلى السماء والأسباب الموصلة إلى أقطار الأرض والسابقة في سفرها الشمس إلى مغربها، والأقمار الصناعية والتلفاز والإنترنت في نقل الأخبار وصورها وتركيب الصور والأفلام لتُرى بأنها حقائق من تصورات الإنس والجن، ولا خفاء أنه سحر السحرة، يخيل للناس قتل إنسان وإحياؤه كما يدعيه. اهـ ص١٢١ «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» .

وفي عهد الدجال يجتمع الإنس والجن على العمل الكوني المشترك بحيث يقومون جميعا بغزو الفضاء الكوني تحقيقا لما قاله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ وتشير الآية إلى العمل المشترك بين الجن والإنس، كما تشير الآية الأخرى إلى هزيمة الفريقين معا ﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ .

وهذا ما يجعل الدجال وخبره في تاريخ الرسالة الإسلامية خبرا عظيما وخطيرا منذ عهد صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه يقول صلى الله عليه وآله وسلم فيما روي عن حذيفة: «إنما حدثتكم هذا لتعقلوه وتفهموه وتفهّموه وتعوه، فاعملوا عليه وحدثوا به من خلفكم، وليحدث الآخر الآخر، فإن فتنته أشد الفتن» أخرجه نعيم بن حماد.

والخطر كل الخطر في فتنته، وهي سلسلة الانحرافات المتلاحقة التي ينفذ بها منهج الكفر في الأمة ويزين بالوسائل والإغراءات والعلوم النظرية واستدراج عقول الشعوب والحكام والرجال والنساء بها وبالدعاية المادية لها ومحاربة الفضائل والأخلاق الشرعية والتقليل من شأنها وإثارة الكوامن والغرائز والطباع كي تسرف في نيل الرغبات والامتلاك لمظاهر الدنيا والشهوات من الحرام، وتتحقق رغبات الشيطان في إفساد ذرية بني آدم واحتناكهم للشر ووسائله، حتى يكونوا من أصحاب السعير، والسعير في معناه المعروف المصير الأخير لجهنم، وفي معنى آخر السعير من التسعير وهو الإثارة والتحريش، فحزب السعير حزب شيطاني

أنوي يتاثر بالقوى الإبليسية فيعمل على إثارة الأفراد والأسر والشعوب وحملة القرار لتمارس القتل والهتك والقطيعة والعقوق والشتم واللعن والسخرية وغيرها من وسائل التحريش الشيطانية، سواء في المسلم لإخراجه من دائرة إسلامه الصحيح، أو الكافر لاستخدامه في دائرة الكفر الصريح، قال تعالى في سورة مريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

فالدّجال.. مُرَوِّجُ الكفرِ في العالم هو المخلوق الإنساني المتحالف على هذا المشروع مع الشيطان، والضحية هو الإنسان مسلم وكافر، والخلاص من هذا كله الالتزام بمنهج الرحمن وإثارة مبدأ العداوة للكفر والدجال والشيطان ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ نسأل الله الحفظ والسلامة.

نَسْـأَلُ مَوْلَانَـا الكَرِيـمَ رَبَّنَـا حِفْظَـاً مِـنَ الدَّجَّالِ حَتَّـىْ نَأْمَنَا

هذه الأبـيات تكملة موضع المسيخ الدجال، وفيها الإشارة إلى ما ينبغي أن يفعله المؤمن ليحفظه الله من فتنة المسيخ الدجال، وأيضاً دعوة للنظر في كتب السنة من كل مسلم ليرى أعاجيب الأخبار المقررة عن مرحلة الدجال وفتنته وما يسبقه من الخداع والتزييف والخلاعة، نسأل الله لنا وللمسلمين السلامة ظاهراً وباطناً.. آمين[1].

(١) سيأتي تفصيل مهم عن شخصية الدجال عند مرحلة ظهوره في آخر عهد الإمام المنتظر.

العَلاقةُ بين حَشْرِ بَنِي إسرائيلَ في فِلَسْطِينَ وظهورِ الدَّجّالِ

ذكر بعض الباحثين المعاصرين أن من علامات اقتراب موعد خروج الدجال تجمع يهود العالم في فلسطين، وهو ما أطلق عليه في القرآن والسنة (الحشر) في أول سورة الحشر ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ قال قتادة رحمه الله: وهذا أول الحشر، والحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب.

وأخرج عبدالرزاق في مصنفه يرويه عن معمر عن قتادة قال: «تخرج نار من مشارق الأرض تسوق الناس إلى منازلها، تسوق الناس سوق البرق، تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا، وتأكل من تخلف» .اهـ.

قال الشارح : ومعنى (سوق البرق) كناية عن الطيران بسرعة، وعند قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «أولُ شيءٍ يحشرُ الناسَ نارٌ تحشرهم من المشرق إلى المغرب» قال الباحث محمد عصام : قلتك ويؤيد ذلك ما ذكر (وايزمان) في مذكراته عن جمعية عشاق صهيون: إن الحركة الصهيونية في حقيقتها وجوهرها نشأت في روسيا، وكان يهود روسيا العمود الفقري للكيان الصهيوني في فلسطين .اهـ.

وأخرج البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن أنس: أن عبدالله بن سلام بلغه مقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، فأتاه فساله عن أشياء قال: إني سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي ، فال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه والولد ينزع إلى أمه؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أخبرني بهنّ جبريلُ آنفاً» ، فقال عبدالله بن سلام: فذاك عدو يهود من الملائكة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «أما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشرُهم –أي: اليهود– من المشرق إلى المغرب.. إلخ» .

وتكون كلمة (الحشر) على هذا المعنى (الجمع) ، والمراد به جمعهم بالشام قبل يوم القيامة. اهـ ص٢٢-٢٥ «ظهور المسيخ الدجال» .

كما فسر الباحث المذكور مفهوم الدابة في القرآن بمفهوم استقرائي آخر، وهو ما يبرز من مخترعات المراحل من وسائل النقل السريعة فقال: وثبت في الصحيح أن الحشر الثاني هو سوقهم بالنار أحياء إلى الشام قرب يوم القيامة، كما ذكره القاضي عياض رحمه الله في كتابه «مشارق الأنوار» وعبرت السنة المطهرة عنه بالحشر، فيتطابق مع ما سمى الله بالحشر لما وقع ليهود بني النضير، وبهذا يقوى الاحتمال بأن ما خلق الله من مخترعات كائنة من الأرض تسوقها النار أنها الدابة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ويفسرها من وجهة نظر الباحث قوله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أخرجه أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لتكوننّ هجرةٌ بعد هجرةٍ إلى مهاجرِ أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى في الأرض إلا شرارُ أهلها، وتَلْفِظُهُم أَرَضُوهُم وتَقْذَرَهم روحُ الرحمن وتحشرَهم النارُ مع القردة والخنازير، تَقِيلُ حيث يَقِيلُون وتبيتُ حيث يَبِيتُون، وما سقط منهم فلها» . اهـ.

قال الباحث في تفسير الحديث: «تحشرهم النار مع القردة والخنازير ،أي : مع اليهود ، وقد وقع الغيب الذي أخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم بإطلاع الله له عليهم، فإنه بانتشار الإسلام في الأرض انقطعت مساعي الصهيونية قبل الإسلام في العودة إلى فلسطين وانعدمت مشاريعهم إلى قبيل القرن الماضي، وتركزت جهودهم في تثبيت فكرة العودة إلى فلسطين حتى القرن العاشر، ثم عاودوا نشاطهم للعودة فكانوا كما أخبر عنهم صلى الله عليه وآله وسلم: «كلما خَرَجَ قرنٌ قُطِعَ، وكلما قُطِعَ قَرْنٌ نَشَأَ قَرْنٌ» أكثر من عشرين مرة.

يتحقق ذلك من تواريخهم والكتب المؤلفة في هذا الشأن حتى قبيل ظهور النار الحاشرة،

وذلك في القرن التاسع عشر الميلادي، فواصلوا مساعيهم واستعملوا وسائلهم المتنوعة من أجل استيطان فلسطين، وأعلنت انكلترا حمايتها لليهود المقيمين في فلسطين، وتأسست عشرات الجمعيات وبذلوا الآلاف المؤلفة من الأموال، ونافقوا بإظهار الإسلام وقرؤوا القرآن وتسللوا إلى فلسطين لوذا بالإسلام، وكثير من أحبارهم ورهبانهم تمذهبوا بغير اليهودية وزاروا فلسطين ليتمكنوا من خدمة اليهود من وراء ستار، واشتروا لها الأراضي الواسعة والمزارع الضخمة للحمضيات واستخدموا للإشراف عليها عمالا من اليهود فقط، ثم بنوا في القدس مساكن خاصة باليهود عرفت بالمستعمرات، ثم في غيرها من البلدان والقرى، وصاروا يتسللون واستقروا بها كأفراد خاضعين لنظام الدولة العثمانية.

وبعد المذابح الكثيرة التي نزلت بهم في روسيا سنة ١٣٠٠ هـ قاموا بإنشاء جمعية تدعى (عشاق صهيون) والهدف منها ترحيل اليهود لفلسطين من يهود الشرق، وسموها الهجرة الأولى، وأنشؤوا لها المستعمرات الزراعية بالقرب من مدينة يافا، ثم أسسوا الحزب الشيوعي وتمادوا فيه وكانوا قادة الشيوعيين، كما كانوا شرار أهل الأرض وأثاروا الحماس لإعادة بناء دولة إسرائيل، واستجاب لهم الشرق والغرب قاصدين من هذه الاستجابة إبعادهم عن ديارهم والخلاص منهم للجاجهم وتحكمهم في كل مرافقهم، وإلى هذا كله أشار الحق سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾.

وظهرت النار الحاشرة فلَفَظَتْهُم أَرَضُوهم كما في الحديث: «ويَبْقَى في كُلِّ أرضٍ شِرَارُ أَهْلِها تَلْفِظُهُمْ أَرَضُوهُمْ» أي: تقذفهم وترميهم، فنبذتهم الدول والأمم والشعوب في الأرض كلها وحاربتهم وأقصتهم من بلادهم، فأصبحوا مضطهدين في العالم بأسره، وكما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: إذا جاءت

نهايتهم أتينا بهم جماعات جماعات من بلاد شتى محشورين لفلسطين تدفعهم النار، أي: وسائل المواصلات النارية الحديثة، وتحشرهم مع القردة والخنازير، وقد أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الاسم إلى اليهود كما جاء عند أحمد في مسنده: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أتى بني قريظة قال لهم: «يا إخوانَ القردةِ والخنازيرِ» ، وأما قوله في الحديث: «وما سَقَطَ منهم فلها» أي: إنها تحشر المرأة والسقط والشيخ الفاني والمريض المشرف على الموت، وكون أنها تأكل من تَخَلَّفَ فهو كما في الحديث بعد «تَأْكُلُ الأنفسَ والأموالَ» أي: إن هذه الوسائل كالطائرات وغيرها ذات أثمان باهظة، ونتيجة للدهس والاصطدام الكوارث يموت من بداخلها -في بطنها- بين رأسها وذنبها كما هو عند الحاكم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه في وصف دابة الأرض قال: «تبيتُ دابةُ الأرض تسري إليهم.. فيصبحون وقد جَعَلَتْهم بين رأسها وذنبها» وهو ما يعرف بهيكل الطائرة ما بين مقدمتها ومؤخرتها. اهـ «ظهور المسيح الدجال» ص٣٠-٣٥.

الإمامُ المُنْتَظر

«لا يَخْرُجُ المَهْدِيُّ حَتّى يَبْصُقَ بَعْضُكُمْ في وَجْهِ بَعْضٍ»

«لا يَخْرُجُ المَهْدِيُّ حَتّى يُقْتَلَ ثُلُثٌ ويَموتَ ثُلُثٌ ويَبْقَى ثُلُثٌ»

«الفتن» لنعيم بن حماد ص٣٣٣ عن علي كرم الله وجه

تَحوُّلاتُ عَهْدِ الإمام المُنْتَظر

وَمِـنْ عَلَامَاتِ اقْتِرَابِ السَّـاعَةِ خَلِيْفَـةٌ يَعْـدِلُ فِـي الإِمَامَـةِ
مِنْ آلِ بَـيْتِ المُصْطَفَى الرَّسُوْلِ مُحقَّـقٌ قَـدْ جَـاءَ فِـي النُّقُـولِ
مُمَـوَّهُ الأَخْبَـارِ فِـي الآثَـارِ تَصُوْنُـهُ عَـنْ صَوْلَـةِ الكُفَّـارِ

يشير الناظم إلى مرحلة عظيمة الأمن والأمان، وستأتي في لاحق الزمان، يكون فيها سيادة العدل والانتصاف وحثي المال على الناس بالتساوي لتغطية الحاجة المادّية، ولكن هذه المرحلة المعبر عنها بعهد الإمام المنتظر تبرز في هذا العالم على أثر فِتنٍ وتحولاتٍ وهَرْجٍ ومَرْجٍ وحروبٍ وهَتْكٍ وبَلاءٍ، وتكون أنظمة الغُثاء والوَهَن وأحزابها وتكتلاتها عاجزة عن رسم حلول لأوبئة الواقع وتداعياته، إذ هي أنظمة إعلامية وشبه إسلامية تمخر عباب برامج الدجل والدجاجلة وترزح تحت نَيِّر الكُفر والكَافر.

ويأتي الإمام من بيت شريف في تركيبه العِرْقِي من آل بيت رسول الله ﷺ، وكأنّه عَود على بدء بعد أن لفظت مجتمعات الذُّل والهَوان ذكر أخبار آل البيت النبوي، وشككت مرقوماتها ومعلوماتها في علمهم وعقائدهم، وصنعت مقابل ذلك صراعاً أنوياً في قضايا الولاء والبراء بما فيها قضية آل البيت حتى لم يعد في مجتمعات المسلمين من يطمئن لمسألة الولاء والحب، لما شاب الأمر من الخلط والخبط والتسييس والإثارة، وفجأة تأتي آيات الله لإخضاع العَنْجَهية الإنسانية المستبدة لتعلم أن وعد الله حق، ويكون بروز هذا الإمام بعد تمويهٍ[1] وقلقٍ وتناقضِ

(١) قوله: «بعد تمويه» إشارة إلى ما يشتغل به الباحثون والعلماء عادة من الاختلاف حول النص المعبر عن علامات المهدي وأسرته ولونه وموقع خروجه، ومتى يخرج ومظاهر علامات خروجه.

أخبارٍ وآثارٍ حَدَّدها رسول الله ﷺ في تاريخ الفِتن بالفِتْنَة الرَّابعة.

وأعتقد -والله أعلم- أن الفتنة الرابعة هي المرحلة الفاصلة بين (مرحلة الدهيماء) وتحولات عصري الإمام المهدي والمسيخ الدَّجال، وقد تحددت بما يلي:

تَأْتِي جُيُوْشٌ مِنَ بِلَادِ الغَرْبِ   حَشْدٌ خَطِيْرٌ لِاجْتِمَاعٍ حَرْبِي
وَفِتَنٌ عَظِيْمَةٌ وَمَقْتَلَةْ   نَهْبٌ وَسَلْبٌ فِي عَرِيْضِ المَرْحَلَةْ

وهذه الأبيات تشير إلى مسمى الفتنة الرابعة الواردة في الأحاديث، منها ما ذكره نعيم بن حماد في «كتاب الفتن» عن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**علامة خروج المهدي ألوية تقبل من المغرب عليها رجل أعرج من كندة**»، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**الفتنة الرابعة عمياء مظلمة تمور مور البحر، لا يبقى بيت من العرب والعجم إلا ملأته ذلاً وخوفاً، تطيف بالشام وتغشى العراق وتخبط الجزيرة بيدها ورجلها، تعرك الأمة فيها عرك الأديم، ويشتد فيها البلاء حتى ينكر فيها المعروف ويعرف فيها المنكر، لا يستطيع أحد أن يقول فيها: مه..مه.. ولا يرقعونها من ناحية إلا انفتقت من ناحية أخرى، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ولا ينجو منها إلا من دعا كدعاء الغريق في البحر، تدوم اثني عشر عاماً، تنجلي حين تنجلي وقد انحسرت الفرات عن جبل من ذهب، فيقتتلون عليها حتى يقتل من كل تسعة سبعة**»[1].

وهذه الاختلافات في النصوص إنما هي في حقيقتها سر من أسرار الله في تمويه الأمر على أعداء الإسلام حتى لا يجدوا في ظاهر النصوص ما يمكن تتبعه بوضوح وتأكد، حتى يظهر أمر الله في حينه، مع أن الآيات والملاحظ تُبينانِ هَوية قُرْبِ المرحلة ومظاهر بروزها، فقد ورد في كتاب «الفتن» لنعيم بن حماد ص ١٥٣ طبعة المكتبة العربية ما مثاله: عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن تفنى أمتي حتى يظهر فيهم التمايز والتمايل والمعامع**» فقلت: يا نبي الله ما التمايز؟ قال: «**عصبية يحدثها الناس بعدي في الإسلام**»، قلت: فما التمايل؟ قال: «**يميل القبيل على القبيل فيستحل حرمتها**»، قلت: فما المعامع؟ قال: «**مسير الأمصار بعضها إلى بعض تختلف أعناقها في الحرب**».

(١) «الفتن» (١: ٢٣٩).

وفي رواية أخرى لأبـي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**الفتنة الرابعة ثمانية عشر عاماً، ثم تنجلي حين تنجلي وقد انحسر الفرات عن جبل من ذهب، تكب عليه الأمة فيقتل عليه من كل تسعة سبعة**»[1].

ويبدو من خلال استقراء الأحاديث عن الفتنة الرابعة أنها تمتد حتى يظهر الدجال لا يفصل فيها إلَّا مرحلة الإمام المنتظر التي تحدد بسنوات خلالها، فعن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**يخرج الدجال في الفتنة الرابعة، بقاؤه أربعون سنة يخففها الله على المؤمنين فتكون السنة كاليوم**»[2].

أَثْنَاءَهَـا يَنْحَسِـرُ الفُـرَاتُ	عَـنْ جَبَـلٍ تَغْـزُوْ لَـهُ الفِئَـاتُ
يُقْتَـلُ مِنْهُـمْ تِسْـعَةُ الأَعْشَـارِ	مِمَّـنْ أَتَـىْ لِلمَـالِ وَالدِّيْنَـارِ

تشير الأبـيات إلى ما يحصل من بداية الفتن الكائنة في المرحلة الرابعة، ومنها انحسار الفرات عن جبل من ذهب، كما ورد في حديث أبـي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**يوشك الفرات أن ينحسر عن كنـز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئا**» وفي صحيح مسلم عن أبـي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مئة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا أنجو**»، وزاد في رواية «**إن رأيته فلا تقربنه**»، وفي رواية «**فإن استطعت يا أباهر أن لا تكون منهم فافعل**»، وفي رواية أخرى لمسلم عن أبـي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**تقيء الأرض أفلاذ أكبادها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعَتْ يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا**».

وقد أبرز النبـي ﷺ خطورة الفتنة الرابعة وحدد سلوك المؤمن فيها، كمثل قوله ﷺ عن أبـي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ –وذكر الفتنة الرابعة–: «**لا ينجو من شرها إلا من**

(١) المصدر السابق (١: ٢٣٦).

(٢) المصدر السابق (٢: ٥٥٥).

دعا كدعاء الغريق، أسعد أهلها كل نقي خفي، إذا ظهر لم يعرف، وإن جلس لم يفتقد، وأشقى أهلها كل خطيب مصقع أو راكب موضع»[1].

وعن أرطأة بن المنذر، قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال في الفتنة الرابعة: «**تصيرون فيها إلى الكفر، فالمؤمن يومئذ من يجلس في بـيته، والكافر من سل سيفه وأهرق دم أخيه ودم جاره**».

وورد أيضاً عن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إذا كانت رجفتان في شهر رمضان انتدب لها ثلاثة نفر من أهل بـيت واحد، أحدهم يطلبها بالجبروت، والآخر يطلبها بالنسك والسكينة والوقار، والثالث يطلبها بالقتل واسمه عبدالله، ويكون بناحية الفرات مجتمع عظيم يقتتلون على المال، يقتل من كل تسعة سبعة[2].

وجاء في «الإشاعة» ص٢٠١ حديث: «**إذا سمع الناس به -أي: الكنـز- ساروا إليه، واجتمع ثلاثة كلهم ابن خليفة، يقتتلون عنده ثم لا يصير إلى واحد منهم، فيقول من عنده: والله لئن تركت الناس يأخذون منه ليذهبن كليته، فيقتتلون عليه حتى يقتل من كل مئة تسعة وتسعون**».

وفي رواية: «**فيقتل تسعة أعشارهم**»، وفي «الإشاعة» أيضاً حديث عن خسف آخر في أثناء هذه المرحلة عند معدن من المعادن، وهو حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**تخرج معادن مختلفة، معدن منها قريب من الحجاز، يأتيه أشرار الناس يقال له: (فرعون) فبـينما هم يعملون فيه إذ حسر عن الذهب فأعجبهم معلمه، فبـينما هم كذلك إذ خسف به وبهم**»[3].

---

(١) المصدر السابق (١: ١٤٨).

(٢) المصدر السابق (١: ٢٩١).

(٣) رواه الحاكم وصححه، «الإشاعة» ص٢٤١، وأورد صاحب كتاب «هرمجدون.. آخر بـيان يا أمة الإسلام» حول نهر الفرات وانحساره: روى أبونعيم حديثا برقم (٩٧١) يبـين أن السفياني يحول نهر الفرات، قال: وقد حدث هذا وتم حفر مجرى جديد للنهر بطول ٦٥٠ كيلومتر وتحول مجرى النهر والأهوار.

وتتلاحق بعد هذا العلامات السابقة لمرحلة المهدي.

قال الناظم:

وَيُخْسَفُ البَدْرُ لَيَالِي رَمَضَانْ   أَوَّلُهُ وَنِصْفُهُ عَلَامَتَانْ
تَسِيْلُ فِي شَوَّالَ أَنْهَارُ الدِّمَا   فِي قَعْدَةٍ وَحَجَّةٍ حَرْبٌ طَمَا
لَا تَمْلِكُ النَّاسُ سِوَىْ الهُرُوْبِ   بَحْثَاً عَنِ المَهْدِيِّ فِي الدُّرُوْبِ

يشير الناظم إلى العلامات التي تبرز بعد انحسار الفرات، وحصول المقتلة العظيمة هناك، كخسوف القمر وكسوف الشمس في شهر رمضان، كإحدى العلامات المرتبطة بقرب ظهور مرحلة الإمام المهدي، قال في «الإشاعة»: ينكسف القمر أول ليلة من رمضان، والشمس ليلة النصف منه، وهذان لم يكونا منذ خلق الله السموات والأرض.

وعن بشر بن مرة الحضرمي، قال: آية الحوادث في رمضان علامة في السماء، بعدها اختلاف الناس، فإذا أدركتها فأكثر من الطعام ما استطعت.

ومعنى الإكثار من الطعام هنا إما إلزام الناس بالمكث في منازلهم وتخزين حوائجهم إلى أطول الفترات المتاحة، لشدة الفتن وحدوث الهَرْج والمَرْج، مما قد يؤدي إلى انعدام الأمن، أو ربما يصطحب الحدث قرارات من كل صاحب حكومة بحظر التجوال أو حدوث الشدة وقلّة المؤن، لأن هذا الحدث سيكون له آثار سلبية ومدمرة خطيرة ستمتد فترة تؤثر على مطاعم الناس.

وعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في حديث: «**إذا كانت صيحة في رمضان فإنه يكون معمعة في شوال، وتميز القبائل في ذي القعدة، وتسفك الدماء في ذي الحجة، والمحرم وما المحرم؟ يقولها ثلاثاً، هيهات هيهات.. يقتل الناس فيها هَرْجَاً هَرْجَاً، قال: قلنا: وما الصيحة يا رسول الله؟ قال: هدة في النصف من رمضان ليلة جمعة، وتكون هذه توقظ النائم وتقعد القائم**

وتخرج العواتق من خدورهنّ في ليلة جمعة من سنة كثيرة الزلازل، فإذا صليتم الفجر من يوم الجمعة فادخلوا بيوتكم وأغلقوا أبوابكم وسدوا كواكم ودثروا أنفسكم وسدوا آذانكم، فإذا أحسستم بالصيحة فخروا لله ساجدين، وقولوا: سبحان القدوس سبحان القدوس، فإنه من فعل ذلك نَجَا ومن لم يفعل ذلك هَلَك».

وقد وقف مؤلف كتاب «المفاجأة» الدكتور محمد عيسى داود مع معطيات هذا الحديث وقفة تحليلية مفيدة، مفادها: أن «الهدة» يكون لها تأثير في جوانب الكرة الأرضية كلِّها، فمن الناس من يشعر بها ومنهم من يسمعها ومنهم من يشاهدها بالعين المجردة، وعلامة الهدة أنها سنة كثيرة الزلازل، وإذا وقعت نبَّه النبي ﷺ إلى شروط السلامة كالالتزام بصلاة الفجر وإغلاق المنازل والأبواب وسَدَّ النوافذ والكوى، والسجود لله وذكر الله باسم القدوس، لأن له من الخصوصية ما لا مثيل له، وأن هذا الاسم أكثر شيوعاً في الكتاب المقدس وورودا عند اليهود والنصارى، فكأنَّها لمحة أن الهدة ببلاد لهم.

وقوله ﷺ: «**فإذا أحسستم الصيحة**» يعني أن لها آثاراً ماديةً واقعةً بالصوت والحركة، ولكن المعنى يخفي بعض الطمأنينة بأن (أراضي الأمَّة العربية الإسلامية وبالذات منطقة الحديث الشريف الحجاز وما يجاورها من بلاد العرب والمسلمين بعيدة عن بؤرة الحدث)، وهذا يوافق ماورد في (الجفر) عن الإمام علي كرم الله وجهه ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنها (بلاد الأمريك)، كما أن قول رسول الله ﷺ: «**فإذا صليتم الفجر**» تعني أن وقعتها بدء النهار في العالم العربي، ويقابله الليل في الأمريكيتين بحكم فوارق التوقيت، وهذا يعني كما قال المؤلف: أنها ارتطام نيزك أو كوكب بالأمريكيتين يؤدي إلى دمار هائل وحرق وطوفان وعذاب، ولهذه الهدة شواهد ذكرها المؤلف نقلاً عن الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في علم الجفر [1].

---

(١) راجع كتاب «الجفر» تحقيق د. محمد عيسى داود ص١٧٢-١٧٨.

وفي كتاب «الفتن» لنعيم بن حماد[1] حديث عن أبـي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**في رمضان هدةٌ توقظ النائم وتخرج العواتق من خدورها، وفي شوال معمعة، وفي ذي القعدة تمشي القبائل بعضها إلى بعض، وفي شهر ذي الحجة تهراق الدماء، وفي المحرم وما المحرم -يقولها ثلاثاً - قال: وهو انقطاع ملك هؤلاء**»، وربما كان قوله ﷺ: «**عند انقطاع ملك هؤلاء**» يشير إلى آخر مملكة تشهدها أرض الحجاز في آخر الزمان، فبانقطاعها تبرز هذه الآيات والله أعلم.

وفي هذه الآونة أيضا برز دور العديد من البلاد العربية والإسلامية ما بين دول وشعوب معينة منا من ينصر الإمام المهدي ومنهم من يكون مع الدجال.

ومن البلاد من ذكرت في مجمل أحاديث الملاحم والعلامات كأحد المواقع الساخنة بالفتن أو البشارات، فاليمن/ حضرموت / عدن يشار إليها بظهور النار الحاشرة ، واختلف في تفسيرها، فمنهم من اعتبرها البراكين والحمم والنار على صفة الحرق والاشتعال، ومنهم من فسرها بمواد البترول والغاز وما شاكلها من وسائل الوقود المحرك لوسائل المواصلات في آخر الزمان.

وذُكرت أرض الشام وبيت المقدس في أخبار الدجال وعيسى المنتظر وأنها الحاشرة التي تحشر الناس إليها، وفسر بعضهم الحشر باجتماع اليهود في آخر الزمان حتى يكون هلاكهم مع الدجال.

ومع هذه الآيات الدالة على قرب ظهور الإمام المنتظر تبرز أيضاً علامات ظهور السفياني الأول في وقت متقارب.

أخرج ابن عساكر في تاريخه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تَزَالُ طائفةٌ من أُمّتي يُقاتِلُون على أبوابِ بيتِ المقدِسِ وما حولها، وعلى أبوابِ

---

(١) ص١٥٣ طبعة المكتبة العلمية.

أَنْطَاكِيَةَ وما حولها، وعلى أبواب دِمَشْقَ وما حولها، وعلى أبوابِ الطالقانِ وما حولها، ظاهرينَ على الحَقِّ، لا يُبَالُونَ مَن خَذَلَهم ولا مَن نَصَرَهُمْ، حتّى يُخْرِجَ اللهُ كَنْزَهُ من الطّالقان فيُحْيِي بهم دِينَه كما أُمِيتَ مِن قَبْلُ» «كنز العمال» (١٢: ٢٨٤) برقم (٣٥٠٥٤)، انظر ص١٠٩ من كتاب «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» لمحمد عصام عرار الحسني.

ظهورُ السُّفْيَانِيِّ الأَوَّلِ

قال الناظم:

وَيَظْهَـرُ المَعْـرُوْفُ بِالسُّـفْيَانِي يَقْـرَعُ مَـنْ يَلْقَـاهُ بِالقُضْبَـانِ

في هذه المرحلة المعروفة في الحديث بالفتنة الرابعة يظهر السفياني مرافقاً وموافقاً لمرحلة ظهور الإمام المهدي، يؤيد ذلك حديث رواه أبونُعيم في «الفتن»[(١)]: «**يخرج السفياني والمهدي كفرسي رهان، فيغلب السفياني على ما يليه، والمهدي على ما يليه**»، وقد ورد أيضاً عرض جملة من العلامات الخاصة بالسفياني منها: عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «**تكون علامةٌ في صَفَر، ويبتدأ نجم له ذُناب**»، وعن خالد بن معدان، قال: إنه ستبدو آيةٌ عمودٌ من نار يطلع من قبل المشرق، يراه أهل الأرض كلهم، فمن أدرك ذلك فلْيُعِدّ لأهله طعام سنة، وعن خالد بن معدان أيضاً: «**إذا رأيتم عموداً من نار من قبل المشرق في شهر رمضان في السماء فأعدوا من الطعام ما استطعتم، فإنها سنة جوع**»[(٢)].

ومن علامات ظهور السفياني قبـيل ظهور المهدي: أن يخسف بقرية من قرى دمشق، ولعلها «حرستا»، ويسقط الجانب الغربـي من مسجدها[(٣)].

---

(١) «الفتن» (١: ٢٣٣)، وقد جاء في تقرير وزع بالإنترنت مكتوب عليه ملامح عام ١٤٢٤هـ، يشير فيه إلى تزايد احتمالات مرور كوكب مذنب بالأرض يبدأ ظهوره في صفر ١٤٢٤هـ، ويبرز واضحاً للعين المجردة قبل وصوله إلى أقرب نقطة في الأرض في منتصف ربـيع الأول ١٤٢٤هـ (١٤-١٥) (١٥ مايو)، ويتوقع أن يكون لمروره آثار مدمرة على بعض أنحاء من الأرض كالزلازل والبراكين والأعاصير والأمطار، وقد ظهر المذنب ورافق مروره عشرات الفيضانات والزلازل في مجموع الأرض.

(٢) المصدر السابق (١: ٢٣١).

(٣) «الإشاعة» ص٢٠٢.

والسفياني المشار إليه هو من ولد خالد بن يزيد بن أبـي سفيان، ويكون خروجه من ناحية دمشق في وادٍ يقال له (وادي اليابس)، ويكون خروجه بإشارة تظهر له ويلقى سبعة أو تسعة يقولون له: «**نحن أصحابك**»، فيرفع لواء معقوداً يستفرش بـين يديه ثلاثين ميلاً، لا يرى ذلك العلم أحد إلَّا انهزم، فيخرج فيهم ويتبعه ناس من قريات الوادي، وبـيده ثلاث قضبان لا يقرع بها أحداً إلَّا مات، فيسمع به الناس، فيخرج له صاحب دمشق ليقاتله، فإذا نظر إلى رايته انهزم، فيدخل السفياني في ثلاثمائة وستين راكباً دمشق، وما يمضي عليه شهر حتى يجتمع عليه ثلاثون ألفاً من قبيلة كلب، وهم أخواله.

وتبدأ ملاحم السفياني بعد ذلك، وذكر أبو نعيم في كتابه «الفتن» عن مدة خروج السفياني حديثاً عن يزيد بـين أبـي حبـيب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خروج السفياني سنة سبع وثلاثين، كان ملكه ثمانية وعشرين شهراً، وإن خرج في تسع وثلاثين كان ملكه تسعة أشهر**»، وعن ابن عباس قال: **إن كان خروج السفياني من سبع وثلاثين**[1].

وَيَخْـرُجُ الأَبْقَـعُ مِـنْ مِصْـرَ عَلَـى ... جَيْشٍ كَـذَا الأَصْهَـبُ يَأْتِـي عَجِـلا

وَالأَعْـرَجُ الكِنْـدِيُّ وَاليَمَانـيْ ... يُحَارِبُـوْا المَنْصُـوْرَ فِـي المَيْـدَانِ

فَـلَا تَكُـنْ مِّنْهُـمْ وَلَا تُشَـارِكْ ... وَاحْـذَرْ مِـنَ التَّجْيِيْـشِ لِلمَعَـارِكْ

هذه إشارة إلى نماذج من الملاحم القتالية التي تجري على عهد السفياني الأول، ويبدو أن هذه المسميات «**الأبقع، الأصهب، المنصور، الأعرج**» كلّها وُصُوف وعلامات لأولئك القادة المحاربـين للسفياني الأول، وقد ورد في الحديث عن

---

(١) «الفتن» ص٣٦٤.

أرطأة قال: «**السفياني الذي يموت الذي يقاتل أول شيء الرايات السود والرايات الصفر في سرة الشام مخرجه من «المندرون» شرقي بـيسان على جمل أحمر عليه تاج يهزم الجماعة مرتين ثم يهلك، يقبل الجزية ويسبي الذرية ويبقر بطون الحَبَالى**»[1].

قال في «الإشاعة»: يدوم القتال بـينهم سنة كاملة، فيغلب السفياني ويظهر على الرايات الثلاث، ثم يقاتل الترك والروم ويهزمهم، قال في «الفتن»: «إذا ظهر السفياني على الأبقع والمنصور خرج الترك والروم فيظهر عليهم السفياني».

ويبدأ السفياني في هذه المرحلة بتوجيه الأذى ضد بني هاشم، ربما لما يراه من تعلق الناس بالمهدي وانتظار خروجه، قال نعيم بن حماد في «الفتن»[2] عن علي كرم الله وجهه ورَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: يكتب السفياني إلى قائده الذي دخل الكوفة بخيله بعدما عركها عرك الأديم يأمره بالمسير إلى الحجاز، فيسير إلى المدينة فيضع السيف في قريش فيقتل منهم ومن الأنصار أربعمائة رجل، ويهرب رجال من قريش إلى القسطنطينية فيبعث السفياني إلى عظيم الروم أن يبعث بهم فيبعث بهم إليه فيضرب أعناقهم على باب دمشق.

وفي رواية: ويبعث رجاله وجنوده في البلاد فتبلغ عامة المشرق وأرض خراسان، ويبعث السفياني بعثاً إلى المدينة فيأخذون من قدروا عليه من آل محمد ويقتلون من بني هاشم رجالاً ونساءً، ويؤتى بجماعة منهم إلى الكوفة ويتفرق بقيتهم في البراري.

---

(١) المصدر السابق (١: ٢٧٩).

(٢) المصدر السابق (١: ٢٣٢).

ظُهُور المَهْدِي ثم اختفاؤُه في الجبال(١)

قال في «الإشاعة» ص ٢٠٤: (عند مقتل وسبـي آل محمد بالمدينة المنورة يهرب المهدي والمبـيض -وفي رواية: والمنصور- إلى مكة، ويستخفون هناك، ولا يطلع على موضوع المهدي أحد، ثم يجتمع عليه بجبال الطائف جماعة يقاتل بهم جماعة السفياني في مكة ويهزمهم، ثم يختفي بجبال مكة ولا يطلع عليه أحد)، ويؤيد هذا ما أورده الإمام أبوجعفر محمد بن علي الباقر: «**يكون لصاحب هذا الأمر غيبةٌ في بعض الشعاب**» وأومأ بـيده إلى ناحية ذي طوى(٢).

---

(١) عن علي كرم الله وجهه ورَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: «**يبعث - أي السفياني - بجيش إلى المدينة فيأخذون من قدروا عليه من آل محمد ﷺ ويقتل من بني هاشم رجالاً ونساءً فعند ذلك يهرب المهدي والمبـيض من المدينة إلى مكة فيبعث في طلبهما وقد لحقا بحرم الله وأمنه**» الفتن (١: ٣٢٣).

(٢) «الإشاعة» ص ٢٠٤.

ظُهُورُ الإِمَامِ المَهْدِي

عن الإمام علي كرم الله وجهه ورَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: «**إذا نـزل جيش في طلب الذين خرجوا إلى مكة فنـزلوا البـيداء خسف بهم وببباديهم، وهو قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ من تحت أقدامهم، ويخرج رجل من الجيش في طلب ناقة له ثم يرجع إلى الناس فلا يجد منهم أحداً ولا يحس بهم، وهو الذي يحدث الناس بخبرهم**».

وفي رواية: «**لا يفلت منهم أحد إلا بشير ونذير، فأما البشير فإنه يأتي المهدي بمكة وأصحابه فيخبرهم بما كان من أمرهم، ويكون شاهد ذلك في وجهه، ويعلمون أن القوم قد خسف بهم، والثاني يأتي السفياني فيخبره بما نـزل بأصحابه فيصدقه ويعلم أنه حق لما يرى فيه من العلامة**» [1].

ويؤيد هذا حديث عائشة رض الله عنها الذي رواه البخاري «**يغزو جيش الكعبة حتى إذا كانوا ببـيداء من الطريق يخسف بأولهم وآخرهم، قالت: يا رسول الله يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال: يخسف بأولهم وآخرهم ويبعثون على نياتهم**».

---

(١) «الفتن» (١: ٣٣١).

مُبَايعةُ الإمَامِ المَهْدِي

عن عمرو بن شعيب عن أبـيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «**في ذي القعدة تَحَازُبُ القبائل، وعامئذ يُنهب الحاجّ، فتكون ملحمة بمنى، فيكثر فيها القتلى حتى تسيل دماؤهم على عقبة الجمرة، حتى يهرب صاحبهم - أي المهدي - فيؤتى به بـين الركن والمقام فيبايع وهو كاره، ويقال له: إن أبـيت ضربنا عنقك، فيبايعه مثل عدة أهل بدر، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض**».

وفي رواية عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يبعث الله تعالى المهدي بعد إياس وحتى يقول الناس: المهدي، وأنصاره أناس من أهل الشام عدتهم ثلاث مئة وخمسة عشر رجلاً عدة أصحاب بدر، يسيرون إليه من الشام حتى يستخرجوه من بطن مكة من دار عند الصفا، فيبايعونه كرهاً، فيصلي بهم ركعتين صلاة المسافر عند المقام، ثم يصعد المنبر**»[1].

وفي رواية أخرى عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **إذا انقطعت التجارات والطرق وكثرت الفتن خرج سبعة رجال علماء من آفاق شتى على غير ميعاد، يبايع لكل رجل منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، حتى يجتمعوا بمكة فيلتقون، فيقولون بعضهم لبعض: ما جاء بكم ؟ فيقولون: جئنا في طلب هذا الرجل الذي ينبغي أن تهدأ على يديه هذه الفتن، وتفتح له القسطنطينية، قد عرفناه باسمه واسم أبـيه وأمه وحليته، فيطلبونه فيصيبونه بمكة، فيفلت منهم ويلحق بالمدينة، فيطلبونه فيخالفهم إلى مكة، فيصيبونه عند الركن فيبايع** [2].

---

(١) المصدر السابق (١ : ٣٤٢).

(٢) المصدر السابق (١ : ٣٦٧).

صِفَاتُ الإمَامِ المُنْتَظر وسِيْرَتُهُ[1]

مِـنْ وَلَـدِ الزَّهْـرَاءِ بِالتَّأْكِيْـدِ   يُبْطِـئُ فِـي التَّعْبِـيْـرِ بِالتَّرْدِيْـدِ
وَآدَمٌ خَفِيْـفُ لَحـمٍ مُسْـتَدَقْ   أَقْنَـى أَشَـمُّ أَبْلَـجٌ زَيْـنُ الحَدَقْ

أشارت كتب السير والحديث إلى أن الإمام المهدي من ولد فاطمة عليها السلام، وأما ثقل لسانه، فقد جاء نص الحديث: «**في لسانه ثقل، وإذا أبطأ عليه الكلام ضرب فخذه الأيسر بـيده اليمنى**»، وأما حليته **فآدَمُ ضرب من الرجال رَبْعَةٌ أجلى الجبهة أقنى الأنف أَشَمَّهُ أَزَجّ أَبْلَجُ أَعْيَنُ أَكْحَلُ العينين برّاق الثنايا أَفْرَقُها، في خده الأيمن خال أسود، يضيء وجهه كأنه كوكب دري، كث اللحية، في كتفه علامة**[2].

يَأْخُـذُ بَـيْـنَ الرُّكْـنِ وَالمَقَـامِ   بَـيْعَتَـهُ بِالمِسْـجِدِ الحَـرَامِ
أَتْبَاعُـهُ كَأَهْـلِ بَـدْرٍ فِـي العَـدَدْ   عَصَائِـبُ الجِهَـادِ مِـنْ كُلِّ بَلَدْ

سبقت الإشارة إلى ظهور الإمام بمكة وبـيعته بـين الركن والمقام، وفي الموضوع روايات كثيرة يمكن العود إليها في مراجعها المتفرقة.

يَعْمَـلُ بِالسُّـنَّةِ بَـلْ يُقِيمُهَـا   وَيُسْـقِطُ البِدْعَـةَ بَـلْ يُهِيْنُهَـا
يَقُـوْمُ بِالدِّيْـنِ كَمَـا قَـامَ النَّبِـيْ   وَيَمْلِـكُ الدُّنْيَـا بِـدُوْنِ تَعَـبِ
وَيَكْسِـرُ الصَّلِيْبَ كَسْـراً أَبَدِي   وَيَقْتُـلُ الخَنْـزِيـرَ قَتْـلَ الحَـرَدِ

---

(١) قيل: إنما سمي المهدي لأنه يَهدِي لأمر قد خفي، ويستخرج التوراة والإنجيل من أرض يقال لها «أنطاكية». «الفتن» (١: ٣٥٥).

(٢) «الإشاعة» ص١٩٠-١٩٤.

من وصوف الإمام أنه يعمل سنة النبـي ﷺ، قال في «الإشاعة» ص١٩٦: «لا يوقظ نائماً، ولا يهريق دماً، يقاتل على السُّنّة، لا يترك سنّة إلَّا وأقامها، ولا بدعة إلَّا ووضعها، يقوم بالدِّين آخر الزمان كما قام به النبـي ﷺ، يملك الدنيا كلَّها كما ملك ذو القرنين وسليمان، يكسر الصليب، ويقتل الخنـزير» «الإشاعة» ص١٩٦.

وفي الأبـيات إشارة إلى ما يعتري الإمام من «**الحَرَد**» أي: الغضب في ذات الله حتى يكسر الصليب، أي: يقطع عقيدة التثليث المسيحية المنحرفة، ويقتل الخنـزير، وكلاهما رمز الانحراف في الديانة المسيحية المحرّفة، فيجمع بـين تصويب العقيدة واقتلاع أكل المحرم.

يَحْثُوْ جَمِيْعَ المَالِ حَثْيَاً دُوْنَ عَدْ … لِمُؤْمِـنٍ وَفَاجِـرٍ مِـنْ غَيْـرِ حَـدْ

من صفات الإمام المهدي في معالجة انحراف العصر والزمن الوفاء بحاجة الناس المادية، إذ هي رأس الفتنة وسبب الحروب والصراع، وقد شهد الناس قبل ظهوره حرب إبادة على كنـز الفرات وفيها بعض المنتمين إلى آل البـيت النبوي، كلهم يقول: «**لعلي أنا أنجو**»، فالعلة المسيطرة على الواقع الاجتماعي هي الأزمة الاقتصادية، فيأتي الإمام المنتظر ليحثو المال حثياً دون حد ولا عد.

يَسْـتَخْرِجُ الكُنُـوزَ وَالدَّفَائِنَـا … وَيَفْتَـحُ البُلْـدَانَ وَالمَدَائِنَـا

قال في «الإشاعة» ص١٩٦: **تنعم الأمة برها وفاجرها في زمن نعمة لم يسمع بمثلها قط ترسل السماء عليهم مدراراً لا تدخر شيئاً من قطرها، تؤتي الأرض أُكلها، لا تدخر عنهم شيئاً من بذرها، تجري الملاحم على يديه، ويستخرج الكنوز ويفتح المدائن ما بـين الخافقين، يؤتى بملوك الهند مغلغلين، وتجعل خزائنهم حلياً لبـيت المقدس.**

وَيَقْطَـعُ الرِّبَـا مِـنَ البُـيُـوعِ … وَالفِتْنَـةَ العَمْيَـا مِـنَ الرُّجُـوْعِ
يُوَحِّـدُ القُلُـوْبَ وَالأَفْـكَارَا … بِالُحـبِّ يَغْـزُوْ النَّـاسَ وَالدِّيَارَا

ومن أجل مهمات الإمام المهدي إيقاف التعامل بالربا، والشبهات المصرفية والبنكية التي سيطرت على العالم إبان مرحلة الغثاء والوهن، ويكون ذلك بإسقاط البنوك، ومنع التعامل الاقتصادي الربوي السائد، كما يوحد آراء الناس بإيقاف الحزبية والفئوية والتيارية، وقطع سياسة الاستعمار والاستهتار والاستثمار القائمة على مبدأ (فرق تسد) ليحل محلها الوئام والتفاهم، ويرد إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم، يملأ قلوب أمة محمداً غنى، حتى إنه يأمر منادياً ينادي: ألا من له حاجة في المال، فلا يأتيه إلا رجل واحد، فيقول: أنا، فيقول: ائت الخازن فقل له: إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالاً، فيقول له: احث، حتى إذا جعله في حجره ندم، فيقول: كنت أجشع أمة محمد ﷺ - أي: أحرصهم- والجشع أشد الحرص، ويقول: أعجزت عما وسعهم، فيرد المال فلا يقبل منه، ويقال له: إنا لا نأخذ شيئاً أعطيناه[1].

ويرفع الربا الوبا والزنا وشرب الخمر وتطول الأعمار وتؤدى الأمانة وتهلك الأشرار، ولا يبقى من يبغض آل محمد ﷺ[2].

وَتَأْمَـنُ الأَرْضُ طَـوَالَ مُدَّتِـهْ ... وَالنَّـاسُ تَحْيَا فِي ظِـلَالِ دَعْوَتِهْ

يُقَاتِـلُ المَعْـرُوْفَ بِالسُّـفْيَانِي ... حَتَّـى يُتِـمَّ النَّصْـرَ لِلإِيمَـانِ

(٣)يشير الناظم إلى أول ملاحم الإمام المهدي مع السفياني، قال في «الإشاعة» ص٢٠٦: ويبلغ السفياني خروجه، فيبعث إليهم بعثاً من الكوفة فيأتون المدينة فيستبيحونها ثلاثاً،

---

(١) المصدر السابق ص١٩٦.

(٢) المصدر السابق ص١٩٧.

(٣) إشارة لما روي عن الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: «يا رسول الله.. **المهدي منا أئمة الهدى أم من غيرنا؟**» قال ﷺ: «**بل منا، يختم الدين كما بنا فتح، وبنا سينقذون من ضلالة الفتنة كما استنقذوا من ضلالة الشرك، وبنا يؤلف الله بـين قلوبهم في الدين بعد عداوة الفتنة كما الله ألف بـين قلوبهم ودينهم بعد عداوة الشرك**» «الفتن» (١: ٣٧٠).

ويقصدون المهدي، فإذا خرجوا من المدينة وكانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم، ولم ينجُ أوسطهم، فلا ينجو منهم إلَّا نذير إلى السفياني وبشير إلى المهدي، فإذا سمع المهدي بذلك، قال: هذا أوان الخروج، فيخرج ويمر بالمدينة، فيتسنقذ من كان أسيراً من بني هاشم، وتفتح له أرض الحجاز كلها (١).

وَيَظْهَرُ الحَارِثُ وَالمَنْصُوْرُ جُنْدٌ لِآلِ البَيْتِ لَا يَخُوْرُوْا
يُحَارِبُوْنَ عُصْبَةَ السُّفْيَانِي بِهِمَّةِ الأَبْطَالِ وَالشُّجْعَانِ

إشارة إلى ظهور الرجل من وراء النهر بخراسان يسمى «**الحارث**» أو «**الحراث**» على مقدمته رجل يقال له: «**المنصور**» يمكن لآل محمد ﷺ كما مكنت قريش لمحمد ﷺ، وجب على كل مؤمن نصره، وتطول المعارك بين هؤلاء وجيوش السفياني في مواطن عديدة، ثم يبايع الناس رجلاً من بني هاشم بكفه اليمنى خال هو أخو المهدي من أبيه أو ابن عمه، وهو حينئذ المشرق، فيخرج بأهل خراسان وطالقان ومعه الرايات السود الصغار، على مقدمته رجل من تميم من الموالي اسمه «شعيب بن صالح» يمهد الأمر للمهدي عليه السلام [٢].

وفيه يقول ﷺ: «**إذا سمعتم برايات سوداء قد أقبلت من خراسان فأتوها ولو**

---

(١) «الإشاعة» ص٢٠٦، وفي ص٢٤٥ ذكر حديث عن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: «**يكون بالمدينة وقعة تغرق فيها أحجار الزيت، ما الحرّة عندها إلا كضربة سوط، فينحى عن المدينة بريدين ثم يبايع المهدي**» رواه نعيم، وأحجار الزيت كانت عند مشهد مالك بن سنان يضع عليها الزياتون رواياهم، فعَلا الكبسُ عليها فاندفنت، ولأبـي داود والترمذي وغيرهما عن مولى أبـي اللحم: «أنه رأى النبـي ﷺ يستسقي عند أحجار الزيت قريباً من الزوراء قائماً يدعو»، ويبدو أنها موضع بالحرة بمنازل بني عبد الأشهل.

(٢) المصدر السابق ص٢٠٦ – ٢٠٧.

حبواً على الثلج»[1]، وعن أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب كرم الله وجهه: «**لو كنت في صندوق مقفل فاكسر ذلك القفل والصندوق والحق بها..**»[2]، وفي رواية: «**فإن فيها خليفة الله المهدي - أي فيها نصره وأنصاره - وإلاّ فالمهدي حينئذ بمكة**».

وتبعث الرايات السود بـيعتها إلى المهدي، وتقاتل جيش السفياني بالعراق، ويقبل السفياني من الكوفة يريد الشام فيهلك في الطريق، قال في «الفتن» لأبـي نعيم: يقاتل السفياني من ينازعه ويظهر عليهم جميعاً، ثم يسير إلى الكوفه، ويُخرج بني هاشم إلى العراق، ثم يرجع إلى الكوفه فيموت في أدنى الشام، ويستخلف رجلاً آخر من ولد أبـي سفيان تكون له الغلبة ويظهر على الناس.

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٦ - ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق.

ظُهُور السُفْيَانِي الثَانِي

قال الزهري: يخرج -أي السفياني الأول- هارباً من الكوفة من قرحة تصيبه فيموت، ثم يلي بعده رجل منهم اسمه اسم ابـيه واسمه على ثمانية حروف، متزلج المنكبـين حمش الذراعين والساقين مصفح الرأس غائر العينين، فيهلك الناس بعده، وتستمر المعارك بـين جند السفياني الثاني وجنود المهدي القادمة من خراسان والعراق، ويرسل السفياني جيشاً لمقاتلة المهدي في الحجاز، ولكنهم يبايعون المهدي ويقبلون معه الشام[1]، ويفسد السفياني في الأرض[2]، ويسير المهدي إلى الشام ويكاتب السفياني مطالباً له بالبـيعة، فيُلزمه أصحابه البـيعة للإمام، ويذكرونه بخسف الجيش في البـيداء، فيقبل أن يبايع ويلتقي بالإمام في بـيت المقدس، ويعيد المهدي المظالم إلى الناس، وبـينما هم كذلك إذ نقض السفياني العهد وخرج مع جملة من أتباعه من قبـيلة كلب يقاتلون المهدي، فيقاتلهم ويأسر السفياني ويذبحه كما تذبح الشاة[3].

ثم تتمهد الأرض للإمام المهدي ويدخل في طاعته ملوك الأرض، ويهادن الروم في صلح يدوم تسع سنين، لحديث رواه نعيم بن حماد في «الفتن» عن ابن مسعود مرفوعاً: «**يكون بـين**

---

(١) «الإشاعة» ص٢٠٨.

(٢) يشير إلى ذلك حديث رواه جراح بن أرطأة قال: «**في زمان السفياني الثاني المشوه الخلق هدة بالشام حتى يظن كل قوم أنه خراب ما يليهم**». انظر «الفتن» لنعيم بن حماد ص١٥٣ طبعة دار الكتب العلمية، وقد أشارت بعض الأحاديث إلى إشارة في السماء تكون علامة أيضا لخروج السفياني الثاني، فقد روى نعيم بن حماد في «الفتن» ص ١٥١: قال الوليد: أخبرني شيخي عن الزهري قال: «**في ولاية السفياني الثاني وخروجه علامة تُرى في السماء**» .

(٣) «الإشاعة» ص١١٢.

المسلمين وبـين الروم هدنة وصلح، حتى يقاتلوا معهم عدوهم فيقاسمونهم غنائمهم، ثم إن الروم يغزون مع المسلمين فارس فيقتلون مقاتلهم ويسبون ذراريهم، فتقول الروم: قاسمونا الغنائم كما قاسمناكم، فيقاسمونهم الأموال وذراري الشرك، فتقول الروم: قاسمونا ما أصبتم من ذراريكم، فيقولون: لا نقاسمكم ذراري المسلمين أبداً، فيقولون غدرتم بنا، فترجع الروم إلى صاحب القسطنطينية، فيقولون: إن العرب قد غدرت ونحن أكثر عددا وأتم منهم عدة وأشد منهم قوة، فأمدّنا نقاتلهم، فيقول: ما كنت لأغدر بهم ولقد كانت لهم الغلبة في طول الدهر علينا، فيأتون صاحب رومية فيخبرونه بذلك، فيوجه ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً في البحر، ويقول لهم صاحبهم: إذا رأيتم سواحل الشام فأحرقوا المراكب لتقاتلوا عن أنفسكم، فيفعلون ذلك ويأخذون أرض الشام كلها برها وبحرها ما خلا مدينة دمشق والمعتق، ويخربون بـيت المقدس».

قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقلت: كم تسع دمشق من المسلمين؟ فقال النبـي ﷺ: «**والذي نفسي بـيده لتتسعن على من يأتيها من المسلمين كما يتسع الرحم على الولد**» قلت: وما المعتق يا نبـي الله؟ قال: «جبل بأرض الشام من حمص على نهر يقال له (الأريط). فتكون ذراري المسلمين في أعلى المعتق والمسلمون على نهر الأريط يقاتلونهم صباحاً ومساءً، فإذا أبصر صاحب القسطنطينية ذلك وجه في البر إلى قنسرين ثلاث مائة ألف، حتى تجيئهم مادة اليمن ألف ألف، أَلَّفَ اللهُ بـين قلوبهم بالإيمان معهم، أربعون ألفاً من حِمير، حتى يأتوا بـيت المقدس، فيقاتلون الروم فيهزمونهم ويخرجونهم من جند إلى جند حتى يأتوا قنسرين»[1].

وتطول المعارك والحروب من المسلمين والروم يفنى فيها من المسلمين الكثير الكثير، وحتى تثب الروم على من بقي في بلادهم من العرب فيقتلونهم حتى لا يبقى بأرض الروم عربـي و لا

---

(١) المصدر السابق ص٢١٦، راجع بقية الملاحم، وقد تركناها لطول أخبارها.

عربـية ولا ولد عربـي إلَّا قُتل، فيبلغ ذلك المسلمين فيرجعون غضباً لله يجاهدون حتى يفتح لهم ويدخلون (القسطنطينية) فيكيلون الذهب بالأترسة ويقتسمون الذراري حتى يبلغ سهم الرجل ثلاث مئة عذراء، ويخرج عندها الدجال.

وفي تحديد الزمن إشكال، إذ ورد في «الإشاعة» ص٢٢٢: وعن عبدالله بن بسر المازني أنه قال: يا ابن أخي لعلك تدرك فتح القسطنطينية، فإياك إن أدركت فتحها أن تترك غنيمتك منها، فإن بـين فتحها وبـين خروج الدجال سبع سنين . رواه نعيم بن حماد في «الفتن» [1].

وسيخرج كنـز بيت المقدس وحليته التي أخذها طاهر بن إسماعيل، حين غزا إسرائيل فسباهم وسبا حلي بـيت المقدس وأحرقها بالنيران، وحمل منها في البحر ألفاً وسبع مئة سفينة حتى أوردها رومية.

قال حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**ليستخرجنَّ المَهدِي ذلك حتَى يَردَّهُ إلى بـيت المقدس**».

قال في «عقد الدرر»: «**رومية**» أم بلاد الروم، فكل من ملكها يقال له الباب، وهو الحاكم على دين النصرانية، بمنـزلة الخليفة في المسلمين، وليس في بلاد المسلمين مثلها.

كتب محقق «الإشاعة» ص٢٢٣ في الحاشية: الظاهر أن المراد برومية هي (الفاتيكان)، وأن من يطلق عليه الباب هو ما يسمى الآن بالبابا، فهو الحاكم على دين النصرانية كما هو معروف والله أعلم.

---

(١) المصدر السابق ص٢٢٢-٢٢٣.

الظُهُورُ الأخيرُ للدَّجّال

قال الناظم:

أَثْنَاءَ هَـذَا يَظْهَـرُ الدَّجَّالُ تُعِيْنُـهُ الأَمْـوَالُ وَالرِّجَـالُ
أَتْبَاعُـهُ النِّسَـاءُ وَاليَهُـوْدُ وَالمُرجِفُـوْنَ هُـمْ لَـهُ جُنُـوْدُ

تشير الأبـيات إلى بروز الدجال وبدء مرحلة ظهوره في الأرض، ويخرج من يهود أصبهان وقد عاد الإمام المهدي من أرض الروم بغنائمه إلى بـيت المقدس في ألف سفينة [1]، ويقيم المهدي في بـيت المقدس متتبعاً أخبار الدجال ومنتظر مجيئه.

جاء في «الإشاعة» ص٢٢٥ حديث: «**الملحمة العظمى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة أشهر**»، وفي رواية: «**سبع سنين**»، قال أبو داود في «سننه»: وهذه -يعني رواية سبع سنين- أصح، يعني: من رواية سبعة أشهر.اهـ.

ويكون خروجه بادئ ذي بدء يدَّعي الإيمان والصلاح ويدعو إلى الدين فيُتبع ويظهر فلا يزال حتى يقدم الكوفة، ويظهر الدين ويحبه الناس ويتبعونه، ثم يدَّعي أنه نبـي فيفارقه من حوله، ثم يدَّعي الإلهية، ويقول: (أنا الله) فتغشى عينه وتقطع أذنه ويكتب بـين عينيه (ك ف ر)، فلا يخفى على مسلم فيفارقه كل أحد من الخلق في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

يَخْـرُجُ مِـنْ يَهُـوْدِ أَصْبَهَـانِ يَغْـزُوْ بِهِـمْ مَعَاقِـلَ البُلْـدَانِ
وَلَـمْ يَـزَلْ مَهْدِيُّنَـا فِـي القُدْسِ وَعَدْلُهُ فِي الأَرْضِ مِثْلُ الشَّمْسِ
يُجَهِّـزُ الجَيْـشَ الَّـذِيْ يُقَاتِلُـهُ وَيَرْقُبُ الزَّحْـفَ الَّذِيْ يُوَاصِلُهْ

---

(١) المصدر السابق ص٢٢٤.

يَسْـبِقُهُ قَحْـطٌ ثَـلَاثُ سَـنَوَاتْ وَتَرْجُفُ الأَرْضُ ثَلَاثَ رَجَفَاتْ
فِـي أَرْبَعِيْـنَ تَنْطَـوِيْ لَـهُ البِلَادْ يَعُمُّهَـا بِالكُفْـرِ حَتْمَاً وَالفَسَـادْ
وَيَدَّعِـيْ بِأَنَّـهُ الـرَّبُّ المَتِيْـنْ وَأَنَّـهُ المَعْبُـوْدُ فِي الكَـوْنِ يَقِيْنْ
وَيُخْـرِجُ الكَنُـوْزَ وَالأَمْـوَالا يُغْـرِيْ بِهَـا النِّسَـاءَ وَالرِّجَـالا
وَيَبْلُـغُ الشَّـامَ بِجَيْـشٍ وَعَـدَدْ يُحَاصِـرُ المَهْدِيَّ فِي خَيْـرِ بَلَدْ

ويتبعه سبعون ألفاً من يهود أصبهان وثلاثة عشر ألف امرأة، وعامة من يتبعه اليهود والترك والنساء[1].

وتطوى له الأرض مهلاً مهلا طيَّ فروة الكبش، وأنه يسيح الأرض كلها في أربعين يوماً.

يخرج في خِفة من الدين، وإدبار من العلم، فلا يبقى أحد يُحاجه في أكثر الأرض، ويذهل الناس عن ذكره، وإن أكثر من يتبعه الأعراب والنساء.

وإنه يأتي الأعرابـي، فيقول: أرأيتَ أن بعثتُ لك أباك وبعثتُ لك أمك؟ أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطان على صورة أبـيه وآخر على صورة أمه، فيقولان: أي بني اتبعه فإنه ربك، فيتبعه.

قال صاحب «الإشاعة» ص٢٦٧: **المراد بالأعراب هنا كل بعيد عن العلماء ساكن في البادية والجبال، سواء كان من الأعراب أو الأتراك أو الأكراد أو غير ذلك، لأنهم ليس عندهم ما يميزون به بـين الحق والباطل، وأكثر النفوس مائلة إلى تصديق الخوارق.**

وروى الحاكم في «المستدرك» عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**وتأتيه المرأة، فتقول: يا ربّ أحي ابني وأخي وزوجي، حتى إنها تعانق شيطاناً، وبـيوتهم مملوءة شياطين، ويأتيه الأعرابـي فيقول: يا رب أحي لنا إبلنا وغنمنا، فيعطيهم شياطين أمثال إبلهم وغنمهم سواء بالسن**

---

(١) المصدر السابق ص٢٦٤.

والسمة – أي: اللون والحجم – فيقولون: لو لم يكن هذا ربنا لم يحي لنا موتانا»[١].

وفي رواية: «**إنه يأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح وعليهم سارحتهم –أي: ماشيتهم– أطول ما كانت ذرى –أي: أسمنه– وأسبغه –أي: أطوله ضروعاً وأمده خواصر– ثم يأتي على القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين، أي: مقحطين ليس بأيديهم شيء من أموالهم»**[٢].

ورُوي: «**أنه يمرّ على الخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل**» [٣].

وروي أن قبل خروجه ثلاث سنوات شدائد يصيب الناس فيها جوع شديد... إلى أن قال: «**فلا تبقى ذاتُ ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله**»، قيل: يا رسول الله فما يعيش الناس إذا كان ذلك ؟ قال: «**التسبيح والتكبير يجري ذلك منهم مجرى الطعام**» [٤].

ومن عجائب مظاهر عصر الدجال (اختزال الوقت واختلال ترتيبه)، وهي من أعجب ما ورد في الأحاديث عن ذلك، واختلف العلماء في تأويل الأحاديث فمنهم من قال: هو كناية عن اشتغال الناس بأنفسهم من الفتن حتى لا يدرون كيف يمضي النهار، فيكون مضي النهار عندهم كمضيّ الساعة والشهر كاليوم والسنة كالشهر.

وقال بعضهم: بل هو على ظاهره، فقد ورد من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أحمد والترمذي في أشراط الساعة: «**لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كشهر، ويكون الشهر كجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضرمة بالنار**»، قال

---

(١) المصدر السابق ص٢٦٩.

(٢) المصدر السابق ص٢٧٠ رواه مسلم عن النواس بن سمعان.

(٣) رواه مسلم عن النواس بن سمعان.

(٤) رواه ابن ماجه وابن خزيمة والحاكم عن أبي أمامة ، المصدر السابق ص٢٧١.

في «الإشاعة»: فإن جمعنا بين معاني الأحاديث فعلى وجوه:

الأول: أن أيامه أربعون سنة، وسمى السنين أياماً مجازاً، ثم إن أول أيام سنته الأولى كسنة وثانيها كشهر وثالثها كجمعة وباقي أيامها كأيامنا، ثم تتناقص أيام السنة الثانية حتى تكون السنة كنصف سنة.. وهكذا إلى أن تكون السنة كشهر والشهر كجمعة حتى يكون آخر أيامه كالشرارة، يصبح أحدهم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي.

قال في كتاب «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» ص١٣٢ : إن الأربعين سنة التي يعمرها الدجال شمسية وفتنته محصورة أولا في اليهود الخارج فيهم ومن لف لفهم من السحرة والأعراب والنساء وأولاد الزنا، حتى إذا لم يبق من الأربعين سنة إلا أربعون يوما يخرج الدجال بنفسه وشخصه على الناس يسيح في الأرض فتطوى له في أربعين يوما يجوبها بوسائل الاختراعات الحديثة فلا يأمن من شره مؤمن ولا يخلو من فتنته مأمن ولا موطن كما ورد في الحديث «**ينزو فيما بين السماء والأرض**» والله سبحانه وتعالى العاصم من دجله وخطله.اهـ.

وفي المصدر السابق ص١٤٩ قال: عن سليمان بن شهاب العبسي قال: نزل على عبدالله بن مغنم رجل من أصحاب علي رضي الله عنه فزعم أنه ذكر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إِنّ الدجالَ ليس به خفاءٌ، يجيءُ من قبل المشرق فيدعو لنفسِه فيُتبع ويقاتل أناساً فيظهر عليهم، لا يزال ذلك حتى يَقْدُمَ الكوفةَ فيظهر عليهم**» ويؤيد ذلك أن الغلبة للدجال ابتداء ما ورد في حديث مسلم وغيرهم: «**فعَاثَ يميناً وعاثَ شِمالاً.. يا عبادَ اللهِ اثبُتُوا..**» والعَيْثُ: أن يركب الأمر لا يبالي ما وقع، منه وهذا حال الغاضب فهو كالذئب يعيث في الغنم. اهـ.

قال الكاتب ص١٥٥ : فيغلب على أهل فارس (إيران) حتى يغلب على يهود من أصفهان فيخرج منها وهمته المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، ويمر من العجم إلى

ملتقى البحرين[1] من العراق ثم إلى الكوفة ثم إلى الجزيرة العربية فيقاتل المسلمين ويقاتلونه على شط الفرات حتى يأتي المدينة المنورة دون أن يدخلها ثم يتابع مسيرته إلى الشام فيدخل دمشق ثم إلى (فيق) ثم إلى اللد مقر قتله.اهـ.

ويقربه رواية نُعيم والحاكم المارة عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه -أي الدَّجال- يقول: أنا رب العالمين وهذه الشمس تجري بإذني.. أفتريدون أن أحبسها ؟ فيحبس الشمس حتى يجعل اليوم كالشهر والجمعة كسنة، ويقول: أتريدون أن أسيرها ؟ فيحصل اليوم كساعة[2].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند ابن حبان في صحيحه: «**فيسير حتى ينـزل بناحية المدينة، وهي يومئذ لها سبعة أبواب على كل باب ملكان، فيخرج الله شرار أهلها، فيتوجه قبله رجل من المؤمنين ويقول لأصحابه: والله لأنطلقن إلى هذا الرجل فلأنظرن أهو الذي أنذرنا رسول الله ﷺ أم لا ؟... إلى أن قال: فينطلقون به إلى الدَّجال، فإذا رآه المؤمن عرفه بنعتِ رسول الله ﷺ، فيقول: أيُّها الناس هذا الدَّجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، فيأمر به الدجال فيشج، ثم يقول: لَتُطِيعَنِّي فيما أمرتُك أو لَتُشَقَّنَّ شِقَّين، فينادي المؤمن: أيُّها الناس هذا المسيخ الكذاب، من عصاه فهو في الجنة ومن أطاعه فهو في النار، فيؤمر به فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، فيقول له الدجال: والذي أحلف به لتطيعني أو لأشقنك شقين، فيقول: أنت المسيخ الكذاب، فيؤمر به فينشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بـين رجليه**».

وفي رواية: «**ويبعد بـينهما قدر رمية الغرض، ثم يمشي الدجال بـين القطعتين، ويقول لأوليائه: أرأيتُم إن أحييتُه ألستُم تعلمُون أني ربكم؟ قالوا: بلى، فيضرب أحد شقيه أو الصعيد**

---

(١) البحرين موضع بين البصرة وعمان، وإنما ثنوا البحرين لأن من ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء وقرى هَجَرَ. اهـ «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» ص١٥٥.

(٢) «الإشاعة» ص٢٧٤.

عنده ويقول له: قم، فيستوي قائماً، فلما رآه أولياؤه صدقوه وأيقنوا أنه ربهم وأجابوه واتبعوه، وقال للمؤمن: ألا تؤمن بـي، فيقول: ما ازددتُ فيك إلا بصيرة»، ثم ينادي: ألا إن هذا المسيخ الكذاب، فيأخذ الدجال ليذبحه فلا يستطيع إليه سبـيلا، فيأخذ بـيديه ورجليه ويقذف به فيحسب الناس إنما قذفه في النار، وإنما أُلقي في الجنة»[1]، زاد في رواية مسلم في الصحيح: قال أبوإسحاق: فيقال: إن هذا الرجل هو الخضر رضي الله عنه[2].

قال رسول الله ﷺ: «**هذا أقرب امرئ درجة مني وأعظم الناس شهادةً عند رب العالمين**».

وترجف المدينة يومئذ ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلَّا خرج إليه، فتنفي المدينة يومئذ خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد.

ويجيء الدجال فيصعد أُحُداً فيطلع فينظر إلى المدينة، ويقول لأصحابه: ألا ترون إلى هذا القصر الأبـيض، هذا مسجد أحمد[3].

ثم يأتي إلى المدينة فيجد بكل نَقبٍ من أنقابها مَلكاً مُصْلِتاً، فيأتي سَبْخَةَ الجُـرْف[4]. اهـ.

وجاء في مسند الإمام أحمد عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن طيبة المدينة إن الله عز وجل حرم على الدجال أن يدخلها والله الذي لا إله إلا هو ما لها من طريق شيق ولا واسع في سهل ولا جبل إلا عليه ملك شاهر بالسيف إلى يوم القيامة، ما يستطيع الدجال أن يدخلها على أهلها .. الحديث» .

قال في «الإشاعة» : وقد سقط من أعين كثير ممن اتبعه بعجزه عن اقتحام، وفي ذلك أحاديث كثيرة، وأول من يتبعه اليهود والنساء. وفي رواية الطبراني في «الكبير» عن سلمة بن الأكوع

---

(١) المصدر السابق ص٢٧٩ مختصراً.

(٢) «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» ص١٧٨.

(٣) «الإشاعة» ص٢٧٩.

(٤) المصدر السابق ص٢٨١.

قال: أقبلت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبل العقيق حتى إذا كنا على الثنية التي يقال لها ثنية الحوض التي بالعقيق أومأ بيده نحو المشرق فقال: «إني لأنظر إلى مواقع عدو الله المسيح، إنه يقبل حتى ينزل من كذا حتى يخرج إليه غوغاء الناس، ما من نقب من أنقاب المدينة إلا عليه ملك أو ملكان يحرسانه، معه صورتان صورة الجنة وصورة النار، معه شياطين يتشبهون بالأموات، يقولون للحي: تعرفني؟ أنا أخوك أنا أبوك أنا ذو قرابة منك.. ألستُ قد متُّ؟ هذا ربنا فاتبعه ، فيقضي الله ما يشاء منه.اهـ ص١٧١ .

قالت أم شريك بنت أبـي العكر: يا رسول الله.. فأين العرب يومئذ ؟ قال: يومئذ قليل، وجلُّهم ببـيت المقدس وإمامهم المهدي، فيتوجه -الدَّجال- إلى الشام فيفر المسلمين إلى جبل الدخان بالشام، فيأتيهم فيحصرهم ويشد حصارهم ويجهدهم جهداً شديداً.

حتى إذا طال الحصار يتبايعون على القتال بـيعة يعلم الله أنها الصدق من أنفسهم، ثم تأخذهم ظلمة لا يبصر أحدهم كفه، فينـزل ابن مريم عليه السلام، فيُحسر عن أبصارهم وبـين أظهرهم رجل عليه لأمة، فيقولون: من أنت؟ فيقول: أنا عبدالله وكلمته عيسى.

وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني في معجمه وابن منده من طريق ربيعة بن ربيعة عن نافع بن كيسان عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق**» ذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ، قال في كتاب «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» ص٢٠٥ : «**فبينما هم على هذا الحال يأتيهم الله تعالى بأمره وما من هَرَجٍ إلا وبعده فَرَجٌ، فيسمعون النداء من السحر «يا أيها الناس أتاكمُ الغوث.. ثلاثا»**» ، قيل: ينزل عيسى عليه السلام في الساعة السادسة من النهار عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ثم يخرج من يمنة المنارة البيضاء يمشي وعليه السكينة والأرض تقبض له، ويأتي المسجد ويؤذن له مؤذن من المسلمين، ثم يخرج بمن معه يطلب الدجال، وللمسلمين معسكران في القدس

الشريف وفي الأردن، فيجيء أولا سحراً إلى القدس الشريف ويحرض المؤمنين على القتال»

اهـ.

نُـزول عِيسَى ومقتل الدجال وهَلاك اليَهود

وَعِنْدَهَـا يَنــزِلُ عِيْسَـى عَلَمَـا عَلَـى جَنَـاحِ مَلَـكٍ مِـنَ السَّـمَا
بِجَانِـبِ المَنَـارَةِ البَـيْضَـاءِ يَحْمِلُ سَـيْفَ الفَتْـكِ بِالأَعْدَاءِ
وَيَلتَقِـيْ مَـعَ الإِمَـامِ المُقْتَـدَى مُتَّبِعَـاً لِنَهْـجِ طَـهَ أَحْمَـدَا
يَلتَـزِمُ الصَّـلَاةَ خَلْـفَ المُنتَظَرْ وَيَنْصُـرُ اللـهُ بِـهِ الدِّيْـنَ الأَغَـرْ
يَقْتُـلُ لِلدَّجَّـالِ دُوْنَ مَعْرَكَـةْ فـي بَـابِ لُـدٍّ تَعْتَرِيـهِ الهَلَكَـةْ
وَيَهْـزِمُ اللـهُ جُيُـوشَ الدَّجْـلِ مِـنَ اليَهُـودِ بِسُـيُوفِ العَـدْلِ
وَتَنْطِـقُ الحِجَـارَةُ الصَّمَّـاءُ هَـذَا يَهُـوْدِيٌّ لَـهُ الفَنَـاءُ
وَيَنصُـرُ اللـهُ بِعِيْسَـى وَالإِمَـامْ دِينَ الهُدَى وَالكُفْرُ يُفنَى بِالتَّمَامْ

يشير الناظم إلى مرحلة جديدة من مراحل التحول في هذا العصر والمهدي قد التجأ مع أصحابه إلى جبل الدخان فراراً من هجمة الدَّجال، ورغبةً في إعداد أنفسهم لمنازلته، فبينما إمامهم المهدي وقد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نـزل عليهم نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام، فيرجع المهدي القَهْقَرَى ليتقدم عيسى عليه السلام ليُصلي بالناس، ويقال له: يا روح الله تقدم، فيقول: ليتقدم إمامكم فليصلِّ بكم، ويضع عيسى عليه السلام يده بين كتفي المهدي، ويقول له: تقدم فإنها لك أُقيمت، فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف، قال عيسى عليه السلام: افتح – وكأنه شعار المعركة– فيفتح ووراء الدَّجال سبعون ألف يهودي، فإذا نظر إليه الدجال ذَابَ كما يَذوب الملح في الماء وانطلق هارباً، فيقول له عيسى عليه السلام: إن لي فيك ضربة لن تسبقني

بها، فيدركه عند باب لدّ الشرقي فيقتله ويهزم الله اليهود [1].

والجمع بين الروايات المتعددة في هذا المضمار كتب شارح «الإشاعة»: «**طريق الجمع بين هذه الروايات أن عيسى عليه السلام ينـزل أولاً بدمشق على المنارة البيضاء -وهي موجودة اليوم- لستِ ساعات من النهار، وقد مرّ في الفتوحات أنه يصلي بالناس صلاة العصر فيحتمل أنه ينـزل بعد الظهر، ثم مع اشتغاله بالقرعة[2] بين اليهود والنصارى يدخل وقت العصر فيصلي بهم العصر كما في رواية، ثم يأتي إلى بيت المقدس غوثاً للمسلمين ويلحقهم في صلاة الصبح وقد أحرم المهدي والناس كلهم أو بعضهم لم يحرموا فيخرج إليه بعض من لم يحرم بالصلاة فيأتي والمهدي في الصلاة فيتقهقر، ويقول بعض الناس لعيسى: تقدم، فيضع يده على كتف المهدي أن تقدم، ويقول للقائل: ليتقدم إمامكم، فيجيب المهدي، ثم إذا أصبحوا شرد أصحاب الدجال فتضيق عليهم الأرض فيدركهم بباب لدّ فيصادف ذلك صلاة الظهر، فيتحيل اللعين إلى الخلاص منه بإقامة الصلاة، فلما عرف أنه لا يتخلص منه بذلك ذاب خوفاً منه كما يذوب الملح، ويهزم الله اليهود وأصحاب الدجال، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا شجر ولا حجر ولا حائط ولا دابة إلا قال: «يا عبدالله المسلم هذا يهودي**»، وفي رواية: «**هذا دجال فتعال فاقتله؛ إلا الغرقد فإنها من شجر اليهود لا ينطق**».

---

(١) المصدر السابق ص٢٨٢.

(٢) قال في «الإشاعة» ص٣٠١: ينـزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق واضعاً كفيه على أجنحة ملكين لست ساعات مضين من النهار، حتى يأتي مسجد دمشق، يقعد على المنبر، فيدخل المسلمون المسجد وكذا النصارى واليهود وكلهم يرجونه، حتى لو ألقيت شيئاً لم يُصب إلا رأس الإنسان من كثرتهم، ويأتي مؤذن المسلمين، وصاحب بوق اليهود، وناقوس النصارى، فيقترعون فلا يخرج إلا سهم المسلمين، وحينئذ يؤذن مؤذنهم، وتخرج اليهود والنصارى من المسجد ويصلي بالمسلمين صلاة العصر.

قال ﷺ: «**فيكون عيسى عليه السلام في أمتي حكماً وعدلاً وإماماً مقسطاً**»[1].

وعن أبـي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بـيده ليوشكنّ أن ينـزل ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنـزير ويضع الجزية**»[2].

قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا**﴾[4] وقُرِئ في الشواذ (**لعَلَمٌ**) بفتح العين واللام بمعنى العلامة[5].

ومن عظيم سيرته أنه يدق الصليب ويقتل الخنـزير والقردة ويضع الجزية فلا يقبل إلّا الإسلام، ويتحد الدين فلا يعبد إلّا الله ويترك الصدقة -أي: الزكاة- لعدم من يقبلها، وتظهر الكنوز في زمنه ولا يرغب في اقتناء المال للعلم بقرب الساعة، ويرفع الشحناء والتباغض لفقد أسبابها غالباً، وينـزع سم كل ذي سم، ويرعى الذئب والشاة، ويملأ الأرض سلماً وينعدم القتال، وتنبت الأرض بنبتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم وكذا الرمانة، وترخص الخيل ويغلو الثور لأن الأرض تحرث كلها، ويكون مقرِّراً للشريعة النبوية لا رسولاً لهذا الأمة[6].

وفي تحديد مدة إقامته في الأرض وردت أقوال، منها:

- ما ورد في حديث الطبراني وابن عساكر عن أبـي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ قال: «**ينـزل عيسى بن مريم فيمكث في الناس أربعين سنة إماماً**».

---

(١) المصدر السابق ص٢٨٥.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) النساء: ١٥٩.

(٤) الزخرف: ٦١.

(٥) «الإشاعة» ص ٢٩٦.

(٦) المصدر السابق ص ٢٩٩.

والمعتقد أن الحكم والخلافة تكون في هذه المرحلة للإمام المهدي -عليه السلام- حتى يموت، ولم تحدد كتب الحديث فترة موته إلا أن المشار اليه أن أحداً من آل بـيته يتولى الخلافة من بعده، قال الإمام البرزنجي في «الإشاعة» ص٣٣٣: إن المهدي الكبـير هو الذي يفتح الروم ويخرج الدجال في زمنه ويصلي عيسى عليه السلام خلفه وإن الخلافة تكون له ولقريش من بعده، وأن عيسى عليه السلام لا يسلب قريشاً ملكاً رأساً، وإنما تكون إليه المشورة وهو الحكم فيهم يعلمهم الدين، ثم يلي بعد المهدي رجل من أهل بـيته في سيرته. اهـ.

وفي لفظ للطبراني: «**يخرج الدَّجال فينـزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقتله، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً**» (١).

وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «**لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى بن مريم على ذُرْوَةِ (أفيق)** (٢) **بيده حَرْبَةٌ يَقْتُلُ الدَّجّال**» وفي رواية أخرى «**ينزل عيسى بن مريم من المساء على (جبل أفيق) إماماً هادياً وحكماً عدلاً عليه بُرْنُسٌ له.. الحديث**» وأخرج أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (عن الدجال): «**حتى يأتي الشامَ مدينة فلسطين بباب لُدّ** -وقال أبوداود: «**مرة حتى يأتي فلسطين باب لُدّ**» - **فينزل عيسى عليه السلام فيقتُله، ثم يمكثُ عيسى عليه السلام في الأرض أربعين سنةً إماماً عدلاً وحكماً مُقْسِطاً**»(٣).

وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «**ينزل عيسى بن**

---

(١) المصدر السابق ص٣٠٣.

(٢) اسم جبل.

(٣) «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» ص٢١٠.

مريم فإذا رآه الدجال ذاب كما تذوب الشحمة، فيقتل الدجال ويُفَرَّقُ عنه اليهودُ فيقتلون»[1].

وفي هذا دلالة واضحة على أن أبناء العنصر اليهودي يعملون بوعي أو بغير وعي منذ بداية وجودهم على تنفيذ مشاريع الدجال في العالم كما سبق ذكره، وأن مصيرهم في نهاية الأمر هو مصير الدجال يقتلون معه تحت رايته، ويؤكد ذلك ما ذكره أبوحيان في تفسيره «البحر المحيط» عند الآية في سورة النساء ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا** ﴾ :

قال عبدالرحمن بن يزيد: الوجوه هي أوطانهم وسكناهم في بلادهم التي خرجوا إليها، وطمسها إخراجهم منها، والرد على الأدبار رجوعهم إلى الشام من حيث أولاً، وحسن الزمخشري هذا القول .اهـ.

قال الشيخ مؤلف «ظهور الدجال مسيخ الضلالة» تعليقا على ما ذكر:

قلت: ففي هذه الآية الكريمة إخبار عما سيقع في مستقبل الزمان، فقد حكى الله عز وجل عن اليهود أنواع مكرهم وإيذائهم، ثم عقب ذلك الأمر بالمبادرة إلى سلوك محجة الهدى مشفوعا بالتحذير والتخويف والوعيد الشديد على المخالفة بقوله تعالى: ﴿ **ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا** ﴾ . ذكر القرطبي في تفسيره: قال المبرد: إنه منتظر بعد ولابد من طمس اليهود ومسخ قبل قيام الساعة يوم تحشرهم النار إلى الشام أرض المحشر (أي: الاجتماع) ويظهر الدجال عليه اللعنة، وينزل عيسى عليه السلام وكان أمر الله مفعولا، أي: وعده الذي قضاه وحكم به مفعولا نافذا واقعا كائنا لا محالة.

---

(١) المصدر السابق ص١٢١.

مَراحلُ التَحوَّلات بـيَأْجُوجَ ومَأجُوج

وَقبْـلَ مَـوْتِ السَّـيِّدِ المَسِـيْحِ　　تَأْتِي جُيُـوْشُ الهَتْـكِ وَالتَّقْبِيْحِ
جُمُـوْعُ يَأْجُـوْجَ وَمَأْجُوْجَ عَلَى　　كُلِّ بِـلَادٍ كَالسِّـبَاعِ فِـي الخَـلا

تشير الأبـيات إلى ما يحصل من التحول في آخر عهد عيسى عليه السلام وما يبتلي الله به أهل الإيمان من خروج يأجوج ومأجوج[1]، قال في «الإشاعة»: «وهي من الفتن العظام، وقد أشير إليهم في غير آية، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، وقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكون عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، ويأجوج ومأجوج، ونـزول عيسى بن مريم، وثلاث خسوفات، ونار تخرج من قعر عدن أبـين... الحديث**»[2]، وليس الترتيب شرطاً في بروز هذه الآيات وإنما منها ما يتقدم على الآخر، واختلف في أصل نسبتهم: فقيل: هم من بني يافث بن نوح، وقيل: هم من الترك، وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الديلم.

وأخرج أحمد والطبراني عن خالد بن عبدالله بن حِرملة: «**إنكم تقولون لا عدو، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً حتى تقاتلوا يأجوج ومأجوج، عراض الوجوه صغار العيون صهب**

---

(١) أخبر ﷺ عن بداية ظهور يأجوج ومأجوج منذ مرحلته ﷺ وهو في المدينة، حيث قال فيما رواه البخاري وغيره : «**فُتِحَ اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثل هذا**» وحلَّق بين أصبعيه السبابة والإبهام. وفي هذا الحديث دلالة على بروز العديد من الفتن وهو ﷺ على قيد الحياة كظاهرة، ثم ما لبث أن تحقق خطرها فيها بعد ذلك ، والله أعلم.

(٢) رواه ابن ماجه عن حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الشعور، من كل حَدَبٍ ينسلون، كأنَّ وجوههم المجان المطرقة» «الإشاعة» ص٣١٨.

وأخرج الترمذي وحسنه ابن حبان والحاكم وصححه عن أبـي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ورفعه: «**في السدّ يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فتخرقونه غداً، فيعيده الله كأشد ما كان، حتى إذا بلغ مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم: (ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله تعالى) واستثنى، قال: فيرجعون فيجدونه كهيئته حين تركوه، فيخرجون على الناس**» اهـ «الإشاعة» ص [1]٣٢٠.

وقد فسر بعض الباحثين المعاصرين[2] هذا الحديث بعد طول دراسة معاينة للموقع ذاته[3] ومقارنة بينه وبين ما جاء في القرآن، وما أثبتته الحفريات والآثار بأن هذا السد (ردم محكم وحاجز عظيم)، كما وصفه القرآن في سورة الكهف ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ فهو مشروع مكون من عدة نشاطات وعدة أعمال ووظائف وعدد كبير من العمال والآلات والوسائل والمواد المتنوعة من العناصر المعدنية كالحديد والقطر (الطين) والخشب والوقود وغيرها على مدى أعوام كثيرة

---

(١) ورد في «الإشاعة» حديث يتعلق بوصول الرسالة المحمدية إليهم، وهو ما رواه أبو نعيم بن حماد في «الفتن» عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً قال: «**بعثني الله حين أسري بـي إلى يأجوج ومأجوج فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا أن يـجيبوني، فهم في النار مع من عصى من ولد آدم وولد إبليس**» ص٣٢١.

(٢) هو الباحث حمدي بن حمزة أبوزيد من مواليد ينبع بأرض الحجاز حامل ماجستير في الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة الملك سعود – الرياض ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) وعضو مجلس الشورى وله وظائف عديدة ذكرت في آخر صفحة من كتابه القيم المسمى «فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج» طبعة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٣) الموقع المشار إليه يقع كما ذكر الباحث ص٤٨٥ في مدينة (جنج جو) وهي إحدى المدن الصينية القديمة جدا، وقد فصل الباحث صفة الردم وارتفاعه وما تبقى منه في عدة صفحات، وأشار إلى أن مدينة (جنج جو) هي عاصمة منطقة (هينان) التي تقع في وسط الجزء الشرقي من الصين وفي الجنوب من النهر الأصفر. اهـ. «فك أسرار ذي القرنين».

قدرها بعضهم بثمانية عشر سنة، بناه ذو القرنين في عهد أحد ملوك الصين من أسرة (شانغ) في الفترة (١٣٣٠ - ١٠٥٠) ق.م. وهو أول ردم بني في الصين.

وتتلخص الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث فيما يلي:

١- إن مضامين الآيات الكريمة من سورة الكهف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ جاءت موافقة (كإعجاز قرآني) لترجمتها بالغة الصينية متفقة مع أحداث ووقائع تاريخية وقعت في بلاد الصين خلال فترة دخول ذي القرنين إليها.

٢- إن الوصول إلى معرفة مضمون كلمتي (يأجوج ومأجوج) الصينية الأصل بعد ترجمتها إلى اللغة العربية ييسر الوصول إلى تفسير العديد من الأحداث التاريخية الماضية ، ويؤكد الحقائق القرآنية والنبوءات المحمدية حول هذه القضية.

٣- إن هذه المعجزة القرآنية عن يأجوج ومأجوج ليست قاصرة على البعد اللغوي فقط؛ ولكنها بصورة أهم وأخطر معجزة لما تحمله من مضامين وأبعاد تاريخية وديمغرافية وعلمية تهم البشرية كلها في ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

٤- إن ترجمة ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تعني أن سكان قارة آسيا وسكان قارة الخيل مفسدون في الأرض، ومعنى سكان قارة الخيل -أي: من يسمون (شعب الخيل) وكذلك شعب الرماة- هم الدول المحيطة بالصين في تلك الحقبة من الزمن والتي كانت للصين معها حدود وعلاقات وقتها، وهي اليابان وكوريا ومنشوريا وسيبيريا ومنغوليا ودول آسيا الوسطى، وهم الذين يصفهم الصينيون بيأجوج أو بني يأجوج، وهؤء اعتادوا على شن الحروب قديما على الصين حتى قرون قريبة، وكان آخرها ما حدث

في القرن الثالث عشر الميلادي على يد جنكيز خان وهولاكو الذين اعتدوا وعاثوا في الأرض فسادا.

٥- بناء على المعطيات والمعلومات والتحليلات التي توصل إليها البحث صار من المتوقع والممكن أن يكون ما يسمى (بين السدين) مكانا محددا ومعروفا في بلاد الصين، وإن الاحتمال الأكبر لموقع ذلك المكان هو في جبال معينة شمال مدينة (جنج جو) في مقاطعة هينان Henan.

٦- بتطبيق معنى الآية القرآنية الأخرى في سورة الأنبياء ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴾ تصبح ترجمتها من اللغة الصينية إلى اللغة العربية (حتى إذا فتحت شعوب قارة آسيا وشعوب قارة الخيل وهم من كل حدب ينسلون) فهم مفسدون في الأرض. وهذا يعني أن شعوب وسكان قارة آسيا (يأجوج) وسكان قارة الخيل (مأجوج) مفسدون في الأرض حقا.

ويشير تاريخ الصين القديم والوسيط والحديث مؤكدا أن الصينيين كانوا دائما هدفا لاعتداءات جيرانهم من سكان آسيا (اليأجوجيين) وسكان قارة آسيا الأوروبية وسكان آسيا الوسطى وسكان قارة الخيل (المأجوجيين)[(١)].

٧- هناك أسباب وعوامل هامة هي التي جعلت (سكان قارة آسيا «يأجوج» وسكان قارة الخيل «مأجوج») برابرة ومتوحشين كما جاء وصفهم في القرآن في سورة الكهف ﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(٢)] منها قسوة الظروف الجغرافية والبيئية والمعيشية، وتوفر أدوات ووسائل وموارد التفوق القتالي كالمهارات والخيول وأدوات القتال وروح الغرور

---

(١) المرجع السابق ص٣٦٢.

(٢) الكهف: ٩٤ .

والشعور بالقوة، إضافة إلى الولع الطبيعي بشن الحروب واكتساب المعيشة بالبطش والوحشية وانعدام الرحمة في معاملة الأعداء والخصوم.

٨- انعدام الديانة الصحيحة ووقوعهم في الخرافات الجاهلية منذ القدم.

٩- اتصاف هذه الشعوب بصفات متميزة كصفة البشرة وميلها إلى اللون الأصفر، والوجوه العريضة، وبروز عظام الخدود والوجنات، والعيون السوداء الضيقة والشعر الأسود.

وقد جاءت بعض هذه الصفات في مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم كما رواه الإمام أحمد: «**إنكم تقولون لا عدو لكم، إنكم لا تزالون تقاتلون عدوا حتى يخرج يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون صهب من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة**[(١)]».

إن هذا التطابق في الوصف النبوي ليأجوج ومأجوج مع ما تم استخلاصه من البحث حول صفاتهم لهو معجزة نبوية بدون ريب[(٢)].

١٠- تفرد القرآن الكريم في شرح معلومات (يأجوج ومأجوج) برواية صحيحة مطابقة للواقع خلافا لما جاء عن (يأجوج ومأجوج) في التراث الغربي، بل ويجد الباحث أن جميع التفسيرات التي طرحت من قبل منسوبي الدين المسيحي ومن قبل الكتاب الغربيين جاءت على الخرص والظن، بينما نجد عبارة (يأجوج ومأجوج) في القرآن حقيقة واضحة جاءت بلسان قوم معروفين قديما وحديثا وأن اللفظ والمضمون جاءا مطابقين تماما لمفاهيم وقواعد اللغة الصينية، ومطابقين أيضا لأحداث ووقائع تاريخية

---

(١) المرجع السابق ص٣٧٥.

(٢) المرجع السابق ص٣٧٦ .

وجغرافية أثبتتها الاكتشافات والحفريات عبر العصور المختلفة[1].

١١- وفقا لترجمة الآية الكريمة للغة الصينية فإن معناها (حتى إذا فتحت ديار بلدان سكان قارة آسيا وديار بلدان سكان قارة الخيل وهم من كل حدب ينسلون) فهناك سؤال عن ماهية وطبيعة هذا الفتح؟ ومن هم الفاتحون؟ ومتى زمن ذلك الفتح؟ وما هي علامات وآثار ذلك الفتح؟ وهل فتحت بلاد يأجوج ومأجوج؟ وما هي العلامات؟

قال المؤلف: من المعروف تاريخيا منذ آلاف السنين بأن جميع دول يأجوج ومأجوج -أي: دول قارة آسيا ودول قارة الخيل- هي دول تتصف بالعزلة والانغلاق عن جميع دول العالم، ولعل السبب في ذلك هو أن هذه الدول تقع في أقصى الطرف الشمالي للأرض وأن بينها وبين القارات الأخرى بحار ومساحات شاسعة يصعب الوصول إليها بوسائل المواصلات القديمة، كما أن طبيعة شعوب هذه الدول كانت تميل إلى العزلة ضمن نطاقها الإقليمي.

ويأتي (الفتح) على معانٍ منها:

- الفتح بمفهوم الإسلام يعني دخول البلدان والشعوب في دين الإسلام، وفتح مكة ودخول أهلها في الإسلام منذ حوالي ١٤٢٠ سنة يعطي مثالا واضحا لهذا المعنى، فهل تعني الآية الكريمة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ أن شعوب هذه الدول سيدخلون في الإسلام؟

- أم أن الفتح الوارد في الآية يعني احتلال هذه الدول من قوى أجنبية بقوة السلاح؟ فإن كان هذا هو المقصود فإن جميع دول هاتين القارتين تعرضت في القرن التاسع عشر والعشرين للحروب والاحتلال من قوى أجنبية أو من قوى داخل هاتين

---

(١) المرجع السابق ص٤٠٥ .

القارتين.

- أم أن الفتح الوارد في هذه الآية يعني انفتاح دول قارة آسيا ودول قارة الخيل (يأجوج ومأجوج) على العالم كما هو الحال في هذا العصر المعروف (بالعولمة)، والذي تهيمن عليه قوى متصارعة تعلو كل منها على الأخرى وتلعب على ساحتها دول قارة آسيا ودول قارة الخيل دورا محوريا متصاعدا كما هو الحال في عصرنا، والمتتبع لتطور وصعود دول (يأجوج ومأجوج) وبروز بعضها كقوة مؤثرة على المسرح الدولي كالصين واليابان وكوريا يلاحظ ويلمس الكثير من الإشارات والعبارات التي تشير إلى مدلولات مرتبطة بمضمون عبارة الفتح.

١- تحدثت شعوب الأمم الأوروبية وغيرها عن ظاهرة يأجوج ومأجوج بأكثر من فكرة ومفهوم، ونقل المؤلف نماذج عديدة منها ما جاء في الموسوعة البريطانية حيث قال: فقد جاء بأن الإنجيل يعتبر (جوج) قوة عدوانية يتحكم فيها الشيطان وأن هذه القوة ستظهر في آخر الزمان، كما جاء في مقاطع إنجيلية وفي أسفار مسيحية ويهودية أن (جوج) مقيد بقوة عدوانية أخرى هي (مأجوج) بينما جاء في مواضع أخرى بأن مأجوج هو مكان ومنشأ أصل جوج.

٢- أما بالنسبة للتراث الأوروبي فإن قصة ما يسميه المسيحيون والغربيون بصفة عامة (جوج ومأجوج) قد اتخذت أبعادا واهتمامات كبيرة، وبينما أصبح وجود ما سمي (جوج ومأجوج) جزءا من العقيدة الدينية لدى الأوروبيين، فإن الادعاء بموطنهم في شمال الكرة الأرضية كان موضع خلاف لمدة طويلة، الأمر الذي جعل مصدر الهجوم البربري الذي تعرضت له أوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي على يد المنغول أكثر غموضا وأكثر تهديدا.

إن جميع الذين بحثوا في هذا الشأن من علماء الدين المسيحي وعلماء الجغرافيا

الطبيعية والجغرافيا البشرية الغربيين لم يستطيعوا الوصول حتى الوقت الحاضر إلى ماهية ما سموه (جوج ومأجوج) وظلت هذه المسالة في تراث الشعوب المسيحية والغربية لغزا غامضا ومحيرا وباعثا على الخوف والجزع.

أما العبارة القرآنية فقد تم التوصل بفضل الله وعونه لأساسها وأصلها اللغوي المتمثل في اللغة الصينية وأمكن بعد ذلك فك لغزها ومعرفة مضامينها.

٣- إن صح بأن عبارة (جوج ومأجوج) قد جاءت ضمن الإنجيل فهي إذن في منزلة وحي من عند الله، لكن عدم إمكانية الكشف عن أساسها وأصلها اللغوي سبب تحريفها عن مدلولها ونطقها الأصلي، أو أنها لم تنزل ضمن الإنجيل ولكنها اقتبست من القرآن الكريم ثم حرف نطقها ليتلاءم مع طبيعة الألسنة الغربية.

وفي جميع الحالات فإن ما جاء في القرآن الكريم حول قصة يأجوج ومأجوج لفظا ومضمونا وأحداثا هو في الحقيقة الحق بعينه، وهذا يؤكد إعجاز القرآن العظيم وأنه موحى من عند الله وأنه الكتاب المهيمن على كل الكتب التي سبقته[١].

---

(١) المرجع السابق ص٤١٩ .

عيسى عليه السلام ويَأجوج ومَأجوج

يَرْمُوْنَ بِالنَّشَّـابِ أَرْضاً وَسَـمَا ... حَتَّى يَـرَوْنَ المَطَـرَ الهَامِيْ دَمَا
وَيَشْـرَبُوْنَ كُلَّ مَـاءٍ بَائِـنِ ... يُقَتِّلُـوْنَ كُلَّ حَـيٍّ كَائِـنِ
وَيُرْسِـلُ اللـهُ عَلَيْهِـمْ مَرَضَـا ... يُبِـيْدُهُـمْ حَتَّـى يَكُونُـوْا غَرَضَا
وَيَبْعَـثُ اللـهُ طُيُـوْرَاً كَاسِـرَةْ ... تَحْمِلُهُـم إِلَـى البِحَارِ الهَـادِرَةْ
وَتُغْسَـلُ الأَرْضُ بِأَمْطَارِ السَّمَا ... مِنْ زَهَـمِ الأَمْوَاتِ حَتَّـى تَنْعَمَا

أخرج مسلم من حديث النواس بن سمعان بعد ذكر الدجال وهلاكه على يد عيسى عليه السلام، قال: «**ثم يأتيه -أي عيسى عليه السلام- قوم قد عصمهم الله من الدجال فيمسح وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: أن قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فاحزر عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس، فينشفون الماء ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً، ويمرون ببحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويحصر عيسى نبي الله أصحابه حتى يكون رأس الثور ورأس الحمار لأحدهم خيراً من مائة دينار**» إشارة إلى الحاجة إلى الطعام.

وفي رواية لمسلم وغيره: «**فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هَلمُّ فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيردها الله عليهم مخضوبة دماً، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل عليهم النغف في رقابهم**»، وفي رواية: «**دوداً كالنغف في أعناقهم**[1]»، **فيصبحون موتى**

---

(١) النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

كموت نفس واحد لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشتري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو، فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه قد وطنها على أنه مقتول، فينـزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين.. ألا أبشروا.. إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم فما يكون لها وعي إلا لحومهم، فتشكَر عنه- أي تسمن - بأحسن ما شكرت عن شيء، وحتى إن دواب الأرض لتسمن، ويهبط نبـي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون موضع شبر إلا ملأ زهمهم -أي: نتنهم من الجيف- فيؤذون الناس بنتنهم أشد من حياتهم، فيستغيثون بالله، فيبعث ريحاً صمانية غبراء فتصير على الناس غماً ودخاناً وتقع عليهم الزكمة، ويكشف الله ما بهم بعد ثلاث، وقد قذفت جيفهم في البحر».

وفي رواية: «فيرغب نبـي الله عليسى عليه السلام وأصحابه إلى الله فيرسل طيراً كأعناق البخت تحملهم فتطرحهم حيث شاء الله تعالى، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بـيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة - المرآة - ثم يُقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويوقد المسلمون من قسيّ يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين»[1].

وَلَـمْ يَـزَلْ عِيْسَـىْ وَكُلُّ مُؤمِـنِ   يَدْعُـوْنَ مَوْلَاهُمْ دُعَـاءَ المُوْقِنِ
وَيَشْـكُرُوْنَ الحَقَّ فِيْمَا قَدْ صَنَعْ   وَمَـا أَزَاحَ مِـنْ بَـلَاءٍ وَرَفَـعْ
وَيَنـزِلُ الرَّوْحَاءَ عِيْسَـى مُعْتَمِرْ   وَقِيْـلَ: حَاجَّـاً بَعْدَ إِهْـلَالٍ وَبِرْ
وَيَدْخُـلُ المَدِيْنَـةَ المُنَـوَّرَةْ   مُسَـلِّماً عَلَـى النَّبِــيْ وَزَائِـرَهْ
وَفِـي مَقَـامِ الرَّوْضَـةِ البَهِيّـةِ   يَرْكَـعُ عِيْسَـى رَكْعَـةَ التَّحِيَّـةِ

(١) «الإشاعة» ص ٣٢٤.

وَبَعْـدَ عُمْـرٍ وَزَوَاجٍ ووَلَـدْ وَصَوْلَـةٍ تَظْهَـرُ فـِي كُلِّ بَلَـدْ
يُسْـلِمُ عِيْسَـى رُوْحَهُ الشَّـرِيفَةْ وَقَبْـرُهُ فِـي الحُجْـرَةِ المُنِيْفَـةْ

تشير الأبـيات إلى حال عيسى عليه السلام بعد هَلاك يأجوج ومأجوج، ومكثه في الشام، ثم توجهه إلى مكة والمدينة، وأدائه فريضة الحج، وكذلك زيارة قبر المصطفى ﷺ، يؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم وصححه ورواه ابن عساكر عنه: «**ليهبطنَّ ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً، وليسلكن فجاً حاجاً أو معتمراً، وليأتين قبري حتى يسلم عليّ، ولأردنّ عليه**»[1].

وكان أبو هريرة يقول: أي بَنِي أخي، إن رأيتموه فقولوا: أبو هريرة يقرئك السلام[2].

وأخرج الحاكم عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال ﷺ: «**من أدرك منكم عيسى بن مريم فليقرئه مني السلام**»[3].

وفي مسند أحمد ومصنف ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إِنّي لَأَرْجُو إِنْ طال بي عُمْرٌ أن أَلْقَى عيسى بنَ مريمَ عليه السلام، فإِنْ عَجَّلَ بي مَوْتٌ فَمَن لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلامَ» .

وورد أن عيسى يتزوج بعد نـزوله ويولد له ثم يموت بالمدينة ولعل موته عند حجه وزيارته

---

(١) يلاحظ في هذا اللفظ للحديث شدّ عيسى للرحل لزيارة القبر، وليس كما يدعيه أهل النقض في تبديع من ذهب لزيارة قبر رسول الله ﷺ، كما أن عيسى عليه السلام يقبل بوجود قبره بجانب أبـي بكر وعمر، مع أن طائفة من المسلمين يمتنعون من زيارة المواجهة لأن قبري أبـي بكر وعمر بجانب رسول الله ﷺ، وإذا كان دفنهما خطأ فبالبديهة أن يقوم عيسى عليه السلام بنبش القبرين أو منع الزيارة كما يعتقده هولاء؛ ولكن الحقيقة غير هذا؛ ولكن من الذي يعتبر أو إلى الحق يأتمر؟ ~~(الذي عليه الروايات عند الشيعة أن المهدي هو الذي سيقوم بذلك بأشنع صورة.. ولا وجود للدجال أو عيسى عليه السلام في كتبهم)~~

(٢) «الإشاعة» ص٣٠٤.

(٣) المصدر السابق ص٣٠٥ ، وأقول اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي هريرة: فمن أدرك الإمام المهدي وعيسى عليه السلام فليقرئهما مني السلام، وليطلب الدعاء والاستغفار.

النبـي ﷺ[1].

وأخرج الترمذي وحسنه وابن عساكر عن عبدالله بن سلام قال: مكتوب في التوراة صفة محمد ﷺ وعيسى يدفن معه[2].

وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني وابن عساكر الأثر: «**يُدْفَن عيسى بن مريم مع رسول الله ﷺ وصاحبـيه فيكون قبراً رابعاً**»[3].

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

تَحولات مَا بَعد عِيْسَى عليه السلام

وَيَظْهَـرُ المُقْعَـدُ مِـنْ تَمِيْـمِ ... أَوْ مِـنْ قُرَيْـشٍ قِيْـلَ بِالتَّعْمِيْـمِ
وَهَيْثَـمٌ وَمِثْلُـهُ الجَهْجَـاهُ ... لَهُـمْ مّجَـالٌ وَاسِـعٌ وَجَـاهُ
وَبَعْـدَ هَـذَا يَظْهَـرُ القَحْطَانِـيْ ... يُجَـدِّدُ الإِسْـلَامَ فِـي البُلْـدَانِ
يَسُوْقُ كُلَّ الخَلْقِ سَوْقاً بِعَصَاهْ ... وَيَفْتَـحُ الـرُّوْمَ بِـآلَافِ الغُـزَاهْ

تشير الأبـيات إلى مظاهر التحولات الجارية بعد عيسى عليه السلام، وقد ورد في السير أن الخلافة على عهد عيسى عليه السلام تكون للمهدي ثم من يخلفه ولقريش من بعده، وأن عيسى عليه السلام لا يسلب قريشاً ملكها رأساً، وإنما تكون إليه المشورة، وهو الحكم فيهم، يعلمهم الدين.

ثم يلي بعد المهدي رجل من أهل بـيته في سيرته ويكون «**القحطاني**» مع المهدي في زمانه، ويكون أميراً على السرية التي يرسلها المهدي إلى فتح مدينة الروم، فيفتحها في حال تابعيته للمهدي لا في حال خلافته، ثم يموت عيسى عليه السلام كما تقدم ويتولى بعد عيسى رجل من قريش يسمى «**المقعد**»، فإذا مات تولى من قريش من لا يحسن سيرته، فيخرج عليه المخزومي، ولعله «الجهجاه»، ويدعو إلى الفرقة، فيخرج عليه القحطاني بسيرة المهدي، وهو الملقب المنصور، ويمكث إحدى وعشرين سنة، ثم تنتقص الدنيا ويملك الموالي ويغلب الشر إلى أن تطلع الشمس من مغربها والله أعلم[1].

واختلفت الروايات في عرض هذا المتسلسل المذكور، ومنها:

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣٣.

ينـزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال ويمكث أربعين عاماً يعمل فيهم بكتاب الله تعالى وسنتي ويموت، فيستخلفون بأمر عيسى رجلاً من بني تميم يقال له «المعقد»، فإذا مات المقعد لم يأتِ على الناس ثلاث سنين حتى يرفع القرآن من صدور بعضهم ويبدو النقض فيهم.

وأخرج نعيم بن حماد عن سليمان بن عيسى، قال: بلغني أن المهدي يملك أربع عشرة سنة ببيت المقدس ثم يموت ثم يكون من بعده رجل من قوم تبَّع، يقال له: المنصور، -أي هو القحطاني- يمكث ببيت المقدس إحدى وعشرين سنة، ثم يقتل، ثم يملك رجل من الموالي ويمكث ثلاثة سنين ثم يقتل، ثم يملك بعده «هيثم» ثلاث سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام[1].

وروى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «**لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل يقال له**: «**الجهجاه**»، وأخرج الشيخان عنه: «**لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه**».

ويبدو من استقراء الأحاديث المتعارضة أن القحطاني يعيش في زمن المهدي، كما ذكر ذلك الإمام البرزنجي في «الإشاعة» ص ٣٣٣ قال: يكون -أي القحطاني- أميراً على السرية التي يرسلها المهدي إلى فتح مدينة الروم، فيفتحها حال تابعيته لا في حال خلافته ومسؤوليته ثم يموت عيسى عليه السلام ويتولى باستخلافه (المقعد) وهو من قريش، فإذا مات تولى من قريش من لا يحسن سيرته، فيخرج عليه القحطاني بسيرة المهدي، وهو الملقب بالمنصور، وهو المراد بـ«**رجل من تبع**»، وبـ«**رجل من اليمن**» في الأحاديث.

وَبَعْدَهُ تَأْتِي شُمُولُ الفِتَنِ ... وَيَقْلِبُ العَالَمُ ظَهْرَ المِجَنِ
وَتُهْدَمُ الكَعْبَةُ مِنْ أَسَاسِهَا ... بِحَبَشِيٍّ أَفْجَحٍ يَطْمِسُهَا

---

(١) هكذا في «الإشاعة»، ورد اسم (هيثم) ص ٣٣٠-٣٣١.

وَتُخْرَجُ الكُنُوزُ مِـنْ تَحْتِ البِنَا		وَيُمْنَـعُ الحُجَّـاجُ مَنْعَـاً مُعْلَنَـا

تشير الأبـيات إلى مظهر من مظاهر التحولات بعد عيسى والمهدي عليهما السلام، وهو غزو الكعبة وهدمها، فقد أورد الشيخان والنسائي عن أبـي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «**يخرب الكعبة ذوالسويقتين من الحبشة**»، وأخرج أحمد عن ابن عمر نحوه زاد: «**ويسلبها حليتها ويجردها كسوتها، ولكأنـي أنظر إليه: أُفَيْدَعُ يضرب عليها بمسحاته ومعوله**».

وأخرج الأزرقي عنه، قال: «**يجيش البحر بمن فيه من السودان، ثم يسيلون سيل النمل، حتى ينتهوا إلى الكعبة فيخربونها، والذي نفسي بـيده إني لأنظر إلى صفته في كتاب الله تعالى أفيجع[1] أصيلع[2] أفيدع[3]**» «الإشاعة» ص ٣٣٢.

وفي الصحيحين: «**كأني به أسود أفجح يهدمها حجراً حجرا**»[4].

وَيُرْفَـعُ القُـرْآنُ مِـنْ مَصَاحِفِـهْ		وَالنَّاسُ تَأْبَى الأَخْذَ مِنْ مَعَارِفِهْ

تحقيقاً لما ورد في الحديث عن ابن عمر عن النبـي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يرفع الركن والقرآن**»، وروى الأزرقي في «تاريخ مكة»: «**أول ما يرفع الركن والقرآن ورؤيا النبـي ﷺ في المنام**»[5].

وروى الديلمي عن حذيفة وأبـي هريرة رضي الله عنهما معاً، قالا: «**يُسرى على كتاب الله ليلاً فيصبح الناس وليس منه آية ولا حرف في جوفٍ إلا نسخت**». وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما: «**لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث جاء فيكون له دوي حول العرش**

---

(١) أفيجع تصغير أفجح، أي في رجليه إعوجاج.

(٢) أصيلع تصغير أصلع، وهو من ذهب مقدمة شعر رأسه.

(٣) أفيدع تصغير أفدع، أي: في يديه اعوجاج.

(٤) المصدر السابق ص٣٣٤

(٥) «الإشاعة» ص٣٧٠.

كدوي النحل، فيقول الرب عز وجل مالك؟ فيقول: منك خرجتُ وإليك عدتُ أُتلى فلا يُعمل بـي، فعند ذلك رفع القرآن»[1].

---

(١) «الإشاعة» ص٣٧٠.

ظُهورُ الدّابّـةِ وطُلوعُ الشَّـمْسِ مِن مَغْرِبِها

وَبَعْدَهَـا الدَّابَّـةُ تَأْتِي كَالقَـدَرْ مِـنَ الصَّفَـا بِمَكَّـةٍ تَقْفُوْ البَشَـرْ
فَتَسِـمُ الكَافِـرَ فِـي الجَبِـيْـنِ وَمِثْلَـهُ المُسْـلِمُ بِالتَّعْيِيْـنِ
وَاخْتَلَـفَ النَّقْـلُ عَـنِ البَـيَـانِ عَنْ سَـابِقِ الآيَـاتِ فِـي الزَّمَانِ
فَقِيْـلَ: إِنَّ الشَّـمْسَ تَأْتِـي أَوَّلا تَلْحَقُهَـا الدَّابَّـةُ سَـيْرًا عَجِـلا

تشير الأبـيات إلى إحدى علامات التحول في آخر الزمان وهو ظهور الدابة، ويشير إلى الإشكال الوارد عند أهل العلم في شأن تقدم الدابة على طلوع الشمس، ففي بعض الروايات أن الشمس تطلع من مغربها أولاً ثم تلحق الدابة، وقد رجحنا هنا تبعاً لما هو وارد في بعض الروايات سبق الدابة على طلوع الشمس كما سيأتي.

أخرج نعيم ابن حماد في «الفتن» والحاكم في «المستدرك» عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**لا يلبثون الناس بعد مأجوج ويأجوج حتى تطلع الشمس من مغربها، وجفت الأقلام وطويت الصحف... إلخ الحديث**»[1].

قال في «الإشاعة»: وهذا يدل على تأخر الدابة عن الشمس، ويتمتع المؤمنون بعد ذلك أربعين سنة لا يتمنون شيئاً إلَّا أعطوه.

وأما خروج الدابة، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[2].

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٦.

(٢) النمل: ٨٢ .

قال أهل التفسير في معنى الآية: إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وقرئ «تَكْلُمُهم» بفتح التاء وسكون الكاف، أي: تجرحهم.

وسأل أبو الحواري ابن عباس رضي الله عنهما: تَكْلُمُهُمْ أو تُكَلِّمُهُمْ ؟ فقال: كِلا ذلك تفعل، تكلم المؤمن وتكلم الكافر.

وجزم البيضاوي أنها الجساسة، وورد أنها تسم الناس المؤمن والكافر، فأما المؤمن فيرى وجهه كأنَّه كوكب دري ويكتب بين عينيه مؤمن، وأما الكافر فيكتب بين عينيه نكتة سوداء (كافر) «الإشاعة» ص٣٦٠.

وفي رواية: «**فتلقى المؤمن لتسمه في وجهه ولكنه يبيض له وجهه، وتسم الكافر ولكنه يسود وجهه**»، وفي رواية: «**فارفضّ – أي تفرق – الناس عنها شتى ومعاً، وتثبتت عصابة المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله، فبدأت بهم وحلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ منها في صلاته فتأتيه من خلفه، فتقول: يا فلان الآن تصلي، فيقبل عليها فتسمه في وجهه ثم تنطلق**» [١].

قيل: تخرج دابة الأرض من صدع في الصفا[٢] معها عصى موسى وخاتم سليمان بن داود تنادي بأعلى صوتها: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [٣]، وفي رواية: «**لا يبقى مؤمن إلا نكتت في مسجده -أي موضع سجوده- بعصا موسى نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان، فتفشو تلك النكتة حتى يسود لها وجهه، حتى إن الناس ليتبايعون في الأسواق: بكم ذا يا مؤمن، وبكم ذا يا كافر**»، وفي

(١) المصدر السابق ص٣٦١.

(٢) المصدر السابق ص٣٥٧.

(٣) المصدر السابق ص٣٦٠.

رواية: «**تأتي الرجل وهو يصلي في المسجد، فتقول: ما الصلاة من حاجتك؟ ما هذا إلا تعوذ ورياء، فتخطمه وتكتب بين عينيه كذاب**»[1].

وأما خروجها فقد ورد أن لها ثلاث خرجات في الدهر:

تخرج خرجة في أقصى البادية، وفي رواية: من أقصى اليمن، ولا يدخل ذكرها القرية (أي مكة) ثم تمكث زماناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك، فيعلموا ذكرها في البادية، ويدخل ذكرها القرية (أي: مكة) [2].

قال ﷺ: «**ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام لم ترعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عن شتى**» اهـ «الإشاعة» ص٣٦٢.

وعن أبي هريرة وابن عمر وعائشة رضي الله عنهم: «**أنها تخرج بأجياد**».

قال في «الإشاعة» ص٣٦٣: ووجه الجمع بين الروايات[3] أن لها ثلاث خرجات، ففي

---

(١) المصدر السابق ص٣٦٢.

(٢) وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها تخرج في بعض أودية تهامة، أي: وهذا في بعض خرجاتها. «الإشاعة» ص٣٦٢.

(٣) اخترنا من الأوجه المذكورة في الكتاب ما أثبتناه هنا، ويمكن مراجعة الوجه الثاني في الأصل من «الإشاعة» ص ٢٦٣، وذكر صاحب «درجات مرقى الصعود» ص١٨٤ ترتيب الآيات هكذا فقال: ذكر القرطبي عن بعض العلماء ترتيبها هكذا، أولها الخسوفات، فالدجال، فنزول عيسى عليه السلام، فخروج يأجوج ومأجوج، فريح تقبض أرواح المؤمنين، فتقبض روح عيسى عليه السلام مع من معه، فتهدم الكعبة، ورفع القرآن، واستيلاء الكفر على الخلق، فتطلع الشمس من مغربها، فتخرج الدابة، وذكر البيهقي عن الحاكم مثله، إلا أنه جعل خروج الدابة قبل طلوع الشمس. اهـ، قال في «الإشاعة»: ينبغي خروج الدابة قبل الريح القابضة، كما لا يخفى أنها هي التي تسم المؤمن والكافر، فإذا لم يبقَ مؤمن لأجل الريح فمن تسِمُه؟

بعض الروايات تخرج من مدينة قوم لوط ويصدق عليها أنها من أقصى البادية، وفي بعضها تخرج من أودية تهامة ويصدق عليها القول من وراء مكة، ومن اليمن لأن الحجاز يمانية، ومن ثم قيل: الكعبة يمانية، وفي المرة الأخيرة تخرج من مكة.

وَتُغْلَقُ الأَبْوَابُ أَبْوَابُ الرَّجَا ... فِي تَوْبَةٍ تُبَلِّغُ المرْءَ النَّجَا
وَيَسْجُدُ الشَّيطانُ للهِ وَقَدْ ... حَقَّ العذابُ وانْتهى طُولُ الأَمَدْ
فَتَقْتُلُ الدّابةُ إبليسَ اللّعِينْ ... وَيَنْتَهِي وَسْوَاسُهُ فِي العَالَمِينْ
وَقِيلَ: يَبْقَى وَيَمُوتُ غَيْرُهُ ... مِنْ جِنْسِهِ حَتَّى يَجِي مَصِيرُهُ
وَعِنْدَهَا تَأْتِي رِيَاحٌ طَيِّبَةْ ... تَقْبِضُ رُوْحَ الصَّالِحِينَ المُسْغَبَةْ

(١)تشير الأبيات إلى آخر مراحل التحولات في حياة الأرض وهي طلوع الشمس من مغربها، إذا كنا أخرنا ذكرها عن الدابة، وفيه إشكال بسبب اختلاف الروايات، قال الحافظ ابن حجر: وطريق الجمع بين الروايات: أن الدجال أول الآيات العظام المؤذِنة بتغير الأحوال

---

(١) هذا يفسر معنى الحديث: «**يبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى بها كل مؤمن في قلبه مثقال حبة من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم**»، قال ص٣٦٥: وأخرج أحمد ومسلم عن أبي عمرو رضي الله عنهما قال: «**ثم يرسل الله -يعني بعد موت عيسى- ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلّا قبضته -إلى أن قال- فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستحيون ؟ فيقولون: ما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارٌّ رزقُهم حَسَنٌ عيشُهم حتى يُنفخ في الصور**» «الإشاعة» ص٣٦٥ ، قال: وهذا ينافي ما قيل من قتل الدابة لإبليس، ويمكن أن يقال على بُعد: إن هذا الشيطان ليس إبليس، ويقصد أنه شيطان آخر قتلته الدابة، ويبقى إبليس حيّاً بدليل هذا الحديث حتى النفخ في الصور.

قلت: وعلى هذا فالريح التي تقبض أرواح المؤمنين على وجهين: فإن كان إبليس قد قتلته الدابة فالريح الباردة التي تقبض أرواح المؤمنين قد حصلت قبل ذلك، وإن صح أن إبليس لم تقتله الدابة فيمكن أن تكون الريح الباردة فيما بعد قبل نفخ الصور.

العامة في الأرض، أي: فلا ينافي تقدم المهدي عليه، قال: وينتهي ذلك بموت عيسى عليه السلام ومن بعده القحطاني وغيره، وأن طلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة، أي والدابة معها، فهي والشمس كشيء واحد، وأن النار أول الآيات المؤذنة بقيام الساعة(١).

قال في «الإشاعة» ص٣٤٠: ومن الأشراط العظام طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة، وهذان أيهما سبق الآخر فالآخر على إثره، فإن طلعت الشمس قبل خرجت الدابة ضحى يومها أو قريباً من ذلك، وإن خرجت الدابة قبل طلعت الشمس من الغد.

وأخرج ابن أبـي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه والبـيهقي، كلّهم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: «**حفظتُ من رسول الله ﷺ أن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحىً، فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها**» قال أبو عبدالله الحاكم: والذي يظهر أن طلوع الشمس من مغربها قبل خروج الدابة، قال الحافظ ابن حجر معتمداً ما قاله الحاكم: ولعل الحكمة في ذلك أن بطلوع الشمس من مغربها ينسد باب التوبة فتجيء الدابة فتميز بـين المؤمن والكافر تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة[٢].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ أجمع المفسرون أو جمهورهم على أنه طلوع الشمس من مغربها.

وفي قوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ قال: طلوع الشمس من مغربها مقترنين كالبعيرين القرينين. اهـ «الإشاعة» ص٣٤١ باختصار.

---

(١) انتهى وهذا أجمع وأحسن، انظر «الإشاعة» ص٣٥٠.

(٢) المصدر السابق ص٣٤١.

وعن أبـي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها، ثم قرأ الآية**»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «**آية تلكم الليلة أن تطول قدر ثلاث ليال**» وفي رواية البـيهقي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما بلفظ: «**قدر ليلتين أو ثلاث**»، فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون ويعملون كما كانوا، ثم يرقدون ثم يقومون، ثم يقضون صلاتهم من الليل كأنه لم ينقضِ فيضطجعون، حتى إذا استيقظوا والليل مكانه حتى يتطاول عليهم الليل، فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بـين يدي أمر عظيم، ففزع الناس وهَاج بعضهم في بعض، فيفزعون إلى المساجد فإذا أصبحوا طال عليهم طلوع الشمس فبـينما هم ينتظرون طلوعها من المشرق إذا هي طلعت عليهم من مغربها، فضَجَّ الناس ضَجة واحدة حتى إذا صارت في وسط السماء رجعت فطلت من مطلعها[2].

وروى أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**صبـيحة تطلع الشمس من مغربها يصير في هذه الأمة قردة وخنازير، وتطوى الدواوين وتجف الأقلام، لا يزاد في حسنة ولا ينقص من سيئة، ولا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خير**»[3].

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: «إذا طلعت الشمس من مغربها خَرَّ إبليس ساجداً ينادي ويجهر: إلهي مرني أسجد لمن شئت، فتجتمع إليه

---

(١) «الإشاعة» ص٣٤٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٤٢.

(٣) المصدر السابق.

زبانيته، فيقولون: يا سيدنا ما هذا التضرع؟ فيقول: إنما سألتُ ربي أن ينظرني إلى الوقت المعلوم، وهذا الوقت المعلوم». وفي رواية نعيم بن حماد والحاكم: «**ولا يزال إبليس ساجداً باكياً حتى تخرج الدابة فتقتله وهو ساجد**»، ولا يموت إبليس إلَّا وقد فرغ من العمل وينقطع دوره في الحياة.

مُكْثُ النَّاسِ بعد الدابّة وطُلوعِ الشَّمسِ من مَغْرِبها

وَاخْتَلَفَ الـرُّوَاةُ فِـي طُـوْلِ المَـدَى | مِنْ بَعْدِ عِيْسَـى كَمْ وَكَـمْ يَبْقَى الهُدَى
فَقِيْـلَ: تُطْـوَى كُلُّهَـا فِـي أَشْـهُرِ | تَتْلُـوْ تِبَاعَـاً مِثْـلَ مَحْـوِ الأَثَـرِ
وَقِيْـلَ يَبْقَـى النَّـاسُ قَرْنَـاً كَامِـلا | وَسَـنَوَاتٍ بَعْـدَهُ قَلَائِـلا

تشير الأبـيات إلى ما يحل بالعالم بعد أن تجري آخر التحولات الكبرى، وكم يبقى الناس حتى النفخ في الصور، فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «**يمكث الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومائة سنة**»[١].

وروى عبد بن حميد عنه أيضاً، قال: يبقى شرار الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومائة سنة. وعن ابن المنذر، قال: «**الآيات كلَّها في ثمانية أشهر**».

قال في فتح الباري: وطريق الجمع بـين الروايات أن المدة تمر مَراً سريعاً كمقدار عشرين ومائة شهر كما في صحيح مسلم عن أبـي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رفعه: «**لا تقوم الساعة حتى تكون السنة كالشهر... الحديث**»، وفيه: اليوم كالساعة والساعة كاحتراق السعفة.

وعلى هذا فيكون تقارب الأزمان وتقاصر الأيام مرتين، مرة في زمن الدجال، ثم ترجع بركة الأرض وطول الأيام إلى حالها الأولى، ثم تتناقص بعد موت عيسى عليه السلام إلى أن تصير في آخر الدنيا إلى ما ذكر[٢].

وبعد الدابة وطلوع الشمس من مغربها: «**يبقى شرار الناس يتهارجون – أي يتسافدون**

---

(١) المصدر السابق ص٣٤٦.

(٢) المصدر السابق.

- تهارج الحُمر، **فعليهم تقوم الساعة**» وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**إن المؤمنين يتمتعون بعد الدابة أربعين سنة، ثم يعود فيهم الموت ويسرع فلا يبقى مؤمن، ويبقى الكفار يتهارجون في الطرق كالبهائم**»، قال: «**فيكونون على مثل ذلك حتى لا يولد أحد من نكاح، ثم يعقم الله النساء ثلاثين سنة ويكونون كلهم أولاد الزنا شرار الناس، عليهم تقوم الساعة**»[1].

وَتُخْـرَبُ المَدِيْنَـةُ المُبَارَكَـةْ   وَمَـا بِهَـا غَيْـرُ العَـوَادِيْ الفَاتِكَةْ
حَتَّـى يَنَـامَ ثَعْلَـبُ الصَّحْـرَاءِ   بِـمَـنْـبَـرِ الـمَـدِيْـنَـةِ الـغَـرَّاءِ

قال في «الإشاعة» ص٣٢٧: ومن الأشراط القريبة خراب المدينة قبل يوم القيامة بأربعين سنة، وخروج أهلها منها، أخرج أبو داود عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «**عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال**»[2].

وروى الطبراني: «**سيبلغ البناء سلعاً، ثم يأتي على المدينة زمان يمرّ السفر على بعض أقطارها، فيقول: قد كانت هذه مدة عامرة من طول الزمان وعفر الأثر**»، وروى أيضاً رجال ثقات: «**المدينة يتركها أهلها وهي مرطبة**»، **قالوا: فمن يأكلها ؟ قال: (السباع والعوافي)** [3].

وروى عن أبـي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**لا تقوم الساعة حتى يجيء الثعلب فيربض على منبر رسول الله ﷺ فلا ينهضه أحد**» ص٣٢٧ «الإشاعة».

قال: وسبب خرابها -والله أعلم- أنهم يخرجون مع المهدي إلى الجهاد، ثم ترجف بمنافقيها وترميهم إلى الدجال، ثم يبقى فيها المؤمنون الخُلَّص فيهاجرون إلى بيت المقدس، فقد ورد:

---

(١) المصدر السابق ص٣٦٦.

(٢) المصدر السابق ص٣٦٧.

(٣) المصدر السابق ص٣٦٦.

«ستكون هجرة بعد هجرة، وخيار الناس يومئذ ألزمهم مهاجر إبراهيم»[1].

وَتَخْـرُجُ النَّـارُ لحَشْـرِ الأُمَـمِ   مِـنْ عَـدَنٍ تَسُـوقُهُمْ بِالحِمَـمِ
وَقِيْلَ: تَأتِي مِنْ نَّوَاحِيْ حَضْرَمَوتْ   مِنْ بِئْرِ بَرْهُوتٍ لها بَرْقٌ وصَوتْ

قال في «الإشاعة» ص٣٧١: ومن الأشراط العظام -وهي آخرها- نار تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلى محشرهم.

وأخرج أحمد والبخاري عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**أما أول أشراط الساعة فَنَارٌ تخرج من المشرق فَتَحْشر الناس إلى المغرب**».

قلت: ولعل قوله: «**أول أشراط الساعة**» أي: أول ما تبدأ به ظاهرة القيامة.

وأخرج الستة غير البخاري عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنهما مرفوعاً: «**لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات**»... الحديث، وفيه: «**وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**»، ويروى «**نارٌ تَخرجُ من قَعْرِ عَدن تَسوقُ النَّاس إلى المحشر**»، وفي لفظ «**من قَعْرِ عَدْن أَبْين**».

وأخرج أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما: «**ستخرج نار من حضرموت أو بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس**»، قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: «**عليكم بالشام، وهذا هو المراد بمهاجر إبراهيم عليه السلام**».

وأخرج الطبراني وابن عساكر عن حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «**لتقصدنكم نارٌ هي اليوم فيها عذاب أليم، تأكل الأنفس والأموال، وتدور على الدنيا كلها في ثمانية أيام، تطير طير الريح والسِّحاب، حَرُّها بالليل أشدّ من حرِّها بالنهار، ولها بئر بـين السماء والأرض، ودوي كدَّوي الرعد القاصف، وهي من رؤوس الخلائق أدنى من العَرْش**»، قيل: يا رسول الله ! أسليمةٌ يومئذ

---

(١) «الإشاعة» ص٣٢٨.

على المؤمنين والمؤمنات؟ قال: «**وأين المؤمنون والمؤمنات يومئذ؟ هم شرٌّ من الحُمُر، يتسافدون كما يتسافد البَهائم وليس فيهم رجلٌ يقول: مَهْ.. مَهْ..**»[1]، وقد فسر بعض العلماء مسألة الحشر والنار بتفسير أشرنا إليه في حديثنا عن اقتراب موعد الدجال، وعلى هذا التفسير تكون النار أسبق من ظهور الدجال[2].

وآخِرُ الحشرِ يَسِيرُ راعِيَانْ	حَتَّى إذا ما بَلَغَا خيرَ مَكانْ
ثَنِيَّةَ الوَدَاعِ في المدينةْ	خَرًّا لنَفْخِ بَدَّدَ السَّكِينةْ
إذصوتُ إسرافيلَ في الصُّورِنَفَخْ	وكلُّ شيءٍ للفناءِ قد رَضَخْ
وجاءَ أمرُ اللهِ باليقينِ	يَفْنى جميعُ الكونِ والتكوينِ
وليس يبقى غيرُ وجهِ اللهِ	سبحانَه الآمِرُ بل والنَّاهِي

تشير الأبيات إلى نهاية الحياة البشرية في هذا الكون، كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**إن آخر من يحشر راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحوشا، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرا على وجوههما**»، وثنية الوداع قرب المدينة إلى جهة الشام على الأصح[3].

وفي رواية ابن أبي شيبة عنه: «**رجلان رجل من جهينة وآخر من مزينة، فيقولان: أين**

(١) المصدر السابق ص٣٧٣.

(٢) راجع فصل (العلاقة بين حشر بني إسرائيل وظهور الدجال).

(٣) علق المحقق على تحديد الثنية بأنها إلى جهة الشام، وقال: للمدينة أكثر من ثنية، فتحديد ثنية الوداع بالشامية بناء على الشهرة، والموقع قبالة مزينة من قبل المضف، أما الحكم بأن لا ثنية إلا الثنية الشامية فهذا محل نظر. اهـ «الإشاعة» ص ٣٨٣.

قلتُ: وقد كانت ثنية الوداع خارج المدينة كما في كلام صاحب «الإشاعة»، وأما الآن فقد دخلت ثنية الوداع داخل المدينة مع التوسع العمراني الحالي.

الناس؟ فيأتيان المدينة فلا يجدان إلا الثعلب، فينـزل إليهما ملكان فيسحبانهما على وجوهما حتى يلحقانهما بالناس»، قال في «الإشاعة» : وهذا الحشر لهما من نفخ الصور، فإن بعد النار المذكورة ينفخ في الصور وتقوم الساعة.

وروى الشيخان عن أبـي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «**لتقومنَّ السَّاعة وقد نَشر الرجلان ثوبهما يتبايعان فلا يطويانه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه** (أي: يلطخه بالطين) **فلا يسقي فيه إبله ودوابه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها**»، وفي رواية: «**ثم ينفخ في الصور فلا يسمع أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا** -الليت صفحة العنق- **وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس**»[1].

---

(١) رواه مسلم وأحمد عن ابن عمرو ، «كنز العمال» (١٤ : ٢٨٩) ، المصدر السابق ص ٣٨٤.

لماذا يجبُ أَنْ نتَعَلَّمَ فِقْهَ التُّحَوُّلات؟

يقولُ بعضُ الناسِ أيُّ فائدةْ — من الكلامِ في الشؤونِ الواعدةْ
فليس فيها غيرُ إقلاقِ الورَى — وفتحُ بابٍ مِن صراعٍ ومِرَا
والحقُّ أن يُكْتَبَ في علمِ السُّلوكْ — وفي العباداتِ التي تَنْفِي الشُّكوكْ
وفي بناءِ الجيلِ جيلِ المرحلةْ — حتّى يسيرَ في الطّريقِ الموصِلَةْ
قُلنا وهذا ما أَرَدْناهُ هُنا — وما رَجَوْنا أَنْ يُشاعَ بينَنا
فما يُقال لم يكنْ بديلَا — عن السلوكِ أو يكنْ تحويلا
عن سنَّةِ الآباءِ والأجدادِ — أو صَرْفِ معنى العلمِ في الأولادِ
وإنما نُحيِيْ مَوَاتَ السُّنَّةِ — في شأنِ ما يُقالُ حَوْلَ الفِتنةِ
ونَقْتَدِي بالمصطفى في خَبَرِهْ — عن آخِرِ العَصرِ وكَشفِ مَظهرِهْ
لأنّ عينَ الفتنةِ المُدَمِّرَةْ — بينَ يدِي الدَّجّالِ تأتي مُنْكَرَةْ
ويَخْدُمُ البعضُ انحرافَ المَعْرِفَةْ — لِجَهْلِهِمْ بالفتنةِ المُغَلَّفَةْ
وخُصَّ جيلاً في الزَّمَانِ قد خُدِعْ — يَنْظُرُ للإسلامِ مِن حيثُ سَمِعْ
لا يَعْلَمُ التَّاريخَ والتَّحَوُّلا — وليس يَدْرِي ما يَدُور في المَلا
يَرَى اللّيالِي كُلَّها مِن واقِعِهْ — وَمَا يَكون مِن رِضا قَوَاقِعِهْ
والعِلْمُ بالتَّغْييرِ والتَّحَوُّلِ — يُعالِجُ الجَهْلَ لِكُلِّ مُشْكِلِ
ويَفْهَمُ الإنسانُ مدلولَ القَضَا — ويَرْتَقِي مفهومَه حتّى الرِّضَا
إِذْ قَالَ بَابُ العِلْمِ مَا ازْدَدْتُ نَبَا — لَو كُشِفَ الأمرُ فإيماني رَبَا

لأنّـهُ قـد عَلِـمَ التَّحَـوُّلَا ... ومـا يكـونُ آخِـراً وأَوَّلا

يشير الناظم في هذه الأبيات إلى ضرورة تعلم فقه التحولات، وخاصة في مرحلتنا المعاصرة، لأنها جزء من السنة الشريفة: «**من أحيا سُنتي عند فساد أُمَّتي فله أجر مئة شهيد**»، وهناك العشرات بل المئات من عمال الخدمات وطلاب المدارس والجامعات يخدمون الانحراف، ويتعاونون في سبيل إظهاره وإشهاره وهم لا يعلمون.

ففي علم فقه التحولات معالجة للجهل بركن من أركان الدين أهمله الناس، وهو (فقه علامات الساعة) كما سيأتي.

فَالعِلـمُ بالأشْـراطِ رُكْـنٌ رابعُ ... فـي الدِّينِ حتمـاً أيُّهـا المنازِعُ

وَقَـد رأينـا بعـضَ أَهـلِ العِلْمِ ... لجَهْلِـهِ يَخْـدِمُ كُلَّ فَـدْمِ

وإن يَكُـنْ مِـن زمـرةِ الشّـيطانِ ... أو خَـدَمِ الكُفّـارِ فـي الأَوطَـانِ

فنَسـأَلُ اللـهَ لنـا السَّـلامةْ ... مـن كُلِّ مـا قد شَـذَّ مِـن عَلامَةْ

في عصرِنا المحفوفِ بالأخطارِ ... وسَـطْوَةِ الكُفّـارِ والفجّـارِ

والحمـدُ للـهِ علـى مُـرِّ القَضَا ... وحُلْـوِهِ فيمـا أَرَادَ وقَضَـى

أسـألُه الختـامَ بالحسـنى متَـى ... مـا مَلَـكُ المـوتِ إلينا قـد أَتَى

نَمُـوتُ في خيـرٍ ولُطْـفٍ وهَنا ... مستَمْسِكِينِ بالعُرَى فَهْيَ المُنى

شـهادةِ الإسـلامِ والإيمـانِ ... كذا التَّرَقِّيْ في ذُرى الإحسـانِ

بعضُ فقهاءِ عِلْمِ التَّحَوُّلات

مِـن فقهـاءِ العلـمِ بالتَّحَـوُّلِ بعدَ الرسولِ بابُ علمِ المُرْسَلِ
إمامُنـا الحَبْـرُ علـيٌّ شـأْنُه فـي العلـمِ عـالٍ مـا لـه مِثَالُهُ

رُوي عن الإمام علي كرم الله وجهه ورَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله في خطبة له: «**أيها الناس إني قد فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليها غيري، فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بـيده لا تسألوني عن شيء فيما بـينكم وبـين الساعة إلا أنبأتكم**».

والإمام غني عن التعريف وخاصة في شأن العلم بالتحولات، فقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مطلعاً على علوم الشرع ظاهراً وباطناً، وهو الذي يقول: لو كشف الغِطا ما ازددت يقيناً، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلمح في أكثر من موقف إلى قدراته العلمية والروحية الفذَّة وصدق عزيمته ومضاء وعيه وإمكاناته القادرة على إصلاح حال الأمة وحملها على الاستقامة على هذا الدين القويم، فانظر إليه في خيبر وهو أرمد، وكيف نبَّه النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميع الصحابة إلى مكانته وقدراته الإيمانية وخاصة أمام اليهود ألدّ أعداء الأمة في التاريخ.

وفي هذا الشأن ملامحُ عظيمةٌ من فقه التحول لمن ألقى السمع وهو شهيد، وكذلك في قصة الأعرابـي الذي وصف بالعبادة والخير بـين يدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأنكر النبـي معرفته وفي الثالثة جاء الرجل بنفسه، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذكرتمُ لي رجلاً في وجهه سفعةُ الشيطان**»، ودخل الرجل المسجد فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يقتل الرجل؟**» فذهب أبوبكر ثم عمر ثم قام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: «**أنت صاحبه إن أدركته**»؛ ولكنه لم يدركه فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو قُتل هذا ما اختلف اثنان من أمتي**»، وكان في هذا الحديث ملمح إلى تأخر موقع الإمام علي كرم الله وجهه ورَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الحكم حتى

لم يعد يقدر أن يدرك قطع الفتنة التي شَبَّتْ بعد مقتل عمر في عهد عثمان مع أنه كما ورد في الحديث «**أنت صاحبه لو أدركته**».

وفي الأمر كله حكمة إلهية، وقد علم في صحيح الأحاديث أن الإمام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في معركته مع الخوارج كان يطلب البحث عن علامة في أحد المقتولين، وهو ذو الثديتين لعلمه أنه من المنافقين، فلما وجده تهلل وجهه وفرح، إذ علم أن معركته مع الخوارج كانت عادلة وشرعية.

وكان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «**ما من ثلاثمائة تخرج إلا ولو شئت سميت سائقها وناعقها إلى يوم القيامة**»[1].

بل إن الإمام علياً كرم الله وجهه ورَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد تكلم عن انفلاق الذرة كأول معبِّر في تاريخ الإنسانية عن أثر هذا العلم، ويعترف الباحث **(جون أونيل) في كتابه «القصة الحقيقية للهندسة الذرية» قائلاً: إن أحد النقط المتلألأة في القرون الوسطى تأتي من العالم الإسلامي** حيث نجد ما سَطَّره قلم أبوالحسن صهر محمد -ويعني به سيدنا علي بن أبـي طالب كرم الله وجهه زوج بنت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم - الذي كتب يقول: «**إذا فَلَقَتِ الذَّرَّة أيَّ ذَرَّةٍ تجدُ في قلبها شَمْساً**» ، وأن هذا ببصيرته الصافية قد استطاع أن يلمح حقيقة النظام الشمسي الحديث في الذرة[2].

كـذا ابـنُ عبـاسٍ عَظيـمُ القَدْرِ   كـذا أبـو هِـرٍّ سَـليلُ صَخْـرِ

وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما حَبر الأمة وإمام التَّأويل، دعا له النبـي ﷺ وقال: «**اللَّهم عَلْمه التَّأويل**»، كان أحد فقهاء العلم بعلامات الساعة، وروى العديد من الأحاديث عنها، وكان سنداً للإمام علي كرم الله وجهه ورَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مجادلة الخوارج وحَرْبِهِم، بل وفي كافة

---

(١) «الفتن» لنعيم بن حماد (١: ٣٤).

(٢) ص ١٤٢ من كتاب «أسرار الهاء في علم الجفر» لمحمد عيسى داود.

المواقف التي وقفها الإمام علي بعد توليته الخلافة، لعلمه بسلامة منطلق الإمام علي بالنص في فقه التحولات، وبعث به الإمام لمجادلة الخوارج وإعادتهم إلى حظيرة الحق، فجادلهم وعاد معه أربعة الآف، وبرغم صغر سنه كان عمر بن الخطاب يقدمه على الأشياخ لوفرة علمه كما هو في قصة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ، قال ابن عباس عندما سئل: «**هو أجلُ رسولِ الله ﷺ**»، وهذا من فقه التحولات، خلافاً لما اعتقده الآخرون في فهم الآية وإن كان فهمهم لأحد معانيها، ولما سئل عن قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ قال ابن عباس: أنا من القليل.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ ، وفي ذات الآية قال ابن عباس لرجل: «**ما يؤمنك إن أخبرتك بها تكفر ؟**» وقال لرجل آخر في نفس الآية: «**أعلم فيها علماً لو بُحْتُه لكَفَّرْتُموني**» .اهـ[1] .

وأبوهريرة عبدالرحمن بن صخر الدوسي كان أحد الصحابة الحاملين علم التحولات وفقه علامات الساعة، وله ملامح وملاحظ كثيرة في هذا الشأن كقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أعطاني خليلي جرابين من العلم، أما أحدهما فقد بثثته بينكم وأما الآخر فلو بثثته لقُطِعَ مني هذا الحلقوم**»[2]، وروي أنه كان يقول: «**اللّهم لا تبلغني عام الستين ولا إمارة الصبيان**» .

وفي رواية: « **أعوذ بالله من إمارة الصبيان، قالوا: وما إمارة الصبيان ؟ قال: إن أطعتموهم هلكتُم في دينكم وإن عصيتموهم أهلكوكم**»[3].

---

(١) الطلاق: آية ١٢.

(٢) ص٢٦ «المفاجأة» لمحمد عيسى داوؤد.

(٣) وروي الحديث بروايات متعددة، ففي مسند أحمد: «حفظتُ ثلاثة أجربة بثثتُ منها جرابين، وفي رواية: خمسة أجربة» «فتح الباري» (١: ٢٦١) ، قال الحافظ ابن حجر: يحتمل أن يكون أراد مع الصنف المذكور

قال في «فتح الباري»: كان أبوهريرة يعلم أسماء السلاطين والأمراء وأسماء آبائهم، وقد كتم هذا العلم ثم حدَّث به قبل موته تأثماً أن يكون كتم علماً.

وِمثلُهم حُـذَيـفَـةُ اليَماني وكان فـي الفقـهِ عظيـمَ الشَـانِ

من أفاضل الصحابة وأكثرهم علماً بفقه التحولات وعلامات الساعة، كان يسمى أمين سر رسول الله ﷺ، إذ كان عليه الصلاة والسلام يخصه بأخبار المنافقين ومواقفهم وحتى أسمائهم، وكان يقول عن نفسه فيما رواه مسلم، قوله: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بـيني وبـين الساعة ما بـي إلَّا أن يكون رسول الله ﷺ أسر إليَّ في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري ، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن، فقال ﷺ وهو يعد الفتن: «**منهن ثلاث لا يذرن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار**»، قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلُّهم غيري[1]..

وفي هذا الباب من علم حذيفة أحاديث كثيرة.

كـذا ابـنُ مسـعودٍ غزيـرُ العلمِ رَوَى فأوعى من علومِ الحَسْـمِ

هو عبدالله بن مسعود أحد العبادلة في الإسلام وأحد حملة كتاب الله وكتاب وحيه، كان لزيماً لرسول الله ﷺ وسمع منه عشرات الأحاديث في العلوم، ومنها أحاديث في علم الساعة وتحولاتها.

ومثـلُ عبدِاللـه نجـلِ عَمْـرِو يُنمى إلـى العاصِ كثيـرِ الذِّكرِ

ومنهم في العلم بفقه علامات الساعة الصحابـي الجليل عبدالله بن عمرو بن العاص رضي

ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم في آخر الزمان، فينكر ذلك من لم يألفه ويعترض عليه من لا شعور له به.

(١) شرح مسلم ص١٥، كتاب الفتن.

الله عنهما، وقد روى في هذا الباب أحاديث كثيرة، ويبدو أن روايته لهذا العلم جاءت من كثرة ما كان يدوّن ويكتب، فقد روي أنه كان يكتب الحديث بـين يدي رسول الله ﷺ وشَهِد له أبوهريرة بذلك.

والحسنُ السِّبْطُ كذلك الحُسينْ مـعَ ابنِـهِ علـيِّ زيـنِ العابديـنْ

ومن علماء فقه التَّحوُّلات سيدنا الإمام الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد كان مطلعاً على كثير من تحولات المراحل، ويعد عند فقهاء التحولات رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه أحد رجال المواقف، إذ كان له دور عظيم في إطفاء فتنة الصراع على الحكم بـين فئتين من المسلمين مع كونه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في موقفه محقاً وغيره مبطلاً؛ ولكنه اتخذ موقفاً حاسماً وَصَفه النبـي ﷺ في الحديث، بقوله: «**إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بـين فئتين من المسلمين**»[1].

ومثله أخوه الإمام الحسين بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان من أكابر العلماء بالتحولات محدثاً عن أخبارها، وقد اجتهد واتخذ موقفاً ظل جُرْحاً يُدْمَى في تاريخ الإنسانية إلى يوم الدِّين، ومن موقفه الشجاع أمام التحولات لإعادة الحق إلى نصابه حسبما اجتمع لديه من الأدلة والشروط رسم بالدم الطاهر مواقفَ جديدة وتكتلات عنيدة تثار عواصفها بـين الحين والحين كثمرة من ثمرات التحولات وما يطرأ حيالها من المواقف؛ بل كان مقتله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مسجلاً في دائرة الأخبار عن حوادث المستقبل وما يطرأ منها في الحكم والعلم.

ومن رجال العلم بفقه التحولات كذلك سيدنا السَّجاد علي زين العابدين الذي قرأ الفقه بكل معانيه وعاصر العديد من أحداثه الجارية، فحفرت الظروف والحروف في قلبه لوحة الألم، وكان يعبر عنها ويقول: «**إنّ يعقوب عليه السلام بَكَى حتى ابيضت عيناه على يوسف؛ ولم يعلم أنّه مات، وإني رأيتُ بضعة عشر من أهل بيتي يُذبحون في غَداةِ يوم واحد، أفَتَرَوْنَ حزنهم**

---

(١) رواه أحمد وابن عساكر عن أبي بكرة.

يَذهبُ من قلبي؟»، وهو القائل عن مثل هذا العلم:

إني لأكتمُ من علمي جواهره ... كي لا يَراه ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدَّم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين وأوصى بعده الحسنا
فرُبَّ جوهرِ علمٍ لو أَبُوح به ... لقيل لي: أنت ممن يَعبدُ الوثنا
ولاستحلَ رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حَسنا

[1]ومثله في هذا العلم الإمام جعفر الصادق، ويخبر عنه إنه لما أراد بنو هاشم أن يبايعوا محمدا وإبراهيم ابني عبدالله المحض بن الحسن المثنى وذلك في أواخر دولة بني مروان وضعفهم فأرسلوا لجعفر الصادق فلما حضر أخبروه بسبب اجتماعهم فأبى، فقالوا: مدَّ يدك لنبايعك فامتنع، وقال: «**والله إنها ليست لي ولا لهما وإنها لصاحب القباء الأصفر والله ليلعبنَّ بها صبيانهم وغلمانهم**» .. ثم نهض وخرج وكان المنصور العباسي يؤمئذ حاضراً وله قباء أصفر، قال: فما زالت تلك الكلمةُ تَعْمَلُ فيَّ حتى مَلَكْتُ. اهـ[2] .

قال الناظم:

ومـن لّـه سَـهْمٌ مِـنَ الوِراثـةِ ... مـن بَعْدِهِـمْ فالعلـمُ كالحراثةِ
فمَـنْ يُـرِدْ بالعلـمِ وجـهَ اللـهِ ... يَـزِدْ لـهُ فتحـاً بـلا اشْـتِباهِ
بِشَـرْطِ أَنْ يَأْخُـذَهُ مِـن مَنْبَعِـهْ ... تَجَـرُّداً عـن ذاتِـهِ ومَنـزَعِـهْ
فـلا يَمِيـلُ ضِـدَّ مَـن يخالِفُـه ... أَوْ يَسْـتَفِزُّ الضِّـدَّ فيمـا يَعرِفُـهْ

---

(١) وكان له موقف واضح من غلو المُفْرِطين في المحبة ، فقد روي عن يحيى بن سعيد قال: سمعتُ عليّ بنَ الحسين -وكان أفضلَ هاشميٍّ أدركتُه- يقول: «أيها الناسُ أَحِبُّونا حُبَّ الإسلامِ، فما بَرِحَ بنا حُبُّكُمْ حتّى صَارَ علينا عاراً» «أعلام أهل البيت» ص١٤ تأليف د. عبدالقادر محمد منصور.

(٢) «المشرع الروي» ص٨٣.

بـل يَلْـزمُ القواسـمَ المشـتركَةْ   جامعـةً أتبـاعَ دِيـن البَرَكَـةْ

يشير الناظم إلى استمرار عطاء الله في هذا العلم الخاص بفقه التحولات، وأنه كالحراثة الموروثة، ولكل من الحراثة بعد الوراثة سهم ونَصيب، خلافاً لمن يصادر الأرض أو يغتصبها من أهلها، فليس لديه من الشرعية نصيب، إذ إن العلم من شروطه الإخلاص والتجرد لله، وحسن الارتباط المتصل بسنده الأبوي النبوي، فمن العلوم علوم يتفقه فيها الناس على مختلف نماذجهم وعقولهم وأفكارهم وحتى دياناتهم، فيمتلكون زمام المعرفة بجدارة العلم والإطلاع عليه، أما هذا العلم فلا يتحصل بالنظر ومداومة القراءة والإطلاع، وإنما هو كما عبَّر عنه ﷺ في دعائه لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**اللَّهم علمه التَّأويَل**»، وكما ورد معناه في الآية الكريمة: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴾، والنظر والإطلاع شرطٌ لمعرفة الحروف وما تحمله من النصوص لاستقراء معانيها.

كما أن من شروطه: سلامة الصدر عن الغِل والغِش والحِقْد لأحد من المسلمين ولو كان معارضاً له أو ضداً، فأصل العلم اللَّدني سلامة الصدر، (العقل السليم في القلب السليم)، وجامع السلامة معاملة الجميع بما يسمى «**بالقواسم المشتركة**» في الإسلام من غير إفراط ولا تفريط، وهذا الموقف ليس من السهولة بمكان، وإنما هو ارتياض يتأتى بالأخذ والتَّلقي عن أهله، يحمله معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

عَلاقَةُ آلِ بـيتِ النُّبُوَّةِ بفِقْهِ التَّحَوُّلات

من وظائف فقه التَّحوُّلات في ديننا الحنيف تعيين آثار مراتب العلاقات الشرعية بـين الخلق، كبر الوالدين أو عقوقهما والأرحام والجيران وعموم الناس، حيث إن هذه العلاقات جزء لا يتجزأ من الترابط الاجتماعي الشرعي الذي يُثاب فاعله ويؤثم تاركه، بل يترتب على عقوق الوالدين -مثلاً- وقطيعة الأرحام فساد العمل كلّه إذا لم يَتبْ القَاطع والعَاق، وهذه هي مفصل الالتقاء مع بقية أركان الدِّين.

وبمثل هذه العلاقات الخطيرة جعل الله سبحانه وتعالى العلاقة في فقه التحولات بـين عموم المسلمين وآل البـيت النبوي وبـين عموم المسلمين، ومثل هذا يدل على أن موازين فساد القبول عند الله مما ابتلى به العباد ليس محصوراً في التَّعبد وفرائضه المعروفة من صلاة وصوم وحج وزكاة وحدها، بل يُبتلى المسلمون بشأن الولاء والمحبة للرسول ﷺ وآل بـيته كجزء من مسؤوليات العلم الفرضي الواجب، وبفقدان هذا العلم تَنْفَرط عُرى العلاقات بـين شرائح المجتمع الشرعي، وتحل محلها علاقات اجتماعية أخرى ربما أوجدت خللاً وكراهيةً وعداوةً مع من لا يستحق العداوة، وأوجدت أيضاً ميلاً قلبـياً ومحبةً واستئناساً بمن لا يلزمنا المحبة له والاستئناس به كالمنافق والكافر، وبهذا الانقلاب في العلاقات والولاء ينتكس الإسلام في أهله كعلاقات تنشأ عن العلاقات الاجتماعية الفاسدة المُفْسِدة، فمن لم يوالي رسول الله وآل بـيته يَبْتَلِيه الله بموالاة الكُفَّار والمنافقين، ومن لم يَعظِّم والديه وأرحامه ويؤدي حقوق جيرانه يبتليه الله بتعظيم الزوجة والأولاد وملاحقة السُّفهاء والأراذل وحُبِّ الدنيا وزينتها

ومظاهرها على غير ضابط شرعي ولا أدب مَرْعِي[1]، وهي العقوبة الحتمية والبديل المناسب لفساد طبـيعة العلاقة، وهذا هو عين التَّحول والتَّبدل والعياذ بالله، والمتأملُ اليوم في أحوال المسلمين وولاءاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والخاصة يرى مدلولات التَّحول بارزةَ الأثر والتأثير مع غفلةٍ وشمولِ لاستتباعٍ عشوائي لا يَنِمُّ عن عدلٍ ولا تَبصرٍ ولا تبصير، مما يؤدي بلا شكٍّ إلى نفاذ قضاء الله وقدره وتحقيق ما وعد به من التنكيل والتَقْتِيل والأذى لآل البـيت والوقوع في أعراضهم وسُوء الظَّن بهم في مراحل الإضلال والتضليل، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) وقد امتلأت أحاديث علامات الساعة بذكر هذه الظواهر وانتشارها في آخر الزمان كشاهد على التحول والانتكاس.

فِقْه العَلاقة بالذاتِ النَبويَّة

لأن الذات النبوية هي مصدر التشريع والقدوة الحسنة للأمة ومرجعية النسك والأخلاق والمواقف، فالنظر في فقه الذات النبوية واجب ومتحتم، ولا يزال علماء الملة منذ قرون البعثة والرسالة وهم يحدون الناس ويفقهونهم في ما يجب علمه عليهم نحو الذات النبوية من المحبة والاقتداء والولاء، وصدق الخدمة في الدين، باتباع الأوامر واجتناب المناهي، وبذل المعروف وأداء الحقوق ودراسة نسب النبـي وشرف محتده وفضل الصلاة والتسليم عليه وزيارة قبره ومسجده وغيرها من المآثر المعبرة عن الشرف الموهوب له من مولاه؛ بل إن جزءاً من حوادث السيرة بينت موقف العديد من الكائنات كالجذع والحجر والشجر من شرف الذات النبوية وأبرزت بأمر الله تعالى سر الانفعال الوجداني المعبر عن عمق التعلق والحب له عليه الصلاة والسلام حتى في غير بني الإنسان.. وهذا نوع خاص من فقه التحول وسنن المواقف.

ولهذا فإن من كوارث العصر الفصل بين الكتاب والسنة وثمراتهما وبين الذات النبوية.. ودراسة الخصوصيات الموهوبة.. وهذا ما تعانيه المدارس الإسلامية المعاصرة سواء كانت أكاديمية أو مؤسسات تعليمية وثقافية.

فِقْهُ العَلاقة بآلِ البـيت النبوي

قد تناول فقه التحولات إهمالَ الناس بشأن آل البـيت النبوي وقلبَ ظهرِ المِجَنّ لهم ومحاربتَهم حيناً بما يَقَعُون فيه من تِراتٍ ونقائض وحيناً لمجرد نسبتهم لرسول الله ﷺ فقط كعلامة من علامات الساعة، لقوله ﷺ: «**إن أهل بـيتي سيلقون بعدي من أمتي قتلاً وتشريداً**»[1]، ورفع النبـي ﷺ وتيرة التحذير في شأن أهمية الاعتناء بأهل بـيته خصوصاً، فقال: «**أذكركم الله في أهل بـيتي ثلاثاً**»، «**ألا إن عيبتي التي آوي إليها أهل بـيتي**»، «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بـيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض**»[2]، وأخرج الطبراني بزيادة: «**وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، سألتُ ربـي ذلك لهما، فلا تَقَدَّمُوهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلِّموهم فإنهم أعلم منكم**»[3]، وربط بـين الولاء لهم والنَّجاة من النار، فقد روى الحاكم في «المستدرك» عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**يا بني عبد المطلب إني سألتُ الله لكم ثلاثاً: أن يثبت قائمكم، وأن يهدي ضالكم، وأن يعلم جاهلكم، وسألت الله أن يجعلكم جوداء نجداء رحماء، فلو أن رجلاً صفن بـين الركن والمقام وصلى وصام ثم لقي الله وهو مبغض لأهل بـيت محمد دخل النار**»، وعن أبـي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «**والذي نفسي بـيده لا يبغضنا أهلَ البـيت أحدٌ إلا أدخله الله النار**»، وروى الديلمي في مسند الفردوس عن أبـي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشتد**

(١) رواه نعيم بن حماد في الفتن ، الحاكم في «المستدرك» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) من حديث زيد بن أرقم مختصراً، «ارتقاء الغرف» للسخاوي ص٦٣.

(٣) المصدر السابق.

غضب الله على من آذاني في عترتي».

مراتب آل البـيت

١- **الولاء لقريش**: بدأ الرسول ﷺ يضع مقايس الولاء بادئ ذي بدء بقريش، فقال: «**أمان لأهل الأرض من الاختلاف الموالاة لقريش، قريش أهل الله فإذا خالفتها قبـيلة من العرب صاروا حزب إبليس**»[١]. وحديث: «**أحبُوا قريشاً فإن من أحبَّهم أحبَّهُ الله**»[٢].

وفي هذا الباب أحاديث كثر لا نطيل بذكرها، ومنها ما أورده البخاري في صحيحه: «**إن هذا الأمر من قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين**»[٣].

والمقصود بالمعاداة: المعاداة لهم باعتبار علاقتهم برسول الله ﷺ وارتباطه بهم وارتباطهم لا من حيث ما قد يقعون فيه من الجُنُوح والخَطأ.

٢- **الولاء لآل البـيت عموماً**: وهم بنو هاشم وبنوالمطلب، وهم أيضاً من ثبتت الصلاة عليهم وحرموا من الصدقة مع تعويضهم بخمس الخُمس من بـيت مال المسلمين.

فعن عمار وأبوهريرة رضي الله عنهما قالوا: قدمت درة بنت أبـي لهب المدينة مهاجرةً فنـزلت في دار رافع بن المعلى، فقال لها نسوة جئنَّ إليها من بني زريق: ابنة أبـي لهب الذي أنـزل الله فيه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ فما تغني هجرتك! فأتت درة رسول الله ﷺ فبكت وذكرت ما قلنَّ لها

---

(١) أخرجه الطبراني والحكم في «المستدرك» عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال المناوي في «فيض القدير» (٢: ١٨٢) : وردّ الذهبي تصحيح الحاكم في «المستدرك» (٤ : ٧٥) ، وفي «الجامع الصغير» : «**أمان لأهل الأرض من الغرق القَوْسِ**» ، والمراد هنا بالقوس كما شرحه المناوي : أي ظهور القوس المسمى بقوس قزح. اهـ. «كنز العمال» (١٢: ٢٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده وابن حبان والحاكم في «المستدرك» والطبراني في «المعجم الكبـير» عن سهل بن سعد. اهـ من «ارتقاء الغرف» للسخاوي.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه وأحمد في مسنده عن معاوية. اهـ ص٧٦ من «ارتقاء الغرف» للسخاوي.

فسكنها رسول الله ﷺ وقال: اجلسي، ثم صلى بالناس الظهر ثم جلس على المنبر ساعة، ثم قال: «**يا أيها الناس ما لي أوذى في أهلي ؟ فوالله إن شفاعتي تنال قرابتي حتى إن صداء وحكم وحاء وسهلب لتنالها يوم القيامة**»[1].

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه، واحبوني لحب الله، وأحبوا آل بيتي لحبي**»[2].

وعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خطبنا رسول الله ﷺ في دير خم فقال: «**وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي.. أذكركم الله في أهل بيتي..**»، قيل لزيد: ومن أهل بيته ؟ قال: **الذين حرموا الصدقة: آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس، قيل لزيد: أكل هولاء أهل بيته؟ قال: نعم**»[3].

٣- **الولاء لأهل الكساء**: عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: **أريني زوجك وابنيك، فجاءت بهم، فألقى عليهم رسول الله ﷺ كساء كان تحتي خيبرياً (أصبناه من خيبر) ثم رفع يديه فقال: اللهم إن هولاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»، فرفعت الكساء لأدخل معهم فجره رسول الله ﷺ من يدي وقال: «**إنك على خير**»[4]..

عن العباس بن عبدالمطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا نلقى النفر من قريش وهم يتحدثون فيقطعون حديثهم، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**والله لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى**

---

(١) رواه الديلمي.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» عن عبدالله بن العباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه مسلم وأحمد والنسائي عن زيد بن أرقم.

(٤) رواه الترمذي وأبو يعلى وابن عساكر.

يحبكم لله ولقرابتي» وفي لفظ: «لقرابتكم مني» [١].

وروى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أم سلمة أن هذه الآية لما نـزلت أدار النبـي ﷺ كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فقال: «**اللَّهم هؤلاء أهل بـيتِي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً**».

حقوق آل البـيت

١ – كفالتهم بمنحهم الخمس المقرر لهم شرعاً، وإذا تعذر الخمس لقلة مال أو لظلم من يتولى على حقوقهم فيعطون من الصدقة المفروضة ما يكفيهم. اهـ. وقال بذلك أبو سعيد الاصطخري، قال الرافعي: وكان محمد بن يحيى صاحب الغزالي يفتي بهذا[٢].

٢- تقديمهم في العلم والفتوى والمكانة والمجلس.

٣- مولاتهم بالمحبة والخدمة وطلب الدعاء منهم والدفاع عن أعراضهم ونشر فضائلهم والغَضَّ عن معايبهم وبذل النُّصح لهم.

وهذه الحقوق المطلوبة من الخلق إنما هي تكليف رباني لا اختيار إنساني، ولهذا فإن من واجب أهل البيت ألا يتكلفوا المطالبة بالحقوق من الناس، إذ إن الناس تبع لحملة القرار والاستقرار.

وإنما يجب على أهل البيت معرفة الأخلاق التي تميزهم عن سائر الناس وتساعدهم على خدمة المجتمع بكافة شرائحه ومجموعاته،

كما أن عليهم الخروج عن دوائر التكتل وأسباب الصراع المذهبي والسياسي والاجتماعي

---

(١) رواه ابن عساكر وابن النجار. اهـ عن «رسالة آل البـيت» لابن تيمية ص١٤٢.

(٢) اهـ «المهذب» للنووي (٦: ٢٢٧) نقلاً عن «رسالة آل البـيت» لابن تيمية ص٢٥.

ليكونوا حقا سفن النجاة ساعة الطوفان؛

ولكن الشيطان ومن في دائرته قد عملوا على حجب سلالات البيت الطاهر عن حقائق هذا الدين وشغلوهم بما شغلوا به ضحايا المسلمين في مرحلة الغثاء والوهن، فكان لابد لهذه السلالات الطاهرة إلا أن تتفاعل مع الواقع وتعمل على ترسيخ ما فيه .

وهذا ما نعانيه جميعا في مرحلتنا المعاصرة وللأسف، ونسأل الله التوفيق والسلامة ، وأن يدل الأمة على ما فيه المخرج من الملامة، إنه سميع قريب.

الخَاتِـمَةُ

(١)

وآخِرُ النَّظمِ لهذا الجمْعِ ... سألتُ مولايَ دوامَ النّفعِ
بمَا جمَعتُ ويُطِيلُ العُمْرا ... في طاعةٍ وأن يزيدَ الأَجْرا
وأَنْ يُثِيبَ كُلَّ مَنْ أَشَارَا ... عليَّ بالنَّظمِ ومَنْ أَنَارَا
طريقَ وَعْيِي بِالعُلومِ النّافعةْ ... ومَن هَداني للطّريقِ الجامعةْ
وخُصَّ أشياخِي رجالَ العِلمِ ... ومن بهم دَخَلْتُ بابَ الفَهمِ
أَوَّلُهُمْ مولايَ ذاك والدي ... عليٌّ المَشهورُ عينُ وارِدي
وسيِّدِي مولايَ عبدُالقادرِ ... بنْ أَحْمَدَ البحرِ المحيطِ الهادِرِ
شيخُ الزّمانِ المفرَدُ البحرُ الخِضَمْ ... مَن نِلْتُ منه سِرَّ عِلْمٍ وقَدَمْ
وجملةٌ من الشيوخِ الكُرَمَا ... جَزَاهُمُ رَبي جزاءً أَعْظَمَا
وأن يكونَ منهجي موافقَا ... لسُنَّةِ المختارِ نهجاً صادقَا
ولا أرى الفتنةَ أو أربابَها ... ولا أوالي في الملا أذنابَها
وأن أعيش ما بَقِي من الزّمنْ ... في خدمةِ الدِّينِ اتِّباعاً للسُّنَنْ
نُحْيِي مواتَ العلمِ والإيمانِ ... ونستعيدُ مَنْهَجَ القرآنِ
ونصنعُ الأجيالَ أجيالَ الهدى ... أحبابَ دينِ المصطفى طولَ المدى
مع التزامِ الصدقِ والسلامةْ ... في كلِّ حالٍ لا نرى نَدَامَةْ
والختمُ بالصلاةِ والسلامِ ... على النبيِّ سيِّدِ الأنامِ

(١) القدم هو السير على الطريق إلى الله تعالى.

محمدِ المبعوثِ بالهدايةِ ... دِيناً ودُنيا في سبيلِ الغايةِ
فغايةُ الإسلامِ إصلاحُ الورى ... وطاعةٌ للهِ مِن غيرِ امْترا
والموتُ في خيرٍ على إيمانِ ... وراحةٌ في أوسعِ الجِنانِ
والنظرُ الأجلى لربٍّ واهِبِ ... معَ النبيِّ في المقامِ الطَّيِّبِ
والحمدُ للهِ على ما وَفَّقا ... بَدْءاً وختماً ما حَيَا المُزْنِ سَقا
أو ما جرى سَيْلُ الروابي سَحَرَا ... مِنْ بَعْدِ وَدْقٍ هَانِيءٍ قد أَمْطَرا

والحمد لله رب العالمين

تم شرح المنظومة في يوم الأربعاء
٢٧ صفر عام ١٤٢٤ هـ
بمدينة جدة المحروسة

وتمت الإضافات والزيادات والتنقيح للطبعة الثالثة
يوم الخميس ٢٧ ربيع ثاني ١٤٢٧هـ
بمدينة عدن المأنوسة

وتمت الإضافات والزيادات والتنقيحات مرة أخرى
يوم الخميس فاتحة شهر ذي القعدة ١٤٢٧ هـ
بمدينة جدة المحروسة

المراجع

١) القرآن الكريم.

٢) فتح الباري شرح البخاري الجزء الثالث عشر.

٣) شرح مسلم للإمام النووي الجزء السادس.

٤) الإشاعة في أشراط الساعة للبرزنجي، الطبعة المحققة.

٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

٦) الجواهر والدرر في أخبار المنتظر للشافعي.

٧) هرمجدون آخر بـيان يا أمة الإسلام لعجاج.

٨) بـين يدي الدجال للمؤلف.

٩) كشف الأقنعة عن الوجوه الغثائية المقنعة للمؤلف.

١٠) الإحاطة والاحتياط للمؤلف.

١١) بذل المجهود شرح سنن أبـي داؤود الجزء الثامن.

١٢) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة للدكتور محمد أمحزون.

١٣) أفيقوا يا أمة الإسلام قبل أن تدفعوا الجزية.

١٤) كنـز العمال للهندي.

١٥) عقيدة المسيخ الدجال لسعيد أيوب.

١٦) الفتنة المعاصرة لفؤاد علي مخيمر.

١٧) المفاجأة لمحمد عيسى داوود.

١٨) الجفر لمحمد عيسى داوود.

١٩) المشرع الروي في أخبار السادة بني علوي للشلي

٢٠) ارتقاء الغرف للسخاوي.

٢١) جمع الفوائد لمحمد بن محمد بن سليمان.

٢٢) الفتن لنعيم بن حماد الخزاعي.

٢٣) أشعة الأنوار للشيخ محمد البيحاني.

٢٤) وريقات مأخوذة من الانترنت باسم (ساري الليل).

٢٥) تاريخ الخميس في سيرة أنفس نفيس للأستاذ محمد بن محمد بكري.

٢٦) قرة كل عين للكابلي.

٢٧) سيرة أمير المؤمنين المرتضى لأبي الحسن الندوي.

٢٨) سبل الهدى والرشاد للصالحي

٢٩) مختصر السيرة النبوية لابن هشام

٣٠) مجمع الفوائد لمحمد بن محمد بن سليمان.

٣١) الملل والنحل للشهرستاني

٣٢) فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج لحمدي بن حمزة أبوزيد

٣٣) ظهور الدجال مسيخ الضلالة لمحمد عصام عرار الحسني

٣٤) إتحاف الجماعة في أشراط الساعة لحمود بن عبدالله التويجيري

٣٥) أعلام أهل البيت للدكتور عبدالقادر محمد منصور

Contents

التَّمهيد	٥
المَدْخَلُ إلى شَرْحِ المَنْظُومَةِ	١٤
فِقْهُ التَّـحَـوُّلاتِ	٢١
فِقه التَّحوُّلاتِ وعَلاقتُه بأرْكانِ الدِّين	٢٤
مَدْخلٌ إلى رُبَاعية الأرْكَان (أرْكَانُ الدِّينِ الأرْبَعَة)	٣٤
مَدْلُولُ إحْياء سُنَّة المَواقف في فِقْه التَّحوُّلات	٣٧
القُرْآنُ العظيمُ والسّنّةُ الشّريفةُ المصدرانِ الأساسيّانِ	٤٣
رسالةُ النبيِّ ﷺ تَحَوُّلٌ عالَمِيٌّ في سَيْرِ الرِّسَالاتِ السَّماوِيَّةِ	٤٦
فقه التَّحول من عَصْرِ ما قَبْلَ الإسْلام	٤٨
فِقْهُ التَّحولات بمِيلادِ الرَسول ﷺ	٤٩
فقْهُ التّحوّلاتِ قُبيل مَرْحلة الوَحي	٥٠
تَحوُّلاتُ الغَارِ ونُزولُ الوَحي	٥١
تَتابعُ الوَحي واستمرارُه	٥٢
تَحوُّلاتُ مَا بَعد نُزولِ الوَحي	٥٣
تَحوُّلاتُ ما قَبل الهِجْرة	٥٥
الهِجْرَةُ.. تَحوَّلاتٌ ومَواقِفُ..	٥٧
مَوْقِعُ المرحلةِ المكِّيَّةِ من الاقتداءِ والاهتداءِ	٦٠
تَحوَّلاتُ ومَواقِفُ مَرْحَلةِ ما بَعد الهِجْرة	٦٢
قِراءَةٌ جَدِيدَةٌ للمُجْتَمَعِ المَدَنِيِّ على حَياةِ رَسُولِ الله ﷺ	٦٤
البَعْثَةُ والسَّاعةُ.. تَداخُلٌ مَكانيٌّ وزَمانيٌّ	٦٦
نَماذِجُ لمدارسِ الجُنُوحِ المُتنَوِّعَةِ مِن عَهْدِ صَدْرِ الرِّسَالَةِ	٧٠
مَدارسُ النِّفَاق	٧٧
مَدْرَسَةُ الفِتَنِ المُعَـمّاة	٩٤
مَدارس الكَذِبِ.. مُـدَّعُو النبوّة:	١٠٠
مُسَيْلِمَة الكَذّاب، طُلَيحة الأسَدي، الأسْود العَنْسِي	١٠٠
مَوقِعُ ابن صيّاد من فِقْه التَّحوُّلات	١١٠
موقع الغزوات من فقه التحولات	١١٩
نماذج من الغزوات الإسلامية	١٢٠
غزوة بدر الكبرى	١٢٠
مظهر التحولات في غزوة أحد	١٢٢
غزوة بني النضير	١٢٩
غزوة الخندق (الأحزاب)	١٣٢
نكث بني قريظة لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم	١٣٤

غزوة بني قريظة	١٣٧
أمر الحديبية وخروج النبي صلى الله عليه وسلم للعمرة	١٣٩
موقف الصحابة ودور أم سلمة الواعي	١٤٣
بعث النبي بالرسائل إلى الملوك واتخاذه الخاتم	١٤٦
غزوة خيبر وآثارها التاريخية	١٤٧
عمرة القضاء	١٥٢
غزوة مؤتة	١٥٤
غزوة فتح مكة رمضان سنة ثمان	١٥٧
غزوة حنين	١٦٣
غزوة تبوك	١٦٧
مَظَاهِرُ فِقه التَّحَولاتِ قبيل موت النبي ﷺ	١٧٢
مَوقِفُهُ ﷺ مـن قَضيةِ الاجْتِمَاعِ عَلى القَرارِ بَعدَه	١٧٥
موقفه ﷺ من الصَّلاة بالنّاس	١٧٧
موقفه ﷺ من اللغط والاختلاف عنده	١٧٨
مَواقف أخيرة قُبيل مَوتِهِ ووصَاياه عند موته التي رَفَع بها صَوته ﷺ	١٨٢
موتُ النبيَّ ﷺ تَحولٌ خَطيرٌ في فِقه التَّحوُّلات	١٨٣
مَظَاهِرُ تَحوُّلاتُ ما بَعْدَ عَصْرِ الرِّسَالة	١٨٤
اختلاف الصحابة حول موضع القبر الشريف	١٨٧
تَحولات ما بَعد مَوتِ النَبيَّ ﷺ وانقطاع الوَحْي	١٨٨
أهمية تثبيت مرحلة الخَلافة الراشدة	١٩٧
نُصوصٌ صريحةٌ فِي سَلامة المَرْحَلة الرَّاشدة	١٩٩
مُبايعةُ الخليفة الأول ؤ	٢٠٥
مواقف الصّديق بعد تولي الخلافة: إِنْفَاذُ جَيْشِ أُسَامَة	٢٠٩
مَوقفه من صَدقات رسول الله ﷺ مِن بَعده	٢١١
وما جَرَى حَولها مِن التَّحْريشَ والإثَارة	٢١١
مَوَاقِفُ أَهْلِ الرِّدَّةِ أُنْمُوذُجٌ خَطِيرٌ فِي التَّحَوُّلات	٢١٣
مَوْقِفُ أبـي بكر من قَرَارِ جمع القُرْآنِ	٢١٦
اِسْتِعْدادات الصّدّيق لِمَرْحَلَةِ التَّحَوُّلِ مِن بَعْدِهِ	٢١٨
مَظْهَرُ التَّحَوُّلاتِ وبِناءُ المَوَاقِفِ على عَهْدِ الخَليفَة الثَاني	٢٢٣
مقتل سيدنا عمر بن الخطاب مُؤامرةٌ مُشتركةٌ	٢٣١
مَظْهَرُ التَّحَوُّلاتِ والمَواقِف فِي عَهْدِ سَيِّدِنا عُثمان ؤ	٢٣٧
مَوْاقِفُ الصَّحَابةِ من قَتْلِ عُثْمَان	٢٤٧
مَظاهِرُ التَّحوُّلات وبناءُ المَواقفِ على عَهْدِ الإمامِ	٢٥٣

عليٍ بن أبي طالب كرم الله وجهه	٢٥٣
تَحَوُّلات عَصْر الإمام عَلي ؤ ومَواقِفه مِنْهَا	٢٧٠
خِلافَةُ الإمامِ الحَسَنِ وتَنَازُلِهِ عَنِ الحُكْمِ	٢٧٥
مَوْقِفُ الإمامِ الحُسين بِنْ عَليٍّ ؤ	٢٨١
مَوقِف بعض الصَّحَابة من خُروجِ الإمام الحُسين بن عليٍّ ؤ	٢٨٤
بروز مدرسة النمط الأوسط وأهمية ذلك في فقه التحولات	٢٨٨
تَحوُّلات عَصر بني أُميّة	٢٩٢
مَظَاهِرُ التَّحَولاتِ على عَهْدِ بني أُمَيَّةَ	٢٩٤
بَدْءُ المرحلةِ المروانيّةِ ونهايةُ المرحلةِ اليَزيدِيّة	٢٩٦
عهد الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز (الخليفة السادس)	٢٩٧
عَصْرُ بني العَبّاسِ	٣٠٢
عصر بني العباس	٣٠٤
الحُروب الصَّليبيَّة ودَورُ صَلاحِ الدِّين في المرحلة	٣٠٨
مَرْحَلةُ الدُّويلات وهَجْمةِ التَّتَار	٣١٤
إِعادةُ قرار الخِلافَة الإسلامية على يَدْ بَنِي عُثْمان	٣٢١
المرحلةُ الغُثَائِيَّةُ	٣٢٤
بدءُ انهيارِ دولة الخِلافة وبُروزُ الفتن: الأحْلاس، السَّراء، الدُّهَيماء، الصَّمَّاءُ العَمْيَاءُ	٣٢٤
بدءُ ضَعف الدَولة العُثْمانِية وظُهُور مَرْحَلة الغُثَائية	٣٢٦
عَهْدُ فِتْنَةِ الدُّهَيْمَاءِ ومَا رَافَقهَا مِنْ التَّحَوُّلاتِ الغُثَائِيَّةِ	٣٤٣
غُثَائية الحُكْم والسِياسَة	٣٥٨
الفِتْنَةُ الرَّابعة: العَمْيَاء البَكْمَاء الصَّمَاء	٣٨٢
المَواقِف الشَرعِية عِنْدَ ظُهُورِ الفِتن والتَّحوَّلات الغُثَائيَّة	٣٨٦
نماذج الأحاديث المعبرة عن المواقف	٣٨٨
مَوْقِعُ الشّام واليَمَنِ مِن فِقْهِ التُّحَوُّلات	٣٩٧
بَـينَ يَدَي الَدَّجَال	٤٠٥
العَلاقةُ بين حَشْرِ بَنِي إسرائيلَ في فِلَسْطِينَ وظهورِ الدَّجّالِ	٤٢٣
تَحوُّلاتُ عَهْدِ الإمام المُنْتَظر	٤٢٩
ظهورُ السُّفْيَانِيِّ الأَوَّلِ	٤٣٧
ظُهُور المَهْدِي ثم اختفاؤُه في الجبال	٤٤٠
ظُهُورُ الإمِام المَهْدِي	٤٤١
مُبَايعةُ الإمَامَ المَهْدِي	٤٤٢
صِفَاتُ الإمَامِ المُنْتَظر وسِيْرَتُهُ	٤٤٣
ظُهُور السُفْيَانِي الثاني	٤٤٨

الظُهُورُ الأخيرُ للدَّجّال	٤٥١
مَراحلُ التَحوَّلات بـيَأْجُوجَ ومَأجُوج	٤٦٤
عيسى عليه السلام ويَأجوج ومَأجوج	٤٧٢
تَحولات مَا بَعد عِيْسَى عليه السلام	٤٧٦
ظُهورُ الدّابّــةِ وطُلوعُ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِها	٤٨٠
مُكْثُ النَّاسِ بعد الدابّة وطُلوع الشَّمسِ من مَغْرِبها	٤٨٧
لماذا يجبُ أَنْ نَتَعَلَّمَ فِقْهَ التُّحَوُّلاَت؟	٤٩٢
بعضُ فقهاءِ عِلْم التَّحَوُّلات	٤٩٤
عَلاقَةُ آلِ بـيتِ النُّبُوَّةِ بفِقْهِ التَّحَوُّلات	٥٠١
فِقْه العَلاقة بالذاتِ النَبويَّة	٥٠٣
فِقْهُ العَلاقة بآلِ البـيت النبوي	٥٠٤
الخَاتِـمَةُ	٥٠٩